

محنة التأليف والترجمة والنشر

# أسباب الحرب العالمية

قبل فاجعة سبرايفو

علم

سيدني رادشوف في

SIDNEY BRADSHAW FAY

أسناد المرح الاورو احدث - ادم عما مارا

ما من ذ-نور

محمد إبراهيم الدمشقي

## الأسباب الأولى

الأسباب الخمسة للحرب

جمهور الطبع محفوظه

مجلس التأليف والترجمة والنشر

# السبب الأول للعالمية

قبل فاجعة سبرايفو

علم

سيدني رادشوف في

SIDNEY BRADSHAW FAY

أساتذ المرح الاورو احدث - ادم عما مارا

ما حتى ٥ - ١٩٥٠

محمد إبراهيم الراجحي

## السبب الأول

الأسباب الخمسة للحرب

جمهور الطبع محفوظه



## تصريح

من المسائل التي لا يعيرها السياسة شيئاً من اهتمامهم الجدى حين تكدر السلم وتخشى الحرب ، تبعة الحروب . لكنهم يعنون أكبر عناية بشكل هذه التبعة دون موضوعها ، ويسعون الى التماس العذر من دخول الحرب قبل الحرص على درء الخطر وإيثار السلام . فاذا ما وضعت الحرب أوزارها باتت تلك التبعة الشكلية هي الأساس وهي الدعامة التي يرتكز عليها إملاء الغالب على المغلوب . ولتكن دولة بعينها في عين الحقيقة والواقع ما شاءت لها الحقيقة وشاء الواقع أن تكون ، فلن ينجئها من ظلم التبعة الشكلية مجهود مضمّن ومسمى عنيد ، ولن تفتأ تتكسر جهوداتها واحداً واحداً على صخرة القوة حتى ينسف الصخرة حدث جديد . والأحداث التي تغير وجه العالم كثير ما هي ، وكثيرا ما تضيف الى عبر التاريخ صحائف تغفل عبر التاريخ . في ١٨ يونيه ١٩١٤ ذهبت نيفيان بريثان ضحية الاغتيال السياسى الدنى . وفي أوائل أغسطس ١٩١٤ خطا الى الموت ملايين من بنى الانسان في سيل هاتين النفسين ومن جراء مقتلهما لا يبحثون على دن تقع تبعة هذه المأساة . إنما البحث والتنقيب والاستقراء من عمل أناس أبعد ما يكونون عن العاطفة والهوى . والهوى والعاطفة من لازمات السياسة والجماهير فلا خير في بحث يزجيه أولئك وهؤلاء . بذات طلت تبعة الحرب العالمية الى اليوم لا يعترف بها فريق بعد إذ وجدها البحث على كاهل كل فريق . الشعوب بحكم العاطفة وبغضاء الحرب وذكريات الأمس القريب لا تطيق أن يحمل اسمها وصمة هذه المسئولية الهائلة أو يقر في سمعها وقع الحق ؛ والساسة بحكم الهوى

واستشعار الذنب يمارون في الحق ويجارون الرأي العام ويحاولون بين هذه الممارسة والمجاعة أن يثيروا في النفوس حفاظ الماضي القريب .  
والاشفاق من ذلك الماضي القريب وسيرته المرعبة النكراء هو الذي حدا بمثل الأستاذ سدنى برادشوفيني أن يتحرى أسباب مأساة الأمس ويرد الوقائع المشوهة الى أصلها البريء . وسدنى في مؤلف هذا الكتاب رجل يسلم عارفوه على لسان «ملحق التيمس الأدبي» الصادر في ٢٥ ابريل ١٩٢٩ بانه « أدق من تحرى أسباب الحرب العالمية وأصولها وأحسنهم اطلاعاً وأكثرهم اتزاناً . . . . . » وقد جاء كتابه الذي وعد به الناس زماناً وترقبوا صدوره بفارغ الصبر ، خطيراً حقاً . وسيأخذ مكانه في الحال كخير مرشد ودليل في تيه هذه القصة المستفيضة المعقدة التي عاجلها . فهو كتاب لم يصنفه متحزب وإنما وضعه بحاثة منصف . وهو بهذه المثابة يختلف عما كتب بكثرة عظيمة في كل من ألمانيا وأمريكا وكان الى حد كبير من قبيل الدعاية . . . . . انه ليس ثمة كتاب يمكن أن يعدله أو يوازيه في بحثه الدقيق أو في غزارة مادته . »

ولا غرو فسدنى فيني من أعلام المؤرخين الأمريكيين . ابتداء حياته العلمية في جامعتي هارفارد وكولومبيا . وهو اليوم أستاذ في أولاهما وفي كلية رادكليف للتاريخ الأوربي الحديث . هادى ، متواضع ، خبير بالحالة الأوربية ، نزيه في الحكم ، عضو في كثير من الجمعيات العلمية الأمريكية التي نذكر منها على سبيل المثال :

1 — American Historical Association.

2 — New York Council on Foreign Relations.

وفي عدة أخرى من الجمعيات العلمية الأجنبية مثل :

Société d'Histoire Moderne.

وهو من محرري :

New York Times, American Historical Review.

ومن المساهمين في تحرير كثير من الصحف والمجلات الكبرى مثل :

The current History, The nation, New Republic.

حاز شهرة عالمية كعالم ومؤرخ ناشر ، واشتغل بتبعية الحرب العالمية منذ

نهاية الحرب فأنشأ فيها فصولا متمعة ألقت كثيراً من الضوء الباهر على خبايا

هذه المسألة حتى كشفها بكتابه الذي أقدمه اليوم بين أيدي القراء

و « أسباب الحرب العالمية » يقع في الأصل الانجليزي في نحو مائة

وألف صفحة ، ضربت صفحا فيها عن التكرار ، وما لا يمس جوهر الموضوع

وما يرهق قراء العربية من إسهاب كثير . فخلص للقارئ ثلثاه في ترجمة لم

يدخلها تصرف أو تلخيص اللهم إلا باباً واحداً من أبواب الكتاب أوردت

خلاصته دون نصه وأشرت في صاب الترجمة إليه .

فلعل أكون قد أصبت بما نقلت الى قراء العربية من بحث في مسألة قد

تقلب المعاهدات المعقودة من جراء الحرب رأساً على عقب ، ولا تشفق على

« قدسيتها » المزعومة ذرة اشفاق ؟

محمود ابراهيم الرسوفى

القاهرة فى ٥ نوفمبر ١٩٣٢



# فهرس الكتاب

## الجزء الأول

صفحة	
١	تصدير . . . . .
١	المقدمة . . . . .

## الفصل الأول

٣	تمهيد . . . . .
٥	البحث في المسئولية بين ١٩١٤ - ١٩١٩ . . . . .
٨	بحث المسئولية بعد سنة ١٩١٩ . . . . .
٨	١ - وثائق جديدة عن الأسباب المباشرة . . . . .
١٣	الأسباب الخفية للحرب . . . . .
١٤	١ - نظام المحالفات السرية . . . . .
١٨	ب - الروح العسكرية . . . . .
٢٣	ج - القومية . . . . .
٢٤	د - الاستعمار الاقصادى . . . . .
٢٦	هـ - الصحافة . . . . .

## الفصل الثانى

٢٨	نظام المحالفات السرية بين ١٨٧١ - ١٨٩٠ : تحكم الامبراطوريات الشرقية . . . . .
٢٨	عواقب الحرب السبعينية . . . . .
٣١	حلف البراطرة الثلاثة ١٨٧٢ - ١٨٧٨ . . . . .
٣٦	أزمة الشرق الأدنى ١٨٧٥ - ١٨٧٨ . . . . .
٤٢	تحالف البراطرة الثلاثة ١٨٨١ - ١٨٨٧ . . . . .
٤٧	معاهدة التأمين المجدد بين روسيا وألمانيا ١٨٨٧ - ١٨٩٠ . . . . .
٤٩	المحالفة الثلاثية ١٨٨٢ . . . . .



٥٤	المحالفة مع رومانيا سنة ١٨٨٣ . . . . .
٥٥	انقطاع الصلة بالروسيا سنة ١٨٩٠ . . . . .
٦٠	العلاقات الألمانية الفرنسية بين ١٨٧١ - ١٨٩٠ . . . . .

### الفصل الثالث

٦٧	نظام المحالفات السرية بين ١٨٩٠، ١٩٠٧، تكوين الوفاق الودي الثلاثي
٦٧	التقرب بين فرنسا وروسيا ١٨٨٧ - ١٨٩١ . . . . .
٧٠	المحالفة الروسية الفرنسية ١٨٩٤ . . . . .
٧٩	انجلترا عند مفترق الطرق ١٨٩٠ - ١٨٩٨ . . . . .
٨٢	اقتراحات تشمبرلين للنحالف مع ألمانيا ١٨٩٨ - ١٩٠١ . . . . .
٨٩	اخلاص ايطاليا المريب نحو حليفيتها . . . . .
٩٦	الوفاق الودي الانجليزى الفرنسى ١٩٠٤ . . . . .
١٠٩	الآزمة المراكشية ١٩٠٥ . . . . .
١١١	ا - سياسة غليوم الثانى فى بجوركو . . . . .
١١٦	ب - سياسة ييلوف فى مراكش . . . . .
١١٩	ج - زيارة الامبراطور غليوم لطنجه . . . . .
١٢٢	د - سقوط ديلكاسيه وعواقبه . . . . .
١٢٥	المحادثات العسكرية والبحرية بين فرنسا وانجلترا بين ١٩٠٥ - ١٩١٢
١٤١	الوفاق الانجليزى الروسى سنة ١٩٠٧ . . . . .

### الفصل الرابع

١٤٧	نظام المحالفات السرية بن ١٩٠٧ - ١٩٠٤ . . . . .
١٤٧	تعارض المحالفة الثلاثية والوفاق الودي الثلاثى . . . . .
١٥٠	تمخوف ألمانيا من التطويق بعد ١٩٠٧ . . . . .
١٥٣	تنافس الانجليز و الألمان ١٩٠٤ - ١٩٠٩ . . . . .
١٦٢	علاقات ألمانيا بفرنسا بين ١٩٠٨، ١٩١١ . . . . .

١٦٥	علاقات ألمانيا بالروسيا بين ١٩٠٨، ١٩١١
١٨٣	أزمة أغدير في ١٩١١
١٩٦	بعثة هولدين في ١٩١٢
٢١٠	توثيق عرى الوفاق الودي الثلاثي ١٩١٢
٢٢٩	تجدد المحالفة الثلاثية وأخذها بأسباب الضعف
٢٣٢	تأثير الحروب البلقانية

### الفصل الخامس

٢٣٧	مشاكل البلقان من ١٩٠٧ الى ١٩١٤
٢٣٨	مبدأ الخصومة بين النمسا وصرية
٢٤٢	روسيا والبواغيز
٢٤٤	ارجاء المشكلة البلقانية بين ١٨٩٧، ١٩٠٧
٢٤٦	مساومة بوخلاو في سبتمبر ١٩٠٨
٢٥١	الآزمة البوسنوية في ١٩٠٨ - ١٩٠٩
٢٥٤	حل ألمانيا للآزمة
٢٦٠	عواقب الآزمة البوسنوية
٢٦٧	مساومة را كونيغي في اكتوبر ١٩٠٩
٢٧٠	مسعى ايزفولسكي لفتح الدردنيل في ١٩١١
٢٧٨	روسيا والعصبة اللتانية
٢٨١	الخطر البلقاني والدول في ١٩١٢
٢٨٢	حروب البلقان في ١٩١٢ - ١٩١٣
٢٨٩	تحذير ألمانيا للنمسا في يولييه ١٩١٣
٢٩٢	الديسائس حول قوله في ١٩١٣
٢٩٤	انذار النمسا لصرية في ١٨ اكتوبر ١٩١٣
٣٠٠	الغز الروماني
٣١٢	مسألة ليمان فون ساندرس
٣٢٦	خطط سازونوف للاستعداد
٣٤٠	خلاصة لأهم المشاكل البلقانية



## المقدمة

لما أشعلت الحرب العالمية النار فجأة في أوروبا، وأخذ الرأي العام الأمريكي، تحت تأثير الدعاية والتحامل الذي ملأ مشاعره من جراء الحرب، ينحى على ألمانيا وأمبراطورها أنهما أحدثاها، لم يشأ كاتب هذه السطور أن يضرب على هذه النعمة بل دله فهمه للتاريخ على أن الحرب العالمية كبقية الحروب التي نشبت في الماضي لا يمكن أن تلقى التبعة عنها أو الجانب الأكبر منها على أمة بمفردها أو شخص بمفرده. فان نظرة بسيطة في الوثائق التي احتوتها الكتب الرسمية (الأزرق والأصفر والبرتقالي) وهي التي نشرتها من مبدأ الأمر حكومات إنجلترا وفرنسا والروسيا، أقنعت كاتب هذه السطور بأن هذه النشرات القائمة على الوثائق لم تكن بحال من الأحوال كافية ولا بما يعتمد عليها المرء وهو مطمئن في إيراد حكم ثابت نهائي. وهذا ما حدا بمؤلف هذا الكتاب أن يلزم الصمت خلال الحرب، اللهم إلا ما كان يتناوله من البحث في هذا الموضوع في فصول الدراسة.

لكنه لما استخرجت الحكومتان الاشتراكيان الحديثتان في ألمانيا والنمسا من محفوظاتهما السرية التي تتصل بأزمة يولية ١٩١٤ السياسية مجموعة كاملة جداً من الوثائق ونشرتها في سنة ١٩١٩، بدا أن في طيها ما يعين أخيراً على الوصول إلى رأى تقريبي في الأسباب المباشرة للحرب. وقد أقدم كاتب هذه السطور على ابدائها فيما نشره سنة ١٩٢٠ - ١٩٢١ في «أمريكان هستوريكال ريفيو»، تحت عنوان «ضوء جديد على أسباب الحرب»، فلفت

بذلك الباحثين في هذه البلاد إلى أصولية إعادة النظر في الآراء التي كونت تحت تأثير المعركة عن التبعة المباشرة في إحداثها . وسرعان ما أدى نشر وثائق أخرى وخاصة من المصادر الروسية إلى نهوض طائفة من الكتاب يطالبون بتعديل المادة التي تعلن في معاهدة فرساي مسئولية ألمانيا وحلفائها وخدمهم، وخاصة بعد الذي تبين لهم من رفض الحكومتين الفرنسية والانجليزية نشر أى سجل كامل مقنع عن مسلكهما في يولية ١٩١٤

وكاتب هذه السطور لا يحدوه في الصفحات التالية أى باعث سياسى لتبرير معاهدة فرساي أو المطالبة بتعديلها ، لكنه يتوخى ما عرفه أستاذ عظيم بأنه المهمة الصحيحة للتؤرخ وهو أن يقص كيف وقعت الواقعة . . . وقد بلغت الآن كتلة الوثائق والتراجم مبلغاً يجعل من المحتمل شيئاً من اثنين : إما أن يحصر كاتب التفاته في أعمال رجل بمفرده أو دولة بمفردها ويستنبط من الوثائق فقرات تؤيد مذهبه فيصل بذلك في سهولة إلى الادلاء برأى يبدو مقنعاً لغير عليم بأن هذا الرجل أو ذلك أو هذه الدولة أو تلك سلكت من حيث بواعثها وأساليبها مسلك الملائكة أو الشياطين . وإما أن يحاول كاتب مخلص أن يتناول جميع وجوه المسألة في انصاف فيفسر الأعمال من وجهة نظر أصحابها أنفسهم لا من وجهات نظر أنصارهم أو خصومهم ويحاول الوصول إلى حكم نزيه . ولا حاجة بي إلى القول بأن الاحتمال الأخير هو ما حاولته في هذا الجزء . وللقارىء رأيه في مبلغ توفيقى .

أسباب الحرب العالمية



# أسباب الحرب العالمية

## الفصل الأول

### تمهيد

في تاريخ الكارثة التي نزلت بالمدينة القديمة عند ما تغلبت العسكرية الاسبارطية على ديمقراطية أثينا ميز المؤرخ اليوناني توسيديس بين الأسباب الخفية والاسباب المباشرة للحرب : بين تراكم المواد القابلة للالتهاب تدريجاً في خلال سنوات عديدة ، وبين الشرارة الاخيرة التي أشعلت النار . وهذا تمييز طيب ينطبق أيضاً على الحرب العالمية . وكثيراً ما أدى إغفال هذا الاعتبار إلى تخطيط الفكر في صدد تبعة الحرب ؛ إذ ليس من المحتمل أن تتفق تبعة الأسباب الخفية مع تبعة الأسباب المباشرة للحرب . وقد تلام كثيراً دولة بعينها لأنها أوجدت طوال سنين عديدة حالة عامة تهدد السلام، ولكنها مع ذلك قد لا يكون لها دخل يذكر في النشوب النهائي للحرب والعكس بالعكس . ويمكن القول أن مسألة أسباب الحرب مرت في خلال الاثني عشر عاماً الماضية بثلاثة أدوار كان كل دور منها يتقرر إلى حد ما بما يتيسر من مادة جديدة تساعد على الحكم في الموضوع . وقد اقتضت المناقشة في الدورين الأولين الى حد كبير على الاسباب المباشرة أو بعبارة أخرى على استعراض الحوادث المتلاحقة ابتداء من اغتيال الارشيدوق النمساوي في سيرا جيفو في يوم ٢٨ يونيه إلى نشوب الحرب بين ألمانيا وانجلترا في يوم ٤ أغسطس . أما في الدور الثالث فقد شرع الباحثون في تحرى الأسباب البعيدة تحرياً



أكثر توسعاً وتوخياً للانصاف . ويمكن أن يقال إن وجهة النظر في كل من هذه الأدوار قد تغيرت تغيراً محسوساً فقد كان الكتاب بادىء الرأي يسعون في خلال الحرب إلى إلقاء الذنب في إحداث هذه « الجريمة » التي لا نظير لها على بضعة أفراد في طليعتهم الامبراطور ورجال الجامعة الجرمانية والاقطاب العسكريون في النمسا وألمانيا

ثم لما نشرت في عام ١٩١٩ وثائق أخرى أوفى مما سبق نشره تبين فساد رأى الحلفاء بالقاء كافة التبعة على عاتق ألمانيا وحلفائها . وذهب فريق الكتاب الذين طالبوا بتعديل معاهدة فرساي من النقيض الى النقيض فألقوا التبعة على عاتق قادة للحلفاء هم المسيو اسفولسكى والمسيو بوانكاريه والمسيو سازونوف بل السير أدوارد غراى أيضاً

وأخيراً لما أدرك الناس تدريجاً ان الدول جميعاً تنهض بشيء من تبعة الحرب قل أو كثير ، وعظم اتباههم إلى الاسباب الخفية التي عجلت بالحرب ، قل ميل المتبعين للتاريخ والحقوقيين منهم إلى الأخذ بذلك الحل السهل الذى يلقي وزر الحرب على عاتق هذا الفرد أو ذاك فعادوا إلى التفسير الأصح وهو أن الحرب إنما نشأت عن نظام الفوضى الدولية التي كانت نتيجة المحالفات والتسليحات والسياسة السرية

لكن هذا النظام مع ذلك من عمل الأفراد ، فأفعالهم الشخصية أقامته وسببت انفجاره في سنة ١٩١٤ . وستكون مهمة المؤرخ في المستقبل بيان البواعث السياسية والاقتصادية والنفسية التي حملت هؤلاء الأفراد على أن يفعلوا ما فعلوه . كما انه سيدع الكلام عن وزر الحرب ما دام انه لم يكن هناك شخص مسئول يمكن ادائه بأنه دبر حرباً أوربية عامة ولكنه لن يفتأ يبحث في المسؤولية التي يجب أن ينهض بها كل سياسى عما قدم من أعمال ساعدت في النهاية على وقوع الكارثة . ولهذا أثر كاتب هذه السطور استعمال عبارة مسئولية الحرب ، على ذنب الحرب ، أما الكلمة الألمانية

Kriegsschuldfrage فتحتل المعنيين . ولنتعرض الآن بصفة اجمالية مختلف الأدوار التي مر بها البحث والتي قررتها إلى حد ما الادلة التي اتخذت أساساً لها .

## ١ - البحث في المسئولية فيما بين سنة ١٩١٤ - ١٩

كان البحث أثناء الحرب وفي خلال انعقاد مؤتمر فرساي في التبعة المباشرة عنها يستند فيما عدا استناده إلى التحامل القومي والبغضاء التي ولدتها الحرب وتشويه الحقائق عمداً في سبيل الدعاية ، إلى التصريحات العامة التي فاه بها بعض كبار الموظفين وإلى مجموعات الوثائق التي بادرت كل حكومة بنشرها بعد يوليه سنة ١٩١٤ .

وأول هذه الوثائق الكتاب الابيض الألماني الذي عرض على مجلس الريخستاج في ٣ أغسطس ووضع على قول المستشار الألماني « تحت ضغط الحوادث الداهمة » وكان الغرض من هذا الكتاب إقامة الدليل للشعب الألماني على أن بلاده تخوض غمار الحرب دفاعاً عن نفسها من عدوان روسيا . . . فكان أن ذهب الشعب الألماني إلى الميدان وهو يعتقد إعتقاداً صادقاً بأنه يحارب حقاً دفاعاً عن نفسه في حرب فرضتها عليه روسيا . بيد ان هذا الكتاب الابيض كان له خارج ألمانيا أسوأ وقع ممكن فقد لوحظ إنه لم يحتو رسالة واحدة مما تبودل بين برلين وينا على الرغم من اشتماله على ٢٧ برقية . وما كان ليخفي على أحد أن دولتي الوسط لا بد أن تكونا قد نشطتا في خلال أزمة يوليه إلى تبادل البرقيات فقد كانت ألمانيا تؤكد أنها حاولت الضغط على النمسا لتحملها على قبول المفاوضة إحتفاظاً بالسلام ، لكن الكتاب الابيض لم يكن يحتوي وثيقة واحدة تثبت هذا التأكيد . فكان طبعياً بعد هذا أن يظن الناس أن ألمانيا لم تجرؤ على نشر الحقيقة .

هذا مع ان الكتاب الايض الالمانى كان كما نعلم الآن يشتمل على جانب عظيم من الحقيقة وإن لم يشتمل على الحقيقة كلها .  
والذى يتباين مع الكتاب الأيض الالمانى الكتاب الأزرق الانجليزى الذى عرض على البرلمان فى ٦ أغسطس فانه اشتمل على ١٥٩ وثيقة رتب حسب تواريخها بالضبط وتركت تحدث عن نفسها بنفسها . وقد اشعرت هذه الوثائق بأن السير ادوارد غراى كان يسعى مخلصاً لصون السلام وانه إنما أخفق فى سعيه هذا من جراء المانيا ورفضها جميع مقترحات الصلح وبسبب النمسا وتسرعها مع صربيا . ومن ثم تعجل رهط من الكتاب خارج المانيا فى استنتاج أن ألمانيا والنمسا دبرتا الحرب وإنيهما وحدهما المسئولتان عنها . وقد عزز هذا الرأى ما نشرته الحكومات الاخرى من الوثائق فى غضون الاشهر التى تلت

وفى ٧ أغسطس نشرت روسيا كتابها البرتقالى وبه ٧٩ وثيقة فنوهت بما بذلته من المساعى دفاعاً عن السلم . وقد عمدت الى التزوير وإغفال الوثائق فى اخفاء الحقيقة فيما يتعلق بالتعبئة الروسية العامة وألقت تبعه الحرب على عاتق دولتى الوسط .

وفى شهر أكتوبر نشر الكتاب البالجىكى الرمادى فأتى فيه على تفاصيل انتهاك ألمانيا الصارخ لحرمة القانون الدولى بخرقها حياذ بلجيكا . ثم جاء الكتاب الأزرق الصربى فى ١٨ نوفمبر سنة ١٩١٤ متضمناً ٥٢ وثيقة تصف ما عانته تلك الدولة من اضطهاد النمسا دون الاشارة بحرف واحد الى تبعه الصرب عن جريمة سيرا جيفو تلك التى أميط عنها اللثام أخيراً

وبعد أن انفسح الوقت أمام الحكومة الفرنسية بضعة أشهر لتتسق مجموعة من الوثائق أصدرت هذه الحكومة كتابها الاصفر فى أول ديسمبر سنة ١٩١٤ وقد جاء هذا الكتاب مخالفاً للجموعات التى سبقته فى أنه احتوى مخنرات من مجموعة برقيات مزعومة يرجع تاريخها الى ما قبل مقتل

الارشيدوق النمسوى بعدة أشهر . وقد أوردت هذه البرقيات ما يدل على نزوع ألمانيا إلى العدوان واستعدادها العسكرى مما جعل القارىء يخرج منها بعد كل الذى سمعه من الغلو عن حكايات الفظائع الألمانية فى بلجيكا وفرنسا بأن الامبراطور غليوم كان يرى أن لامناص من الحرب مع فرنسا ، « ويعتقد بتفوق الجيش الألمانى الساحق وبفوزه الأكيد ، .

وقد بدا أن بقية الكتاب الأصفر الفرنسى تماثل الكتاب الأزرق الانجليزى فى أنه مجموعة كاملة صريحة مقنعة من الوثائق المرتبة حسب تواريخها . وقد حفلت هذه الوثائق بما يقوى الشبهة فى تواطؤ ألمانيا والنمسا ونياتهما الحربية ، وما يؤكد على النقيض من ذلك رغبة فرنسا فى السلم كما يشهد بها على سبيل المثال انسحاب الجنود الفرنسية عشرة كيلو مترات خلف الحدود . وظل الأثر من الكتاب الأصفر الفرنسى على هذه الحال سنوات عديدة حتى ظهر أنه لم يكن لا كاملا ولا صريحا . إذا استبعدت منه بالمرّة بعض البرقيات الهامة وحوار بعضها .

وفى ٣ فبراير سنة ١٩١٥ نشرت النمسا كتابها الأحمر ردأ على الكتاب الأزرق الصربى . وقد كان شأن الكتاب الأحمر كشأن الكتاب الأبيض الألمانى بمعنى أنه لم يعول عليه فى خارج هذين البلدين على وجه العموم واعتبر فى ذاته دليلا على ما تحمل الدولة التى أصدرته من التبعة ، وقد كان كلما طال أمد هذه المجزرة بين الأمم شهرا فشهرًا وازدادت فظاعة ومرارة تفاقمت بغضاء الحرب وتحامل الأمم واستفحلت الدعاية السامة حتى كان من نتائجها المخربة ان لم يحفل بتمحيص حتى مثل الوثائق الميسورة الآن أو يستطع تمحيصه الا نفر قليل ، فلقد كان كبار الموظفين من كافة الدول يلقون أثناء الحرب الخطب يبررون بها أعمالهم ويلقون التبعة على أعدائهم ، فنشأ عن ذلك أنه عند نهاية الحرب رفعت لجنة شكلت برئاسة المستر لانسنج للبحث فى المسئولية عن الحرب تقريرا إلى مؤتمر الصلح قالت فيه :

« ان الحرب نشبت بسبق اصرار دولتي الوسط وحليفتهما تركيا وبلغاريا وكانت نتيجة أفعال مقصودة ارتكبت لتجعل نشوبها أمراً لا مفر منه . وقد تعمدت ألمانيا بالاتفاق مع حليفتيها النمسا والمجر اجباط كل ما قدمته دول الحلفاء من مقترحات سلمية عديدة ، ولسوء الحظ لم يسمح لأحد من الألمان بالاشتراك في أعمال هذه اللجنة كما سلم المستر سكوت أحد أعضائها متأخرا وبعد ذلك بخمس سنوات .

بلى لقد سمح رسميا لوفد ألماني بتقديم كتاب ألماني أبيض عن المسؤولين عن الحرب صنفه الاستاذ هانس دلبريك المؤرخ الشهير والاستاذ مندلزون - بارتولدى والكونت مونجيلاس والدكتور مكس فييز فكان على قول المستر سكوت - وثيقة رسمية لا سبيل إلى اغفال أهميتها أو الاقلال من شأنها احتوت أدلة قيمة جديدة على أن الاتهام الذي ساقته اللجنة كان خطأ من الوجهة التاريخية ولا مبرر له من الوجهة الأدبية . لكن اللجنة مع هذا وبالرغم من هذا لم تأبه به وأرغمت ألمانيا على قبول املاء المنتصرين في المادة ٢٣١ من معاهدة فرساي وهي :

« تؤكد الدول المتحالفة والمشاركة - وتسلم ألمانيا - بأن ألمانيا وحلفاءها مسئولون عما وقع من الخسائر والاضرار التي أصابت الدول المتحالفة والدول المشاركة وعما نزل برعاياهم بسبب هذه الحرب التي أرغموا على دخولها من جراء اعتداء ألمانيا وحلفائها . »

## ٢ - بحث المسؤولية بعد سنة ١٩١٩

### ( ١ ) وثائق جديدة عن الاسباب المباشرة

دخلت المسألة الخاصة بالاسباب المباشرة لإعلان الحرب في دورها الثاني على أثر نشر وثائق كاوتسكي . وقد تبين من هذه الوثائق وبما نشر بعدها من وثائق ومذكرات أن ألمانيا لم تعد العدة لحرب أوربية ولا كانت

راغبة فيها . وأخذ الباحثون في مختلف البلدان يتفقون تدريجاً على أن ألمانيا بعد أن شجعت النمسا بغناء بادىء ذي بدء على القيام بعمل ضد الصرب ظناً منها ( وهو ظن أظهرت الحوادث خطأه فيما بعد ) إن في الاستطاعة حصر دائرة النزاع ، عادت تحاول كبح جماح النمسا لما تبين لها أن روسيا يحتمل أن تتدخل في هذا النزاع وجعلت تسعى جهد طاقتها في أن لا يتحول النزاع النمسي الصربي إلى حرب عالمية

وقد كانت وثائق كاوتسكى هذه التي نشرت في ديسمبر سنة ١٩١٩ أنراً من آثار الثورة الألمانية التي نشبت في ختام الحرب . فقد جعلت الجمهورية الألمانية الجديدة الزعيم الاشتراكي المحمك كارل كاوتسكى وكيلا لوزارة الخارجية وفوض إليه تصنيف جميع الوثائق المحفوظة في وزارة الخارجية الألمانية والتي يمكن أن تكشف عن أسباب الحرب العالمية ، فأكب هو ومساعدوه على نسخ كتلة من الاوراق استخرجوها من ثمانية عشر مجلداً تحتويها محفوظات المراسلات السياسية التي تبودلت في خلال أزمة يوليه سنة ١٩١٤ وتوفروا على ترتيبها وشرحها . فكان هذا المصنف الفائق الدقة العديم المثال من حيث الكمال والمحتوى من التفاصيل ما لم يرد لسوء الحظ في الوثائق التي نشرت في أوائل الحرب - نقول كان هذا المصنف سبباً لأن يحكم المرء لأول مرة - عن علم وعن إنصاف - على البواعث التي حدثت السياسة الذين كانوا يديرون دفة السياسة الألمانية في سنة ١٩١٤ ومبلغ شرفهم ومقدرتهم . فقد دل الباحثين على أن ألمانيا بذلت في خلال الأيام العصيبة التي سبقت إعلان الحرب جهوداً صادقة في سبيل دفعها لكنها ارتكبت اخطاء وغلطات في التقدير والحكم على الحوادث ساعدت على إشعال المواد الملتهبة التي تكدست طبقات بعضها فوق بعض على مر السنين . كما دلهم أيضاً على أن القول بأن ألمانيا دبرت الحرب العالمية متعمدة أسطورة محضنة .

أما في النمسا فان الدكتور رودارش جوس فقد قام بالنسبة لوزارة

خارجيتها بنفس الدور الذي قام به كاوتسكى لوزارة خارجية ألمانيا . فنشر في سنة ١٩١٩ الكتاب الأحمر النمسوى في ثلاثة مجلدات وأظهر فيه سياسة الطيش التي زجت النمسا فيها بألمانيا في حرب عالمية لم تكن النمسا نفسها ترومها ، وإنما كانت راضية بالمجازفة فيها تصميا منها على استئصال شأفة الخطر الذي كان يهددها من ناحية صربيا

وفي موسكو انتهز البلاشفة فرصة تبوئهم الحكم فنشروا في جريدتهم برافده في شتاء سنة ١٩١٧ — ١٩١٨ سلسلة معاهدات سرية ووثائق أخرى تبين ما كان يبيته الحكم القيصري السابق من الخطط بين سنتي ١٨٨١، ١٩١٧ لقضاء لبانات استعمارية وحزبية معينة . وقد أضافت حكومة السوفيت في سنة ١٩٢٢ الى ما تقدم مجموعة ضخمة لا تقدر من المعلومات عن تاريخ العلاقات الفرنسية الروسية بين سنتي ١٩١٠ ، ١٩١٤ . وقد تضمنت هذه المعلومات فيما تضمنت البرقيات التي تبودلت بين وزارة خارجية روسيا وسفارة روسيا في باريس من ٢٤ يولييه إلى ٢ أغسطس سنة ١٩١٤ . ولقد تناول البارون فون روسبرج مجموعة هذه البرقيات في سنة ١٩٢٢ ونشرها مع البرقيات التي تبودلت بين باريس وسان بطرسبورغ وتضمنها الكتاب الروسى البرتقالى المنشور في سنة ١٩١٤ مستعملا المداد الأحمر للأولى والأسود للثانية فأظهر في كتابه المسمى «تزويرات الكتاب البرتقالى الروسى» بالبرهان القاطع المزاعم الباطلة التي حاولت بها الحكومة الروسية في سنة ١٩١٤ إخفاء مسئوليتها عن الحرب . فانه لم تكتف هذه الحكومة بأن أغفلت كل الاغفال إيراد البرقيات التي تبودلت فعلا بين باريس وسان بطرسبورغ — وبعضها على جانب عظيم من الأهمية — بل أنها بترت في البرقيات التي نشرتها فقرات هامة وتعمدت في بعض الحالات إضافة عبارات مزورة . وقد كان من أثر هذه الافشاءات التي أذاعها الروس أن تزعزعت ثقة الباحثين بما نشرته دول الحلفاء الأخرى من وثائق وانتبهوا إلى نقصها وإلى أنها لا يعول عليها

بعد أن كان العالم خارج دول الوسط يتخذ منها الدليل المقنع على **أدلة** الحلفاء وإدانة ألمانيا

لقد حاول بعض أنصار الحلفاء أمثال الرئيس السابق بوانكاريه أن يشككوا الناس في صدق ما أذاعه الألمان والنمسيون والروسيون حديثاً ونشروه من محفوظاتهم وأن يلقوا في روعهم أن هذه الأذاعات لا يعول عليها . وكان ذلك منهم لأنها أدت بالباحثين إلى الاعتقاد بأن ألمانيا كانت أقل مسئولية بكثير مما صورت ، وأن روسيا وفرنسا تضطلعان من اللوم بأكثر مما وجه اليهما بكثير . لكن أحداً منهم لم يستطع أن يثبت بالدليل المقنع أن هذه الوثائق التي أوردنا وصفها ملفقة أو مزورة بحال من الأحوال فإنها على النقيض من ذلك متسقة متناسقة يعزز بعضها بعضاً ، يضاف إلى ذلك أنه من خير الأسباب الباعثة على الاعتقاد بصدق هذه الوثائق وكما لها ان مصنفها اجتهدوا كل فيما يخصه في تحميل حكوماتهم السابقة قسطها من وزر الحرب

من ثم لم يعد أي مؤرخ ذى شأن يقبل بفضل هذه الأدلة الجديدة ما أملاه الحلفاء المنتصرون في سنة ١٩١٩ من أن ألمانيا وحلفاءها هم وحدهم المسئولون . والمؤرخون ذوو الشأن جميعاً متفقون على أن المسئولية موزعة لكنهم يختلفون في نصيب كل من الدول العظمى منها . وهم لأسباب مختلفة ينزعون إلى إعفاء ألمانيا والنمسا من قسط كبير من تبعتهما وإلقاء جانب متزايد من اللوم على روسيا وصرىا وفرنسا بل وانجلترا . وباعثهم على ذلك أن انجلترا لم تفعل ما فعلته ألمانيا والنمسا وروسيا فلم تنشر وثائقها كاملة صريحة

على أن الحكومة البريطانية أدركت أخيراً أن إلزامها الصمت أكثر مما التزمت أمر غير مرغوب فيه ، فأجابت بعض كبار المؤرخين إلى طلبهم ونشرت بعد اثني عشر عاماً مجموعة من الوثائق السياسية التي تتناول أزمة



## يوليه سنة ١٩١٤ فكانت مجموعة جديرة بالاعجاب (١)

(١) لقد أفرد المؤلف باباً خاصاً للمذكرات رأينا أن نضرب صفحاً عنه لما رآه المؤلف نفسه من أن هذه المذكرات هي من قبيل الاعتذار مما وقع . وهي أعذار أراد بها السياسة تبرير أعمالهم أو القاء وزرها على غيرهم . على انا لا نرى بأساً من الاشارة الى تلك المذكرات بكلمة وجيزة تبين ما هي . « فنظرات في الحرب العالمية » لبيتمات هولفيج تستحق من الالتفات اكثر مما وجه اليها وان كان صاحبها قد كتبها والحرب قائمة وأعصابه وصحته في خلالها متأثرة . « وأسباب الحرب العالمية ونشوبها » لفون ياجو وزير خارجية المانيا تشرح موقف هذه الوزارة في تلك الآونة العصيبة . أما الكونت بورتاليس سفير المانيا في سان بطرسبورغ فخكايته عن الأيام التي قضاها في تلك العاصمة في كتابه « عند مفترق الطرق » جديرة بالنصديق . كذلك البارون فون شون سفير المانيا في باريس وقت نشوب الحرب كان في مذكراته رجلاً صريحاً حكيماً أثنى عليه بوانكاريه نفسه . وكل هؤلاء كانوا في مذكراتهم يدافعون عن موقف وزارة الخارجية الألمانية ويبررونه . يقابل ذلك ما كتبه الأميرال تربتس في مذكراته تقدماً قاسياً لبيتمان هولفيج وما أذاعه البرنس ليخنوفسكي في « بعثى اللندنية » فان هذا الأخير لم يكن عادلاً في أكثر انتقاداته الموجهة الى الحكومة الألمانية كما لم يكن دائماً عليماً بما هنالك . ومذكرات الأمبراطور السابق في دورن عديدة القيمة من الناحية التاريخية لما حوّن من الحبط وعدم الدقة . أما النمسيون فكانوا لأسباب معروفة أقل من الألمان مجهوداً في هذا السبيل . فقد ظل برشتولد طويلاً ملتزماً الصمت ومذكراته لم تكن قد نشرت الى وقت صدور هذا الكتاب . والكونت تسرينين وزير خارجية النمسا في أبان الحرب كان يعرب عن الرأي القائل بأن تشيرسكي سفير المانيا في فينا كان يستخدم نفوذه الشخصي لتشجيع النمسا على مسلكها ضد صربيا . أما الكونت تيزا الذي كان خليقاً أن يثبتنا بالحقيقة بلا خوف ولا وجل فقد اغتيل على عتبة بابه في نهاية الحرب قبل أن ينبس ببنت شفة . والى هؤلاء طائفة من السياسة كانت لبعضهم نزعات قومية اتهم من أجلها بالخيانة . على ان أهم ما يعنى المؤرخ من المذكرات النمسية ما كتبه كونراد رئيس هيئة أركان الحرب فقد ذكر بصراحة فائقة كل ما فعله بنفض النظر عن انه كان خير مثال للذهن العسكري أو أسوأه . كذلك خليق بالاعجاب ما قصه الكونت بوريان الذي صار في خلال الحرب وزيراً للحربية النمسية عن حالة اليأس الذي انتاب النمسا من جراء القوميات الهاجمة التي كانت مندججة فيها .

أما المذكرات التي كتبها الروسيون فكان أغلبها ممن اعتادوا تقلد السيف لا القلم . وما أتى به سازونوف في مذكراته لا يعول عليه بتاتا .

وفي مقدمة ما كتب الفرنسيون « أسباب الحرب العالمية » لبوانكاريه . وهذه في رأى المؤلف مرافعة أريية عن فرنسا ودفاع شخصي عن سياسة الرئيس السابق . وقد كانت أغلب منتقدي بوانكاريه وأشدّهم وطأة عليه مواطنيه أنفسهم .

وأهم هذه المذكرات جميعاً وأعظمها قيمة . ما كتبه الفيكونت غراي في « خمس وعشرين سنة »

## ٢ - الاسباب الخفية للحرب العالمية

إذا كان في الاستطاعة معالجة الأسباب المباشرة لإعلان الحرب في مجلد واحد فإن معالجة الأسباب الغير المباشرة يحتاج الى اكثر من هذا. وذلك لأن هذه الأسباب من التعقيد ورجوعها في الماضي إلى عهد بعيد، بحيث انه لا بد لمن يريد بحثها بحثاً وافياً أن يكتب تاريخ أوروبا السياسي بأكمله من سنة ١٨٧٠ بل من سنة ١٧٨٩. لا بل أن بعض الأسباب يرجع تاريخها إلى عهد لويس الرابع عشر بل عهد شارلمان. كذلك يتعين على الباحث أن يدرس المسائل الفنية العويصة الخاصة بالقوات العسكرية والبحرية لمختلف الدول وخططها الحربية وعلاقة السلطات العسكرية بالسلطات المدنية. وبالجملة عليه أن يرجع إلى كافة العوامل التي تجمعها لفظة «العسكرية» أو «البحرية» الغامضة باعتبارها من أسباب نشوب الحرب. وعليه أيضاً أن يدرس ما لا يقل عن هذا أهمية ونعنى به هذه القوة المعقدة التي بدأت في خلال الثورة الفرنسية تكون عاملاً قوياً ثم جعلت في غضون قرن وربع قرن تكتسب قوة في اطراد - تلك هي «القومية». وأهم من هذا في أذهان الكثيرين باعتباره من الأسباب الخفية للحرب تلك المشاكل السياسية والاقتصادية المعقدة التي نشأت من تحوير المجتمع في خلال مائة السنة الماضية بذلك النظام الصناعي الذي بدأ في انجلترا ثم جعل ينفذ بدرجة ما الى كافة الدول الكبرى. هذه المشاكل تتناول زيادة السكان والمواد الغذائية والأسواق الأجنبية والمواد الأولية والاستعمار وتوظيف رؤوس الأموال في الخارج

---

وقد تناول المؤلف سياسته بما فيه الكفاية في فصل آت .  
بهذه المذكرات التي أوجزنا نبأها للقارىء، بات المؤرخ يملك طائفة لا مثل لها من آراء  
الساسة الذين اشتركوا في سياسة ما قبل الحرب تعين على تفهم الحقيقة الى درجة ما اذ هي تكمل  
نوعاً ما نهر من الوثائق الرسمية وبهذه المثابة لم يكن بد من الامعاء اليها من العرب

وأخيراً نفوذ الصحافة فإنه عامل أهم بكثير مما يظن على وجه العموم في إحداث الحرب العالمية . فقد لبثت الصحافة عشرات السنين تغذى التيارات الخفية المتواصلة — وكان ضجيجها وتشويهاً للحقائق من الأمور التي جعلت من الصعب أو المستحيل فض المنازعات بالحسنى . والبحث في مبلغ سيطرة موظفي الحكومات على الصحف أو في مبلغ تقييد نفس الصحف لحرية هؤلاء موضوع يحتاج كثيراً إلى تحر تاريخي دقيق

كل هذه العوامل المعقدة المتصل بعضها ببعض والتي تؤلف منها الأسباب الخفية للحرب العالمية لا سبيل — كما هو ظاهر — إلى معالجتها معالجة وافية في مجلد واحد . ولذا فنحن نجعلها في خمسة أبواب هي : (١) نظام المحالفات السرية (٢) العسكرية (٣) القومية (٤) الاستعمار الاقتصادي (٥) الصحافة

## (١) نظام المحالفات السرية

إن أكبر سبب خفي قائم بذاته لأشعال نار الحرب العالمية كان نظام المحالفات السرية الذي تطور بعد الحرب السبعينية . وقد قسم أوروبا إلى فريقين من الدول ساورت الريبة المتزايدة كلا منهما من ناحية الآخر فأخذ يزيد على الدوام في جيشه وبحريته ومع أن هذا النظام كان يفيد من ناحية في الاحتفاظ بالسلام لأن كل دولة من هذا الفريق أو ذاك كانت تضبط عنان صديقاتها أو حليفاتها وتحملها على الاعتدال خشية أن يشتبكن جميعاً في حرب ، إلا أن وجوده جعل من المحتم — فيما لو وقعت الحرب — اشتباك كافة الدول الأوروبية الكبرى فيها . فإن دول كل فريق كانت تشعر بأنها ملزمة بأن يساعد بعضهن بعضاً حتى في الشؤون التي لا تكون هن مصالحة مباشرة فيها وإلا أدى الامتناع عن تقديم المساعدة إلى الفت في تضامن الفريق ذي الشأن .

ومن ثم كانت ألمانيا كثيراً ما تشعر بأنها ملزمة بتأييد النمسا والمجر في سياستها البلقانية وإلا فقدت حليفها الوحيدة التي تعتمد عليها. كذلك لم تكن لفرنسا مصلحة مباشرة في البلقان فيما خلا المصلحة المالية ولكنها برغم ذلك كانت تحس أنها ملزمة بتأييد روسيا وإلا تعرض كيان المحالفة الثنائية للخطر واختل التوازن الدولي وضاع أكبر ضمان لسلامة فرنسا من خطر الاعتداء الألماني. كذلك أخذ موظفو وزارة الخارجية البريطانية يزداد اقتناعهم بأن إنجلترا ينبغي أن توازر فرنسا وروسيا للاحتفاظ بتضامن الوفاق الودي الثلاثي في وجه المحالفة الثلاثية. فلما أن حدثت أزمة يولية سنة ١٩١٤ لم تكن المسألة قاصرة على النمسا والصرب والبلقان بل كانت مسألة تضامن فريق الدول التي انقسمت إليهما أوروبا، وهيهاتهما. ومن يقرأ الوثائق البريطانية الجديدة تبده الأهمية التي كانت تعلق على ضرورة الاحتفاظ بتضامن الوفاق الثلاثي فقد أبدى السير ايار كروي في بدء الازمة « أن من الجلي أن فرنسا وروسيا مصممتان على مقابلة التحدى بمثله. ومهما يكن رأينا في حقيقة التهم التي وجهتها النمسا إلى الصرب فان فرنسا وروسيا تريان أنها مجرد معاذير. وأن الأمر قد أصبح يتناول المسألة الأكبر خطراً وهي مسألة موقف الوفاق الثلاثي بازاء المحالفة الثلاثية وأظن أنه من الخرق السياسي إن لم أقل من الخطر أن تحاول إنجلترا المجادلة في هذا أو أن تسعى الى ايجاد الغموض حول هذه المسألة الصريحة بأية اعتراضات توجهها إلى سان بطرسبورج أو إلى باريس فلقد أضحت مصالحنا مرتبطة بمصالح فرنسا وروسيا في هذا النزاع الذي لا يدور حول امتلاك الصرب بل يقوم بين ألمانيا التي ترمى إلى بسط ديكتاتورية سياسية على القارة الأوروبية وبين الدول التي تريد أن تتمتع بحريتها الفردية ». وقد أشار إلى هذه الحالة بأصرح من هذا الهرتسيمرمان في حديث جرى له مع السفير الإنجليزي في برلين في أول أغسطس عندما بدا له في أسف وانفعال أن ألمانيا وفرنسا وربما إنجلترا

أيضا قد ترى نفسها متورطة في حرب لا ترغب واحدة منهن فيها قال « وكل هذا منشؤه نظام المحالفات السرية الذي هو لعنة العصر الحديث » .  
ومن شأن العواقب الوخيمة التي نجمت عن نظام المحالفات السرية ، والمعلومات الكثيرة التي ألفت عليه أخيراً شيئاً من الضوء أن تحملنا على اجمال تطور هذا النظام في الفصول الثلاثة التالية . فان كثيراً من الوثائق والمذكرات التي تتناول الأسباب المباشرة للحرب تشتمل أيضاً كما أسلفنا القول على معلومات تتصل بالعهد السابق . بيد أن أهم عمل ساعدنا على استيفاء معلوماتنا عن نظام المحالفات السرية هو تلك المجموعة العظيمة من الوثائق السياسية الألمانية التي تتناول السنين الواقعة بين ١٨٧١ و ١٩١٤ فهذه المجموعة تتألف من التعليمات السرية جداً التي كان بسمرك وخلفاؤه يزودون بها السفراء الألمان في الخارج ومن تقارير هؤلاء التي كانوا يعثون بها إلى وزارة الخارجية الألمانية والأوراق السرية التي كان الامبراطور الألماني يتبادلها مع موظفي وزارة خارجيته وهي تشتمل على ملاحظات ممتعة بخط يد بسمرك وأخرى بيد غليوم الثاني على هامش بعض الوثائق . فأما ملاحظات بسمرك فتكشف عن صميم أفكار هذا المستشار الحديدي في السياسة الخارجية . وأما تهميشات غليوم الثاني وهي أكثر من تلك عدداً وأحفل منها بالعاطفة فكانت ممتعة من حيث دلالتها على نفسية الامبراطور وعقليته إذ كانت في الغالب لا تدل إلا على الحالة النفسية التي يكون عليها إذ ذاك . بيد أن هذه التهميشات كانت دون تهميشات بسمرك البارعة من حيث تأثيرها المباشر على وزارة الخارجية الألمانية . ومن مجموعة هذه الوثائق ترى كيف أن تلك الوزارة لم تكن تطلع غليوم الثاني تماماً على كل الأمور ، وأنها كثيراً ما جعلت إرادتها فوق إرادته .

فهذه الوثائق المسماة بالسياسة العليا وافية الى درجة كبيرة في الحدود التي وضعها لها مصنفوها . وهي ترمى إلى أن يكون للناس منها أساس صورة

صديقة مفصلة لما كانت تجرى عليه السياسة الالمانية من الحرب السبعينية إلى الحرب العالمية . لكننا لا نزال بحاجة إلى نشرات وافية مثلها من محفوظات فرنسا والروسيا والبلدان الأخرى توازن الوثائق الالمانية وتضبطها . على أن الانجليز شرعوا من عهد قريب جداً ينشرون وثائقهم السياسية السرية في صورة مماثلة «للسياسة العليا» تدعو إلى الإعجاب لكنها دونها نطاقاً . وقد نشر منها مجلدان يتناولان السنين الواقعة بين سنة ١٨٩٨ وسنة ١٩٠٤ وستنشر ثمانية مجلدات أخرى تديع ما وقع من الشؤون السياسية إلى يولية سنة ١٩١٤ .

لقد أسلفنا الكلام عن الوثائق البلشفية التي تتناول تاريخ العلاقات بين فرنسا والروسيا من سنة ١٩١٠ إلى سنة ١٩١٤ فهذه الوثائق تحتوى كثيراً من المكاتبات التي دارت بين وزارة الخارجية الروسية والسفارة الروسية في باريس في خلال الاربع السنوات السابقة للحرب . ومنها يتبين كيف كان ايزفولسكى وبوانكاريه يحولان المحالفة الفرنسية الروسية من صبغتها الدفاعية الأصلية إلى اتحاد قابل لأن يصبح عدوانياً ، تأييداً لأطماع روسيا في البلقان . ويقابل هذه المكاتبات بين باريس وسان بطرسبورغ مكاتبات أخرى تلحق بها وتؤيدها وهي مكاتبات الكونت بنكندورف بين لندن وسان بطرسبورغ في السنوات الواقعة بين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٤ ومنها تتبين الجهود التي بذلتها كل من روسيا وفرنسا لتقوية أواصر الصداقة مع إنجلترا وتوثيق روابط الوفاق الثلاثي لجعله من الثبات والقوة بحيث يستطيع تحدى المحالفة الثلاثية إذا لزم الأمر .

ونشر الاستاذان بورجوا وباجيه من المحفوظات الفرنسية بضع وثائق في صورة تقرير لمجلس الشيوخ الفرنسى عن أسباب الحرب الكبرى والمسئولين عنها . بيد أن هذه الوثائق الفرنسية قليلة ضئيلة بالنسبة لما نشرته ألمانيا والنمسا والروسيا . وقد كان اختيارها لاثبات قضية من القضايا أكثر مما كان لتزويد المؤرخين بمادة للبحث . وأقوم منها ما نشرته فرنسا من

كتبها الصفراء التي تحتوى وثائق عن موضوعات بعينها كالمخالفة الفرنسية الروسية وشئون البلقان بين سنتي ١٩١٢ و ١٩١٤ وإن كانت هذه الوثائق بعيدة عن أن تكون وافية.

## (ب) الروح العسكرية

كانت الروح العسكرية سبباً آخر من الأسباب الخفية لنشوب الحرب يتصل اتصالاً وثيقاً بنظام المحالفات السرية. ومع أن عبارة الروح العسكرية تستعمل غالباً في شيء من الغموض إلا أنها تشتمل على الأقل معنيين بينين : الأول الاحتفاظ بالجيش الجرارة والأساطيل الهائلة مع ما يجره ذلك من الأخطار وما يتطلبه من الأعباء ومع ما ينشأ عنه من مساوئ الجاسوسية والارتباب وانتشار الخوف وبذر بذور الاحقاد. والمعنى الثاني وجود طبقة قوية من الضباط العسكريين والبحريين وعلى رأسهم هيئة أركان الحرب وهؤلاء ينجحون جميعاً وخاصة عند اشتداد الأزمات السياسية إلى التسلط على ولاية الأمور من غير العسكريين. وقد كان الفرنسيون هم البادئين في خلال الثورة الفرنسية وفي عهد نابليون بأدخال نظام الجيوش الجرارة التي تضم الجانب الأكبر من السكان الذكور القادرين على حمل السلاح. وجاء البروسيون فوسعوه وأوصلوه إلى مرتبة عالية في حرب التحرير<sup>(١)</sup>. وإذ نجح هذا النظام فيما أحرزه مولتكه وبسارك من الانتصارات في حروب سني ١٨٦٤ ١٨٦٦ ١٨٧٠ فقد أصبح موضع تقدير بقية الدول الأوروبية التي أخذت تقلده. ومنذ الحرب السبعينية أخذت التسليحات البرية والبحرية لدى كافة الدول العظمى تتضخم وتبهظ بسببها الأعباء المالية. وكان الزعم أن التسليح إنما هو للدفاع وفي مصلحة السلام وأنه يراد به أن يخلق الشعور بالطمأنينة. كان هذا هو الحججة التي كان يدلى بها أمام المجالس التشريعية

(١) محرر ألمانيا من نير نابليون وكانت هذه الحرب في سنة ١٨١٣ (المغرب)

للحصول منها على الاعتمادات اللازمة . لكن الواقع هو أن التسليح أدى إلى تعميق الارتباب والقلق والحقد بين الأمم فكانت كلما زادت دولة جيشها ومدت السكك الحديدية لأغراض حرية وأنشأت بوارج جديدة دفع الخوف جيرانها لاحتذاء مثالها . ومن هنا بدأ التنافس في التسليح يدور في حلقة مردولة . وقد حدث هذا على الأخص في سنة ١٩١٢ في خلال الحروب البلقانية وبعدها عند ما لاح أن الدول العظمى قد تتورط فيها . ثم زاد نظام المحالفات السرية الطين بلة ، لما أن حمل ألمانيا والنمسا تشككهما في ولاء إيطاليا لهما على الاعتقاد بضرورة زيادة تسليحاتهما تحقيقاً لأمنهما . وحضت فرنسا روسيا على زيادة جيشها وإنشاء السكك الحديدية لأغراض حرية ضد ألمانيا وبادرت إلى إقراضها نصف مليار فرنك بشرط انفاقه على هذه الغاية . وحضت روسيا فرنسا على أن تزيد مدة الخدمة العسكرية الإجبارية من عامين إلى ثلاثة أعوام قائلة بلسان وزير حريتها في سنة ١٩١٤ : « إن روسيا على قدم الاستعداد فلتكن فرنسا كذلك أيضاً ! » وهكذا ازدادت التسليحات لا لاطمئنان أمة بعينها على سلامتها فقط بل لتقوية التحالف الذي تنتسب إليه أيضاً .

كذلك كان انتشار الروح العسكرية داعياً لوجود رهط نافذ الكلمة من رجال العسكرية والبحرية ممن كان تفكيرهم النفساني بطبيعة الحال يشوبه احتمال نشوب الحرب في أقرب وقت بل الاعتقاد بأن هذا الأمر لا مفر منه . والحرب تفتح لأولئك المحاربين المحترفين باب الأمل في الترقى واحراز أرفع الألقاب . ويظلمهم مع ذلك من يتهمهم بالحض على الحرب لبواعث ذاتية ترمى إلى تقدمهم الشخصي . لكنه لا يمكن للإنسان أن يتجاهل الأثر الذي يخلفه في نفوسهم سنوح الفرصة الملائمة لأخراج ما وقفوا حياتهم على الاستعداد له وما ترتب عليه من النتائج إلى حيز الواقع . وإذا تركنا البواعث الشخصية جانباً فإن الضباط العسكريين في مختلف الأمم كانوا يشعرون شعوراً



ساميا بمعنى الشرف القومى وواجبهم الوطنى كما يفهمونه هم . وقد كان أسمى واجباتهم أن يكونوا على الدوام على قدم الاستعداد للدفاع عن كيان الدولة بقوة السلاح . ومن ثم كان هم هيئة أركان الحرب فى كافة البلدان وشغلها شاغل بالليل وبالنهـار أن تكون على استعداد لرد أى عدوان فى أقصر وقت ممكن . ولهذا الغاية كانت كل هيئة من هيئات أركان الحرب تعد أو تحور كل عام برنامجا للتعبئة العامة يتضمن أدق التفاصيل وأتم الخطط لكل الحالات الطارئة . ولما كانت نظرية الهجوم هى النظرية التى يأخذ بها على العموم ضباط العسكرية فقد كان معناها مهاجمة العدو قبل أن يتم تعبئته أى فى الوقت الذى تكون فيه بلاد العدو فى أشد التعرض للهجوم أثناء انتقالها من حالة السلام الى حالة الحرب . كما أن معناها أيضاً أن تدور الحرب ويقع ما تجره من الخراب الاقتصادى الخيف والتأثيرات النفسية والسياسية المثبطة للهمم فى بلاد العدو لا فى داخل حدود الدولة المهاجمة . لهذا كان زعماء العسكرية متى جد جد الأزمات السياسية سريعين الى الاعتقاد بأن الحرب واقعة لا محالة . ومن ثم كانوا يستخدمون كل نفوذهم مع السلطات المدنية الحاكمة لحملها على الموافقة على اصدار أوامر التعبئة العامة بأقرب فرصة حتى يتسنى الانتفاع بمزية الهجوم . بيد أن التعبئة العامة فى العرف العسكرى السائد تجعل وقوع الحرب أمراً لا مفر منه بالفعل فهى عملية لا سبيل إلى وقفها متى بدأت . وهذه من أعظم مساوىء العسكرية فانه فى الأزمات التى يتعذر فيها على رجال السياسة أن يحتفظوا بصفاء أذهانهم وحریتهم فى العمل ، ترى دائماً زعماء العسكرية يبذلون نفوذهم للتعجيل بأشهار الحرب أو يحاولون أن تكون كلمتهم هى العليا .

وشر آخر من شـرور الروح العسكرية هو أن خطط اركان الحرب فنية وأنها توضع طى الكتمان الشديد بحيث أنه لا يجهلها البرلمان والجمهور فحسب بل أن وزير الخارجية نفسه يجهلها أو على الأقل لا يكون ملماً بتفاصيلها وأهميتها .

فالسير ادوارد غراى يؤكد أنه لم يكن يعرف شيئاً فيما بين سنتى ١٩٠٦،  
١٩١١ عن الخطط التى دبرتها هيئة أركان الحرب الانجليزية والفرنسية  
لتعاون انجلترا وفرنسا عسكرياً فى شمالى فرنسا أو عن المحادثات البحرية بين  
ولاية الأمور الانجليز والروس فى ربيع سنة ١٩١٤. وهو يقول أيضاً « انى  
لم استعلم عنها فى وزارة البحرية فيما بعد . ولكن يغلب على ظنى أن النتيجة  
العملية لهذه المشاورات بين السلطتين البحريتين لم تكن عظيمة . ولست  
أعرف بالضبط بماذا كان ولاية الأمور العسكريون والبحريون يسمون هذه  
المباحثات ، فقد طالما أشير اليها بأنها اتفاقات . » كذلك فى روسيا فان من  
الجلى أن المسيو سazonوف لم يدرك فى بدء الأمر أن خطط العسكريين  
جعلت التعبئة الجزئية ضد النمسا ضرباً من الجنون إن لم يكن من المستحيلات  
وفى ألمانيا لم يدرك الهرفون بيتمان هولفج أبداً مدلولات الخطة التى وضعها  
مولتكه وشليفن لمهاجمة فرنسا عن طريق بلجيكا اذا اقترضنا أنه اطلع عليها  
قبل حلول الأزمة النهائية .

واذن فهذا من شرور العسكرية فأن هيئة أركان الحرب كانت تضع فى  
الخفاء الخطط التى يظن أنها تودى إلى احراز الفوز العسكرى بغض النظر عما  
يقع على كاهل السلطات المدنية من جراء ذلك من التبعات السياسية . فاذا ما  
أصبحت الحرب أمراً لا مفر منه ألغى المدنيون أنفسهم واقعين تحت ضغط  
شديد لحملهم على قبول التدابير التى يكون العسكريون قد دبروها فى الخفاء .  
والعقلية العسكرية واحدة تقريباً فى كافة البلدان ، لكن هنالك تفاوتاً  
فى مدى السيطرة التى تكون لولاية الأمور العسكريين والمدنيين فالجنرال جوفر  
فعل فى سنة ١٩١٢ ما فعله راسمو الخطط الألمانية من الحث على ضرورة  
إتتهاك حرمة الحياد البلجيكى . لكنه بينا قد سمح لمولتكه بأن يضع خطته  
الحرية كلها على قاعدة خرق معاهدة لم يدري بيتمان كيف يتجنبه إذا ما نشبت  
الحرب ، نرى أن المسيو بوانكاريه كان من القوة وسعة الحيلة بحيث لم يقر

الجنرال جوفر على رأيه . فقد أدرك ما يتركه هذا من سوء الأثر في الرأي العام البريطاني ، ولم يفته خطر ذلك إذا هو حمل الحكومة البريطانية على التمسك بحريتها المنصوص عليها وعدم التقدم إلى مزيد المساعدة الحربية . وشييه بنفوذ الضباط العسكريين والبحريين ما كان لأرباب مصانع الذخيرة وأصحاب الأعمال الكبرى على ولاية الأمور المدنيين من نفوذ لقد كان بعض العسكريين يؤمن بنظرية « الحرب المانعة » ، أى إعلان الحرب على الجار وهو لا يزال ضعيفاً لمنعه من أن يتقوى . ولذا زعموا كثيراً أن ألمانيا أرادت الحرب في سنة ١٩١٤ لتصنى حسابها مع الشعوب السلافية قبل أن تستكمل روسيا برنامجها الكبير الخاص بالتنظيم العسكرى في سنتي ١٩١٦ و ١٩١٧ . كذلك قيل أن المسيو بوانكاريه وزملاءه أرادوا الحرب في سنة ١٩١٤ قبل أن تتقوى ألمانيا بفضل إطراد عدد سكانها في الزيادة وبسبب يسارها وقوتها البحرية ، وقبل أن يتمكن الاشتراكيون الفرنسيون ، وقد ثاروا في وجه الاعتمادات العسكرية الفرنسية ، من رفض قانون خدمة الثلاث السنوات في الجيش وهو القانون الذي كان قد اتفق عليه أخيراً . ولنفس هذه الأسباب قيل أيضاً ان العسكريين الروسين كانوا يؤثرون الحرب العاجلة على الآجلة وحتى انجلترا قيل عنها إنها رحبت بتلك الفرصة السعيدة لسحق الأسطول الألماني قبل أن يزداد خطره على أسطولها . وقد يكون بعض رجال العسكرية أو البحرية في أغلب الدول أبدوا آراء من هذا القبيل . لكن مؤلف هذا الكتاب لا يعتقد أن نظرية العسكريين في الحرب « المانعة » كانت عاملاً حاسماً في إشعال نار الحرب العالمية . وإذا كان هناك بلد أثرت هذه النظرية في سياسته فذلك هو النمسا . فهنا كان الاحساس عاماً بأنه لا بد من محاربة صربيا إن عاجلاً وإن آجلاً . وإن العاجل خير من الآجل كما صرح البارون كونرارد مراراً . ولذا انتهز ولاية الأمور مقتل وريث العرش ليتذرعوا به في درء الخطر المداهم من صربيا الكبرى

كذلك لا صحة لما أكد من أن السلطات الألمانية رحبت بالحرب باعتبار كونها وسيلة لسحق الاشتراكية الناهضة ولا لما قيل شبيهاً بذلك من أن روسيا تهلت لها لأنها الطريقة المثلى لفض اعتصابات العمال والقضاء على الاضطرابات الثورية

وبالجملة فانه يصح القول بأن هذا المظهر من مظاهر العسكرية ونعني به تأثير السلطات العسكرية على السلطات المدنية كان من المسائل الخطيرة في الامبراطوريات الشرقية الثلاث : ألمانيا ، والنمسا ، والروسيا . وقد كان هذا المظهر دون ذلك خطورة في فرنسا ومنعدماً في الواقع في انجلترا حيث كان يتولى شؤون الجيش والبحرية وزراء مدنيون

### (ج) القومية

القومية كما حلل جوهرها أحد كبار المؤرخين الأمريكيين يجب أن تعتبر من أكبر الأسباب الخفية في إشعال نار الحرب فقد كانت في صورتها المزمنة البادية في الجامعة الألمانية والجامعة السلافية وسياسة الانتقام تذكى نار البغضاء بين ألمانيا وجارتها شرقاً وغرباً . وقد أثرت بطرق غريبة شاذة ساعدت مساعدة طيبة على وحدة ألمانيا وإيطاليا ولكنها كانت سبباً لتمزيق شمل الامبراطورية العثمانية كما هددت بتفكيك دولة هابسبورغ . ثم كانت بما تنطوي عليه من غل باعثاً على سلسلة من الحروب لبثت تستعر زهاء قرن في البلقان في سبيل حرية أمم ووحدها . وقد كانت عاملاً مهماً في تقرير الحالة في البلقان وسبباً مباشراً من أسباب الحرب العالمية . وهذا ما يجعلنا نقص شيئاً مما أحدثته القومية في هذا الركن من أوروبا في الفصل الخاص بالمشاكل البلقانية

## (د) الاستعمار الاقتصادي

يتضمن الاستعمار الاقتصادي طائفة من المنافسات الدولية نشأت جُلها عن الثورة الصناعية في إنجلترا وانتشارها فيما بعد في بلاد العالم الكبرى . فقد أدت هذه الثورة إلى إنتاج كميات من البضائع وهذا بدوره أدى إلى النضال في سبيل الحصول على أسواق وموارد جديدة لاستيراد الخامات وكان من نتيجتها زيادة السكان زيادة عظيمة فسعى بعضهم للهجرة إلى جهات العالم التي لم تكن قد احتلت بعد فازداد بهذا التنافس على المستعمرات بين الدول العظمى ، زد على ذلك أنها ساعدت على تكديس رؤوس الأموال فسعى أربابها لتثميرها في الخارج مما أدى إلى الاستغلال الاقتصادي والتنافس السياسي . وقد كانت نتيجة هذه العوامل وغيرها أن الدول العظمى شرعت تقسم أفريقية وتحصل على أراض أو تفرد بالنفوذ في بعض المناطق في الصين وتمد السكك الحديدية في تركيا وغيرها من البلاد . واشتد النضال في سبيل الحصول على الأسواق والمواد الأولية والمستعمرات في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من جراء نزول ألمانيا وإيطاليا إلى حلبة المنافسة فقد كاتتا قبل ذلك ضعيفتين منقسمتين من الوجهة السياسية ، أما الآن وقد تمت لهما الوحدة الوطنية فقد رغبتا في التقدم لمشاركة بقية الدول الأخرى في اقتسام العالم وليس من الهين القول بأن أية دولة من الدول العظمى أكثر من غيرها مسؤولة عن المنافسات والانقسامات الدولية التي نشأت من هذا الاستعمار الاقتصادي . فانه لم تحل سنة ١٩١٤ حتى كانت لكل دولة من الدول الأوربية العظمى حصة في أفريقية أما في الصين فكانت إيطاليا هي الوحيدة التي لم تحرز شيئاً أسوة بالدول الأخرى . ومن حيث مد السكك الحديدية—وقد كان من أهم أنواع الاستعمار الاقتصادي لأنه تضمن مصالح سياسية فضلا عن المصالح الاقتصادية—فان

انجلترا شرعت تمد السكك الحديدية بين القاهرة ومدينة النكاب، والروسيا سكة سيبيريا الحديدية، وألمانيا ما يسمى بسكة حديد بغداد. وقد اصطدم الخط الأول بمطامع ألمانيا وبلجيكا وفرنسا. وكان إنشاء الخط الثاني بعض السبب في نشوب الحرب اليابانية الروسية. بينما أدى الخط الثالث إلى ريب ومنازعات لا حد لها بين ألمانيا ودول الوفاق الثلاثي. وهناك نوع آخر من أنواع الاستعمار الاقتصادي وهو الحماية الجمركية التي لازمت النظام الصناعي الحديث وقد كانت عامة في كافة الدول ما عدا انجلترا.

فالحرب « الجمركية » والمقابلة بالمثل كاتتا من البواعث على إثارة الخواطر بين الأمم وخاصة بين عامة الناس وعلى صفحات الجرائد. وقد كان الخطر دائماً ماثلاً للعيان من إمكان إستفادة كبار التجار وأعيان الصناعة من التأييد الحكومي الرسمي للحصول على منافع إقتصادية وهو ما كان ينزع بالحكومات إلى التشاحن

وبالجملة فإن الاستعمار الاقتصادي مع ذلك قد بولغ فيه باعتباره من الاسباب الخفية للحرب، فلقد طالما قيل — على سبيل المثال — أن تطور ألمانيا الاقتصادية وغيره انجلترا منه جعل وقوع الحرب بين الدولتين أمراً لا مفر منه إن عاجلاً وإن آجلاً. وهذا رأى خاطيء منشؤه أن التنافس الاقتصادي يصادف في أذهان الجمهور كثيراً من الغلو لأنه من الموضوعات التي يسهل على الجماهير تناولها والتي تبحث وتفهم على وجه العموم أكثر مما تبحث المسائل الأخرى كالمعاهدات السرية والروح العسكرية والنصرة القومية. وكثيراً ما يحدث أن يملك كبار التجار أو الصناعيين صحفاً أو يسيطرون على صحف لها مصلحة ذاتية في المغالاة في المسائل الاقتصادية. وبحسب المرء أن يقرأ المكاتبات السياسية التي دارت فيما قبل الحرب لتبدهه الأهمية الضئيلة التي كانت تعلق على هذه المنافسات الاقتصادية، في حين كانت هذه المنافسات شغل التاجر العادي ومحرفي الصحف. فمسائل التنافس

الاقتصادى لم يكن لها من الشأن فى إثارة المكاتبات السياسية ورفع درجة الحرارة فى وزارات الخارجية ما كان لمسائل الهيبة والحدود والجيش والبحرية والتوازن الدولى وتعديل نظام المحالفات .

### ( هـ ) الصحافة

من بين الأسباب الخفية للحرب تسميم الرأى العام بواسطة الصحافة فى كافة البلاد الكبرى . وقد بدأ هذا الموضوع يلقى العناية التى يستحقها . فقد كانت الصحافة فى كثير من الأحيان تعنى بإثارة النعرة الوطنية جاعلة نصب عينها قلب الحقائق فى البلاد الاجنبية ، باذلة كل جهد فى خنق العوامل التى تعمل للسلام . وفى الرسائل السياسية التى تبودلت فى خلال الأربعين السنة السابقة لإعلان الحرب توجد أدلة لا حصر لها على رغبة الحكومات المختلفة فى تحسين العلاقات والوصول إلى اتفاقات ودية بين بعضها وبعض . لكن رغبتها ذهبت أدراج الرياح من جراء الحملات التى كانت تقوم بها الصحافة فى بلادها . ولطالما سلم السفراء والوزراء بسخف الموقف الذى وقفه بعض الصحف الرئيسية فى بلادهم . بل انهم ذهبوا إلى الاعتذار مما تنشر من السخافات ووعدوا ببذل جهودهم لكبح تلك الصحافة على أن تقوم الحكومات الأخرى بمثل ذلك المجهود نحو صحافتها . وقد كانت جهودهم هذه صادقة فى كثير من الأحيان . والأدلة عليها كثيرة فى تاريخ العلاقات بين إنجلترا وألمانيا فى خلال ربع القرن الذى سبق الحرب . وقد حاول مع ذلك بعض الوزراء تحقيق فائدة أو تسوية خطة سلكوها بقولهم إنهم لم يكونوا أحراراً فى أعمالهم بسبب الصحافة والرأى العام فى بلادهم وأنهم لو كانوا تساهلوا فى الموضوع الذى يدور حوله النزاع لكانت الصحف أثارت عاطفة تقتلعهم من كراسيهم . ومثل هذه الدعاوى صحيحة أحياناً لكنها فى الغالب لا تقوم على أساس وخاصة فى بلدان أوروبا الوسطى والشرقية

حيث تستطيع الحكومة على وجه العموم أن تسيطر على الصحف أكثر مما تسيطر حكومة إنجلترا على صحف بلادها . وعلى كل فانه لا مرأى في أنه كثيراً ما تناولت صحف بلدين نقطة يدور حولها النزاع فغلت فيها وحملت من أجلها وردت على حملات غيرها حتى تتمخض عن هذا كله حرب صحفية منظمة تسمم الرأى العام كل التسميم وتتيح بذلك ارضا خصبة تنبت فيها بذور حرب حقيقية على أهون سبيل . ومن خير الأمثلة على هذا ذلك التطاحن بين الصحف النموية والصحف الصربية في خلال الأسابيع التي تلت اغتيال الارشيدوق فردينان . فبدلاً من أن تحاول كل من الحكومتين الاعتذار عما كتبه صحف بلدها أو تعمل على كبح جماحها أرخت لها العنان قصدا وتركتها تفتن في إثارة الرأى العام وتحريضه على الحرب . ومن الغلو في القول أن نزعم أن الحرب ما كانت لتقع لولا تطاحن الصحف المذكورة . ولكن مما لا ريب فيه أن عنت الصحافة الصربية كان من العوامل الفعالة في تحويل الكونت تيزا عن رأيه وقبوله فكرة الحرب مع الصرب مع أنه كان من أشد المعارضين فيها بادية . ولولا موافقته ما استطاع الكونت برشتولد أو رجال العسكرية إعلان الحرب على الصرب . لقد طالما استشهد الناس بكلمة لبسمر ك تنطبق على الجيل الذى سبق الحرب العالمية مباشرة أكثر مما تنطبق على جيله هو إذ قال « إن كل بلد ليسألن أحيانا عن النوافذ التي تحطمها صحافته . ولا بد من يوم يناقش فيه الحساب يقدمه اليه البلد الآخر في صورة شعور عدائى » .



## الفصل الثاني

نظام المحالفات السرية بين سنتي ١٨٧١ - ١٨٩٠

محكم الامبراطوريات الشرقية

عواقب الحرب السبعينية

كانت الحرب السبعينية سبباً لقلب حالة مستقرة ألفتها أوروبا أكثر من مائتي عام . فقد لبثت ألمانيا مهيضة الجناح بعد حرب الثلاثين السنة في القرن السابع عشر فكانت من الوجهة الاقتصادية منهوكة القوى بعد أن وطئت أرضها أوروبا بأسرها، ومن الوجهة السياسية ضعيفة من جراء انقسامها إلى عدة ولايات غير متناسقة تختلف في الحجم والخلق، ومن تزايد التنافس على الزعامة بين بيت هابسبورج الآخذ في الانحلال وبيت هوهنزلرن الآخذ في أسباب القوة . ولذا كانت خاضعة على التوالي لسياسة ريشليو ومازاران وهي السياسة التي كانت ترمي إلى إبقائها في هذا الضعف والانقسام . بل كانت أحياناً هدفاً لغزو الجيوش الفرنسية وتقسيمها إياها كما حدث في عهد لويس الرابع عشر ونابليون . نعم إن بروسيا والنمسا في بداية القرن التاسع عشر وفي وقت كانتا مهددتين فيه بالخطر والأذلال تناستا مؤقتاً تنافسهما وتضامتا سوياً بتأييد روسيا وانجلترا في حرب التحرر لطرد نابليون وخلعه . لكن موقعة ووتارلو لم تضع حداً لضعف ألمانيا في الداخل . فان إتحاد سنة ١٨١٥ المفكك واستمرار التحاسد بين النمسا وبروسيا قضى بأن تبقى ألمانيا عاجزة عديمة الشأن كقوة دولية . وأخيراً اقتنع بسمارك في برلمان فرانكفورت في سنة ١٨٥٠ بأن لا أمل في علاج ضعف ألمانيا إلا بحرب أخوية تطرد بها النمسا قوة واقداراً من المجموعة الألمانية السياسية كما استطاع في باريس وفي

بياريتزان يسبر مبلغ ضعف نابليون الثالث وطموحه مما يمكن أن يحول لخدمة مصالح ألمانيا . وبدا ضم إقليم شلزفيج هولشتين ثم طرد النمسا بالنصر الذي أحرزته بروسيا في معركة سادوا وأنشأ ما يسمى بالاتحاد الألماني الشمالي تحت إشراف بروسيا وأخيراً في سنة ١٨٧٠ - ١٨٧١ تمكن بانتصاره في سيدان وفرساي من تحويل ألمانيا إلى امبراطورية متحدة قوية . ومن ثم انقلب الموقف بين ألمانيا وفرنسا فلم تعد ألمانيا الضعيفة بل فرنسا التي صارت مهددة بخطر الغزو من وراء نهر الرين .

ولقد قوبل نجاح بسمارك في توحيد ألمانيا بالارتياح واعتبر وقتئذ إنه عمل جليل من الأعمال الدالة على روح القومية ولكنه جاء مقترنا بضم الألزاس واللورين وهو ما ظل الفرنسيون يعتبرونه جريمة مزقت شمل أمة تمزيقاً وحشياً وانتزعت الصغار من أمهم . على أن التاريخ قد أظهر أن هذا الضم كان أكثر من جريمة . كان غلطة ... ولقد قيل في الدفاع عن بسمارك إنه لم يفعل أكثر من تحرير أراض سبق أن انتزعتها لويس الرابع عشر من ألمانيا عندما كانت ضعيفة منقسمة على نفسها ، والغالب دائماً ينتزع من المغلوب ما يسعه إنتزاعه من الأراضى ما لاء ذلك اغراضه . ولقد أصر مولتكه وولاية الأمور العسكريون في بروسيا على أن تكون الولايات الواقعة بين جبال الفوج ونهر الرين بيد ألمانيا تفادياً من إغارة فرنسا المتعطشة للانتقام على الولايات الألمانية الجنوبية التي لم تندمج في الامبراطورية الألمانية الحديثة إندماجاً مأموناً ولم تنضم إليها بدافع الرغبة القوية فلم يسع بسمارك كما قيل أن يعود إلى برلين صفر اليدين ليتعرض للاتهام بأنه أظهر نحو خلفاء لويس الرابع عشر ونابليون سخاء ينطوى على الضعف وليقابل مجلس الريخستاج ويواجه إصرار الشعب على الاستيلاء على بعض الأراضى الفرنسية . يضاف إلى ما تقدم أن الأهالي في الأقليمين المضمومين كانوا يتكلمون الألمانية وهذا قول لا يخلو من وجهة . لكن هنالك قولاً آخر أكثر إنطواءً على

الصواب: فالفرق كبير بين ضم فرنسا للأقليمين المذكورين في القرن السابع عشر وضم بسمارك إياهما في سنة ١٨٧١ فبين هذين التاريخين يوجد عهد الثورة الفرنسية وما إليها من العوامل التي أوجبتها. ولويس الرابع عشر عندما استولى على الأقاليم الالزاسية لم يمزق ألمانيا لأنه لم يكن يوجد وقتئذ جسم سياسي ألماني متحد بل كانت هناك مجموعة مختلطة من الولايات الألمانية المتنافسة. والامبراطورية الرومانية المقدسة لم تكن مقدسة ولا رومانية بل ولا امبراطورية، بل كانت عبارة عن جسم غير متجانس مجرد من الاحساس. أما الثورة الفرنسية فقد ألغت الحدود الإقليمية في فرنسا وخلفت مكانها أمة فرنسا المتحدة الشاعرة بوجودها. وفرنسا بما فيها الأقليمين المذكوران كانت جسماً واحداً يشعر شعوراً قوياً بالوحدة وبالقوموية فاذا أصيب عضو من أعضاء الجسم بسوء تألم له الجسم كله. فما فعله بسمارك هو أنه مثل بجسم حي ولذا لم يكن يمكن أن يلتئم الجرح بل ظل على العكس مفتوحاً ينذر سلام أوروبا بالشر زهاء أربعين سنة. ثم إن ضم الالزاس واللورين لم تكن تقتضيه سلامة ألمانيا من الناحية العسكرية. فلقد كان نهر الرين لا يقل في صلاحيته عن جبال الفوج كخط للحدود. ولو أتيح لبسمارك أن ينظر إلى المستقبل فيرى أن كبرياء فرنسا وألمها لضياح الالزاس واللورين سيؤديان إلى إحباط كل سعى لتوطيد العلاقات الألمانية الفرنسية على أساس مرض ثابت، ولو تكهن بأن ما يترتب من العواقب المباشرة وغير المباشرة على ضياح هذين الأقليمين سيكون من الأسباب الرئيسية الخفية للحرب العالمية فربما كان فعل غير الذي فعل في سنة ١٨٧١ ولكنه على قدر ما وهبه الله من بعد النظر السياسي الخارق للعادة لا يمكن أن يكون قد خطر له أن الفرنسيين لن يستسلموا لما فقدوا وأن تعطشهم إلى الانتقام، وإن لم تجربهم ألسنتهم لأنه ثابت في جنانهم، سوف ينمو على مر الأيام ويزداد حدة فيما يلي من السنين. وفي الواقع لقد كانت سياسة بسمارك فيما بين سنتي ١٨٧٥

و ١٨٨٥ سياسة من يؤمل ود فرنسا و صداقتها الصريحة مع النزول على حكم الواقع . على أنه مهما كانت آماله بالنسبة للمستقبل فإنه لم يتخدد فيما يتعلق بالحاضر . فقد أدرك أن سخط الفرنسيين سيزداد في خلال السنين التي تلي الحرب مباشرة ولذا رأى أن عليه أن يحمي الامبراطورية الألمانية الحديثة وهي من صنع يدهو يجعلها قوية بنفسها ، قوية بابقاء فرنسا ضعيفة معزولة ، قوية بإنشاء علاقات وثيقة مع الدولتين العظيمتين الأخيرين اللتين تتاخمان ألمانيا في الشرق وفي الجنوب وهما روسيا والنمسا

### حلف البراطرة الثلاثة ١٨٧٢ - ١٨٧٨

كانت بين بروسيا والروسيا أو اصر صداقة قديمة يرجع تاريخها إلى الأيام التي اشتركت فيها جيوشهما لاسقاط نابليون . وقد توثقت عرى هذه الصداقة ونمت في خلال حرب القرم والفتنة البولونية سنة ١٨٦٢ وفي أثناء الحرب السبعينية أدت روسيا لبسارك خدمة عظيمة بالتزامها الحياد المشرب بروح العطف مع الميل في الوقت نفسه إلى كبح النمسا فيما لو حدثتها نفسها بالانحياز إلى جانب فرنسا لكي تغسل عار موقعة سادوا . وقد كانت الأشهر الطويلة التي حاصرت فيها الجيوش البروسية باريس فترة عصيبة عسيرة على بسارك اذ كانت روسيا تستطيع أن توقعه في إرتباك شديد لو شاءت ومن ثم بادر بسارك بالاعتراف بجميلها هذا في سنة ١٨٧٠ - ١٨٧١ بموافقته على أن يلغى قيصر روسيا الشروط المذلة التي فرضت على بلاده بعد حرب القرم خاصة بالبحر الأسود . هذا الى رابطة أخرى بين البلدين أمتن من كل هذه الروابط : رابطة الصداقة الشخصية بين الامبراطور غليوم الشيخ وابن أخته القيصر اسكندر الثاني وهي رابطة جددت بزيارة القيصر لبرلين في الشهر التالي لعقد الصلح بين ألمانيا وفرنسا . أما النمسا فقد كان بسارك متلهفاً على إنشاء علاقات ثابتة ودية معها .

فانه بعد أن حقق غرضه بتوحيد ألمانيا بزعامه بروسيا أصبح يعتقد أن العلاقات الطبيعية ينبغي أن تكون ودية بين هاتين الدولتين اللتين تضمان كثيراً من العناصر الألمانية واللتين كاتتا منذ قرون عديدة جزءاً من امبراطورية واحدة هي الامبراطورية الرومانية المقدسة . ولقد تعمد بسمارك بعد موقعة سادوا أن لا يمضى فى إذلال النمسا بضم أراض نمسوية أو بالسماح للجيش الألماني الظافر بدخول العاصمة النمساوية . كما إنه أحكم صلته بالعناصر المجرية القوية فى النمسا وهى العناصر التى استغلت الانتصارات الروسية للحصول من الامبراطور فرانسوا جوزيف فى سنة ١٨٦٧ على تسوية فى مصالحهم تتعلق بالدستور . وقد كانت النمسا من ناحيتها مستعدة للرضا بالامر الواقع المترتب على حرب سنة ١٨٦٦ وتطبيق كل أمل فى تغيير التدابير التى أوجدها بسمارك . ولهذا استطاع فى صيف سنة ١٨٧١ وفى الأراضى النمسوية أن يجمع بين الامبراطور غليوم والامبراطور فرانسوا جوزيف فى مقابلات شخصية سادها الصفاء والود . وفى نوفمبر من هذا العام ازدادت العلاقات الطيبة بين الدولتين توثقاً بالتغيير الذى حدث فى وزارة الخارجية فى فينا فقد حل محل الكونت بويسست السكسونى الحاقد على بسمارك الميال إلى مشايعة فرنسا — الكونت يوليوس اندراسى المجرى صديق بسمارك القديم . وفى ابريل سنة ١٨٧٢ ارتأى الكونت اندراسى أن يرد الامبراطور فرانسوا جوزيف الزيارة للامبراطور غليوم فى برلين فما كاد اسكندر الثانى قيصر روسيا يسمع بنياً هذه الزيارة حتى سأل السفير الألماني فى روسيا « ألم يكتبوا اليك يسألونك عما إذا كانوا يرغبون فى وجودى أثناء وجود امبراطور النمسا »

ذلك إن اسكندر لم يشأ أن يترك فى عزلة بينما أخواه الامبراطوران يجتمعان ، فأبدى إن اجتماعاً كهذا يشمل براطرة الشرق الثلاثة ليكون أقوى ضمان لسلام أوروبا وصدمة لرغبة فرنسا فى الانتقام تلك الرغبة التى كانت

أدوم خطر يهدد السلام . على أن هذا الرأي أوقع بسمارك في شيء من الحيرة لأنه لم يكن يدري تماماً كيف يكون وقعه من نفس فرانسوا جوزيف ، فلما أعرب هذا الأخير عن موافقته قرر نهائياً أن يزور البراطرة الثلاثة برلين معاً في الأسبوع الثاني من شهر سبتمبر سنة ١٨٧٢ مصحوبين بوزراء الخارجية . وقد كانت هذه المقابلة التي اقترنت باقامة زينات منقطعة النظير يقصد بها إلى التأثير في الدول الأخرى مما زاد التفاهم بين الدول الشرقية الثلاث أحكاماً ، ومع أنه لم يوقع أى اتفاق كتابي ومع أن وزراء الخارجية كانوا يجتمعون مثنى مثنى فقد تم تفاهم وثير أو تم الاتفاق الثلاثي وكان أساساً لمخالفة البراطرة الثلاثة التي تمت بعد بضعة أشهر من ذلك . وهذا الاتفاق في معنى من معانيه تجديد للتحالف المقدس القديم الذي عقد في سنة ١٨١٥ وكما تكاثفت هذه الامبراطوريات الشرقية الثلاث في أيام اسكندر الأول ومرتنيخ للدفاع عن المبادئ العتيقة وصيانة الحالة الراهنة فأنها تكاثفت مرة أخرى للدفاع عن التضامن الملكي ضد خطر الاشتراكية الدولية الآخذ في الازدياد ولصيانة الحالة الراهنة في أوروبا أيضاً من أى عمل قد تقوم به فرنسا أو غيرها من الدول بقصد الإخلال بها . وعلى كل فقد كان اجتماع البراطرة الثلاثة فوزاً لبسمارك

وازدادت العلاقات بين البراطرة الثلاثة توثقاً عند ما ذهب الامبراطور غليوم في العام التالي بصحبة بسمارك ومولتكة لزيارة سارن بطرسبورج ، فهناك عقد إتفاق عسكري سرى وعدت بمقتضاه كل من ألمانيا والروسيا الأخرى بتقديم ٢٠٠.٠٠٠ جندي في لو اعتدت عليها دولة أوربية . وبعد أسابيع قليلة ذهب القيصر اسكندر لزيارة معرض فينا ( ١٨٧٣ ) وهناك وقع مع فرانسوا جوزيف إتفاقاً يقضى عليهما بالتفاهم والتشاور في كل مسألة تتعارض فيها مصالحهما . وقد وعدت كل من الدولتين الأخرى في حالة ما إذا اعتدت دولة أوربية على إحدهما أن تتفاهما على توحيد خططهما

دون ما حاجة الى إتفاق جديد؛ فإذا ما أسفر هذا التفاهم عن ضرورة الالتجاء إلى إجراءات عسكرية تم ذلك باتفاق عسكري خاص. وقد أبلغ خبر هذا الاتفاق إلى الامبراطور غليوم فأعلن انضمامه إليه في ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٧٣ وبهذا تم ما يسمونه بحلف البراطرة الثلاثة

لقد كانت ألمانيا بالنظر إلى انتصاراتها الأخيرة وجيشها العرمرم أقوى هذه الدول الثلاث كما كان مستشارها بسمارك أقدر الوزراء الثلاثة جورشاكوف واندراسى على فهم الموقف السياسي في أوروبا وأعرفهم بمصالح جيرانه السياسية وأكثرهم استعداداً لأن يسلم بهذه المصالح ويساوم على أساسها. فكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن أصبح المستشار الألماني هو الروح المسير لتلك العصبية؛ فقد استخدم نفوذها في حفظ السلام الأوربي ومنع فرنسا في حينه من تكوين ائتلاف ضد ألمانيا أو السعي للانتقام منها. وقد سارت إيطاليا وراء البراطرة الثلاثة. أما إنجلترا فكانت لا تزال متمسكة بمبدأ العزلة المجيدة، في حين كانت فرنسا من ضعف القوى وانشغال البال بمشاكلها السياسية الداخلية بحيث لا تفكر في تعكير صفو السلام

يبدأ أنه في سنة ١٨٧٥ تعكر صفو هذه المحالفة في صورة جدية، فقد كان من الصعب على نفس جورشاكوف وما انطوت عليه من الغرور أن يخضع لزعامه بسمارك فأصغى إلى ما كان معتمدوه في برلين وبلغراد والاستانة يبعثون به إليه من تقارير ضد ألمانيا مدفوعاً إلى ذلك بميول شخصية نحو فرنسا لم يكن القيصر يشاطره إياها. فوقع في خلاف مع بسمارك على مسألة تتعلق بالجبل الأسود وأخرى تتناول المكان الذي ينبغي أن يشغله روزن فنصل ألمانيا الجنرال في بلغراد. وخشى بسمارك بحق أن يؤثر جورشاكوف في القيصر ضد ألمانيا فيضعف بذلك حلف البراطرة الثلاثة فأوفد رادوقتش إلى سان بطرسبورغ ليحل محل السفير الألماني الذي كان في أجازة مرضية غير محدودة. وكان رادوقتش مكلفاً بأن يمثل آراء بسمارك في حزم وهو ما

وفق اليه . لكن جورشاكوف أذاع اشاعات ظلت تتواتر حتى حالت اسطورة فرنسية فخواها أن رادوقتش أوفد ليرشى الروسية كما تطلق يد ألمانيا ضد فرنسا في مقابل اطلاق ألمانيا يد الروسية في الشرق . وهي اسطورة أزجحت فرنسا وانجلتراه وساعدت على نشر الرعب من الحرب في سنة ١٨٧٥ إذ اشتبه ظلماً في أن بسمر ك يدبر « حرباً مانعة » يشهرها على فرنسا . وليس من الجلي كل الجلاء ما إذا كان لبسمر ك ضلع في الايعاز بتلك المقالات التي نشرتها الصحف الألمانية وزادت في ذلك الفرع أو أن هذد المقالات أنشئت في أثر بلاغات لمكاتب غير مسئول لأحدى الصحف في فينا كما يبدو الآن محتملاً . بيد أن الراجح على كل حال هو أن بسمر ك كان ميالاً الى الاستفادة من هذه المقالات لتخويف فرنسا وحملها على العدول عن امام التنظيم الذي كان قد اقترح لجيشها بعد إذ بات الفرنسيون يحسون أنهم في خطر . وقد ترتب على هذا أن ناشد وزير خارجية فرنسا القيصر اسكندر والملكة فيكتوريا أن يستخدما نفوذهما لمنع ألمانيا من القيام بعمل عدواني . ولم يلق جورشاكوف كبير عناء في اقناع القيصر بأن يصرح عند زيارته لبرلين بأن الروسية لن تسمح بسحق فرنسا . وانساق جورشاكوف لغروه فأعلن في برلين في شيء من العظمة أن السلم قد ضمن الآن . فأغضب هذا بسمارك غضباً شديداً إذا كان من شأن هذا التصريح أن يلقى في الأذهان أن ألمانيا كانت تقصد حرباً مانعة وأن الروسية حالت دون وقوعها — وهذا ايهاام نفاه بسمر ك دواما وكذبه بهمة ولم يغتفره لوزير خارجية روسيا مطلقاً وقد كان من جراء هذا الحادث أن فترت العلاقات بين برلين وسان بطرسبورغ لكنه لا يمكن القول في هذا الصدد بأنه قضى حقيقة على حلف البراطره الثلاثة إذ ظل اسكندر الثاني وغايوم الأول صديفين حميمين .



## أزمة الشرق الأدنى ١٨٧٥-١٨٧٨

ووقع في سنة ١٨٧٥ حادث آخر كدروفاق حلف البراطرة الثلاثة وهو نشوء أزمة جديدة طويلة الأمد في البلقان . فان انحلال «رجل أوروبا المريض» تدريجياً حمل روسيا من جديد على أن تفكر في إمكان القضاء عليه . فحدث أن قست طبقة الملاك الاستقراطيين في الهرسك ومنهم فريق كبير يجرى في عروقه الدم الصربي لكنه اعتنق الاسلام - فثار الفلاحون المسيحيون في يوليه سنة ١٨٧٥ وامتد لهيب الثورة بسرعة الى البوسنة فأثار عطف أخوتهم الصربيين في النمسا والمجر وحرك تعصبهم في إمارة صربيا المجاورة . ولوعورة المنطقة الجبلية وعجز حكومة السلطان أسقط في يد الاتراك وبدأ عجزهم عن قمع الفتنة فوقفت روسيا والنمسا في الحال وجها لوجه وعاد تناقشهما القديم على المصالح البلقانية . وقد بذل بسمارك كل مهارته في خلال الخمسة عشر عاماً التالية يحول دون اصطدام هاتين الدولتين احدهما بالأخرى إذ كان شديد الرغبة في استبقائهما صديقتين لألمانيا . وكان جل هم بسمارك من المسألة الشرقية بحذافيرها ألا تؤدي الى تعكير صفو السلام في أوروبا أو زعزعة العلاقات الطيبة التي أوجدتها اتفاقية البراطرة الثلاثة بين النمسا وروسيا . وقد أكد هذا لجورشاكوف في برلين في ديسمبر سنة ١٨٧٥ فقال له مراراً إن ألمانيا نفسها ليست لها مصلحة ذاتية في البلقان . فان مسألة الشرق الأدنى بحذافيرها لا تساوي قلامة ظفر جندي واحد من جنود بومورانيا . بيد أن الخطر من شقاق يحدث بين روسيا والنمسا أو من تكوين ائتلاف أوربي في صدد مشكلة البوسنة كان من أهم الشؤون الجدية لبسمارك ولذا لم يكن ينظر الى اقتراح اندراسي عقد مؤتمر دولي بعين الرضا ذلك أنه كان يخشى أن تقف النمسا بطبيعة الحال إلى جانب انجلترا وأن تنحاز روسيا إلى ناحية فرنسا . وانقسام أوروبا بهذه الصورة الى حزبين : حزب يضم انجلترا والنمسا وآخر

يشتمل على فرنسا والروسيا يضع ألمانيا في مركز دقيق خطر . فيصبح عليها أن تضطلع بمهمة شاقة هي إما أن تقوم بدور الحكم بين الفريقين وإما أن تتحاز إلى جانب النمسا وانجلترا وبذا تتعرض لعداوة دولتين في ميدانين . هذا فضلا عن أن هذا الانقسام يؤدي إلى زعزعة عصبه البراطرة الثلاثة ويعوقها عن صيانة السلم في أوروبا .

في تلك الأثناء كان القيصر اسكندر والامبراطور فرانسوا جوزيف قد تقابلا في ريشستات يصحبهما وزراؤهما وعقدا في ٨ يوليه سنة ١٨٧٦ اتفقا سرياً لكنه غامض بعض الشيء بغير علم بسمارك ، فاتفقا على أن يمتنعا في الوقت الحاضر عن التدخل في شأن تركيا . فاذا تغلب الأتراك على الثوار في البوسنة في المستقبل تدخلت الدولتان المذكورتان لحماية الصربيين من التنكيل بهم وأصرتا على ادخال الإصلاحات الحقيقية . وأما إذا استمرت الفتنة وخدم الحظ الثائرين وأصبحت تركيا أوروبا في حالة التفكك فان النمسا تضم البوسنة وتسترده روسيا الجزء الذي فقدته من ولاية بساريا في سنة ١٨٥٦ وغيره من الأراضي الواقعة على الشاطئ الشرقي للبحر الأسود ( وهي جهات لا مصلحة للنمسا فيها ) وتمنح بلغاريا والروملي الاستقلال الداخلي وتضاف بعض الأراضي إلى الصرب والجبل الأسود واليونان وتصير الاستانة مدينة حرة .

وهكذا استطاع جورشاكوف بهذه الاتفاقية أن يحصل على موافقة النمسا على مبدأ تقسيم تركيا كما أن الشروط التي تضمنتها كانت في نظر اندراسي ملائمة للنمسا جدا لأنها تنشئ في البلقان دولا صغيرة ضعيفة وتمنع من خلق دولة سلافية قوية كبيرة سواء أكانت صربية أم بلغارية إذا كانت مثل هذه الدولة خليفة أن تندمج في روسيا لاعتبارات جنسية ودينية فتصبح والحالة هذه خطرا على النمسا . هذا الى أن النص على امكان ضم النمسا للبوسنة والهرسك يضمن سلامة ممتلكات دلماسيا القاصية ويقف الخطر

الناجم من تزايد أمانى الصريين القومية  
على أن نتيجة الحرب في البلقان في خلال الأسابيع التالية جاءت على  
عكس ما تصوره جورشاكوف واندراسى من أن تركيا في حالة الاحتضار ،  
فان الاتراك على النقيض من ذلك أظهروا إهمة ومقدرة غير عادية فأنزلوا  
بالعصاة هزائم متوالية جعلت ميلان أمير الصرب يجأ في ٢٩ أغسطس  
بطلب النجدة . ولقد لقي نداؤه آذانا صاغية لدى جورشاكوف ودعاة الجامعة  
السلافية وأحسوا أن لا محيص لهم عن التدخل بالرغم من مبدأ عدم التدخل  
في الوقت الحاضر المنصوص عليه في البند الأول من اتفاقية رايشتات ،  
فكان أن أدى هذا التدخل الى تجديد العداء القديم بين روسيا والنمسا  
والتنازع على البلقان وتخرجت العلاقات بينهما إلى حد أن كلا منهما عادت  
فشخصت بصرها الى بسمارك .

وفي ١٣ سبتمبر سنة ١٨٧٦ أخطر أندراسى السفير الألماني في فينا  
بوجود هذه الاتفاقية التي أبقاها سراً مكتوماً بناء على رغبة جورشاكوف .  
أما جورشاكوف فانه لجأ إلى كثير من اللف والدوران أسخط بسمارك  
إذ أنه بدلا من أن يتخبر من الطريق الرسمي القويم على يد السفير  
الروسي في برلين اشتبه بسمارك في أنه يحرض القيصر على استخدام  
البارون فردر ممثل الامبراطور الخاص لديه . فقد بوغت فردر إذ سئل  
صراحة أتلتزم ألمانيا الحياد المشرب بروح العطف في حالة نشوب حرب  
بين روسيا والنمسا كما التزمته روسيا في حرب السبعين . فأبرق فردر بهذا  
السؤال المخرج الأخرق إلى برلين فتحاشى بسمارك أن يجيب عنه جواباً  
صريحاً وكان بسبيل استدعاء فردر لولا خشية الامبراطور غليوم أن يؤلم  
هذا عواطف القيصر . ثم أكد بسمارك بعد ذلك على يد السفير الألماني في  
سان بطرسبورغ أن غرضه هو المحافظة على السلام في أوربا والوثام في  
عصبة البراطرة الثلاثة فأذا قررت روسيا التدخل وإعلان الحرب على

تركيا فبسمرك سيستخدم نفوذه في منع النمسا من مهاجمة روسيا وفي  
مرجوه أن يوفق إلى ذلك . أما إذا نشبت الحرب بين روسيا والنمسا على  
الرغم من كل جهوده فقد لا يكون ضرورياً أن تخرج ألمانيا عن حيادها .  
ولقد حمل بسمارك برفضه إطلاق يد روسيا مع النمسا جورشاكوف على  
الاعتدال في موقفه وقر الرأي على أن يجتمع ممثلو الدول المسيحية في  
الاستانة بهيئة مؤتمر لاقتناع السلطان عبد الحميد بضرورة القيام باصلاحات  
حقيقية . لكن جورشاكوف لم يكن يثق بصدق وعود السلطان فأثر في  
النمسا وحملها على إمضاء إتفاق سرى جديد هو إتفاق بودابست المؤرخ في ١٥  
يناير سنة ١٨٧٧ والذي كان بمثابة إتخاذ العدة لحرب تنوى روسيا اعلانها  
على تركيا . فوافقت النمسا على ألا تهدد الجناح الروسى في زحفه جنوبى  
الدانوب وحصلت في مقابل ذلك على موافقة روسيا على فكرة ضم النمسا  
للبوسنه والهرسك . وهكذا لم يحل ابريل سنة ١٨٧٧ حتى أعلنت روسيا  
على تركيا حرباً كانت ترغب فيها من زمن طويل . وبالرغم من خذلانها  
أشهرأ عدة أمام قلعة بلفنا فانها تمكنت بعد سلسلة انتصارات من الاقتراب  
بجيوشها من ضواحي الاستانة وحمل الأتراك في ٣ مارس سنة ١٨٧٨ على  
عقد معاهدة سان ستيفانو التي نصت على انشاء دولة بلغارية كبيرة تشمل  
كافة الأراضى البلغارية التابعة لتركيا عدا ساحل طويل على بجر ايجيه .  
وقد قوبلت المعاهدة المذكورة بالاعتراض من كل جانب فعارضتها  
اليونان والصرب ورومانيا لأن بلغاريا العظمى ستكون أقوى من أية واحدة  
منهن . وعارضتها النمسا وانجلترا خشية أن تصبح بلغاريا العظمى في  
الواقع دولة خاضعة لسيطرة روسيا . وبالطبع لم تشأ النمسا أن ترى ارياد  
نفوذ روسيا بهذا الشكل على مقربة من حدودها . أما انجلترا فكان همها  
سلامة قناة السويس . لهذا أصرت هاتان الدولتان على عقد مؤتمر لاعادة  
النظر في معاهدة سان ستيفانو . ولم يكن بسمارك ميالا لقبول هذا الاقتراح

بادىء ذى بدء . لكنه عاد فقبل فى النهاية أن يقوم بدور الوسيط الأمين فدعا الدول للاشتراك فى مؤتمر برلين .

ولقد كان جل هم بسمارك ارضاء النمسا والروسيا جميعاً فخولت النمسا فى النهاية الحق من جديد بمقتضى معاهدة برلين فى احتلال البوسنة والمهرسك وإدارتهما . ثم — إذا اقتضت الحالة العسكرية ذلك — أن تحتل أيضاً قطعة الأرض الممتدة بين الصرب والجبل الأسود والمعروفة بصنجدق نو فى بازار . أما روسيا فقد استعادت القسم الذى فقدته من ولاية بساراييا فى سنة ١٨٥٦ هذا عدا أراض قيمة واقعة فيما بين البحر الأسود وبحر قزوين . ومع أن هذه كانت مكاسب عظيمة للروسيا فان جورشاكوف عدها دون ما بذلته الروسية من جهود وما أحرزته من انتصارات عسكرية . ولذا غادر المؤتمر وهو حائق على بسمارك شاعر بأنه خان مصالح روسيا وجحد جميلها عند ما التزمت الحياد فى خلال الحرب السبعينية . وسرعان ما اندفعت صحف الجامعة السلافية فى روسيا فى حملة شعواء على ألمانيا لم ير بسمارك مسوغاً لها . فانه إن كان قد أيد إنجلترا والنمسا فى المؤتمر فقد خدم روسيا خدمة حقيقية بحصوله لها على أكثر مما كانت خليقة أن تحصل عليه بنفسها . وقد كانت هذه المرارة الشخصية بين بسمارك وجورشاكوف والحملات الصحفية العنيفة التى وجهها كل فريق الى الآخر سبباً لزوال الوثام وانتهاء التعاون بينهما مؤقتاً وهما الوثام والتعاون اللذان كانت ترمى إليهما مخالفة البراطرة الثلاثة .

### المخالفة بين ألمانيا والنمسا سنة ١٨٧٩

لم يكن العداء بين روسيا وألمانيا قاصراً على الامتعاض الشخصى بين بسمارك وجورشاكوف أو على المهاترة بين الصحف فى كلا البلدين بل ان المندوبين الألمان كانوا يؤيدون النمسا بلا انقطاع فى اللجان التى شكلت لتنفيذ معاهدة برلين مما جعل روسيا ترد على هذا التحيز بزيادة تسليحاتها

وبارسال الجنود إلى بولونيا غرباً صوب الحدود الألمانية . وقد صرح الجنرال مليونين بقوله « إنه يجب على روسيا أن تستعد للحرب ، فردد أنصار الجامعة السلافية قوله . وأخيراً في صيف سنة ١٨٧٩ أعرب القيصر اسكندر نفسه للسفير الألماني في سان بطرسبورج عن تدمره وكتب للامبراطور غليوم يبدى له تبرمه بسياسة بسمارك ويحذره مما عسى أن يترتب عليها من العواقب الوخيمة .

ونمى في الوقت نفسه إلى بسمارك أن صديقه اندراسى يوشك أن يستقيل وأنه ينتظر أن يخلفه البارون هايمرله وهو من لم يكن يعول على صداقته فرأى إزاء الخطر الروسى أن يعقد مع النمسا محالفة دفاعية قبل استقالة صديقه . وهكذا وضع الاثنان معاهدة ٧ أكتوبر سنة ١٨٧٩ التى أنشأت التحالف بين ألمانيا والنمسا . وقد كان يهم بسمارك أن تكون هنالك معاهدة تعد النمسا وألمانيا فيها بمساعدة احدهما الأخرى فيما لوهاجمتها دولة ثالثة كروسيا أو فرنسا أو ايطاليا لكن النمسا لم تشأ تعريض حدودها الشرقية للخطر الروسى بالارتباط بتعزيد ألمانيا بلا قيد ولا شرط فيما لو أقدم الفرنسيون على حرب بدافع الرغبة فى الانتقام . وعليه اقتضت المعاهدة على أن تبادر كل من الدولتين المتعاقدين بكامل قوتها إلى مساعدة الدولة الأخرى فيما لوهاجمتها روسيا وفى حالة مهاجمة فرنسا أو ايطاليا لاحدى الحليفتين فإن الحليفة الثانية تلتزم الحياد المشرب بروح العطف فاذا أيدت روسيا الدولة المهاجمة بادرت الدولة الأخرى المتعاقدة الى مساعدة حليفتها بكامل قوتها . وقد جعل أمد المعاهدة خمس سنوات قابلة للتجديد واتفق على أن تبقى سرية إلا إذا ثبت أن تسليحات روسيا قد باتت خطراً حقيقياً فإنه يصبح من واجب الولاء على الدولتين المتعاقدين أن يعلم قيصر روسيا ولو بصفة سرية انهما تعتبران الاعتداء على احدهما بمثابة اعتداء موجه إليهما معاً . لقد عززت المحالفة النمساوية الألمانية مركز امبراطوريتى الوسط وظلت

محور السياسة الألمانية من ذلك اليوم إلى أن دارت الدوائر عليهما في نوفمبر سنة ١٩١٨ . على أن المحالفة ظلت في الواقع ومن حيث غرضها دفاعية بحثة أثناء وجود بسمارك في الحكم . فقد صدت كل حليفة عن الأخرى تيار الجامعة السلافية وكان لألمانيا أن تعتمد على حياد النمسا إذا ما نشبت حرب انتقام من ناحية فرنسا كاعتماد النمسا على حياد ألمانيا فيما لو دفعت العصية الايطالين إلى محاربتها .

ولم تشرع النمسا في النزوع بسياستها إلى العدوان والاستقلال إلا بعد إقالة بسمرك بزم من طويل فقد جعلت ترمى إلى تحويل المحالفة النمسية الألمانية من محالفة ذات صبغة دفاعية إلى أخرى باتت في الواقع هجومية . تخليق إذن ألا يوجه النقد إلى بسمرك بل إلى خلفائه — وخاصة ييلوف ، ويتمان — الذين لم يوفقوا إلى متابعة سياسته المحافظة متابة كافية وهي ضبط النمسا . ولم يكن اختيار بسمرك التحالف مع النمسا إلا خطوة أملت بها الحكمة في ذلك الحين لكنه لم يكن معناه أن هذه الخطوة لن تليها أخرى نحو روسيا فانه سرعان ما سنحت الفرصة .

### تحالف البراطرة الثلاثة ١٨٨١ — ١٨٨٧

كان بين ساسة روسيا رجلا ن لم يعمهما السخط على بسمرك من جراء مؤتمر برلين : أحدهما هو البارون دي جيرز الذي حل محل جورشاكوف في وزارة الخارجية والآخر بطرس سابوروف الذي تنبأ باحتمال تحالف النمسا وألمانيا قبل أن توقع المحالفة . ففي يناير سنة ١٨٨٠ قدم سابوروف إلى برلين سفيراً لدولته فحرت له مع بسمرك أحاديث ودية كثيرة في شأن إعادة المياه إلى مجاريها بين القيصر اسكندر والامبراطور غليوم الأول و احياء اتفاق البراطرة الثلاثة بذلك . ولما كانت عين سابوروف كغيره من الساسة الروسيين دائمة التطلع إلى أن يكون للروسا السيطرة أو النفوذ في

الآستانة فقد أدرك في سنة ١٨٧٨ كيف أنه من السهل على أسطول بريطاني أن يهدد العاصمة التركية . فساورته المخاوف من المستقبل وبسط مخاوفه في مذكرة طويلة قدمها لبسمارك تلخص في أن روسيا كوفت على مساعدتها لتركيا ضد جيش محمد علي المظفر في سنة ١٨٣٣ بمعاهدة بونكيار سكليسي التي حتمت على تركيا اقفال الدردنيل في وجه الأساطيل المعادية التي تحاول الذهاب إلى البحر الأسود . وكان هذا النص لمصلحة روسيا بصفة خاصة لأنه حمى شواطئها الجنوبية من العدوان ولكن هذه المصلحة انقلبت إلى نقيضها في معاهدة سنة ١٨٤٠ وفي اتفاقية البواغيز سنة ١٨٤١ إذ طبق مبدأ اقفال البواغيز في وجه الأساطيل الذاهبة إلى البحر الأسود على الأساطيل الخارجة منه أيضاً فأصبحت روسيا بذلك عاجزة عن ارسال اسطولها إلى البحر المتوسط . ثم جاءت معاهدة باريس في سنة ١٨٥٦ فأيدت هذه المبادئ وزادت عليها منع روسيا وتركيا من أن تكون لهما سفن حربية في البحر الأسود . وقد ظلت هذه المعاهدة نافذة إلى حين إبرام معاهدة لندن في سنة ١٨٧١ التي كان السبب في عقدها ما حاولته روسيا من انتهاز فرصة إنشغال فرنسا وألمانيا بالحرب لالغاء الشروط الخاصة بالبحر الأسود . وقد ألغت هذه المعاهدة نص معاهدة سنة ١٨٥٦ وهو النص الذي يحظر وجود سفن حربية روسية أو تركية في البحر الأسود لكنها سلبت لأول مرة بمبدأ دخول الأساطيل الأجنبية إلى البواغيز متى رأى السلطان أن دخولها ضروري لصيانة باقى شروط معاهدة باريس . وهكذا انعكس مبدأ اقفال البواغيز ضد مصلحة روسيا . وفي مؤتمر برلين أعلنت إنجلترا أن تعهداتها فيما يختص باقفال البواغيز لا تتجاوز التعهد باحترام الرأى المستقل الذى يراه السلطان فى هذا الصدد أو بعبارة أخرى أن إنجلترا ليست مكلفة باحترام رأى السلطان إذا أقفل البواغيز بناء على طلب روسيا فان رأيه فى هذه الحالة لا يكون مستقلا . وإذن تكون النتيجة فى رأى سابوروف : أن إنجلترا احتفظت



لنفسها بحق دخول البواغيز وتهديد مصالح روسيا متى شاءت . وعليه لا يكون القفل والمفتاح، قيمة ما للروسيا الا بتأييد ألمانيا والنمسا وهذا ما كان يرغب سابوروف فيه وما كان بسمارك على استعداد لأن يعطيه في مقابل استئناف العلاقات الودية مع روسيا . فقد كان معنى استئنافها تجديد عصبه البراطرة الثلاثة وضمان السلام في أوروبا . ومن الجهة الأخرى فقد أخذ سابوروف بالمخالفة الألمانية النمسية وأحس عزلة روسيا سياسياً فتطلعت هذه إلى معونة ألمانيا والنمسا .

أما بسمارك فانه على الرغم من تحسن علاقاته بفرنسا إذ ذاك نحسنا نسيا لم يكن يستطيع أن يتخلص من كابوس فكرة كانت متسلطة عليه وهي أن الفرنسيين قد ياتلفون مع الروسيين عليه . ولكي يقلل من احتمال وقوع ذلك رأى أنه من المرغوب فيه جداً أن يعيد ما كان عليه حلف القياصرة الثلاثة من وئام كان قائماً قبل مؤتمر برلين . هذا إلى أن النمسا كانت خليقة بأن تستفيد من تحسن علاقاتها بجارتها إذ يصون هذا مركزها الجديد في البوسنه والهرسك . واذن فهذه التغييرات لا تحدث إلا على قاعدة التفاهم المتبادل بين الامبراطوريات الشرقية الثلاث . ونظراً لما كان ينتظر من الفوائد لكل من روسيا وألمانيا والنمسا من جراء اتفاق كهذا فانه لم يكن من الصعب الوصول إلى الاتفاق المتناهي في السرية الذي وقعه بسمارك وسابوروف وزيشيني في ١٨ يونية سنة ١٨٨١ وقد حرص بسمارك على اعتبار الاتفاق من السرية بحيث أنه لم يأت من موطن مكتبه على كتابة نصوصه بل كتبها بخط يده كما أنه وضع أرقاما خاصة للراسلات السياسية الخاصة به والتي لم يطلع عليها إلا عدد محدود من الأشخاص . وقد بقي السر مكتوماً إلى حد أن العالم لم يعرف شيئاً من أمر الاتفاق إلى أن نشر الأستاذ جورينوف جزءاً منه في سنة ١٩١٨ . وبين ما نصت عليه المعاهدة قولها في المادة الأولى أنه في حالة اشتباك أحد الأطراف المتعاقدة السامية في حرب مع دولة عظمى رابعة

تلتزم الدولتان الأخريتان الحياد المشرب بروح العطف وتبذلان جهدهما لحصر الحرب في دائرتها المحلية بمعنى أن ألمانيا إذا اشتبكت مع فرنسا أو النمسا مع إيطاليا أو روسيا مع تركيا في حرب فلا تخشى الدولة المحاربة أن تهاجمها أية من الإمبراطوريتين الشرقيتين الأخريين من الخلف .

وجاء في المادة الثانية : أن الدول المتعاقدة الثلاث اتفقت على احترام حقوق النمسا في البوسنة والهرسك كما قضت بها معاهدة برلين وأن لا تحدث أى تغيير في الحالة الراهنة لأراضي تركيا أوربا إلا بأجماع الآراء . وكان مفهوما من هذا ضمنا أن للروسيا أن تواصل سياستها في القوقاز حيث لا توجد لألمانيا أو للنمسا مصالح ذات شأن .

وقد سكنت المادة الثالثة مخاوف سابوروف من وجود اسطول انجليزى في البواغيز إذ نصت على أن الدول الثلاث « تسلم بما لمبدأ أفعال البواغيز من الصبغة الاوربية وصبغة الالتزام لكل فريق . . . . . ولذا فانها ستعنى معا بأن لا تشذ تركيا عن هذه القاعدة لمصلحة دولة من الدول كائنه ما كانت كأن تعير لدولة محاربة الجزء الواقع من امبراطوريتها في منطقة البواغيز لاستخدامه في أغراض حرية . فاذا فعلت تركيا ذلك أو اذا أرادت الدول الثلاث أن تحول دهن وقوع مثل هذه المخالفة أبلغت هذه الدول تركيا أنها تعتبرها في حالة حرب مع الدولة التي تمسها هذه المخالفة وأنها بعملها هذا قد حرمت نفسها من الآن فصاعدا من مزايا الأمن الذى تضمنه لها معاهدة برلين ببقاء الأراضي ذات الشأن على حالتها الراهنة .

ولقد ألحق بالمعاهدة بروتوكول أشير فيه الى التعاون الودى بين قناصل الدول المتحالفة ووكلائها في البلقان والى احنمال اتحاد بلغاريا مع الروملى الشرقى . أما الامتيازات الى تنازلت عنها روسيا للنمسا فى اتفاقية ريشستات واتفاقية بودابست فقد أكدتها مادة من جديد فيما يلى « تحتفظ النمسا بحق ضم ولايتى البوسنه والهرسك ( وقد احتلتهما فعلا سنة ١٨٧٨ ) فى أية فرصة

تراها ملائمة .

فمعاهدة سنة ١٨٨١ هذه التي أحيت عصبه القياصرة الثلاثة وحولتها إلى محالفة قد حققت الغاية العظيمة التي جعلها بسمارك مطمح نظره وهي المحافظة على السلام في أوروبا والحيلولة بصفة خاصة دون وقوع حرب بين روسيا والنمسا في الشرق الأدنى إذ أتيح للروسيا أن يكون لها في بلغاريا وشرق البلقان النفوذ الأعلى غير مدافع كما أتيح للنمسا مثل ذلك في صربيا وغرب البلقان . وقد اعتقد بسمارك بحق أن قيام الحدود بين بلغاريا وصربيا حداً فاصلاً بين المصالح الروسية والنمساوية هو خير الطرق لتجنب المنافسات وسوء الظن في البلقان وأسلمها عاقبة ، وكان مستعداً كل الاستعداد لاستخدام نفوذ ألمانيا الحاسم لحمل كل من حليفته على التزام المنطقة الخاصة بها وعدم تجاوز الخط الفاصل .

فسياسة بسمارك القائمة على تحديد مصالح النمسا وروسيا وضغطه على كل منهما ساعداً على صيانة السلام في أوروبا حتى في غضون أزمة البلقان الحادة التي نشأت من اتحاد شطري بلغاريا في سنة ١٨٨٥ ومع ذلك فإن النمسا ظلت تغري الصربيين بالبلغاريين حتى رفض اسكندر الثالث تجديد حلف البراطرة الثلاثة لما انتهى أجل المعاهدة في سنة ١٨٨٧ رغم ما بذله بسمارك من جهد عظيم في سبيل هذا التجديد : ذلك أنه لم يكن يحب أن يلقي بهذه المعاهدة عرض الألق . بيد أنه لما رأى أن القيصر لا يمسك عن إسائة الظن بالنمسا وأن ريبته من ناخيتها ثابتة لا سبيل إلى زعزعتها كره أن يخسر صداقة روسيا من جراء تأييد النمسا العدواني للصربيين ومناصرتها إياهم في غير ما ضرورة على البلغاريين . هذا إلى أن علاقاته بفرنسا كانت قد ساءت في خلال الأشهر الأخيرة وخاصة بعد الذي اتصل به من الإشاعات في سبتمبر سنة ١٨٨٦ وريبع سنة ١٨٨٧ عن قيام المفاوضات السرية لإيجاد ائتلاف بين فرنسا وروسيا .

## معاهدة التأمين المجدد

بين روسيا وألمانيا ١٨٨٧ - ١٨٩٠

لقد رحب بسمارك بالاقتراح الذي عرضته روسيا بأن يعقد بينها وبين ألمانيا معاهدة دفاعية لا تشترك فيها النمسا بدلا من الاتفاق الثلاثي القائم. وقد أبت عليه سجية الاستقامة في العمل إلا أن يخرج من جعبته نص المحالفة الألمانية النمسوية ( ١٨٧٩ ) ويتلو محتوياتها على السفير الروسي شوفالوف معرباً عن أسفه العظيم لأن خطة روسيا وقتئذ ألجأت ألمانيا إلى حماية نفسها بهذه المعاهدة القائمة على كل حال. وألمانيا ملزمة أن تخلص لشروطها وللنمسا وستخلص لهما ولذا ينبغي مراعاتها عند وضع نصوص المعاهدة الجديدة بين ألمانيا وروسيا. وبعد البحث في غير رأي أمكن التغلب على الصعوبة نهائياً بالاتفاق على النص الآتي في المادة الأولى وهو « اذا اشتبك أحد الطرفين المتعاقدين الساميين في حرب مع دولة ثالثة عظمى التزم الطرف الآخر نحوه الحياد المشرب بروح العطف مع بذل كافة المساعي لحصر دائرة النزاع. ولا يسرى مفعول هذا النص على حرب مع النمسا أو فرنسا يسببها اعتداء أحد الطرفين المتعاقدين على احدهما، ولشد ما كان ارتياح بسمارك لهذا التدبير الدفاعي لأنه لم يكن ينتوى مهاجمة فرنسا أما في حالة مهاجمة فرنسا لألمانيا فقد أمن بسمارك على جنوبي ألمانيا منذ سنة ١٨٧٩ بالحياد المشرب بروح العطف الذي وعدت النمسا بالتزامه. والآن فان حدود ألمانيا الشرقية أصبحت آمنة من جديد بهذه المعاهدة الجديدة التي عقدها مع روسيا فضلا عن أنه اذا هاجمت روسيا النمسا فلن تتعارض معاهدة التأمين المجدد الحديثة مع ما هو مرتبط به من حماية النمسا وفاقا للمحالفة النمسوية الألمانية. ثم ان استعداده للنظر بعين الاعتبار الى أغراض الدول الأخرى ومطامعها والمساومة على أساسها جعله أيضاً يسلم بمصالح الروسية

في البلقان وبرغبة سابوروف في حصول روسيا على « سلسلة وقفل » لا يصاد البواغيز في وجه الانجليز . وعليه سلبت المادة الثانية من معاهدة التأمين المجدد، بما اكتسبته روسيا تاريخياً من حقوق في شبه جزيرة البلقان وخاصة بمشروعية طلبها التمتع بنفوذ كلي فعال في بلغاريا والروملى الشرقى . أما المادة الثالثة فقد أكدت من جديد مبدأ سبق أن تم عليه الاتفاق في سنة ١٨٨١ ويقضى بأن تتعاون كل من روسيا وألمانيا على الضغط على السلطان لابقاء البوسفور والدردنيل مقفلين في وجه أساطيل الدول الأجنبية . كذلك أخذت الدولتان المذكورتان العهد على نفسيهما بأن لا تسمحا بأى تغيير في الحالة الراهنة في شبه جزيرة البلقان إلا باتفاق سابق متبادل . ولقد ذهب بسمارك في البروتوكول الملحق إلى أبعد من ذلك فسلم بوجهة النظر الروسية بأن وافق على أنه في حالة ما إذا رأت روسيا ضرورة القيام بنفسها بمهمة الدفاع عن مدخل البحر الأسود لصيانة مصالحها تتعهد ألمانيا بالتزام الحياد المشرب بروح العطف وبتعريضها من الوجهتين الأدبية والسياسية فيما تراه روسيا لازماً من الاجراءات لضمان مفتاح امبراطوريتها . ومعنى هذا أن للروسيا ، ما تعلق الأمر بألمانيا ، أن تستولى على أراض في منطقة البواغيز ولو كانت الأستانة نفسها . وامتلاك هذا المفتاح الذى كادت روسيا أن تفوز به بمقتضى معاهدة سان استيفانو في سنة ١٨٧٨ والذى وعد بها بسمارك في سنة ١٨٨٧ كان أكثر من مجرد إقفال البواغيز في وجه الاسطول الانجليزى وهو ما اشترطه سابوروف في سنة ١٨٨١ . ومع ذلك فقد كان بسمارك على استعداد للنزول حتى عن هذا المفتاح ليقفل من احتمال ائتلاف فرنسا وروسيا . ولا ريب في أنه قد حسب حساب انجلترا في أنها لن تقف مكتوفة اليدين فيما لو حاولت روسيا اقضاء السلطان عن عاصمة ملكه . وقد جعلت مدة المعاهدة التى يقال لها معاهدة التأمين المجدد والمعقودة في ١٨ يونيو سنة ١٨٨٧ ثلاث سنوات وقد استقال بسمارك من منصب المستشار قبل انتهاء أمدها لكن خلفه لم يشأ

تجديدها . وعلى أن هذه المعاهدة وهي نافذة المفعول لم تحل دون البدء بالتقرب بين فرنسا وروسيا تقرباً تحول فيما بعد إلى تحالف ، فإنه مما لا ريب فيه أن هذه المعاهدة أخرت ذلك التحالف الذي كان شركا بوس يقض مضجع بسمرك . ذلك هو تسلسل طائفة من المحالفات بسطت نفوذ الامبراطوريات الشرقية الثلاث وحال بواسطتها بسمارك نحو أمن عشرين سنة دون وقوع الصدام علانية بين النمسا وروسيا في البلقان وحافظ على العلاقات الحسنة بين ألمانيا وجارتها القويتين في الجنوب والشرق فحفف بها الخطر في الغرب . ولقد بقيت محالفة سنة ١٨٨١ بين ألمانيا والنمسا وروسيا سرّاً مكتوماً إلى حد أن فرنسا أو أية دولة من الدول الأخرى لم تشبهه في وجودها أو يداخلها الانزعاج من ناحيتها .

### المحالفة الثلاثية سنة ١٨٨٢

يعزى تكوين التحالف الثلاثي على وجه العموم إلى بسمارك فالناس ينسبون إليه أنه هو الذي شجع فرنسا على امتلاك تونس ليشير بهذا ثائرة إيطاليا فيسهل عليه حمل الحكومة الإيطالية على التحالف مع ألمانيا والنمسا . صحيح أنه شجع فرنسا على اقتطاف التمرة التونسية الناضجة والانشغال بمغامرات استعمارية أخرى لكنه فعل ذلك في الغالب آملاً اكتساب صداقتها بتأييد مطامعها ليشغلها عن هزيمة سنة ١٨٧٠ بالاهتمام بالاستعمار وتوسيع دائرة نشاطها في إفريقية والصين بدلا من الاستعداد لاسترداد الألزاس واللورين ولقد كان راغباً كل الرغبة في أن يخاصم الفرنسيون الإيطاليين لكنه لم يكن يرمى بذلك إلى محالفة هؤلاء . فاذا كان التحالف الثلاثي قد تم فإن بسمرك لم يكن منشأه بل إيطاليا .

فانه في أوائل سنة ١٨٨٢ طلبت إيطاليا التحالف مع ألمانيا والنمسا لتعزيز مركزها ولتجدد من يؤيد مطامعها في المستقبل . ذلك أنها عادت من

مؤتمر برلين صفر اليمين وإن كان بسمارك قد أقهها أن ألمانيا لا تعارض في استيلائها على طرابلس متى شاءت. وقد كان احتلال فرنسا لتونس لطمه لإيطاليا جرحت عزتها إذ كانت عين الولاية التي منت نفسها بالاستيلاء عليها بطبيعة الحال. هذا إلى أنها كانت لا تزال خائفة من أن يستعيد «سجين الفاتيكان» ممتلكاته الزمنية فيستولى من جديد على أراضيها التي جرد منها. فمحالفها لألمانيا والنمسا لم تكن لتفقدتها شيئاً، بل كانت ستبيلها كل شيء وهذا ما أدركه بسمارك كل الإدراك ولذا لم يكن ميالا إلى قبول إيطاليا عالة على التحالف. وقد أبدى في أوائل سنة ١٨٨٠ لما اقترح عليه لأول مرة أن يعقد معاهدة مع إيطاليا «أنه ليست بالمرء حاجة إلى الجري وراء إيطاليا إذا أراد منها شيئاً، فضلا عن أنه لا قيمة لعودها متى كان وفاؤها بها في غير مصلحتها». ثم أنه لم يكن يقيم للايطاليين وزنا كبيرا كخلفاء. وفي مذكراته الخاصة التي نشرت أخيراً يشير إلى «طبعهم الأرعن» «وأنا نينهم الدالة على الطفولة» «وعدم استقرار السياسة الإيطالية الصلقة» مما قد يجر على أصدقائها المتاعب.

على أن بسمارك عاد فغير رأيه تدريجاً وأصبح ينظر بعين الارتياح إلى التحالف مع إيطاليا نظراً لما يترتب على ذلك لألمانيا من بعض الفوائد. لكنه اقترح على النمسا أن تقوم هي بمفاوضات المعاهدة مع إيطاليا لأن الامبراطورية الألمانية لم تكن تتأخم إيطاليا ولم تكن لها كالنمسا مصلحة مباشرة في طائفة من المشاكل الواجبة الحل. ولذا قيل للسفير الإيطالي في برلين أن مفتاح الباب المؤدى إلينا ينبغي أن تبحث عنه إيطاليا في فينا. وعلى هذا أسفرت المفاوضات النمسية الإيطالية في النهاية عن معاهدة المحالفة الثلاثية التي عقدت في فينا في يوم ٢٠ مايو سنة ١٨٨٢.

وقد جاء في ديباجة المعاهدة أن ألمانيا والنمسا وإيطاليا «نظراً لرغبتهم في تعزيز ضمانات السلام وتقوية مبدأ الملكية... قد اتفقن على عقد معاهدة لا ترمى بمقتضى صفتها المحافظة الدفاعية إلى شيء سوى صياتهم مما عسى أن

تعرض له سلامة بلادهن أو سلام أوروبا من الأخطار ، ومع ان المعاهدة لم تتضمن صراحة بقاء الالزاس واللورين في حيازة ألمانيا ضد فرنسا ولا روما في يد ايطاليا ضد مطامع البابا في استعادة سلطته الزمنية ، إلا أن كل دولة أملت أن يكون هذا كذا .

وتنص المادة الأولى على أن لا تعقد الدول المتعاقدة السامية مخالفة أو ترتبط بشيء ضد مصلحة أية منهن وأن يتعهدن بالتشاور في الشؤون السياسية والاقتصادية ذات الصفة العامة كلما دعت الحال إلى ذلك وأخيراً أن تعد كل منهن الأخرى بتقديم المساعدة المتبادلة في حدود مصالحهن . ولقد أتى أندراسى بتاتا في مفاوضات المحالفة الألمانية النمسية سنة ١٨٧٩ أن يعد بأن تقدم النمسا مساعدة حرية فيما لو هاجمت فرنسا ألمانيا إلا إذا انضمت روسيا لفرنسا . وفي سنة ١٨٨٢ حذا خليفة اندراسى حذوه ، ومن ثم اقتضت المادة الثانية على أن يكون ارتباط النمسا فيما يتعلق بإمكان إعتداء فرنسا بإيطاليا وحدها بينما كانت ارتباطات ألمانيا وإيطاليا متبادلة . وهذا ما نصت عليه المادة المذكورة : في حالة ما إذا هاجمت فرنسا إيطاليا لسبب ما وبدون تحرش من الأخيرة يكون الطرفان المتعاقدان الآخران ملزمين بتقديم كل ما يستطيعان من المساعدة . وتتعهد ايطاليا بمثل هذا فيما لو اعتدت فرنسا على ألمانيا دون تحرش مباشر .

واحتاطت المادة الثالثة لخطر ائتلاف فرنسا بالروسيا فنصت على أنه إذا اتفق أن هوجمت دولة أو دولتان من الدول المتعاقدة السامية دون تحرش مباشر أو اشتبكت في حرب مع دولتين أو أكثر من الدول العظمى غير الموقعة على هذه المعاهدة فإن حالة التحالف تنشأ في نفس الوقت بالنسبة لكل الأطراف السامية المتعاقدة .

ونصت المادة الرابعة على انه في حالة ما إذا هددت إحدى الدول العظمى غير الموقعة على المعاهدة الحالية سلامة أملاك إحدى الدول المتعاقدة وألغى



الطرف المهدد نفسه مضطرا إلى إعلان الحرب عليها تتعهد الحليفتان الاخرتان بالتزام الحياد المشرب بروح العطف نحو حليفتهما مع احتفاظ كل منهما بحق التدخل في الحرب إلى جانب الحليفة إذا رأت من المناسب أن تفعل ذلك . أما المادة الخامسة فقد أريد بها التضامن في العمل وبذا نصت على أنه في حالة تهديد سلام إحدى الدول المتعاقدة السامية بالشكل الذي أشير إليه في المواد السابقة تتشاور الأطراف السامية المتعاقدة في الوقت المناسب فيما يمكن اتخاذه من الاجراءات العسكرية بقصد التعاون في المستقبل وفي حالة اشتراك جميعا في الحرب تتعهد كل منهن بأن لا تعقد الهدنة أو الصلح أو أية معاهدة إلا باتفاقهن جميعاً . وقد جعلت مدة المحالفة خمس سنوات وتعهد الجميع بابقاء محتوياتها ووجودها نفسه في طي الكتمان .

لقد كانت المحالفة الثلاثية في مبناها وفي أصلها دفاعية بحتة ، وكانت غايتها الأولى الاحتفاظ بالسلام الأوربي . وقد أصبح هذا معلوما الآن من المفاوضات التفصيلية الخاصة بتكوينها كما أذاعها بربرام من دار المحفوظات النمساوية وكما وردت في الوثائق الألمانية الموسومة « بالسياسة العليا » . حتى المؤرخين الفرنسيين أصبحوا الآن يسلون بالصفة الدفاعية للمحالفة مع أنهم كما تعلم ليسوا ممن يحبون بسمارك . ولقد أشار بسمارك نفسه إلى هذا التحالف في رسالة لم يكن يتوقع أبدا أن تذاع على الملأ فقال « عصبتنا السلبية » . وإذا كانت ألمانيا قد راعت أتم مراعاة ما لهذه المحالفة من الصفة الدفاعية فان النمسا وايطاليا حاولتا أن تستخدماهما فيما بعد في أغراض عدوانية . فقد طلبت ثانيتهما حماية ألمانيا للمصالح الإيطالية في مراكش من تدخل الفرنسيين فلم يسع بسمارك إلا أن يرد عليها بحدة قائلا : « نحن لا يسعنا أن ندع أحدا يتوقع منا السعي إلى مغاضبة فرنسا أو إلى مواجهة أوروبا بامكان وقوع حرب واسعة النطاق لا شيء سوى مخاوف مهمة تساور ايطاليا على مصالحها ليست قائمة . مخاريف تدل أيضا على آمال لها في المستقبل تتعلق بمراكش أو البحر الأحمر

أو تونس أو مصر أو أية ناحية من نواحي العالم .  
وقد أغضبت إيطاليا حليفتيها الجديدتين عند ما استولت على مصوع في سنة ١٨٨٥ دون اخطارهما من قبل بنيتها . ثم شكت لما أن حان الوقت لتجديد المحالفة من أنها لم تجن ثمرة منها فأجابها بسمارك في جفاء بأن المحالفة لم تعقد لجر المغنم بل لصيانة سلام أوروبا . ولما لمحت إلى أنها تريد من حليفتيها وعدا بتأييد أوسع كضمن لتجديد المحالفة أخبرها بسمارك بآدىء الرأى بأن لها الخيار فى تجديد المحالفة كما هى أو الخروج من التحالف ولكنه عاد فعدل عن هذا الرأى فى سنة ١٨٨٧ عند ما توترت العلاقات بين فرنسا وألمانيا وهددت إيطاليا حليفتيها بالتحول إلى جانب فرنسا إن لم تحفلا بمطالبها . هنا أبدى بسمارك ميلا إلى التسليم بمطامع إيطاليا فى شمالي أفريقيا وذهب إلى حد الضغط على النمسا بأن تقبل مبدأ تخويل إيطاليا حق مشاركتها فى تقرير مصير البلقان والسواحل العثمانية وجزر الأدرىاتيك وبحر ايجيه .

كذلك حاولت النمسا بعد سنة ١٩٠٦ فىما يتعلق بالبلقان أن تستخدم المحالفة لغايات هى أدنى إلى العدوان منها إلى السلام . وليس فى وسعنا أن نبحث هنا تفاصيل هذا التحول الأخير عن الصيغة الدفاعية الأصلية للمحالفة الثلاثية ، فإن هذه التفاصيل لا تغير شيئا من الواقع وهو أن بسمارك لم تحده مرة نية استخدام المحالفة فى عمل عدوانى تقوم به ألمانيا ضد فرنسا . ولقد كان من الصعب لسوء الحظ اقناع فرنسا بذلك لأن ابقاء الشروط فى طى الكتمان جعل فرنسا بطبيعة الحال تشتهب فى أنها خطر عليها . وقد ضاعف هذا الارتياب زيادة التسليحات الألمانية والإيطالية فى سنة ١٨٨٠ زيادة سريعة عدا لهجة التحدى التى كانت تسمع من بسمارك فى عهد بولانجيه . فبقاء مواد المحالفة سرا مكتوما وما صاحب ذلك من المبالغة فى الارتياب كان سببا كبيرا لتسميم العلاقات بين ألمانيا وفرنسا وشق الطريق لعقد المحالفة الفرنسية الروسية .

## المحالفه مع رومانيا سنة ١٨٨٣

لم يكتف بسمارك بالمحالفه الثلاثية لآ كمال دائرة المعاهدات التي أراد بها ضمان سلام أوربا بل انتهز فرصة زيارة كارول ملك رومانيا وأحد أعضاء أسرة هوهنزرن لبرلين في صيف سنة ١٨٨٣ ليجس نبض النمسا في هلا يكون من المناسب والممكن أن يمتد « اتفاقنا السلمي مع ايطاليا إلى الشرق بحيث يتسنى لنا تحويل السياسة الرومانية إلى ناحية ثابتة توجه إليها سياسة الصرب والباب العالي في المستقبل . فكل الدول الأوربية ما عدا فرنسا وروسيا يههما اليوم الاحتفاظ بالسلام وستكون محالفتنا الثنائية على الدوام المحور الذي يدور عليه أى مشروع من هذا القبيل لحفظ السلام » . فلما أجابت النمسا بالقبول تحدث بسمارك ورئيس وزراء رومانيا حديثين طويلين فألفاه رجل خطابة وقول أكثر منه رجل عمل . فقد كان المسيو براتيانو شديد التلهف على ما عسى أن يعود على رومانيا من الفوائد من تحالفها مع الدول العظمى ، ولذا راح يندد علانية بدسائس الروسية في بلاد النمسا ورومانيا وبلغاريا وجعل يعلل نفسه بالأمانى والآمال كلها تصور مساعدة النمسا وألمانيا فذهب يتخيل أن غزو ايطاليا لنيس وسافوى وكورسيكا سيفتح الباب أمام رومانيا للحصول على دلتا الدانوب وبسارايا . لكن بسمارك اضطر الى أن يوقفه من هذه الأحلام اللذيذة وأن يفهمه أن المحالفه التي يسعى إليها ليست وسيلة للفتح بل هى أداة للحفاظ على السلام وأن الدول المتعاقدة ينبغى أن تعد بالامتناع عن كل عمل مثير يمكن أن يكدره . فان اشتعلت نار الحرب يوما ما برغم مساعيهم ضدها فسوف يتسع الوقت للكلام عن كيفية اقتسام الغنائم . فانكمش لذلك براتيانو وخفف من غلوائه ، ووقع في سنة ١٨٨٣ المحالفه الدفاعية المحضنة التي كانت تجول في ذهن بسمارك . وقد نصت المحالفه بين النمسا ورومانيا وهى التي كانت قاعدة انضمام رومانيا إلى المحالفه الثلاثية على معاوتتهما فيما لوهاجمت

روسيا أحدهما دون تحرش من جانبها . نعم إن اسم روسيا لم يذكر في نص المحالفة بناء على رغبة الامبراطور غليوم حتى لا يكون ذلك سبباً في ازدياد نفور العناصر السلافية فيما لو تسرب نبأ المحالفة ، لكنها كانت المقصودة فعلا بالمحالفة المذكورة كما تدل المفاوضات في جلاء . وقد عقدت ألمانيا في اليوم نفسه اتفاقاً تعهدت فيه النمسا ورومانيا بمثل ما تعهدت به كل منهما حيال الأخرى . وقد جعلت مدة المحالفة خمس سنوات واتفق على أن تبقى سرية وأن تصبح من تلقاء نفسها قابلة للتجديد مدة ثلاث سنوات أخرى إن لم يطلب طرف من الأطراف الثلاثة الغاءها . وفي سنة ١٨٨٩ حذت ايطاليا حذو ألمانيا فانضمت الى المحالفة النمساوية الرومانية وأصبح الاتفاق الرباعي يحدد من وقت لآخر ( مع تعديلات بسيطة ) . وقد جددت المحالفة لآخر مرة في ٥ فبراير سنة ١٩١٣ حيث مدت الى ٨ يوليه سنة ١٩٢٠ . ولعل من الملائم أن نذكر بهذه المناسبة أن النمسا عقدت في يوم ٢٨ يونيه سنة ١٨٨١ معاهدة سرية مع صربيا وضعتها بها تحت حمايتها وسيطرتها طيلة عهد حاكمها ميلان أوريتنوفتش المعروف بميوله للنمسا أى لغاية سنة ١٨٨٩ . وهكذا انضمت دولة أخرى مؤقتاً الى دائرة نفوذ التحالف الثلاثي .

## انقطاع الصلة بالروسيا سنة ١٨٩٠

كان سلام أوروبا بين سنتي ١٨٧١ و ١٨٩٠ في مأمن من كل خطر بفضل سيطرة الامبراطوريات الشرقية وبفضل سلسلة المحالفات الدفاعية الصميمة التي عقدها بسمارك . لذلك لم يكن يخطر لدولة ما أن تجازف في حرب مع ألمانيا بقوتها العسكرية الهائلة تؤيدها وتؤمنها سلسلة من المحالفات السرية دفعت بالنمسا والروسيا وايطاليا ورومانيا بل وانجلترا إلى التعاون بدرجة ما مع ألمانيا وجعلت فرنسا في عزلتها المؤلمة لا تجرؤ على اشهار حرب الانتقام . أما انجلترا فمع استعدادها للتعاون مع دول التحالف الثلاثي

في البحر المتوسط لم تشأ الانحراف عن سياستها التقليدية القاضية بعدم التحالف بل ظلت تؤثر التمتع بسياسة توازن القوى بين ما عسى أن ينشأ في أوروبا من ائتلافات بين الدول . ولم يكن قد وجد اذ ذاك من ينازعها سيادة البحار ، تلك السيادة التي لم يكن لها غنى عنها سواء للتجارة أو لعلاقاتها الامبراطورية بمستعمراتها .

لكن إقالة بسمارك في مارس سنة ١٨٩٠ غيرت وجه الأمور وفتحت الباب لعقد تحالف بين روسيا وفرنسا حتى في خلال السنوات الثلاث التي سبقت ذلك . فإنه برغم معاهدة التأمين المجدد استفحل الشقاق بين ألمانيا وروسيا نظرا لتعقد الحالة في بلغاريا وللحملة التي أثارها الصحف الالمانية في وجه روسيا لأسباب مالية . بيد أن ولاء المسيو جيزر وزير الخارجية الروسية للمحالفه الألمانية وكرهية القيصر اسكندر لفرنسا كانا إلى وقت إقالة بسمرك حائلا دون ائتلاف فرنسا وروسيا وهو الكابوس الذي كان يقض مضجع بسمارك .

وفي شهر ديسمبر سنة ١٨٨٩ أي قبل انتهاء مدة المحالفه الألمانية الروسية بوقت طويل فكر البارون دي جيرز في هل ينبغي تجديدها وبأية صورة يكون هذا التجديد ذلك أن تلك المحالفه كانت تلوح أجدى على المصالح الروسية في البلقان من محالفه تعقد مع فرنسا لأن مثل هذه المحالفه خليقة أن تهدد السلام بتشجيع المتعصبين في فرنسا وبتسوئة العلاقات بين الفرنسيين والألمان . ومن ثم تباحث الكونت شوفالوف مع بسمارك مباحثة ودية في يوم ١٠ فبراير سنة ١٨٩٠ وحذ كلاهما تجديد المحالفه . وقد قال بسمارك عنها « إنها وثيقة تحدد بوضوح السياسة التي نسلكها والتي أرى عدم تغييرها بحال ما » . بيد أن الاختلاف في المزاج والسياسة بين المستشار الطاعن في السن ومولاه الشاب المتعطرس كان وشيك الانفجار وهو ما حدث في يوم ١٧ مارس . وقد استولت الحيرة على شوفالوف بعد خروج

بسمارك من الحكم وأصبح لا يدري ماذا يفعل حتى أرسل في تقرير يقول « إن ما يجري في برلين لا يكفي وصفه بأنه غريب وهو خليق بأن يحمل المرء على أن يتساءل هل الامبراطور الشاب في حالة عادية ، . وفي ليل ٢١ مارس استيقظ السفير على صوت رسول من لدن الامبراطور غليوم يكلفه بمقابلة جلالته في الساعة الثامنة من صباح الغد . ولم يكديصل حتى رحب به الامبراطور وتلطف معه ثم بادره بقوله « أرجو أن تجلس واصغ لما أقول . أنت تعرف مبلغ حبي واحترامى لمولايك وامبراطورك وقد كان معى طيبا متناهى الطيبة إلى حد لا أستطيع معه إلا أن أحيطه شخصيا علما بالموقف الذى نشأ عما وقع أخيرا من الحوادث . وإنى أرجوك أن تبلغ جلالته انى ميال كل الميل إلى تجديد اتفاقنا وأن سياسة حكومتى الخارجية باقية وستبقى كما كانت فى عهد جدى » . فلما اطلع قيصر روسيا على رسالة شوفالوف أشر عليها « بأنه ليس ثمة أدعى إلى الرضى من هذا وسيرينا المستقبل هل تطابق الأفعال الأقوال ،

لكنه عندئذ ظهر نفوذ البارون فون هولشتين السىء وتشككه البليغ . فقد وضع مع مستشار آخر من مستشارى وزارة الخارجية الألمانية مذكرة ضافية حبا أطرافها ضد تجديد المحالفة وأحسنا سبك النظريات فى هذا الصدد فتمكنا من اكتساب الامبراطور ومستشاره الجديد كابريني وإذ ذاك تقرر فى برلين فى يوم ٢٧ مارس وقف المفاوضات لتجديد الاتفاق « لأن شروط معاهدة التأمين المجدد متضاربة مع معنى المحالفة الثلاثية إن لم تكن منافية لمبناها ، ولأنه إذا أذيعت نصوصها من جراء اهمال يأتى عمداً أو عفوا عرض هذا المحالفة الثلاثية للخطر ، وجعل انجلترا تشيح بوجهها عنا » ولذا أرسلت دعوة مستعجلة إلى شفينتز السفير الألماني فى سان بطرسبورغ للعودة الى برلين لاستشارته فى الأمر . ولم يكن السفير يخشى أن تتعمد روسيا اذاعة محتويات المحالفة ولكنه كان يخشى أن تضيعها ناحية أخرى

ولعله كان يقصد بسمارك . فلما عاد الى سان بطرسبورغ في اليوم التالي وأطلع ولاية الأمور فيها على جواب ألمانيا السلبى لم يبد على القيصر شىء من عدم الارتياح . لكن وزير الخارجية جيرز استولت عليه الحيرة لأن ضعفه وتقدمه فى السن جعله يخشى أن يقوى فى عهد خلفائه نفوذ رجال العسكرية ودعاة الجامعة السلافية فيعرض العلاقات السلمية بين ألمانيا وروسيا للخطر ومن ثم كان يؤمل أن يقيد خلفاءه بمعاهدة . وهذا ما جعله يستأنف البحث فى الموضوع بعد مرور ستة أسابيع ، مبلغاً ألمانيا أنه على استعداد لأن يدخل على المحالفة ما تشاء من التعديلات أو أن يقتصر الأمر على تبادل المذكرات أو على الأقل على أى اتفاق كتابى بين البلدين . وإذ تبين للسفير الألمانى أن اصرار ألمانيا على الرفض قد يدفع روسيا إلى الارتقاء فى أحضان فرنسا ، أشار بوضع أى اتفاق كتابى لا يتخذ ولو أذيعت نصوصه « سلاحاً ضدنا ، ولم تكذب برلين تتلقى هذه النصيحة حتى أفضى بسمارك الى أحد الصحفيين الروس بحديث أزعج وزارة الخارجية الألمانية وجعل أولى الأمر فيها يخشون أن يفشى المستشار السابق الموتور سر المحالفة حتى ولو حافظ عليها قيصر روسيا . ولذا عجل كبار الموظفين فى الوزارة المذكورة أمثال مارشال وهولشتين وكيدرلن وراشدا والى وضع مذكريات مستفيضة مجبدين عدم تجديد المعاهدة أو عقد ما يشبهها . فنزل الامبراطور غليوم وكابرينى على ارادتهم وأرسلت إلى السفير الألمانى فى روسيا تعليمات صريحة باهمال الموضوع بتاتا . وبذا أنهارت احدى الدعائم الكبرى من الميزان الذى أقامه بسمارك بين روسيا والنمسا . فلما أحست روسيا بعزلتها أصبحت أميل إلى سماع صوت الرجاء المنبعث من الراديكاليين الجمهوريين على ضفاف السين .

لقد بالغ المؤرخون على وجه العموم فى اعتبار عدم تجديد المحالفة عاملاً فى تكوين المحالفة الفرنسية الروسية . ويرجع هذا بعض الشىء الى بسمارك نفسه . فهذا الشيخ الشرس الوحيد الذى أجله الشعب الألمانى وعده نصف إله

بينما قد أهمله مولاه الشاب اندفع يسود انهار صحيفة هامبرجر ناخرشتن بمقالات تم عن سوء النية تدور كلها حول تسويغ سياسته الناجحة وتوجيه أقدع المطاعن إلى سياسة خلفائه . وهذا من بسمارك فساد في الذوق كان سبباً لأحراج غليوم الثاني وكابريفي جد الحرج . وقد فزع كلاهما لهذه الانتقادات فجاريه في خطته المنطوية على الغل بعمل يدل على الصغار وذلك أنه لما توجه بسمارك إلى فينا في سنة ١٨٩٢ لشهود زفاف ابنه هيربرت إلى الكونتس هويوس أمر كابريفي السفير الألماني في فينا بأن لا يحضر العرس وأن يعمل ما أمكن على ألا يستقبل الامبراطور فرانسوا جوزيف بسمارك . . .

ولأربع سنوات خلت من ذلك التاريخ أفشى بسمارك سر وجود معاهدة التأمين المجدد المعقودة في سنة ١٨٨٧ فحمل الحكومة بعمله هذا على إصدار مذكرة رسمية نددت فيها بهذا الافشاء وعدنه انتهاكاً لسر من أجدر أسرار الدولة بالكتمان وصدمة موجهة إلى مصالح أوروبا الخطيرة .

لقد اعتقد الناس أن المحالفة الفرنسية الروسية كانت نتيجة غباوة كابريفي لأنه لم يواصل سياسة سلفه القاضية باللعب بخمس أكر في وقت واحد . لكن من ينعم النظر في الوثائق الميسورة الآن يجد أن الدعاية التي روجها بسمارك والاتصال الظاهر بين حوادث ١٨٩٠ - ١٨٩١ هي التي ضللت المؤرخين . فالتحالف بين فرنسا والروسيا لم يكن نتيجة عجز كابريفي عن تجديد معاهدة التأمين وإنما يرجع إلى عدة عوامل منها نمو صناعة ألمانيا وانتشار تجارتها ومطامحها البحرية وتوسعها الاستعماري الذي جعلها تسلك الطريق الجديد المؤدى إلى الاستانة وبغداد وهو ما أغضب روسيا . وقد أدت رغبة الامبراطور غليوم في الحصول على قاعدة بحرية إلى عقد معاهدة هليجولند في يولييه سنة ١٨٩٠ فتوهمت روسيا خطأ أنها ستقرب ألمانيا من إنجلترا . وعامل آخر هو انتشار مبدأ الجامعة السلافية وتصميم روسيا على نسط سيطرتها على البلقان . فهذا أغضب النمسا وجعل من المستحيل على



برلين أن تواصل سياسة بسمارك القاضية بالاحتفاظ بالتوازن الدقيق بين فينا و بترسبورج . فلم يبق أمام غليوم الثانى إلا أن يختار بين روسيا والنمسا فوقع اختياره على ثانيتهما فكانت النتيجة المنطقية أن أصبحت روسيا عدوة لدولتى الوسط . نخطأ خلفاء بسمارك كما قال أحد الكتاب الألمان العارفين بحقيقة الأمور لم يكن فى فتور العلاقات بين ألمانيا وروسيا فان ذلك كان لا بد منه على كل حال ، وإنما كان فى عجز السياسة الألمانية عن كسب صداقة إنجلترا والايقاع بينها وبين منافسيها الطبيعيين الروس والفرنسيين والوصول معها إلى تفاهم معقول فى صدد الشؤون البحرية والاستعمارية . وهناك عامل ثالث وهو فكرة الانتقام التى تملكته نفوس الفرنسيين واستتباب الأمور تدريجاً فى الجمهورية الفرنسية فقد استقرت فرنسا أخيراً استقراراً جعل القيصر ميالا إلى التغلب على كراهيته محالفة الحكومة الثورية التى لم تغفر لألمانيا أبداً ذلك الجرح الأليم الذى أدمتها به فى سنة ١٨٧١ .

## العلاقات الألمانية الفرنسية من سنة ١٨٧١ إلى ١٨٩٠

لقد كانت فرنسا بين الدول الأوروبية وحيدة كالفتاه المنبوذة فى حلبة الرقص ترقب ألمانيا وهى ترقص مع الكثيرين . وقد حكم عليها بالعزلة من جراء ما اتت بها من الضعف بعد الهزيمة وما كان بسمارك ياجأ إليه من الأساليب لابقائها بلا صديق . هذا إلى أن نظام الحكم الجمهورى فيها لم يكن وطيداً وهو النظام الذى كان ملوك أوروبا يرمقونه بالنظر الشرر . وقد كان عليها أن تطيق مذلة بقاء الجيوش الألمانية فى أرضها وما لا مفر منه من الاحتكاك إلى أن تدفع الغرامة المفروضة عليها وقدرها مليار ريال . ولم تكن فرنسا إلى ما قبل انتشار الفزع من وقوع الحرب فى سنة ١٨٧٥ تدرك أن هناك جيراناً شرفاء إن لم يكونوا على استعداد لاحتضانها فقد كانوا على الأقل

لا يرضون بالوقوف موقف المتفرج إذا هي هددت أو عمل أحد على سحقها .  
فقد أبلغ قيصر روسيا اسكندر الثاني السفير الفرنسي الجنرال لي فلو في  
كياسة « أن مصالح بلدينا مشتركة وانك ستعرف ذلك عاجلاً وستعرفونه  
منا إذا ما هددتم يوماً تهديداً خطيراً وهو ما لا أعتقد » . كذلك أذاعت  
الملكة فيكتوريا أنها في هذا الصدد تشاطر القيصر رأيه . بيد أن واحدة  
من هاتين الدولتين لم تكن بعد مستعدة لتوثيق علاقاتها بالجمهورية الفرنسية :  
فاسكندر الثاني بطبيعة كرهه للنظام الجمهوري كان يؤثر التضامن الملكي  
الذي كان حلف البراطرة الثلاثة يمثله وكانت المسألة الشرقية تستغرق  
انتباهه حيث صداقة ألمانيا أقوم عنده من تأييد فرنسا . كذلك كان حصول  
الإنجلترا على قناة السويس وما تلا ذلك من احتلال مصر سبباً لنشوء حالة  
جعلت توثيق العلاقات بين الإنجليز والفرنسيين مستحيلاً في الواقع مدة  
ربع قرن . ولقد بذل بسمارك فيما بين سنتي ١٨٧٥ - ١٨٨٥ كل جهد مع  
ذلك لا اكتساب ود فرنسا وجعلها تقبل بلا تحفظ تسوية سنة ١٨٧١ ليحملها  
على نسيان الالزاس واللورين وليطمئن بال ألمانيا من جهة حرب الانتقام  
وقد كان ميالا في سبيل تحسين العلاقات بين البلدين الى أن يزوره المسيو  
غامبتا الذي كان يعتبر أس فكرة الانتقام إلى يوم وفاته في سنة ١٨٨٢ .  
ولما عين المسيو سان فالير سفير فرنسا في برلين في سنة ١٨٧٨ غمره بسمارك  
بالتفاته وتعطفه حتى جعل الناس يتحدثون عن عصر جديد في تاريخ  
العلاقات الفرنسية الألمانية . وفي مؤتمر برلين أكد بسمارك لفرنسا كما  
أكد لها في مناسبات تالية كثيرة أنه مستعد لمساعدتها سياسياً إذا هي أرادت  
حماية حدودها في الجزائر بالاستيلاء على تونس .

وفي مناسبات تالية شجع بسمارك فرنسا بنفس هذه الطريقة على بسط  
نفوذها الاستعماري في جهات أخرى من أفريقية والصين . وكل ذلك أملاً ، كما  
تدل مذكراته المنشورة أخيراً ، في حمل الفرنسيين على نسيان الالزاس واللورين

بصرفهم الى أعمال استعمارية خارج أوروبا . وقد كلف ممثل ألمانيا في مؤتمر مدريد الخاص بالمشكلة المراكشية أن يسير يداً بيد مع فرنسا التي أنشأت لها في مراكش مصالح بحق نظراً لممتلكاتها المجاورة في الجزائر ، مما جعل السفير الفرنسي يقدم خالص الشكر . وقد كتب بسمارك في تعليماته إلى السفير الألماني في باريس بتاريخ ١٦ يوليو سنة ١٨٨١ يقول : « إن في البحر الأبيض المتوسط متسعاً لإطلاق يد الفرنسيين . وليس يعيد أن ترى السياسة الفرنسية في النهاية أن صداقة الامبراطورية الألمانية بملايينها الخمسة والأربعين أقوى وأجدى على الفرنسيين من مليون الزاس ولورين . فلتأكد فرنسا أننا لن نتأهض سياستها الحقة في التوسع في البحر الأبيض المتوسط . ولتعتقد أن روسيا ستقف نفس موقف ألمانيا ، فهذه التعليمات تدلك على خلوص طوية بسمارك في سعيه الى مصالح فرنسا مصالحة أكيدة في خلال السنوات التي تلت مؤتمر برلين .

وقد رفض مساعدة أسرة عبد القادر الزعيم الجزائري البطل اكراما لفرنسا وغض الطرف عن اسراف الفرنسيين في النعرة الوطنية وكلف سفراءه وأوعز الى الصحف الألمانية بأن لا تأبه للحملات العنيفة التي كانت توجهها الصحف الفرنسية وبعض الجمعيات الوطنية إلى ألمانيا قائلاً إنه خير أن نلتزم حول هذه الأمور الصمت التام . وقد بعثه انفعاله من تواطؤ إنجلترا في مسألة جنوب أفريقية الغربي ورغبته في التقرب الخالص من فرنسا على ابداء استعداده للتعاون مع فرنسا في مؤتمر يتناول المسألة المصرية ومسائل استعمارية أخرى في أفريقية . وفي سنة ١٨٨٤ راجت الاشاعات عن احتمال التعاون البحري بين الدولتين تعاوناً قد يفضي الى محالفه . لكن الفرنسيين كانوا يرتابون في بواعث بسمارك المكيفاليه ويشتهون في أنه يريد أن يوقعهم مع إنجلترا . هذا إلى ما كان السفير الفرنسي لا يفتأ يرفضه من اعتبار فقدان الألزاس واللورين نهائياً لا نزاع فيه . قال « فقد أعربت للمستشار نفسه عن أنه

لا الالزاس ولا اللورين ينبغي اعتبارها مسألة يمكن النظر فيها بيننا وأن هنالك منطقة ينبغي أن لا تنفذ اليها لأننا لا يمكن أن نتفق عليها ، هذا الموقف المنطوقى على العناد والأباء يحمل سبباً من الأسباب الجوهرية فى سقوط أغصان الزيتون التى كان بسمارك يلوح بها . وهنالك سبب آخر هو الريبة وسوء الظن الخفيان اللذان كان كل فريق يقابل بهما إقتراحات الآخر . وقد كان من جراء ذلك أن فترة الود النسبى الذى اصطبغت به العلاقات الفرنسية الألمانية فى عشر سنوات واقعة بين سنة ١٨٧٥ و ١٨٨٥ تلاشت وحل محلها التوتر الذى لازم عهد بولانجيه . فأن الجنرال بولانجيه الذى عين وزيراً للبحرية فى يناير سنة ١٨٨٦ فى وزارة المسيو فريسينه سرعان ما أصبح فى نظر الجماهير الفرنسية رمزاً للاتعاش العسكرى والأمل فى الانتقام . فأنه بعد أن تحملت فرنسا عزلتها وذاتها مدة خمسة عشر عاماً طويلة مريرة أخذت تنصت كأن على رؤوسها الطير إلى ذلك الرجل الممتطى صهوة جواده وهو يعلن فى خطبه الحماسية وفى صحيفته « فرنسا العسكرية » « إننا لا ننسى أنهم بانتظارنا فى الالزاس واللورين » . ولقد كانت الوزارات الفرنسية عرضة للسقوط فى خلال الشهور الخمسة عشر التالية لكن هذا لم يحل دون مطالبة الرأى العام دائماً بأن يكون بولانجيه فى كل وزارة جديدة . وقد جعل غايته فى خلال هذه المدة أن يزيد عدد وحدات الجيش الفرنسى ويقويها بمختلف الوسائل فابتاعت وزارة الحربية كتل الخشب لإنشاء الثكنات الجديدة وجمىء من ألمانيا بمقادير زائدة من حمض البكريك لصنع المفرقات ، واسترجعت الجنود الفرنسية تدريباً من الصين ومن أفريقية . ومع أن الوزارة كانت منشقة على نفسها إلا أن بولانجيه أقنعها أخيراً بالموافقة على تعبئة جزئية على سبيل التجربة . فلما وجد رجل فرنسى أخف غلواء منه وأكثر تقديراً للعواقب مثل المسيو روفيه وكان له من شجاعته ما جعله يشكل وزارته فى مايو سنة ١٨٨٧ دون

بولانجيه لم يؤد عمله هذا إلا الى مضاعفة تعلق الجمهور ببولانجيه وما يجره هذا من الخطر على سلام البلاد في الداخل والخارج . وقد كان يظهر في شوارع باريس أمام الجماهير المتهلهة ويرشح نفسه مراراً في الأقاليم لعضوية مجلس النواب فكان بذلك يوجد تدريجاً نوعاً من الاستفتاء الفرنسي لمصلحته . وكان وقتئذ آلاف من الناس يتطلعون إلى سقوط النظام الجمهوري لاستسلامه الى ألمانيا ومسالمة لها لتحل محله ديكتاتورية على رأسها القائد الشجاع . وزاد النعرة الوطنية في فرنسا إستعاراً ما كان يلقيه بول ديروليد من خطب نارية وما كانت عصبة الوطنيين تقوم به من أعمال . فضلاً عن المقالات الافتتاحية الشديدة اللهجة التي كانت تنشأ أغلب الصحف الفرنسية . هذا وبسبب يقف من الملحق الحربي الألماني في باريس على كل هذه المظاهرات الفرنسية الوطنية بالتفصيل في حين كان السفير الألماني في العاصمة الفرنسية الكونت مونستر يتوخى مع ذلك إرسال تقارير معتدلة عن سير الحالة في فرنسا كانت أدعى من تلك الى الاطمئنان وإن كان قد سلم بأن هناك تعطشاً غير عادي إلى الانتقام بين أفراد الشعب لكنه كان يرى أن هذا الشعور مفتعل وأن في قرارة الشعب الفرنسي كراهية حقيقية لهذه « الحرب المقدسة » مهما يكن من حديث الصحف والاجتماعات العامة عنها . وكان من رأيه أن انصار الجمهورية في الأقاليم متعلقون بأهداب السلم وأنه ليس لبولانجيه الخطورة التي ظنها الناس وأنه لا يسعه إقامة ديكتاتورية وأنه مهما يكن شعور الكافة فان الحكومة ترغب حقاً في السلام خوفاً من بطش ألمانيا ، فضلاً عن ان فرنسا في حالة فقر لا تستطيع معها المغامرة بالحرب وأن الخدمة العسكرية ليست محبوبة إلى هذا الحد كان إعتقاد سفير ألمانيا بعدم إمكان قيام بولانجيه بانقلاب حكومي أو هجوم على ألمانيا حتى أنه أقدم على خطوة غير مألوفة فبعث بآرائه هذه في كتاب خاص إلى الامبراطور غليوم الأول

على أن بسمارك لم يقتنع على الاطلاق بتشخيص السفير للحالة في فرنسا وعنفه على مخاطبة الامبراطور مباشرة في الموضوع مما جعل السفير يوافق على عدم إيصال الخطاب الى جلالاته . وقد كان تشكك بسمارك في نيات فرنسا راجعاً بعضه إلى عدة أسباب منها تاريخ فرنسا وما حدث في عهد الامبراطورية الثانية عند ما كان نابليون الثالث يتكلم عن السلام ويشعل نار حرب بعد أخرى . كذلك ترجع عدم ثقته بفرنسا إلى اخفاقه في الوصول إلى التفاهم معها قبل ظهور بولانجيه . وهناك سبب آخر هو ما نرى إليه في سبتمبر سنة ١٨٨٦ من أن بعض من تصطنعهم الروسيا يجسسون تبض باريس في عقد محالفة روسيه فرنسية ، وقد أرسل فوراً الى بطرسبورج ينقض صحة الخبر . ولما دارت المفاوضات عقب ذلك بقليل لعقد معاهدة التامين المجدد أرخى للروسيا العنان كثيراً فيما يتعلق بمطامعها في الاستانة أملا في إبعاد القيصر اسكندر الثالث عن فرنسا وإبقائه على صداقته الثابتة لألمانيا

وسبب آخر لعدم أخذ بسمارك بآراء منستر المنطوية على التفاؤل هو أنه كان يستعد لأن يعرض على الريخستاج المشروع الخاص بالجيش عن سنة ١٨٨٧ كان يريد به زيادة عدد الجيش الألماني زيادة عظيمة . فنشاط الدعاية الوطنية الفرنسية كان من أهم الأسباب التي تضمن لبسمارك الموافقة على مشروعه فاذا كان السفير مصيباً ضعفت حجته في طلب زيادة الجيش ، ولذا أثر الأخذ بأقوال الملحق العسكري الألماني في باريس . وقد وافق الريخستاج على المشروع فضاغف بذلك ارتياب فرنسا وروسيا وسوء ظنهما بما كان يصاحب دائماً كل زيادة في تسليحات ألمانيا . وكانت النتيجة أن انفقتا على تسليحهما اعتمادات أخرى واسعة النطاق مما جعل ألمانيا ترتضى زيادة جديدة في العام التالي . وقد بلغ القلق والتحدث عن الحرب على جانبي الرين مبلغاً أدى الى إثارة الخواطر في ربيع سنة ١٨٨٨ كما أثرت في سنة ١٨٧٥

خشية الحرب. وفي ١١ يناير سنة ١٨٨٨ التي بسمارك خطبته الشهيرة في  
الريخستاج فأعلن أن ألمانيا برغم زيادة التسليحات الألمانية لا تنوى الحرب  
مطلقا لا ضد روسيا ولا ضد فرنسا .

على أن الحكمة وتقدير العواقب سادا الرؤوس في باريس برغم ما أثارته  
بعض الحوادث في نفوس البلدين فتلاشت سمعة بولانجيه بنفس السرعة التي  
ارتفعت بها في أعين الناس ونخف التوتر بين فرنسا وألمانيا. لكن هذه  
الفترة هي التي بدت فيها طلائع التقرب بين فرنسا وروسيا وهو ما تناول  
فيما بعد انجلترا أيضاً وكانت نتيجةه ايجاد الوفاق الودي الثلاثي. وهكذا أخذت  
سيطرة الامبراطوريات الشرقية في التلاشي .

## الفصل الثالث

نظام المحالفات السرية بين سنة ١٨٩٠ و ١٩٠٧

تكويين الوفاق الودى الثموى

التقرب بين فرنسا وروسيا ١٨٨٧ - ١٨٩١

لم يكن الوفاق الفرنسى الروسى الذى عقد فى سنة ١٨٩١ ثم تحول فى سنة ١٨٩٤ إلى محالفة الا نتيجة طبيعية لما كان يحدو الدولتين ضد ألمانيا من الريب والشعور بالعزلة والانفعال . لهذا كان تقربهما برغم ما بين نظامى الحكم فى باريس وسان بطرسبورغ - وهما الجمهورى والمطلق - من تباين جوهرى بمثابة الموازنة للمحالفة الثلاثية . فان القيصر اسكندر الثالث مع ما أظهره بسمارك نحو روسيا من السخاء فيما يتعلق بمحالفة البراطرة الثلاثة ومعاودة التأمين لم يتمالك نفسه من الانفعال الشديد لاختيار فرديناند أوف كوبرج أميرا على بلغاريا .

ولقد تردد فرديناند فى قبول عرش بلغاريا أو تظاهر على الأقل بالتردد . غير أن القيصر اعتقد أن دسيسته من جانب بسمارك تنطوى على الغدر حملت فرديناند على قبول هذا العرش نهائيا . وعلى أن بسمارك أعلن صراحة أنه لا مصلحة لألمانيا فى بلغاريا وأن للروسيا مطلق الحرية فى أن تفعل ما تشاء ، فقد قيل إن سفير ألمانيا فى فينا كتب سرا إلى فرديناند يؤكد له تأييد ألمانيا له ضد روسيا إذا استقر رأيه على قبول عرش بلغاريا وأن كتابه وقع فى أيدي الفرنسيين فأبلغوا القيصر اياه . وقد أكد بسمارك للقيصر فيما بعد أن هذا الكتاب مزور ، ومع ذلك فانه لا شك فى أن القيصر اسكندر الثالث لبث وقتا ما يحدوه نفس ما كان يحدو الفرنسيين من المرارة نحو بسمارك .



فهو لم يكن يستطيع التوفيق بين ما أكده بسمارك من أنه لا ناقة له ولا جمل في الاستانه والبلقان وبين ارساله ضباطا من الالمان لتدريب الجيش التركي فضلا عن الاستقبال الحماسى الذى قوبل به القائد التركى مختار باشا أثناء المناورات الألمانية. والقيصر اسكندر الثالث كالفرنسيين كان الجهر بتجديد المحالفة الثلاثية فى سنة ١٨٨٧ سببا لأرتيابه وانفعاله لأن شروطها كانت سرية وهذا ما حمله بطبيعة الحال على اقتراض أنها تشتمل مشروعات هجومية من جانب النمسا وايطاليا تعارض مطامع روسيا فى شرق البحر الأبيض المتوسط.

ثم أن كريسبي الذى تولى رئاسة الوزارة الإيطالية فى يوليه سنة ١٨٨٧ بعد تجديد المحالفة الثلاثية بقليل تظاهر بزيارة فينا لكنه قصد إلى زيارة بسمارك فى فريدريكسروه وقد صرح عند عودته لمراسل الفرانكفورتر تسايونج أن إيطاليا تتمنى الخير لبلغاريا ولكنه لا يمكن أن يوجد ثمة شك فى أن لدى إيطاليا ككل دولة أوربية أخرى من الأسباب ما يحملها على الخوف من تقدم روسيا نحو الآستانة. « إذ ليس يسعنا أن نسمح بأن يصبح البحر المتوسط بحيرة روسية » زد على هذه الشكاوى أن روسيا ألفت فجأة فى صيف ١٨٨٧ أن سعر الروبل أخذ يتدهور وبدأ لها أن هناك حملة منظمة فى صحف برلين ضد السندات الروسية. وقد خطر للروس أن بسمارك هو مدبر هذه الحملة فازداد ميلهم إلى الاستسلام لرغبة دعاة الجامعة السلافية فى الاقتراض من باريس. وكانت فرنسا وقتئذ تدير أعينها للبحث عن سوق توظف أموالها فيه. فسرعان ما تألفت فى باريس شركة من مديرى البنوك بدأت المفاوضات لعقد سلسلة قروض سائرة فى فرنسا لروسيا. وقد بلغ أولها خمسمائة مليون فرنك ووافقت عليه الحكومتان. وقد نظرت ألمانيا إلى هذا الاجراء شذراً بطبيعة الحال وتوقعت له نتائج سياسية. وعلى الرغم من تشييط الصحف الألمانية همم الناس عن الاشتراك فى القرض فقد

نجح نجاحاً هائلاً شجع الروسيين في العام التالي على عقد قرضين أحدهما بمبلغ سبعمائة مليون فرنك والثاني بمبلغ ١٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك فنجح القرضان أيما نجاح . وهكذا سلكت فرنسا الطريق المالى فأدى بها هذا الطريق إلى أكثر مما كانت تتوقع إذ ذاك وجعل من المحتوم أن يرى الآلاف من أبنائها مصلحة لهم من الوجهتين المالية والسياسية في مطامع روسيا . وبعد أن مهد الطريق المالى خطت فرنسا الخطوة التالية بتزويد روسيا بالمدافع إذ كان الغراندوق فلاديمير شقيق القيصر اسكندر الثالث يزور فرنسا فاطلع على حالة الجيش الذى كان المسيو فرنسينه قائماً بتنظيمه فأعجبه كثيراً بنادق لييل فأعطى منها انموذج بناء على طلبه وسرعان ما بدأت المفاوضات بعد ذلك وأمضى عقد بأن تصنع فرنسا للروسيا نصف مليون بندقية شبيهة بسلاح لييل .

ولم يكن غليوم الثانى أو مستشاروه في وزارة الخارجية يظنون أن الانصراف عن معاهدة التأمين المجدد ستتلوه مخالفة فرنسية روسية . بيد أن الامبراطور لكى يبعد هذا الاحتمال شرع يسلك مع فرنسا المسلك الودى الذى سلكه بسمارك نحوها في خلال مؤتمر برلين وبعده . فجعل يجاملها بمجاملات عدة تنطوى على حسن النية : يهنئها ويعزيها في مختلف المناسبات . واعترف بحمايتها على مدغشقر وأيدها سياسياً في مسائل أخرى استعمارية لم يكن للألمان فيها مصلحة . . ورتب لوالدته الامبراطورة فريدريكا زيارة لباريس أدت على غير ما توقع، إلى مظاهره عدائية كادت تفضى إلى فضيحة خطيرة لولا همة الحكومة الفرنسية وسفر الامبراطورة من باريس قبل الموعد المقرر . وقد كان هذا الحادث باعثاً من جديد على اثاره النعرة الوطنية وتحريك الرغبة في توثيق العلاقات مع روسيا .

كذلك كان الامبراطور يسعى في أن يقوم بينه وبين روسيا علاقات الود القديمة فكان يسرف في التأكيد بأن سياسة المانيا لن يطرأ عليها أى

تغير من جراء إقالة بسمارك . بيد أن الروسيين كانوا في الواقع قد جعلوا يشتبهون في أن ألمانيا تتقرب من إنجلترا . ثم جاءت زيارة الامبراطور لانجلترا في صيف ١٨٩٠ دليلاً جديداً على الطريق الذي تهب فيه الريح . وقد أشار الامبراطور إلى المحالفة الثلاثية في افتتاح الريخستاج بتاريخ ٦ مايو سنة ١٨٩٠ فكانت إشارته هذه مع القانون الجديد الذي زاد الجيش الألماني ١٨٠٠٠ رجل ، سبباً لقلق الروسيين والفرنسيين على السواء وإن كان قد تكلم فيها عن المحالفة باعتبارها ضماناً للسلام العالمي

### المحالفة الروسية الفرنسية سنة ١٨٩٤

كانت الحالة العامة كما رأيت عند ما بدأت روسيا في آخر الأمر تصغي بصفة جدية إلى اقتراحات الفرنسيين بتوثيق العلاقات بين البلدين . ومن المهم بالنظر إلى الصورة التي صيغت فيها المحالفة الفرنسية الروسية ثم إلى الاتفاقات العسكرية والبحرية بين إنجلترا وفرنسا أن نذكر هنا أن أول مفاوضات بالمعنى الصحيح لم تدر بين الممثلين السياسيين كما هو المألوف بل دارت بين ولاية الأمور العسكريين في فرنسا والروسيا . فالجنرال بواديفير الذي شهد المناورات الروسية سنة ١٨٩٠ لمدة أسبوعين ، كان يحدث وزير حرية روسيا ورئيس أركان الحرب البروشيف في هذا الموضوع يوماً تقيماً . ونظراً لأن قربنة الأخير كانت فرنسية الأصل فقد كان من أشد المدافعين عن عقد محالفة بين روسيا وفرنسا . وقد تم الاتفاق سريعاً بين بواديفير والقواد الروس على أن يعمل الجيشان في وقت واحد فيما لو وقع اعتداء يخشى كل منهما عواقبه . فكانت هذه بمثابة خطوة أولى في سبيل وفاق ودي . ومع أن اتفاقاً كتابياً لم يكن وقع بعد فان سفير روسيا في باريس كان مرتاحاً إلى هذه الخطوة واعتبر الاتفاق ثابتاً كالصوان . وبما عزز هذا الاتفاق اجماع روسيا وفرنسا على الاشتباه في أن

انجلترا توازى المحالفة الثلاثية لاجباط مطامع روسيا فى شرقى البحر  
الايض المتوسط

وقد كان إذ ذاك أن جددت المحالفة الثلاثية على الرغم مما بذلته فرنسا  
من المساعى لفصل ايطاليا عنها وما بنته روسيا وفرنسا من الآمال على اقالة  
بسمارك واعتقادها بأنها ستؤدى إلى زعزعة المحالفة وهدمها. ومع ذلك فإن  
تجديد المحالفة كان مصحوباً بكثير من المصاعب لأصرار ايطاليا على المطالبة  
بنصيب أكبر من المساعدة لحفظ الحالة الراهنة فى شمالى أفريقيا مما اضطر  
ألمانيا والنمسا إلى التسليم إلى حد ما برغبات ايطاليا بل والموافقة على أن تبذلا  
جهدهما لحل انجلترا على الرضا بهذه الرغبات. ولقد كان السنيور رودينى رئيس  
الوزارة الايطالية هو الذى أذاع فى ٢٩ يونيه سنة ١٨٩١ نبأ تجديد المحالفة  
الثلاثية. وقد أشار بهذه المناسبة إلى الاتفاقات الموجودة بين ايطاليا وانجلترا  
إشارة كان من شأنها أن عززت اشتباه روسيا وفرنسا فى أن الأخيرة لا بد  
أن تكون انضمت فعلاً إلى المحالفة المذكورة؛ فقد كان هذا الائتلاف الرباعى  
وإن كان قد قصد منه إلى المحافظة على الحالة الراهنة أشد ما يضايق روسيا  
التي كانت تريد فتح الدردنيل وفرنسا التي لم تكن قد انتهت من تنشئ  
امبراطوريتها الافريقية فى غربى البحر الايض المتوسط.

عقب هذا بيضعة أسابيع لى الأسطول الفرنسى بقيادة الأميرال جارفيه  
دعوة القيصر لزيارة كرونشتات. وقد جعل الطرفان وخاصة الطرف الفرنسى  
من هذه الزيارة مناسبة لآظهار تضامنها ولتكون بمثابة رد على الصدمة التي  
وجهت اليهما بتجديد المحالفة الثلاثية، فقد توجه القيصر والقيصرة إلى بارجة  
الأميرال وضباطه ودعواهم إلى زيارة بيرهوف وكان العزف بنشيد  
المارسيليز محظوراً بتاتاً فى روسيا سيات فى ذلك الأماكن العمومية ويانو  
يعزف فى الشوارع. فسمح به لهذه المناسبة حتى اذا ما ألقع الأسطول  
الفرنسى عاد المنع سيرته الأولى. وناهيك بما أذيع فى الخارج إذ ذاك من

أن عاهل روسيا والحاكم فيها بأمره كان يستمع عارى الرأس للباسيليز .  
نشيد متطرفي الجمهوريين في سنة ١٧٩٣ .

ولقد قوبلت مظاهرة كرونشتات في فرنسا بابتهاج وحماس شديدين  
واعتقد سواد الشعب أن المحالفة أصبحت مضمونة وأن الفترة الطويلة التي  
قضتها فرنسا في العزلة قد انقضت وأن في وسع فرنسا الآن أن تصمد لألمانيا .  
وبالجملة تجددت أثناء هذا الحادث أيام بولانجيه ولكن دون أن يكون هناك  
رجل كبولانجيه . أما الحكومة الفرنسية فكانت تعرف أن حماسة الشعب  
الباريسي سابقة لأوانها وأن بين المجاملات في كرونشتات وبين مخالفة  
مكتوبة نافذة على الطرفين بونا شاسعاً . ولذا عجلت باقتراح عقد مخالفة تقضى  
على كل من الحكومتين باستشارة الأخرى عند حدوث خطر وبأن تعبأ  
جيشيهما سوياً في الوقت الذي تعيء فيه إحدى دول المحالفة الثلاثة جيشها .  
أما شروط التعبئة المشتركة فتضعها هيئتا أركان الحرب في البلدين بواسطة  
اتفاق في هذا الصدد ، لكن جيرز وزير خارجية روسيا كان يخشى أن  
تكون أضالع الفرنسيين منطوية على نيات عدوانية بقصد استرجاع الألزاس  
واللورين فرغب أن يكون الاتفاق غامضاً وأن يطبق أيضاً على البلاد  
الواقعة خارج أوربا كأفريقية والصين حيث يمكن أن يهدد السلام . ولم  
يمض عدة أسابيع حتى حصل الفرنسيون على اتفاق كتابي هذا فخواه :

أولاً — تعلن الحكومتان أنهما ستشاوران في كل مسألة يكون من  
شأنها تهديد السلام العام ، دليلاً منهما على التفاهم الودي ( الوفاق الودي )  
الذي يجمع بينهما وتدشيناله ورغبة منهما في المساعدة يداً واحدة على ما يحفظ  
السلام الذي هو الغاية التي تحدوها منهما أخلص الرغبات

ثانياً — إذا ما أصبح ذلك السلام في خطر وخاصة إذا ما أصبحت  
إحدى الدولتين مهددة بالاعتداء عليها فإن الطرفين يوافقان على التفاهم على  
اتخاذ ما يحتمه تحقيق هذا الاحتمال من الاجراءات على الأثر وفي وقت واحد .

ومن هذا الاتفاق المبهم المحدود يتبين أن شقة الخلاف كانت لاتزال عظيمة بين وجهتي نظر باريس وسان بطرسبورج إذ لم يكن في المسألة سوى ارتباط الحكومتين بأن تستشير كل منهما الأخرى في حالة الخطر . وقد كانت فرنسا دائبة الخوف من الاعتداء عليها عبر الرين ، تمنى نفسها سرأ باسترداد الاقليمين المفقودين ولا تفكر إلا في محاربة المانيا ، فهي لم تلتمس مساعدة روسيا لها في شمالي أفريقية أو في الصين حيث كانت تستطيع كما أيدت الحوادث ذلك فيما بعد أن تتفاهم مع إنجلترا وإيطاليا ، لذلك لم يكن يعينها كثير أن تفتح روسيا البواغيز أو تستولى على الاستانة . أما من جهة روسيا فإن جيرز لم يكن يشعر بعداء كبير نحو المانيا بل كان هو واسكندر الثالث لا يزالان تواقين الى استمرار الصداقة التقليدية بين البلدين . فالعدو الألد للروسيا كان إنجلترا التي وقفت في وجه الدب الروسي سواء في البواغيز أو في الشرق الأوسط .

على أن فرنسا لم تكن راغبة بطبيعة الحال في أن تستخدمها روسيا في قضاء لباناتها في مثل تلك الاصقاع النائبة ، ونظراً الى هذا التباين في المصالح وإلى مرض الكونت جيرز وارتياب القيصر المتواصل في نيات فرنسا لم يمكن اعطاء الاتفاق صبغة عملية مقيدة للفريقين قبل مضي بضعة أسابيع ، فإن جيرز عند ما توجه لزيارة باريس في نوفمبر سنة ١٨٩١ بين له مسيو ريبو أوجه الخوف من احتمال مباغته المانيا لفرنسا وروسيا فتجدهما بلا استعداد . بل أنه قد لا يتسع لها الوقت لاتخاذ وسائل الدفاع قبل أن تحل بهما كارثة لا سبيل الى اصلاحها مادامت جهود الدولتين قاصرة على اتفاهما على الوصول الى تفاهم . ثم أبان له أن الوصول في زمن السلم الى تفاهم سابق على ما ينبغى اتخاذه من التدابير العسكرية بمجرد وقوع الحرب فجأة أجدى عاقبة وأعود بالفائدة العملية . ولذا ينبغى أن يكمل الاتفاق الودى باتفاق عسكري ينص على أنه في حالة مباغته المانيا باعتداء تعبيء روسيا

وفرنسا كافة قواهما وتستخدمان هذه القوى في سبيل الحصول على أقصى ما يمكن من الفائدة المتبادلة طبقاً لخطط يكون قد اتفق عليها من قبل . فوعد جيرز بعرض الامر على القيصر على الرغم من عدم تحمسه لهذا الاقتراح . وعلى ذلك تولى الجنرال ميريل وضع الأساس الذي يقوم عليه مثل هذا الاتفاق العسكري مقدرًا بالتفصيل جملة القوات التي يمكن أن تحشدتها دول المحالفة الثلاثية حتى ورومانيا معها بنحو ٢٠٠٠.٠٠٠ ر ٢٠٠٠.٠٠٠ جندي في مقابل ٣٠٠٠.٠٠٠ ر ٣٠٠٠.٠٠٠ جندي تستطيع فرنسا وروسيا حشدهم . أما فرنسا فيمكنها توجيه خمسة أسداس قواتها ضد ألمانيا كما انه طلب إلى روسيا أن تعنى بتوجيه هجومها إلى ألمانيا أكثر من توجيهه إلى النمسا إذ الغاية التي ينبغي أن تعمل الحليفتان لتحقيقها هي القضاء على العدو الرئيسي وإذ ذاك تصبح هزيمة الدول الباقية أمراً لا مناص منه . أو بعبارة أخرى متى تم سحق ألمانيا أمكن لجيوش الدولتين املاء إرادتهما على إيطاليا والنمسا .

وقد اتخذ مشروع الجنرال ميريل بعد أن أدخلت عليه بضعة تعديلات إجابة لرغبات روسيا وبعد كثير من التأجيلات التي استلزمها مرض جيرز وأسفار القيصر — نقول اتخذ هذا المشروع نهائياً شكل مشروع اتفاق عسكري أمضاه رئيسا هيئتي أركان الحرب في فرنسا وروسيا بواديفر وابروشيف وأقره القيصر مبدئياً في ١٧ أغسطس سنة ١٨٩٢ . ويلاحظ هنا أن الاتفاق لم يوقعه السفير ولا وزير الخارجية في كل من الدولتين فلم يكن والحالة هذه يعتبر بعد ملزماً للفريقين إذ كانت في سبيله عقبتان سياسيتان خطيرتان . فقد شاء القيصر من جهة أن يبقى الاتفاق في طي الكتمان الشديد بحيث لا يعرفه الا رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة في فرنسا ومن جهة أخرى لم يكن لرئيس الجمهورية الفرنسية الحق بمقتضى دستور بلاده في أن يعقد معاهدات سرية . وقد كان من جراء هاتين الصعوبتين وتباين المصالح ذلك التباين الجوهرى الذي أسلفنا بيانه أن تأخر الاتفاق سنة ونصف سنة

وحدثت في تلك الأثناء أمور كان من شأنها أن خفت وساوس القيصر وارتياحه من ناحية فرنسا وضاعفت رغبته في إعطاء الاتفاق صبغة إلزامية . فقد سن في ألمانيا في سنة ١٨٩٢ قانون جديد خاص بالجيش قضى بزيادته ٦٠٠٠٠٠ وبتخفيض الخدمة العسكرية في المشاة من ثلاث سنوات إلى سنتين . هذا إلى أن الاتفاق لم يتم بين ألمانيا وروسيا على عقد معاهدة تجارية فأعلنت كل منهما حرباً حركية على الأخرى . وأزمة سيام التي وقعت في يولييه سنة ١٨٩٣ والتي كادت تشعل بين فرنسا وإنجلترا نار حرب لم يدرك خطرها إذ ذاك — هذه الأزمة أظهرت أن الفرنسيين كانوا على استعداد لأن يستعملوا مع إنجلترا حتى في آسيا لهجة حادة كان يسر الروسيا أن تسمعها بخاصة وهي ترى إنجلترا تقترب يوماً فيوماً من دول المحالفة الثلاثية . وقد كانت نتيجة هذا أن القيصر اسكندر الثالث وافق على زيارة الأسطول الروسي لطولون في اكتوبر سنة ١٨٩٣ رداً لتحية كرونشتات ، ومع أن الضباط الروس كانوا موضع حفاوة كبرى في طولون وباريس فان الصحف الفرنسية بإشارة وزارة الخارجية توخت الاعتدال في افتتاحياتها وتجنبت بتاتاً الإشارة إلى أن عقد محالفة مع الروسيا قد تساعد على استعادة الالزاس واللورين . وقد ارتاح القيصر لاعتدال الحكومة الفرنسية وقوتها فصادق على تبادل المذكرات السياسية بصفة رسمية . وقد فرغ من ذلك في ٤ يناير سنة ١٨٩٤ وأصبحت للاتفاق العسكري المعقود بتاريخ ١٧ أغسطس سنة ١٨٩٢ صفة إلزامية .

ولما كان تبادل المذكرات أو إمضاء الاتفاق العسكري من الضباط العسكريين وحدهم لا يجعل لأى منهما صفة المعاهدة الرسمية ، فقد روى أن لا حاجة الى عرضها على البرلمان الفرنسي لبرامها وعاليه بقيت محتويات الاتفاق العسكري سراً مكتوماً عن الوزارات التي كانت تقوم وتسقط في فرنسا بسرعة مذهشة . وقد حفظت نصوص هذا الاتفاق في غلاف كتب



عليه بخط المسيو فور رئيس الجمهورية هذه العبارة « الاتفاق العسكرى قد أقره خطاب المسيو جيرز الذى يكسب الاتفاق قوة المعاهدة ». وقد تأبطه المسيو فيفاني وهو ذاهب إلى مجلس النواب ليعتلى منصة الخطابة في ٤ اغسطس سنة ١٩١٤ طالبا اعتمادات للحرب في سنة ١٩١٤ وكان على استعداد لتلاوة الاتفاق على المجلس فلما لم يطلب أحد اليه تلاوته أملت عليه الحكمة أن يقيه في حافظته وقد ظل مكتوماً حتى نشر في الكتاب الفرنسى الأصفر فى سنة ١٩١٨ . وهكذا أمكن التغلب على الصعوبتين فبقى الاتفاق فى طى الكتمان وحفوظ على مقتضيات الدستور .

واليك نصوص هذا الاتفاق العسكرى الذى أصبحت له فى يوم ٤ يناير سنة ١٨٩٤ قوة المعاهدة والذى أصبح أساس مخالفة سرية جداً هى المخالفة الفرنسية الروسية . وهى وجيزة بسيطة جلية الى حد أن لا مانع من اثباتها كلها :

« المادة الاولى — إذا هوجمت فرنسا من ناحية المانيا أو من ناحية ايطاليا تؤيدها المانيا فان روسيا تستخدم كافة قواها الميسورة لمحاربة المانيا واذا هوجمت روسيا من ناحية المانيا أو من ناحية النمسا تؤيدها المانيا فان فرنسا تستخدم كافة قواها الميسورة لمحاربة المانيا

المادة الثانية — فى حالة ما إذا عبثت قوات دول المخالفة الثلاثية أو إحدى هذه الدول فان روسيا وفرنسا بمجرد أول دلالة على هذا الحادث وبدون حاجة الى اتفاق سابق تبادران الى تعبئة كافة قواهما فى الحال وفى وقت واحد وتنقلان هذه القوات الى أقرب نقطة من الحدود

المادة الثالثة — تكون القوى الميسورة التى تعبها فرنسا ضد المانيا ١,٣٠٠,٠٠٠ والتى تعبها روسيا من ٧٠٠,٠٠٠ الى ٨٠٠,٠٠٠ وعلى هذه القوى أن تشرع فى الاجراءات التامة بأقصى سرعة كما تضطر المانيا الى القتال فى الميدانين الشرقى والغربى فى وقت واحد .

المادة الرابعة — توالى هيئتا أركان الحرب في البلادين تدير الخطط سويا على سبيل الاستعداد لتنفيذ الاجراءات السابقة وتسهيل هذا التنفيذ وعليهما أن تطلعا إحداهما الاخرى على كافة المعلومات الخاصة بجيوش التحالف الثلاثى التى فى حوزته أو التى ستكون فى حوزته وأن تتفقا مقدما على كيفية التخاطب والتشاور وقت الحرب .

المادة الخامسة — لاتعقد فرنسا أو روسيا صلحاً على انفراد .

المادة السادسة — يستمر العمل بهذا الاتفاق ما استمرت المحالفة الثلاثية.

المادة السابعة — تبقى كافة المواد الآنفه الذكر فى طى الـكتمان الشديد ،

لقد كانت هذه المحالفة الروسية الفرنسية المعقودة فى سنة ١٨٩٤ دفاعية فى مبدأ أمرها كما كانت المحالفة الالمانية النموية المعقودة فى سنة ١٨٧٩ فلم يكن فى الأصل فى نية السلطات المسئولة عند أى من الطرفين استخدامها فى الاعتداء على المانيا أو أية دولة أخرى أو الانتفاع بها فى تأييد خطط سياسية خطيرة تنطوى على الطمع أو تجر الى الحرب مع دول المحالفة الثلاثية أو مع انجلترا . وكأئنه ما كانت الآمال التى أنعشتها المحالفة فى قلوب أنصار الجامعة السلافية لتحقيق رسالة روسيا التاريخية فى البلقان والشرق الأقصى ، أو فى أنفس الوطنيين الفرنسيين لاسترداد الالزاس واللورين وبسط نفوذ فرنسا الاستعماري فان الوزراء المسئولين فى روسيا وفرنسا كانوا أكثر علما بالأمور واطلاعا على حقيقة الحال فلم تكن الوزارة الفرنسية تعول على مساعدة روسيا المسلحة فى فاشودة أو فى مرا كش كما لم يكن الروسيون يعولون على أن تساعدهم فرنسا بالسلاح فى الشرق الأقصى أو فى البلقان . فلما كانت أيام ديلكاسيه وايزفولسكى ، وبوانكاريه بعد ذلك بزمن طويل ، تبدلت المحالفة الفرنسية الروسية تبديلا جوهريا وانقلبت فى روحها من رابطة دفاعية الى رابطة ممكن أن تستخدم فى الهجوم

ويمكن استبانة هذه الصبغة الدفاعية الهجومية للتحالف من التداير الفنية التي كانت هيئتاً أركان الحرب في فرنسا والروسيا تضعها سنوياً ، فان هاتين الهيئتين استناداً إلى المبدأ القاضى بأن خير نوع للحرب الدفاعية هو النوع الذى يتخذ فيه الهجوم ضد القوة الرئيسية للعدو — « كاتتا على وفاق تام فيما يتعلق باعتبار هزيمة الجيوش الألمانية كائنة ما كانت الظروف أول وأهم غرض تسعى اليه جيوش الحلفاء . وهذا أدنى إلى أن يكون هكذا ( فى سنة ١٩١٣ ) مما كان قبل ذلك التاريخ لأن قوة ألمانيا العسكرية فى المحالفة الثلاثية كانت قد زادت نسبياً زيادة عظيمة . »

ومع أن المحالفة الفرنسية الروسية كان يقصد بها إلى سحق ألمانيا فيما لو حاولت هذه الاعتداء فانها لم تثر بادية الأمر شيئاً أو خصومة خطيرة فيما وراء الرين لأن أحداً لم يكن يعلم بوجودها حتى أن السفير الألمانى نفسه أبى بعد عقدها بعدة أشهر أن يعتقد بوجودها . هذا إلى أن ألمانيا كانت تشعر بأن المحالفة الثلاثية لا تزال كفىً للحلف الجديد كما كانت تعتقد أن انجلترا ويدها التوازن الدولى لن تنضم إلى خصوم هم خصومها من زمن طويل كفرنسا والروسيا . على أن وجود المحالفة الفرنسية الروسية حمل ألمانيا على أن تحسب حساباً جديداً لجارتها وجعلها أكثر استعداداً للسعى وراء التعاون معها على ما لا يحصى من المسائل الدولية . . . وقد ظل التوازن بين المحالفة الثلاثية والمحالفة الفرنسية الروسية قائماً لا اضطراب فيه ولا يجرؤ معه أى فريق على الاخلال به بالقوة حتى عقد الوفاق الانجليزى الفرنسى فى سنة ١٩٠٤ . وكان من أثر هذا التوازن فى القارة كائناً ما كان مقداره أن تعاونت ألمانيا مع روسيا وفرنسا فى طائفة من المسائل السياسية فتضافرت ألمانيا وفرنسا فى سنة ١٨٩٤ على منع انجلترا من الحصول على شقة من أراضى الكونغو لسكة حديد الكاب — القاهرة . وتعاونت ألمانيا مع فرنسا والروسيا فى سنة ١٨٩٥ على إرغام اليابان على

التنزل عن جانب من فتوحاتها التي قامت بها في الصين . وفي سنة ١٩٠٠ اقترحت روسيا أن تحاول هاته الدول الثلاث التوسط بين انجلترا والبوليا فرضيت ألمانيا بالبحث في هذا الاقتراح . وفي تلك السنة بعينها سارت الجنود الألمانية والفرنسية والروسية والانجليزية جنبا الى جنب لقمع ثورة البوكسر . . . هذا إلى ما طالما حاوله امبراطور ألمانيا من إدماج المحالفة الثلاثية والمحالفة الفرنسية الروسية في عصبة أوربية كبيرة

هكذا كانت السنوات الأولى التي تلت المحالفة الفرنسية الروسية أحفل بما يقوى السلام منها بما يعرضه للخطر . لكنه بين سنة ١٨٩٤ و ١٩٠٤ حدث تغييران أخلا بهذا التوازن وهددا بالقضاء عليه . وذانك هما خروج انجلترا عن عزلتها المجيدة وعقدتها الوفاق الودي مع فرنسا ثم الارتياح في ولاء ايطاليا نحو حليفيتها

### انجلترا عند مفترق الطرق ١٨٩٠ - ١٨٩٨

كانت سياسة انجلترا التقليدية في خلال بضعة قرون سياسة « عزلة مجيدة » فاستطاعت انجلترا بالاحتفاظ بكامل حريتها أن توازن في القارة بين أحزابها وتجعل للنفوذ الانجليزي في كل كفة القول الفصل اللهم إلا أن ترى أن دولة بعينها تسعى لأن تصبح قوية بجانب إلى درجة هائلة أو تجد أنها تهدد بالخطر سيطرة الانجليز على بحر المانش وسيادتها على البحار عندئذ فقط تتدخل انجلترا في السياسة الأوربية تدخلا فعالا حاسما . وقد كانت انجلترا في السنوات التي تلت الحرب السبعينية لا تزال متمسكة بأهداف سياستها التقليدية فقد جس بسمارك نبضها ثلاث مرات ليحملها على مخالفة ألمانيا فكان رسل بسمارك في كل مرة يعودون بنحفي حنين . ولم تحد انجلترا عن سياسة عدم التحالف هذه إلا بقدر ما دل عليه وفاقها مع إيطاليا والنمسا في سنة ١٨٨٧ حيث أعربت الدول الثلاث عن رغبتهن المشتركة في المحافظة

على السلام والاحتفاظ بالحالة الراهنة في البحر الأبيض المتوسط وتركيا . وهذا وفاق أو اتفاق لم يكن يلزم انجلترا بأى ارتباط عسكري لكنه أكد علاقاتها الودية بالمخالفة الثلاثية . وقد استمرت هذه الصداقة بعد سقوط بيسارك ولاح في مبدء الأمر أنها تقوت بالمعاهدة التي عقدت في شأن هيليجولند وزنجبار وبالروابط الشخصية والزيارات التي كان يؤديها الأمبراطور الشاب إلى انجلترا .

لكنه في الوقت الذي تكونت فيه المحالفة الفرنسية الروسية أو حواليه ظهر أن انجلترا قد وصلت إلى مفترق الطرق . فالعزلة وإن كانت مجيدة ، لم تكن دائماً أمينة ولا مريحة . وانجلترا وإن كانت في البحار كفتا لاى من الفريقين المتحالفين في القارة الأوربية ، لم تأمن أن تتعرض لخطر هزائم سياسية غير محمودة إذا اتحدت كلة ألمانيا وفرنسا أو ألمانيا والروسيا عليها . فقد وقعت للورد روزبرى ، من جراء سياسته النشيطة الجريئة ، عدة أمور سيئة تركت في النفوس أثرا لا يستحب فانه ، دون أن يستشير الموقعين على معاهدة ١٨٨٤ التي تحدد ولاية الكونغو ، وقع على معاهدة نزل بها لتلك الولاية عن أرض في أعالي النيل في مقابل شقة من أرض الكونغو في منطقة تانجانيقا كان يراد أن تمد عليها سكة حديد الكاب — القاهرة . فكان أن احتجت فرنسا وألمانيا وأن اضطر روزبرى إلى الغاء الاتفاق . كذلك كان ما لقيه أثناء سوء التفاهم الذي نشأ من الاضطرابات في سيام سنة ١٨٩٣ إذ ألقي الفرنسيين يقفون منه موقف العناد . فقد استجم نفسه في يوم أحد وأرسل برقية إلى القائد الانجليزى في بانكوك رعبت لها الملكة فيكتوريا رعبا شديدا ، وكادت على حد قوله نفسه توقع انجلترا في حرب مع فرنسا . كانت انجلترا بالنظر إلى مركزها الضعيف في مصر وتعرضها بسبب هذا الضعف للخطر عرضة على الدوام لمناهضة الدول الأوربية المتحدة عليها نوعا ما . إذ كانت مصر كالحية في عنقها كلما أرادت دولة من الدول العظمى انتزاع

مطلب سياسى من سيدة البحار شدت عليها ، الأمر الذى كشف تلك العزلة « المجيدة » ودل على فراغها ، حتى اقتنع السياسة الانجليز تدريجاً بأن تلك العزلة لم تعد ممكنة . وهكذا كان فى سنة ١٨٩٥ أن دل اللورد سالسبورى على تغير موقف بريطانيا بتليحه لألمانيا بأن الوقت قد حان لتقسيم تركيا . وعلى أن انجلترا كانت فيما مضى تجرى على سياسة من شأنها سند الأمبراطورية التركية العلية فأن سالسبورى أصبح أخيراً يعتقد أن لا أمل فى اتباع هذه السياسة وأنه كان يراهن على الجواد الخاسر . ومن الممكن بدل هذا أن تقطع أوصال تركيا أو على الأقل أن يعين من الآن نصيب كل امرئ من قطعها إذا كان سيقدر لها فى النهاية أن تنهار .

وقد كان فحوى اقتراح اللورد سالسبورى فى حالة تقسيم تركيا أن تكون مصر من نصيب انجلترا وطرابلس من نصيب ايطاليا ، وأن يلقى الى النمسا بسالونيك والى روسيا بالآستانة أو بالسيطرة على البواغيز . فأن مثل هذا التقسيم إذا ما قام على أساس اتفاق ودى سابق وضمن لكل من الدول العظمى نصيباً طيباً قد يقرب المسألة الشرقية من الحل متى ما أمكن التغلب على المصاعب العظيمة المتعلقة بها .

لكن برلين لسوء الحظ لم تأخذ بهذا الاقتراح فكان مارشارل وهولشتين يرتابان فيه كل الارتياب ، وكانت لهما إذ ذاك السيطرة على السياسة الألمانية ، ويتنبآن بأنه سوف يكون من المتعذر إرضاء فرنسا وإيطاليا فضلاً عن أنه ما الذى تكسبه ألمانيا ؟ كانا يخشيان أن تفضى محاولة تقسيم تركيا إلى نشوء مشاكل أكثر من التى يسويها هذا التقسيم بل أن تجر هذه المحاولة إلى حرب ولذا اشتبها فى أن سالسبورى إنما يرمى باقتراحه إلى بذر الشقاق بين روسيا ودول المحالفة الثلاثية حتى تتاح لانجلترا الفرصة للصيد فى الماء العكر . فلما أعاد سالسبورى اقتراحه على الأمبراطور رأساً بعد تقديمه بشهر وأثناء وجود غليوم فى كوز حيث كان يشهد سباق اليخوت أجابه الأمبراطور جواباً فاتراً

وقال له أن خير ما يفعل هو أن يحاول سند تركيا وأن يرغمها على القيام باصلاحات حقيقية لحماية المسيحيين من رعايا السلطان؛ فعدل سالسبورى عن هذا الأمر. وفي سنة ١٨٩٨ كانت الحالة السياسية قد اتخذت مظهراً قوى إقتناع الوزارة الانجليزية بصواب العدول عن سياسة العزلة. فقد اشتد إذ ذاك الخلاف بين بريطانيا وفرنسا في أواسط أفريقيا على حدود نيجيريا لأن فرنسا أيضاً كانت تسعى لمد نفوذها شرقاً نحو أعالي النيل فكان الماجور مارشان على رأس بعثة ترتاد في اتجاه السودان قبل أن يصدده كتشنر في فاشوده. وفي جنوب أفريقيا كان خلاف الانجليز مع البوير أخذ في الازدياد في إطاراد وسائرأ في طريق الانفجار الذي حدث بعد ذلك ببضعة أشهر في حرب كانت أذل وأغلى ما خاضته انجلترا من حروب. وقد كانت البرقية التي بعث بها الامبراطور الى كروجر دليلاً على الاهتمام العظيم الذي أكنه الامبراطور ورعاياه للبوير، وعلى أنه من المستحسن أن يوضع حد لآى تأييد يمكن أن تناله جمهوريات جنوب أفريقيا من ألمانيا سرأ أو جهراً. ثم أنه فيما يتعلق بالشرق الأقصى كانت ألمانيا قد استأجرت قاعدة بحرية في كياوتشاو ولما تكبد. والروسيا كانت تضع قبضتها من الناحية الاقتصادية على منشوريا ممددا السكة الحديدية عبر سيبيريا. ثم هي باستئجارها لبورت أرثركانت خليفة أن تثبت هناك قدمها فتهدد بكين وتعرض سيادة بريطانيا البحرية والتجارية في الشرق الأقصى لخطر جدى. ولذا كانت الصحف الانجليزية تلح في معرفة ما تنتوى الوزارة اتخاده لصد روسيا.

## اقتراحات المستر تشمبرلين للتحالف مع ألمانيا

١٨٩٨ - ١٩٠١

هذه الظروف حملت الانجليز على أن يولوا وجههم شطر روسيا؛ ففي ١٩ يناير سنة ١٨٩٨ اقترحوا على القيصر وفقاً يوضع حداً لكافة المسائل التي

ظلت طويلاً مصدر خلاف بين الدب الروسي والأسد البريطاني. وكانت الفكرة أن يوفق بين السياستين الانجليزية والروسية على حساب إمبراطوريتين ينخر فيهما السوس هما الصين وتركيا بدلاً من أن تطل هاتان السياستان متعارضتين على الدوام. والذي اقترحه اللورد سالسبوري على روسيا سراً فيما يتعلق بالصين وتركيا « لم يكن تقسيم أراضيها بل تقسيم النفوذ السياسي فيهما ». بيد أن القيصر ووزراءه المترددون الطامعين لم يتلقوا هذا الاقتراح بما يبعث على الثقة أو يشجع الانجليز على المضي فيه، إذ استأجرت روسيا بورت آرثر وقابلتها بريطانيا بالمثل فاستأجرت واى هاى واى. ومن ثم سمح للمستتر جوزيف تشمبرلين وزير المستعمرات البريطانية بتجريب حظه مع ألمانيا لعقد محالفة معها.

ففي ٢٩ مارس ١٨٩٨ بينما كان اللورد سالسبوري غائباً في فرنسا اتجاعاً للصحة سئل الكونت هاتزفيلد سفير ألمانيا في لندن أن يتناول طعام العشاء مع المستتر تشمبرلين. وهنا أعلن إليه تشمبرلين في صراحة تامة أن إنجلترا قررت العدول عن سياسة العزلة وسلم له بأن إنجلترا وألمانيا، وأن اختلافنا على مسائل كثيرة تافهة فيما يتعلق بالمستعمرات، لا تتعارض مصالحهما تعارضاً جوهرياً. ولذا فهو يرتئى عقد محالفة انجليزية ألمانية ذات صبغة دفاعية. ولكي يزيل مخاوف ألمانيا من أن الوزارات البريطانية في المستقبل قد لا تحرص على الاتفاق أبدى له استعداداً لأن يجعل البرلمان يصادق عليه علانية. وهذا مع ذلك « لا يمنع من أن تتضمن المعاهدة مادة سرية أو أكثر ». وأخيراً ألمح إلى أن إنجلترا إذا لم توفق إلى التحالف مع ألمانيا التي هي أدنى إليها من غيرها فقد تولى وجهها شطر فرنسا وروسيا. وقد قيل هذا على سبيل التلميح لا التهديد.

لم يكن ثمة ما يدعو إلى الشك في أن تشمبرلين كان مخلصاً في سعيه إلى فتح باب المفاوضات لعقد محالفة، فلو أنه نجح لا كسبه هذا نخرأ. بيد أن



غيره من أعضاء الوزارة أمثال اللورد سالسبوري وبلفور فضلا عن البرنس أوف ويلز كانوا جميعاً أميل إلى فرنسا فلم يتحمسوا مثله للتحالف مع ألمانيا، ولم يكرهوا أن تمنى مساعيه بالاختفاق .

أما برلين فقابلت مقترح تشمبرلين بما قابلت به مقترح تقسيم تركيا من ثلاث سنوات مضت من الارتباب . فقد كان الكونت ييلوف الذي خلف مارشال على منصب وزير الخارجية يخشى أن يكون التحالف علانية مع إنجلترا سبباً في تعرض ألمانيا لخطر الاعتداء عليها في ميدانين — من ناحية الروسيين والفرنسيين — وعندئذ لا يكون للأسطول البريطاني كبير شأن في إسعافهما . هذا فضلا عن أنه كان يشك في إبرام البرلمان الانجليزي لتحالف انجليزي ألماني مع ما كان عليه الرأي العام في إنجلترا من التأثير والامتعاض منذ أرسات برقية كروجر . كذلك كان يتوقع أن يناهض الرأي العام الألماني مثل هذا التحالف ، ولذا أرسل تعليماته إلى هاتزفيلد بأن لا يقبل اقتراح تشمبرلين أو يرفضه ولكن أن يسوف فيه . وكان يعتقد أنه بهذا قد تتفق ألمانيا وإنجلترا على بعض المسائل المتعلقة الخاصة بالمستعمرات دون أن يذهبا إلى حد المخاطرة بتحالف بين .

ولقد اتخذ الأمبراطور بهذه المناسبة خطوة كشفت عما كان يبدو منه أحياناً من تنكب الطريق المستقيم في محاولته تسيير دفة السياسة الخارجية الألمانية . ذلك أنه كتب إلى القيصر في ٣٠ مايو سنة ١٨٩٨ دون أن يستشير وزراءه وعلى الرغم من أن مقترحات تشمبرلين كانت سرية جداً — نقول كتب إلى القيصر يخبره أن إنجلترا طلبت محالفته في خلال بضعة الأسابيع الأخيرة ثلاث مرات وإنما تبذل مساعي هائلة تبشر ألمانيا بمستقبل باهر وتطلب الرد العاجل لكنه — أي الأمبراطور — قبل أن يرد على بريطانيا يريد أن يطلع «نيكي» على ما هنالك إذ كانت المسألة مسألة حياة أو موت . ومثل هذه المحالفة خليق أن يوجه ضد روسيا . « فالآن أسألك يا صديقي

القديم الأمين أن تنبئني بما يسعك أن تعرضه عليّ وماذا عساك فاعلا لي إذا أنا رفضت مقترحات الانجليز .

والذي كان يرجو الأمبراطور أن يحصل عليه من نيقولا هو معاونة الروسيا له على جذب فرنسا إلى عصبة أوربية تقرب ما بين المحالفة الثلاثية والمحالفة الثنائية لتتألف منهما فرقة قوية قوامها خمس دول أوربية عظمى . وقد كانت فكرة العصبة الأوربية تشغل باله وتستحوذ على خياله عدة سنين . وكان يرجو منها أن تقر السلام في أوروبا ، لأنه إذا أمكن الروسيا أن تأتي بالفرنسيين إلى مثل هذه العصبة أمكن أن يتوقع من ناحية فرنسا نبذ فكرة الانتقام والكف عن التعلل باسترجاع الألزاس واللورين ، وهذا من شأنه أن يمحو مصدراً من المصادر المهمة التي تهدد سلام أوروبا بالخطر ، فضلاً عن أن مثل هذه العصبة الأوربية مما يمكن استخدامه بصورة فعالة في صد انجلترا عن الاسراف في دعاواها الاستعمارية في افريقيا وآسيا وفي تقييد سيادتها على البحار بعد ذلك إذا ما نما الأسطول الألماني .

غير أن القيصر لم يسمح بأن يتغفله الأمبراطور ويورطه في شيء ما وان كان قد رد عليه في الحال في ٣ يونيو ١٨٩٨ يقول :

« إن انجلترا عرضت علينا من ثلاثة أشهر مضت مذكرة تشتمل على مقترحات مغرية محاولة حملنا على الاتفاق معها اتفاقاً تاماً على كافة النقط التي تصطدم مصالحنا فيها بمصالحها . وقد كانت هذه المقترحات جديدة في بابها حتى أنها — ولا أكتمك القول — أدهشتنا ومع ذلك فإن طبيعتها أثارت شكوكنا لأن انجلترا لم تعرض على الروسيا يوماً مثل هذه المقترحات ، فرفضناها .

« من الصعب عليّ جداً أن أجيبك عن سؤالك عما إذا كان من المفيد أو من غير المفيد لألمانيا أن تقبل ما عرضته عليها انجلترا مراراً . لأنني لا علم لي البتة بماهية هذه المقترحات وعليك بطبيعة الحال أن تقرر ما تراه خيراً لبلادك وألزم لها . وقد عاشت ألمانيا والروسيا في سلام من قديم الزمان

جارتين صديقتين . وأدعو الله أن تبقى كذلك صديقتين حميمتين .

يقولا

هذه المقترحات « المدهشة » التي عرضتها إنجلترا على روسيا قبل أن يعرض تشمبرلين مقترحاته جعلت الأمبرطور بطبيعة الحال يشتهه في أن « إنجلترا اللعينة » تحاول الايقاع بين ألمانيا وروسيا وبذر بذور الشقاق بينهما وقوت الريبة في حسن نية بريطانيا ، فأهملت ألمانيا مقترحات تشمبرلين الذي قدمها في مارس سنة ١٨٩٨ ولم تسفر هذه المقترحات عن شيء . . . . . وعلى أن رفض ألمانيا لمقترحات تشمبرلين كان من أهم العوامل في تكييف المجري المشؤم الذي جرت فيه حوادث السنين التالية فإنه لا يسعنا أن نقول فيه هنا الا كلمة .

فأنه في نوفمبر سنة ١٨٩٩ بعد أن نشبت حرب البوير وهاجت من أجلها الخواطر في أوروبا بأسرها على الانجليز — نقول بعد أن حدث ذلك بيضعة أسابيع زار الأمبراطور وييلوف إنجلترا ، فاتهز تشمبرلين هذه الفرصة ليتحدث اليهما حديثا طويلا فاقترح عليهما أن تكون بين إنجلترا وألمانيا والولايات المتحدة علاقات أوثق من العلاقات الراهنة . والملاحظات المفصلة التي دونها ييلوف عن هذا الحديث لا تدل على أنه شجع تشمبرلين على الظن بأن ألمانيا تهجر مركزها الطيب بالنسبة الى غيره لتستبدل به مركزا يكون ثمرة المغامرة بالتحالف مع إنجلترا . ومع هذا فإن وزير المستعمرات الانجليزية ألقى في ليستر بعد ذلك بيضعة أيام خطبة شهيرة تكلم فيها بجملة عن اشتراك المصالح الألمانية والانجليزية واقترح التحالف جهارا . لكن الآثار السيئة التي خلفتها حرب البوير كانت لا تزال تفعل فعلها فكانت الصحف الألمانية كالصحف الفرنسية والروسية تهاجم إنجلترا بشدة وتحمل عايبها حملة عنيفة فلم يسع ييلوف بالنظر الى مظاهر العداء الموجهة ضد إنجلترا في بلاده ، أن يتناول بالتجديد اقتراح تشمبرلين الذي أبداه في خطبة ليستر . بل انه على

النقيض من ذلك صب عليه ماء باردا حين أعلن أنه لا حاجة بألمانيا مطلقا إليه فصدم بهذا انجلترا صدمة قاسية واذا كان صحيحا ما أخبر به تشمبرلين ايكارتشتين من أنه لم يلق خطبة ليستر الا بدافع من ييلوف وبأمل أن تلقى عبر بحر الشمال صدى وديا ، كانت خطبة ييلوف في الريخستاج عملا ينطوى على الغدر ، ولا بد أنها أسخطت تشمبرلين سخطا عظيما . وعلى كل فان وزارة الخارجية البريطانية باتت من ذلك الحين اكثر ارتيابا في نيات وزارة الخارجية الألمانية من ذي قبل ، وهي حالة أخذت تساعد عليها خطط تيربتس لإنشاء الأسطول الألماني .

وتوجه الامبراطور الى أوسبرن في سنة ١٩٠١ لما أن بلغه نبأ احتضار الملكة فيكتوريا فانتهاز تشمبرلين فرصة هذه الزيارة التي كان لها وقع حسن فاستأنف بالرغم مما أسلفنا بيانه الكلام عن مخالفة دفاعية بين انجلترا وألمانيا أو بين انجلترا وألمانيا واليابان . وكانت انجلترا لا تزال مغولة اليدين في جنوب أفريقيا حيث البوير يصمدون لها ويقاومونها مقاومة شديدة . وفي الشرق الأقصى كان الخلاف بين انجلترا والروسيا قد وصل عقب إخماد ثورة البوكسر الى مرحلة حادة من جراء رفض الروسيين الجلاء عن الأراضي الصينية . فمخالفة ألمانيا في هذه الظروف خليقة أن تسرى عن بريطانيا العظمى ، وهذا بعينه هو الذي جعل ألمانيا لا تميل الى توريث نفسها فسارت من أجل ذلك المفاوضات التي تولاهها اللورد لانسدون سيرا بطيئا وألم بها التلكوء طول العام الى أن أهملت أخيرا في ديسمبر ١٩٠١ لما أن تعذر على الوزارة البريطانية التسليم بما كانت ألمانيا تشترطه من إدماج المخالفة الثلاثية في المعاهدة وابرام البرلمان الانجليزي لها ، وكان هذا الأبرام أمرا مشكوكا فيه جدا نظرا للخصومة المريرة التي أثارها في كلا البلدين حرب البوير والحملات التي لازمتها من جانب الصحف ؛ هذا الى أن الوزارة البريطانية لم تكن بحال من الأحوال متضامنة في تأييدها التحالف مع ألمانيا .

أن الرجوع الى سلسلة المفاوضات التي دارت في هذا الصدد خليق أن يدلنا على أنه كان في الامكان أن يعقد بين انجلترا وألمانيا نوع من التحالف الدفاعي لو أن ألمانيا كانت منذ البدء أكثر استعداداً لقبول مقترحات تشمبرلين، فان هذه المحالفة كانت قيمة أن تساعد على تبديد المخاوف المتبادلة التي كانت التسليحات البحرية على جانبي بحر الشمال تزيدها وأن توجد أساساً لتبادل حسن الظن الكفيل بانجاح المساعي العديدة التي بذلت في سبيل الوصول الى اتفاق يحدد هذا التنافس الجنوبي في التسليح البحري بين انجلترا وألمانيا، كما أنه لا شك في أنها كانت تمنع من تكوين الوفاق الثلاثي .

لكن هولشتين وييلوف والأمبراطور أخطاوا الحساب ولم يقدرُوا الموقف تقديراً صحيحاً فأفلتوا هذه الفرصة الذهبية . فلقد كانوا جد مستائين بما بدا على انجلترا من عدم الرغبة في تمكين ألمانيا من الحصول على ما تطلب من الشؤون الاستعمارية في صاموا ومستعمرات البورتغال . ثم أنهم كانوا عاجزين أو كارهين لأن يتحدوا الرأي العام الألماني بالتحالف مع دولة كانت إذ ذاك تسحق البوير ، فضلاً عن شكهم في أن البرلمان الانجليزي يصدق حقيقة على تحالف كهذا . ويرجع خطوهم الجوهري في الحساب الى ما كان يملكهم من الاعتقاد بأن انجلترا لن تتقرب أبداً من عدوتها القديمة فرنسا أو من روسيا منافستها الشديدة . وقد كانت الخصومة بين انجلترا وروسيا من البداهة في نظر ويلهلمشتراسه الى حد أن هولشتين وييلوف كانا مقتنعين بأنه حتى تقرب انجلترا من فرنسا لن يكون خطراً على ألمانيا مادام أنه سيؤدي بلا ريب إلى انقطاع التحالف بين فرنسا وروسيا . ذلك أن تأليف حلف من انجلترا وفرنسا وروسيا كان في نظرهم محالاً .

وهكذا لم ينتفع هولشتين وييلوف والأمبراطور لأسباب مختلفة بمعارضه الانجليز وظلوا يمنون النفس بشروط أحسن مما عرض عليهم فلم يظفروا بشيء . ولما لم يفز الانجليز أخيراً بمخالفة ألمانيا ولوا وجوههم جهة أخرى . فعقدوا

مع اليابان في سنة ١٩٠٢ ذلك التحالف المشهور الذي حمى مصالحهم المشتركة في الشرق الأقصى . وفي سنة ١٩٠٤ عقدوا مع فرنسا الاتفاقات التي كانت بمثابة الخطوة الأولى في تكوين الوفاق الثلاثي .

## إخلاء إيطاليا المريب نحو حليفيتها

كانت إيطاليا كألمانيا مشغولة طويلاً بتأسيس وحدتها القومية فلم تصل إلى حلبة الممتلكات الاستعمارية إلا متأخرة . لكنه وقد قدر لها أن يكون لها مركز الدولة العظمى في أوروبا وأن تعمل على إيجاد منفذ لمن يزيد من سكانها الذين كانوا ينمون بسرعة ، فقد شعرت بأنها هي أيضاً يجب أن تحصل على مستعمرات . وقد كان طبيعياً أن تعقد آمالها بتونس لكن الفرنسيين سبقوها إليها فسعت عندئذ إلى التحالف مع ألمانيا والنمسا أملاً في تعضيدهما وكان ذلك في سنة ١٨٨٢ . فلما تلبدت سماء أوروبا بالسحب في سنة ١٨٨٧ من جراء أزمة بولانجيه في فرنسا وحالة بلغاريا في البلقان استطاعت إيطاليا أن تتزع من حليفيتها مواداً جديدة تتناول ما تطمح إليه في شمال أفريقيا والبلقان وشرق البحر الأبيض المتوسط . وتقرر أن تعالج هذه الشؤون في معاهدتين منفصلتين وقعت النمسا وإيطاليا إحداهما ووقعت الأخرى ألمانيا وإيطاليا . وكان ذلك في ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٧ أي في نفس اليوم الذي جددت فيه المحالفة الثلاثية . وعلى ذلك تعهدت النمسا وإيطاليا : « بأن تستخدمتا نفوذهما في منع أي تعديل للأراضي يكون ضاراً بأحدهما أو بالأخرى . . لكنه إذا أصبح الاحتفاظ بالحالة الراهنة في البلقان أو على السواحل والجزر التابعة للدولة العثمانية في الأدریاتيك أو بحر إيجه أمراً متعذراً وألفت النمسا أو إيطاليا نفسها مضطرة إلى تعديل تلك الحالة بالقيام من جانبها باحتلال مؤقت أو دائم ، فلا ينبغي أن يتم هذا الاحتلال إلا بعد اتفاق سابق بين الدولتين الآنفتى الذكر يقوم على أساس التعويض المتبادل . »

أما ألمانيا فتعهدت من جانبها « باستخدام نفوذها في منع أي تعديل لأرضي يتناول السواحل والجزر العثمانية في الأدریاتك وبحر ايجه ويكون ضارا بإيطاليا . » فاذا حدث فيما يتعلق بشمال أفريقيا « أن شرعت فرنسا في مد احتلالها أو حمايتها أو بسط سيادتها بأية صورة كانت في أراضي شمال أفريقيا سواء أكان ذلك في ولاية طرابلس أم في بلاد الدولة المراكشية ثم ترتب على ذلك أن رأت إيطاليا وجوب القيام بعمل تأمينا لمركزها في البحر الأبيض المتوسط » فان ألمانيا تعدها بالمساعدة بالسلاح إذا نشأت حرب عن ذلك .

وفي سنة ١٨٩١ قدمت إيطاليا بمناسبة تجديد المحالفة الثلاثية طائفة جديدة من المطالب لم تجب الا الى واحد منها وهو توسيع نطاق تعهد ألمانيا بتعويضها في شمال أفريقية . فقد تعهدت ألمانيا وإيطاليا بأن تعنيا بالاحتفاظ بالحالة الراهنة في برقة وطرابلس وتونس « فاذا تبينت ككلاهما بعد فحص الحالة فحفا جيدا ألا سبيل لسوء الحظ الى المحافظة على الحالة الراهنة عقدا اتفاقا رسميا تتعهد ألمانيا بموجبه بأن تعضد إيطاليا إذا ما شاءت القيام في نفس هذه المناطق ، بأي عمل يتخذ شكرا الاحتلال أو أي مظهر آخر من مظاهر الضمان ويكون القصد منه المحافظة على التوازن والحصول على تعويض مشروع » . وفي مثل هذه الحالة تسعى الدولتان الى الاتفاق أيضا مع انجلترا على ذلك .

فلقد أمل الايطاليون أن يفتح لهم الباب بهذا إلى إمكان ضمهم بعض أراضي شمال أفريقية وأن يكون من وراء هذه الاتفاقات حصولهم عاجلا على طرابلس ، لكن آمالهم في هذا خابت خيبة أليمة فجعلوا في السنوات التالية يوجهون المطالب والشكاوى إلى حلفائهم وازداد ضجيج هذه المطالب والشكاوى لما انتقلت بهم مغامرتهم في الخبشة من سى إلى أسوء فكان كريسبي يشكو من أن فرنسا ترهبه وروسيا تهدده في الشرق الأدنى والخبشة وأن انجلترا تهمله وأن اللوم في هذا يقع على ألمانيا والمحالفة الثلاثية . قال لقد

تملكت الفرنسيين فكرة استرداد الالزاس واللورين فباتوا يندرونه بالألا ينتظر منهم أى تساهل ما دامت إيطاليا باقية فى المحالفة الثلاثية ، وأنهم على النقيض من ذلك « سيتوخون أن يجعلوا حياته مرة ما استطاعوا » .

ولما أسقط كريسبي من جراء الكارثة التى لقيتها إيطاليا فى الحبشة جعل خلفه رودينى يتقرب إلى فرنسا فعقدت بينهما فى سنة ١٨٩٦ اتفاقية تونس التى اعترفت إيطاليا بموجبها أخيراً بالحماية الفرنسية على تلك البلاد وتلقت فى مقابل ذلك الاعتراف ببعض الامتيازات السياسية والتجارية . وفى العام التالى زار ولى عهد إيطاليا البرنس فيكتور عمانوئيل باريس ومعه عروسه ابنة أمير الجبل الأسود فأقيمت لهما احتفالات ساعدت على تقريب الأمتين اللاتينيتين . وبعد انقضاء عامين على ذلك عقدت بين فرنسا وإيطاليا معاهدة تجارية أنهت الحرب الجمركية التى ظلت قائمة بينهما زمناً طويلاً ومنت تجارة البلدين بخسائر فادحة فوق ما أثارته فى نفوسهما من مرارة .

ولقد ساعد على هذا التقرب بين باريس ورومه ما أحدثه ديلكاسيه فى العلاقات بين إنجلترا وفرنسا من تطور ، فقد صمم ديلكاسيه بعد الذى لقيته بلاده من مذلة أليمة بسبب حادث فاشوده على أن يضع حداً للعداوة القديمة بين فرنسا وإنجلترا . فعقد فى ٢١ مارس ١٨٩٩ اتفاقية مع إنجلترا حددت فيها مناطق النفوذ فى الأراضى الواقعة بين الكونغو وأعالى النيل وخففت فى الوقت نفسه مخاوف الايطاليين لدلالاتها على أن الفرنسيين لا يتطلعون إلى شىء شرقى تونس وفى منطقة طرابلس التى يشتهبها الايطاليون . وقد مهدت هذه الاتفاقية الطريق إلى الاتفاق السرى الذى عقد بين فرنسا وإيطاليا فى ديسمبر ١٩٠٠ إذ تبادل الفيكونت فينوستا وباريير سفير فرنسا النشط فى روما مذكرات اعترفت فيها إيطاليا بأمانى الفرنسيين فى مراکش واعترفت فرنسا بأمانى الايطاليين فى طرابلس .

والآن فان هذه المودة المتزايدة بين فرنسا وإيطاليا كانت تعزز فى



الظاهر بكل صفة ممكنة من التوكيد . فقد أنعم الرئيس لوبيه على فيكتور عمانوئيل بالصليب الأكبر من وسام اللجيون دونير وزار الأسطول الايطالى طولون فقبول فيها بمظاهر من الصداقة أعادت إلى الذاكرة تلك الحفاوة التى لقيها الأسطول الروسى عند تكوين المحالفة الفرنسية الروسية . وفى ١٤ ديسمبر ١٩٠١ أذاع بريتى ، وكان من أصدقاء فرنسا ، خبر وجود الاتفاق السرى الفرنسى الايطالى الذى عقده الفيكونت فينوستا وباريير من عام مضى . لكنه فى الوقت الذى أذاع فيه خبر هذا الاتفاق فى مجلس النواب الايطالى انطلق يؤكد لسفيرى ألمانيا والنمسا أن إيطاليا مخلصه كل الاخلاص للمحالفة الثلاثية وإن كان قد سلم بأن عدم إبلاغ سلفه خبر تبادل المذكرات مع فرنسا فى الحال كان عملاً ينطوى على عدم الولاء .

وقد أزعج ييلوف هذا التحول من جانب ايطاليا وخشى أن تحاول ضم طرابلس فتخاصم تركيا وتعرض المصالح الألمانية فى الشرق الأدنى للخطر . لكنه حاول أن يتظاهر علناً بعدم الاكتراث فأعلن فى خطبته المشهورة التى ألقاها فى مجلس الريخستاج بتاريخ ٨ يناير سنة ١٩٠٢ « أن المحالفة الثلاثية لاتزال تتمتع بالصحة التامة وستظل كذلك فيما أعتقد وآمل ، شأن الأشخاص الذين يعلن خطأ أنهم توفوا إلى رحمة الله وهم لاتزال لهم من العمر بقية صالحة » ثم زاد على ذلك قوله فى شيء من الحزلة : « لا ينبغى للزوج فى زواجه السعيد أن يغضب لمراى زوجته ترقص فى سلامة نية مع شخص آخر فالمهم هو أن لاتفر معه . وهى لن تفر إذا تحققت أن بقاءها مع زوجها خير لها . » وقد أكد هذا الانذار الموجه إلى ايطاليا بما أبداه بعد ذلك من أن « المحالفة الثلاثية ليست تجارة يقصد منها الأرباح بل هى شركة تأمين . »

بيد أن ايطاليا لم تكترث لهذا الانذار ففى الوقت الذى كانت تفاوض أثناءه فى تجديد المحالفة الثلاثية كانت تصغى إلى تودد باريير الذى كان قد صح عزمه على أن يحصل من ايطاليا على وعد بالآتهاجم فرنسا وأن تعدل عن

أى اتفاق عسكري أو ارتباط تعهدى يضطرها الى الانضمام إلى ألمانيا في حالة اعتدائها على فرنسا . وفي الواقع لقد أكد برينتى سرّاً لديلكاسيه قبر تجديد المحالفة الثلاثية بعدة أسابيع ، وكان ذلك في ٤ يونيه سنة ١٩٠٢ ، أن هذه المحالفة لا تتضمن لا مباشرة ولا بصفة غير مباشرة شيئاً عدوانياً نحو فرنسا . ومع أنه اشترط على ديلكاسيه أن يبقى هذا التبليغ سرّاً مكتوماً فقد أذاع ديلكاسيه جوهره في مجلس النواب الفرنسى .

على أن ديلكاسيه لم يكن قد روى ظمأه بعد فقد أراد أن يحصل من برينتى على وثيقة ممضاة تلزم ايطاليا بالوقوف على الحياد الدقيق إذا اضطرت فرنسا الى أن تكون البادئة باعلان حرب تكون قد استثيرت اليها . وقد تم ذلك فتبادل برينتى وباريير في أول نوفمبر سنة ١٩٠٢ مذكرات اتفقا فيها على ما يلى : « فى حالة ما اذا تعرضت ايطاليا لاعتداء مباشر أو غير مباشر من جانب دولة أو أكثر تلتزم فرنسا الحياد الدقيق » .

« وبالمثل تلتزم ايطاليا الحياد الدقيق فى حالة ما إذا وجدت فرنسا نفسها من جراء تحرش مباشر بها مضطرة ، دفاعاً عن شرفها أو أمنها ، الى المبادأة باعلان الحرب . فى هذه الحالة تبلغ حكومة الجمهورية الحكومة الملكية ما تتوييه قبل تنفيذه ليتسنى لهذه الحكومة تقرير ما إذا كانت هنالك حقيقة حالة تحرش مباشر »

معنى هذا من الوجهة العملية أن ايطاليا لم تعد عضواً مخلصاً فى المحالفة الثلاثية . أجل أن برينتى يستطيع أن يخفف عن نفسه بالقول بأن وعده لفرنسا ان هو الا مجرد تحديد للواجبات التى تفرضها المحالفة الثلاثية على ايطاليا ولا يتعارض معها . وصحيح أن وعده لم يكن يتنافر مع مبنى تلك الواجبات فيما يتعلق بألمانيا إذ أن المادة الثانية من معاهدة المحالفة الثلاثية لا تفرض على ايطاليا مساعدة ألمانيا الا فى حالة اعتداء فرنسا عليها « دون تحرش مباشر » وقد احتفظت ايطاليا لنفسها بحق تقرير ما يفهم من التحرش المباشر . بيد

أن تفسير هذه العبارة يتسع لمرونة المطاط. وقد سأل باريير بريتي أن يفسر له معناها فأورد له على التحرش المباشر أمثلة من حادث شنيدله وبرقية ايمز ورفض الملك غليوم مقابلة بينديتي في سنة ١٨٧٠. ومعنى هذا أنه إذا نشأ في المستقبل حادث من هذا القبيل وعدته فرنسا تحرشاً يضطرها إلى إعلان الحرب على ألمانيا ، للذود عن شرفها أو أمنها ، وجب على ايطاليا أن تلتزم الحياد. فالاتفاق الفرنسي الايطالي المعقود في سنة ١٩٠٢ إذا كان لم يتنافر مع نص التعهدات التي تفرضها المحالفة الثلاثية على ايطاليا فإنه بالتأكيد يتنافر مع روح هذه التعهدات والغرض المتوخى منها. ومن ثم أصبحت ايطاليا في حل من مساعدة ألمانيا إذا ما اعتدت عليها فرنسا وهي الحالة التي تعد من الأغراض الجوهرية الأساسية للمحالفة الثلاثية. ولقد لخص المسيو بوانكاريه الموقف الحقيقي تلخيصاً يدل على الفراسة حين قال لا يزفولسكى في ديسمبر سنة ١٩١٢ أنه ، لا الوفاق الثلاثي ولا المحالفة الثلاثية بمستطيعين أن يعتمدا على ولاء ايطاليا. فإن الحكومة الايطالية ستبذل كل جهودها للحفاظ على السلام. فاذا نشبت الحرب بدأت باتخاذ موقف المنتظر حتى إذا ما أوشك النصر أن يحل بجانب انضمت في النهاية اليه. ومن ثم كانت لأيطاليا قدم في كلا المعسكرين. وكان في استطاعتها أن تقفز الى هذه الناحية أو تلك. إلا أنها لم تكن على الإطلاق موضع ثقة حليفها القديمة أو صديقتها الجديدة.

وفي أواخر سنة ١٩٠٣ أخذت ألمانيا تحسب حساباً لاحتمال خروج ايطاليا على المحالفة الثلاثية بعد ذلك التودد إلى الفريق الآخر. وقد بدأت خشيتها هذه قيل أن تفاجأ بالوفاق الودي الذي عقده انجلترا مع فرنسا فجاء كالخطر يهدد بجذب ايطاليا إلى جانب هاتين الدولتين من دول البحر الأبيض المتوسط. فلقد صرح فيكتور عما نوئيل الامبراطور غليوم بأنه لاغنى لأيطاليا عن صداقة فرنسا في علاقاتها التجارية وأن هذه الصداقة

تمكن ايطاليا من اقتراض ما يعوزها من المال . وبعد ذلك ببضعة أشهر زار فكتور عمانوئيل باريس فكانت زيارته سببا لمظاهرات أخرى وفرصة انتهزت للدلالة على ما بين فرنسا وايطاليا من صداقة . هذا في حين أنه كانت هناك حركة عنيفة بين الأقلية الايطالية التي تحكمها النمسا وشعور ضد هذه الدولة عاد إذ ذاك إلى الظهور دون أن تعمل الحكومة الايطالية شيئا يذكر لتلطيفه . وفي ابريل سنة ١٩٠٤ رد الرئيس لوييه زيارة الملك عمانوئيل مستصعبا أسطول فرنسا الى نابولي حيث تابع السفر الى رومه مع انه إلى ذلك الحين لم يفعل رئيس لجمهورية فرنسا ما فعله لوييه من الاستهانة بالبابا في سبيل تكريم الملك . وقد شرب نخب لوييه في نابولي في أكثر من مناسبة فلم يشر الايطاليون مع توكيدهم للصداقة الفرنسية الايطالية إلى مركز ايطاليا في المحالفة الثلاثية ، فكان هذا الأفعال سبباً لأثارة احتجاج ألمانيا ومطالبتها ايطاليا بالاعتذار فيما يجد بعد ذلك من المناسبات الإشارة بأية صورة كانت إلى المحالفة الثلاثية وصبغتها السلمية حتى لا يظن العالم أن ايطاليا تحولت إلى جانب فرنسا . وقد وعد الوزير الايطالي بأن يحل هذا الاحتجاج محله من الاعتبار لكنه لم يف بوعده إذ تبودلت الانتخابات في مناسبتين آخرين دون أن يشار بحرف واحد إلى المحالفة الثلاثية .

ولقد حض موتس السفير الألماني في روما على أن تستعمل مع ايطاليا لهجة قاسية كما تثوب الى موقف أكثر ولاء من هذا . وكانت نصيحته هذه مطابقة لتحذيرات ييلوف ولفته ايطاليا في الماضي الى ألا تدع توددها لفرنسا ينقلب الى صلة دائمة . بيد أن ييلوف كان قد بات الآن أميل الى الملاطفة الحازمة منه الى التقرير . فحاول أن يسترجع ايطاليا من طريق التأكيد لها بأن ألمانيا لا تمنع في استيلائها على طرابلس يحدوده الى ذلك اعتقاده ايضا بأن التنفيس عن مطامع ايطاليا الاستعمارية في شمال افريقيا خير من ارضائها في ألبانيا والأدرياتيك حيث لا يؤمن غضب النمسا . وبعد ذلك

بيضة أشهر أحس ييلوف في نفسه رغبة شديدة في أن لا يغضب ايطاليا أو يتخذ معها موقفا جافا يدفع بها أكثر مما اندفعت الى احضان فرنسا وانجلترا ، وكان ذلك بعد أن أعرب تيتوني عن توبته ووعده « بالأآ يعود الى ما فعل » . وفي مؤتمر الجزيرة صوتت ايطاليا في جانب فرنسا وانجلترا ضد المانيا فكان هذا المسلك منها بمثابة ضربة قاسية للمحالفة الثلاثية دلت على أن ييلوف كان على حق في انشغال باله من ناحيتها . وقد خطب سونينو بمجلس النواب في ٨ مارس سنة ١٩٠٦ فحاول ان يوضح سياسة ايطاليا المزدوجة بقوله « إننا مع ولائنا القلبي للمحالفة الثلاثية سنحافظ على التقاليد الودية التي تربطنا بانجلترا وعلى الصداقة الشريفة القائمة بيننا وبين فرنسا » . فعلق أمبراطور ألمانيا على هذا بقول له مغزاه قال : « في الانجيل أن المرء لا يخدم سيدين ، فمن المؤكد على ذلك ألا يستطيع خدمة ثلاثة . وخدمة فرنسا وانجلترا والمحالفة الثلاثية من المحال . وستكون النتيجة أن تقف ايطاليا الى جانب الفريق الأنجليزي . الفرنسي . ونفعل خيرا اذا نحن توقعنا ذلك واعتبرنا هذه الحليفة عديمة الأثر » .

## الوافق الودي الأنجليزي الفرنسي سنة ١٩٠٤

يقال أن المسير ديلكاسيه الذي أصبح في يونيه ١٨٩٨ وزيرا للخارجية الفرنسية صرح بأن أول غرض من سياسته سيكون التقرب الى انجلترا فإنه لا بد من القضاء على العداوة القائمة بين انجلترا وفرنسا من قديم الزمان اذا أريد أن ينبسط سلطان فرنسا الاستعماري وأن تسترد يوما ما الألتاس والورين . ولذا خطا ديلكاسيه خطوات في سبيل التصالح مع « انجلترا الحاتة » فصادق على معاهدة تسوى الخلاف الذي ظل ناشبا أمدا طويلا على الحدود الانجليزية الفرنسية في وادي النيجير . وعقب ذلك بيضة أشهر سلم للبريطانيين في حادث فاشودة . وفي ٢١ مارس ١٨٩٩ وصل مع انجلترا الى

اتفاق يعين مناطق نفوذ كل من فرنسا وانجلترا في المنطقة الواقعة بين النيل الأعلى والكونغو . وبالجملة فعل كل ما يستطيع لمهد الطريق لتحسين العلاقات بين انجلترا وفرنسا .

يبد أن الرأي العام في كلا البلدين كان لا يزال معاديا ، ثم جاءت حرب البوير فزادت الطين بلة . لكن السير توماس باركلي كان يريد التغلب على هذه الحالة وكان ينظر الى البلدين من ناحية تجارية أكثر من نظرتة اليها من الناحية السياسية ففاتح سالسبرى وديلكاسيه في أن تزور الغرف التجارية البريطانية باريس وفاز بموافقة الاثنين على هذه الزيارة التي تمت في سنة ١٩٠٠ . وقد اقيمت برياسته مأدبة حضرها ٨٠٠ نفس فوق فيها توفيقا شجعه على العمل . وكانت هذه السنة هي التي أقيم فيها معرض باريس العظيم فأم العاصمة الفرنسية ألوف من الزوار البريطانيين ثم أعقب هذه الزيارات قيام وفد من الغرف التجارية الفرنسية الى انجلترا وتبادل بعض أعضاء البرلمان الزيارة هم وزوجاتهم ، مما مهد الطريق أمام السير توماس باركلي فجعل يقوم بدعاية لعقد معاهدة تحكيم بين انجلترا وفرنسا تزيل ما يمكن أن يكون هنالك من أسباب الخلاف وتجعل مستقبل البلدين بعيدا عن متناول التأثيرات الشعبية الخطرة . وقد عقدت هذه المعاهدة نهائيا في ١٤ اكتوبر سنة ١٩٠٣ وكانت تنص على أن يعرض على محكمة العدل الدولية بلاهاى كل خلاف يقع بين البلدين ( ما لم يمس المصالح الحيوية او الشرف أو الاستقلال ) .

في تلك الاثناء ماتت الملكة فيكتوريا في سنة ١٩٠١ واعتزل لورد سالسبرى الخدمة في سنة ١٩٠٢ فانفسح الطريق أمام رجلين كانا أكثر من سلفيهما تحمسا لتوثيق العلاقات مع فرنسا : وهما أدوارد السابع واللورد لانسدون .

فأما الملك الجديد إدوارد السابع فكان قد مضى جانبا طويلا من وقته في باريس أو الريفييرا وهو ولى للعهد فكان يتكلم الفرنسية بسهولة تامة

وكانت له صلوات حميمة في فرنسا وميل شديد إلى الفرنسيين كأمه . ففي ربيع ١٩٠٣ زار من تلقاء نفسه باريس لزيارته الرسمية الأولى بصفة كونه ملكاً فقبول هناك مقابلة أبهجتة . وعلى أن هذه المقابلة لم تكن أول الأمر حماسية إلا أنها كانت تنطوي على الاحترام وسرعان ما دلت على عطف أكيد . وقد كانت للملك إدوارد السابع خطب تنطوي على الكياسة عرف كيف يجمع فيها بين التقدير الممزوج بالمجاملة وحسن النية الصادر من صميم قلبه ويؤلف حوله بها قلوب أصدقائه العديدين . ففي إحدى هذه الخطب خاطب الفرنسيين بقوله :

« تكاد لا تكون ثمة حاجة لأن أثبتم هذه الغبطة الخاصة التي أشعر بها وأنا أجد نفسي مرة أخرى في باريس . وباريس كما تعلمون طالما زرتها فكانت كل زيارة تضاعف سروري بها وتوثق هذه الصلة التي تؤكدتها ذكريات ما أكثرها وما أبقى على الزمن آثارها . لقد انتهت لحسن الحظ عداوة كانت قائمة بين البلدين . ولست أعلم أن بين الأمم من ترتبط رفاهيتها برفاهية الآخر مثلهما . وصدقة هذين البلدين أحدهما بالآخر هو شغلي الدائم وغرضي الذي اعتمد عليكم جميعاً يا من تستمتعون بضيافة الفرنسيين في مدينتهم المجيدة في الوصول إليه . »

فحرارة هذا النطق الملكي والتمتع القلبي بتلك المادبة الرسمية التي أقيمت في قصر الأليزية والعرض العسكري الذي أجرى في فنسان والسباق الذي رتب في لونجشان : كل هذا ساعد كثيراً على محو الذكريات المرة التي تملكتم أذهان الفرنسيين من ناحية فاشودة وحرب البوير . وقد رد الرئيس لوييه بين ٦ و ٩ يولييه ١٩٠٣ زيارة الملك إدوارد بعدها بشهرين فخاطب مضيفه بقوله : « إن فرنسا تحتفظ من زيارتكم لباريس بذكرى ثمينة وإنني لو اثق بأنه سيكون لها أسعد النتائج وإنها ستساعد مساعدة عظيمة على الاحتفاظ بين بلدنا بأوثق من صلاتهما الوثيقة وأؤكد من روابطهما الأكيدة . وهذا

لخيرهما المشترك ولمصلحة السلام في العالم . ، ولما سافر الرئيس لوييه أرسل إليه الملك بهذه المناسبة يودعه برسالة كان لها وقع طيب على جانبي المانش . وكان ديلكاسيه يصحب الرئيس لوييه في هذه الزيارة فشرع في محادثة اللورد لانسدون محادثات آتت ثمرها بعد ثمانية أشهر عندما عقد بين إنجلترا وفرنسا ذلك الوفاق الودي الشهير . وكان ذلك في ٨ ابريل ١٩٠٤ لما أن وقعت طائفة من الاتفاقات تسوى بصفة حية مسائل ظلت طويلاً مثاراً للنزاع . وكانت تتعلق بمصايد الأسماك في نيو فنلنده وسنجاميا وسيام ومدغشقر وجزائر هبريديس الجديدة وغيرها من الموضوعات . وقد كانت أهم اتفاقية في هذه الاتفاقيات ما يتعلق باطلاق فرنسا يد إنجلترا أخيراً في مصر مقابل إطلاق يدها هي في مراكش

وكانت مصر قد ظلت أكثر من ربع قرن مصدراً من مصادر الخلاف الشديد بين دونينج ستريت وكي دورسي . كانت شوكة في جنب السياسة البريطانية فكانت لكل الدول العظمى في مصر حقوق سياسية ومالية عاقت على الدوام حرية إنجلترا في العمل وهددت باعتياق الإدارة المصرية . وكانت مالية مصر قد ازدهرت إذا ذاك لكنه نظراً للقيود التي فرضت في الأصل على مصر في أحوال لم يعد لها وجود كان الخديوي أو بعبارة أخرى مستشاره الانجليزي عاجزين عن أن يجنوا فائدة حقيقية من الأموال المتوفرة فكانت الحالة على قول اللورد كرومر مما لا يحتمل . ولذا تنفست إنجلترا الصعداء لما ان فازت بفك القيود المالية وبالتأكيد « بأن حكومة الجمهورية الفرنسية لن تعتاق عمل بريطانيا العظمى في مصر بالمطالبة بتحديد أجل للاحتلال البريطاني أو تعترضه في أي شأن آخر » . وقد استصدرت إنجلترا من الخديوي مرسوماً تضمن هذه الحرية الجديدة في العمل وأبلغته الى الدول رسمياً ، وحصلت على موافقتهم عليه . وهكذا لم تعد مصر نقطة ضعف في الدبلوماسية الانجليزية . أما في مراكش فقد كتب كيلبان من طنجة بعد ذلك بستة أشهر



يقول « لقد باتت المسألة المصرية في خبر كان أما المرا كشية فلا تزال باقية على قيد الحياة » .

ذلك أن مرا كش كانت تختمر بالاضطراب بالنسبة لفرنسا وعلى وشك أن تصبح بالنسبة لأوربا كلها كابوساً سياسياً . وكانت هذه البلاد في ختام القرن التاسع عشر دولة مستقلة بالفعل يبلغ سكانها من أربعة إلى خمسة ملايين من العرب والبربر واليهود والزنوج وغيرهم يحكمهم سلطان في فاس حكماً إسمياً لكنه كان حكماً مزعزراً لم تنفك الفن تتابع تحت ظله من جانب القبائل المعادية أو من المطالبين بعرش البلاد . فلما اضطربت الأحوال هذا الاضطراب عقدت الدول الثلاث عشرة التي تعاونت ذات يوم على قمع قرصنة البربر وفي جملتها الولايات المتحدة اتفاقية مع سلطان مرا كش في سنة ١٨٨٠ تسمى اتفاقية مدريد . وكانت تنص على حماية الأجانب في مرا كش وتعد بمعاملة الدول الموقعة على الاتفاقية معاملة أولى الدول بالمراعاة وفي جملتها إسبانيا وفرنسا اللتان كانتا أكثر الدول الأوربية مصلحة في مرا كش لجوارهما الجغرافي وعلاقتهما التاريخية .

فقد كانت إسبانيا قد ورثت أو فتحت في خلال القرن السادس عشر طائفة من المستعمرات في الشاطئ الشمالي بين مضيق جبل طارق غرباً والجزائر الفرنسية شرقاً . لكن هذه المستعمرات كانت تفصلها عن الأراضي المرا كشية سلسلة جبال الريف مما جعل إسبانيا لا تتطلع إلى تملك شيء من هذه الأراضي : وكل ما كانت تطلبه هو أن تؤمن على الشقة الممتدة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وعلى بعض المرافئ الواقعة على المحيط الأطلنطي تجاه جزائر كناري إذا كان لا بد من تقسيم مرا كش .

أما فرنسا فعلى أنها أبعد من إسبانيا عن مرا كش كانت لها في الحقيقة مصلحة في البلاد أدنى من مصلحة إسبانيا وأعظم منها شأناً ، فقد بدأت في سنة ١٨٣٠ تنشى تدريجاً مستعمرة عظيمة في الجزائر أو على الأصح تجعلها

جزءاً من فرنسا لأن هذه البلاد لم تكن مستعمرة بالمعنى المألوف إذ كانت كفرنسا مقسمة إلى مقاطعات ومثلة في مجلس النواب الفرنسي وأهلها المولودون فيها يتمتعون بكافة حقوق المواطنين الفرنسيين . فلما مد الفرنسيون سيطرتهم جنوباً نحو الصحراء لم يكن هناك حدود طبيعية فعالة تفصل أراضيهم عن أراضي سلطان مراکش . فكان من جراء ذلك أن تعرضت الجزائر لاغارات متواصلة من جانب القبائل المراكشية التي كان همها النهب والسلب وأصبحت فرنسا لا تنهأ على حدود الجزائر الغربية بشيء من الأمن ما دامت الأمور في مراکش متواصلة الاضطراب . ومن ثم أخذ الفرنسيون يحسون أن سلامة الجزائر ومصيرها وأمانهم في أن تكون لهم أمبراطورية استعمارية عظيمة في شمال افريقية - كل هذا - يحتم عليهم أن يمدوا سيطرتهم إلى مراکش إما بأن يكون لهم الاشراف على البوليس وإما بالحماية أو الضم المباشر .

لكن إيطاليا وانجلترا وألمانيا كانت لها أيضاً مصالح سياسية وتجارية في مراکش .

فايطاليا لما كانت بلا مستعمرات كانت تضع عينها على مراکش وتشتبها وخاصة بعد أن سبقها الفرنسيون إلى تونس . لكن فرنسا تخلصت من مطالب إيطاليا بأن وعدتها سرأ في سنة ١٩٠٠ بالألا تعترض أمانها في طرابلس . وانجلترا وكان بيدها في جبل طارق أحد عمودي الهرقل \* ، كانت مصممة على ألا تدع العمود الثاني القائم في سبته يقع في أيدي دولة أوربية قوية كفرنسا وإلا فقدت البحرية الانجليزية والتجارة الانجليزية تلك السيطرة الحيوية على مدخل البحر الأبيض المتوسط بعد أن ضمنها لها جبل طارق قرنين من الزمان . وكانت سبته ، في أيدي الأسبان لكن أسبانيا كانت من الضعف ، وخاصة بعد الحرب الأسبانية الأميركية ، بحيث كانت

---

\* اسم قديم يطلق على بوغاز جبل طارق (Pillars of Hercules)

انجلترا راضية عن بقاء سبته في يدها ، فلم تكن تخشى مطلقاً أن تنازعها اسبانيا السيطرة على المضائق . كذلك كانت انجلترا تشتهي طنجة لتجارها الواسعة هناك ولأسباب أخرى فاذا لم تستطع أن تحصل على طنجة لنفسها فلقد كانت على الأقل مصممة على ألا تدعها تسقط في أيدي أية دولة عظمى أخرى . هذا إلى أن انجلترا كانت ترغب في منع أية دولة أوروبية من أن تنشئ على الساحل الاطلنطي من مراكش محطة للتموين بالفحم أو قاعدة بحرية .

أما ألمانيا فكان يهتما على الأكثر المحافظة على مصالحها التجارية في مراكش وتوسيع نطاق هذه المصالح التي كانت تنمو بسرعة . وقد كان بعض الألمان وفي جملتهم بعض رجال وزارة الخارجية يريدون أن تكون لهم في غرب مراكش مستعمرة ألمانية تفتح للبضائع الألمانية أسواقاً جديدة وتتيح لهم مورداً للحديد يحتاجون اليه كثيراً وتزودهم بمحطة للفحم وقاعدة بحرية للأسطول الألماني في الأطلانطيق . لكن الامبراطور كان يعارض في تحقيق ذلك خشية التعرض لخصومة انجلترا وفرنسا .

ولقد بدا في مستهل القرن العشرين وازداد جلاء أن سلطان مراكش على الرغم من اتفاقية مدريد لا يستطيع أن يحافظ على النظام أو يحمي الاجانب الحماية الواجبة ، فلما اشتد التكالب بين الدول على امتلاك المستعمرات نشأ خطر من أن تجد دولة من هاته الدول كفرنسا سبياً للتدخل وسلب السلطان استقلاله أو بلاده أو كليهما ، ومن ثم أصبح مستقبل مراكش موضوعاً من أهم المواضيع للمناقشة السرية بين ساسة أوروبا .

فقد فاتح المستر جوزيف تشمبرلين السفير الألماني في ٣ نوفمبر ١٨٩٩ سرّاً في هذه المسألة مقترحاً عليه عقد اتفاق سري يتضمن تنزل ألمانيا عن كل مطلب لها على شواطئ مراكش الممتدة على البحر الأبيض المتوسط وفي جملتها طنجة في مقابل « تساهل انجلترا لألمانيا على الساحل الاطلنطي إلى أبعد حد » . وكان تشمبرلين يريد مع ذلك أن تظل المسألة في ذلك الحين

مكتومة عن رئيسه اللورد سالسبوري . فاهتم بيلوف باقتراحه وبخشه  
الأمبراطور من وراء اللورد سالسبوري أثناء زيارته لانجلترا بعد ذلك  
ببضعة أسابيع ؛ لكن موقف سالسبوري السلبي المنطوي على التحفظ أحبط  
الاقتراح .

وحدث أن راجت اشاعات بأن الفرنسيين اتفقوا مع الاسبانيين على  
تقسيم مرا كس فهنا غليوم الثانى ألفونسو ملك اسبانيا وصرح له بأن ألمانيا  
لا تطالب بشيء من أراضي مرا كس وأن كل ما تطلبه هو تأمين مصالحها  
التجارية : « موانى حرة وامتيازات بمد سكك حديدية واستيراد مصنوعات ،  
وربما أيضاً جزيرة فرناردوبو الاسبانية على سبيل التعويض ، وهى الجزيرة  
الواقعة فى خليج غينيا تجاه ساحل الكامبيون الألمانى . قال الأمبراطور  
وستدفع ألمانيا ثمنها بسخاء . فلما اتصل هذا التصريح ببيلوف أربكه وزملاءه  
فى وزارة الخارجية أن يعلن الأمبراطور أن لامصلحة لألمانيا فى مرا كس  
لأنهم كانوا أميل الى الظن بأن ألمانيا قد تؤوب من تقسيم الدولة الشريفة .  
بشئ من الغنيمة . وهكذا بات تصريح الامبراطور يقيدهم ويغل أيديهم  
وأصبح مبدأ من المبادئ التى استرشد بها فى سياسة ألمانيا نحو مرا كس  
فى السنين التالية على الرغم من ضجيج أنصار الجامعة الألمانية من ناحية  
وشكوك الانجليز والفرنسيين من ناحية أخرى .

وانقضت على هذا التصريح بضعة أيام فاذا بأحد موظفى السلطان يلقى  
فى السجن مرا كسياً فى خدمة الألمان دون أن يبدى للقنصل الألمانى  
الأسباب الداعية إلى ذلك كما جرت به العادة . فاحتج القنصل لكن  
احتجاجه ذهب سدى وبقى الرجل فى السجن دون أن يفرج عنه . فاشتبه  
الموظفون الألمان فى أن السلطان يسلك معهم هذا المسلك المنطوى  
على التحدى بتحريض من الانجليز أو الفرنسيين وزاد فى سخطهم أنه  
من بضعة أشهر مضت قتل ألمانى يدعى جنته بعد أن سرق ، فلما طلب لآل

الفقيديشيء من التعويض راوغ السلطان في رده على هذا الطلب . ومن تم توقع ييلوف وزملاؤه في وزارة الخارجية الألمانية أنه اذا لم تتخذ حياال هذه المسألة اجراءات حازمة مست هية ألمانيا مساساً خطيراً وتأثرت تجارتها ونفوذها في مراكش تأثراً كبيراً فرجا الأمبراطور أن يوافق على ارسال سفينة حربية ألمانية الى طنجه لتحمل السلطان على إجابة المطالب الألمانية المقدمة في شأن المسألتين الآتقتي الذكر، بيد أن الأمبراطور كان يكره أن يصادق على مثل هذه المظاهرة إذ كان يعلم أن المفاوضات بين انجلترا وفرنسا على مراكش توشك أن تنتهي بالتوقيع فقرر وكان على حق في قراره أن ابتعث سفينة الى طنجه في نفس هذه اللحظة بما يثير الارتياب في صدق ما صرح به لملك إسبانيا من أن ألمانيا لا تطمع في شيء من أراضي مراكش ، وقد كان يعتقد أن ضغط ألمانيا بالقوة على مراكش ينبغي أن لا يكون إلا بعد أن تطلع الدول الثلاث ( انجلترا وفرنسا واسبانيا ) على شكاوانا بالتفصيل وتلم بالوقائع كاملة حتى تستطيع ألمانيا الحصول على تأييد تلك الدول ومعاونتها ، وعلى أن الامبراطور لقي في سبيل آرائه هذه معارضة ييلوف وليشنوفسكي وبعض الموظفين الألمان في مراكش فقد نفذ قراره ولم تقع أية مظاهرة بحرية من جانب ألمانيا . لكن أمله في أن يكون التعاون الودي بين كافة الدول التي يعنها الأمر أكثر من غيرها وسيلة لمعالجة الاضطرابات في مراكش كان أملاً خائباً .

فانه في نفس تلك اللحظة كان اللورد لانسدون والمسيو بول كمبون سفير فرنسا في لندن يوقعان الاتفاق الانجليزى الفرنسى المشهور في ٨ أبريل ١٩٠٤ وهو الاتفاق الخاص بمصر ومراكش والذي أسلفنا الاشارة اليه . وكانت « شروطه العلنية » لا تقر بطبيعة الحال أية نية ترمى الى تغيير الحالة السياسية في مراكش لكنها في الوقت نفسه اختصت فرنسا بالمحافظة هناك على النظام . وها هي ذى تلك الشروط :

المادة الأولى [ عن اطلاق فرنسا الحرية لانجلترا في مصر ، واطلاق  
انجلترا الحرية لفرنسا في مراكش وقد أوردنا ذكرها آنفاً . ]

المادة الثانية : تعلن حكومة الجمهورية الفرنسية أنها لا تنوى تغيير الحالة  
السياسية في مراكش وتسلم حكومة جلالة ملك بريطانيا بأنه من حق فرنسا  
على الأخص ، باعتبارها دولة تشترك حدود ممتلكاتها مع حدود مراكش ،  
مسافة طويلة ، أن تحافظ على النظام في تلك البلاد وأن تقدم يد المساعدة  
للعمل على تحقيق كافة الاصلاحات الادارية والاقتصادية والمالية والعسكرية  
التي يمكن أن تطلبها . وهي تصرح بأنها لن تعتاق العمل الذي تقوم به فرنسا  
في هذا السبيل على شريطة ألا يمس هذا العمل الحقوق التي تتمتع بها بريطانيا  
العظمى في مراكش وفاقاً للمعاهدات والاتفاقات والمألوف ...

المادة الثامنة : تنظر الحكومتان لما يحدوهما من الشعور الخالص بصداقة  
اسبانيا بعين الاعتبار الخاص الى المصالح التي تستمدتها هذه البلاد من مركزها  
الجغرافي وممتلكاتها الواقعة على شاطئ المغرب ...

المادة التاسعة : توافق الحكومتان على أن تؤيد كل منهما الأخرى سياسياً  
كما يمكن تنفيذ المواد الخاصة بمصر ومراكش في هذا التصريح .  
على أن بعض « المواد السرية » الهامة كانت تتضمن التفكير في تقسيم  
مراكش بين فرنسا واسبانيا :

المادة الثانية [ لا تنوى انجلترا في الوقت الحاضر إرتياء تغييرات في  
مصر لكنها اذا رأت من المرغوب فيه إدخال اصلاحات لفرنسا ] لن ترفض  
الموافقة على مثل هذه الاقتراحات على أن يكون مفهوماً بين الدولتين أن  
حكومة جلالة ملك بريطانيا ستوافق على ما يمكن أن تقترحه عليها حكومة  
الجمهورية الفرنسية من ادخال إصلاحات مماثلة لهذه في مراكش .

المادة الثالثة : توافق الحكومتان على أن توول الى منطقة نفوذ اسبانيا  
شقة بعينها من أراضي المغرب مجاورة لميلله وسبته وغيرها من الحصون

متى زالت عنها سلطة السلطان وأن يعهد الى اسبانيا في ادارة الشاطىء الممتد من مليلله الى المرتفعات الواقعة على الضفة اليمنى لنهر سيبو دون أن تدخل هذه المرتفعات في هذه الادارة .

ومع ذلك فعلى اسبانيا أن تتعهد ألا تنقل ملكية كل أو بعض الاراضى الموضوعه تحت سلطتها أو في منطقة نفوذها .

ومن الغريب أن الفيكونت غراى والمسيو بوانكاريه تكلموا عفواً عن هذه المواد السرية التى تشير الى تقسيم مرا كش فحاولا أن يقللا من شأنها إذ قال غراى إن الاتفاق المعقود مع فرنسا أعلن كله فيما عدا مادة واحدة أو اثنتين لا أهمية لها . ومن طبع غراى انه اذا كان عليه أن يعالج مسألة بنغيضة لا تتفق ووجهة نظره الى الأشياء عمد الى التدليل عليها بأنها « غير مهمة » أما المسيو بوانكاريه فتكلم كذلك عن اتفاق مرا كش السرى باعتبار أن سرية « مؤقتة » .

فلما أن نشرت المواد المراد إذاعتها للبلاد تظاهرت اسبانيا بالغضب لأن أحداً لم يستشرها فى الأمر ولأنها عوملت كأنها كية مهملة ولأن هذا إذلال عرض الأسرة والعرش للخطر . على أن ديلكاسيه سرعان ما تخلص من معارضة اسبانيا بأن وعدها بنصيبها متى حان الوقت لتقسيم مرا كش . وفى ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤ عقد الاتفاق الفرنسى الاسبانى فأقرت اسبانيا فيما تضمنه هذا الاتفاق من المواد السرية الوفاق الودى المعقود بين بريطانيا وفرنسا فى ٨ ابريل من السنة ذاتها وأعلنت فرنسا واسبانيا للخافقين أنهما ستظلان ثابتتين فى ارتباطهما بالمحافظة على سلامة الامبراطورية المراكشيه تحت سيادة السلطان ، أما المواد السرية التى أبلغت طبعاً إلى لورد لانسدون فكانت ترمى إلى نقيض هذا .

وقد قسمت منطقة النفوذ إلى قسمين : القسم الأول وهو منطقة النفوذ الاسبانى وتشمل الشقة الشمالية الممتدة على ساحل البحر المتوسط وساحل

الأطلسيقي ، أما المنطقة الفرنسية فقد اشتملت على كافة الجهات الواقعة في داخل البلاد .

ولنتساءل الآن عن الذين كانوا سبباً في عقد الاتفاق الودي وماذا كانت بواعثهم . يقول المسيو تارديو وكان وثيق الصلة بديلكاسيه وعلى علم بما هنالك « إن ملك إنجلترا كان أول من بدأ بالتقرب فقد كان هو الذي أدرك ماهيته وسهل تحقيقه بينما كان الكثيرون لا يزالون يعتقدون أن الوقت لم يحن بعد له » وتكلم عنه اللورد كرومر فوصفه بأنه من عمل ذلك السياسي العظيم صاحب الجلالة الملك واللورد لانسدون . على أنه لا ريب في أن ديلكاسيه مذ تقلد منصب وزير الخارجية الفرنسية في سنة ١٨٩٨ لم يأل جهداً في العمل على مد نفوذ فرنسا في مراكش فعقد مع أسبانيا معاهدة في سنة ١٩٠٠ لهذا الغرض ، لكنه كان يعلم أن هذه المعاهدة لن تجدى عليه شيئاً كثيراً ما دامت أكبر دولة بحرية لا توافق عليها وهي التي لها في مراكش تلك المصالح الكثيرة ومن ثم سعى إلى التقرب من إنجلترا . وقد أيده في هذا المسعى كل من وزير مستعمراته المسيو ايتيان وسفيره في لندن بول كامبون تأييداً قوياً وعضدهما في ذلك كل من اللورد لانسدون واللورد كرومر تعضيداً قلبياً .

أما عن البواعث التي حدت إلى هذا التقرب فكانت من جانب إنجلترا كما يلي : لما قررت إنجلترا العدول عن سياسة العزلة المجيدة ولم تتلق من ألمانيا جواباً مرضياً عن المساعي التي بذلتها تشمبرلين للتحالف معها ولت وجهها بطبيعة الحال شطر فرنسا . لكنه نظراً للنزاع المتزايد بين روسيا واليابان وهو الذي أدى إلى نشوب الحرب بينهما في فبراير سنة ١٩٠٤ ولأن إنجلترا كانت حليفة لليابان كما كانت فرنسا حليفة لروسيا ، فقد كان يهم إنجلترا أن تكون علاقاتها بفرنسا ودية لتحول بذلك دون تصادمها بها من جراء الحرب الروسية اليابانية . وربما كان قد أهمها أيضاً أن تحول دون قيام عصبة



سنة ١٨٩٥ الثلاثية (روسيا وألمانيا وفرنسا) من جديد للضغط معاً على اليابان في الشرق الأقصى. ثم لعل أهم باعث لانجلترا على التقرب إلى فرنسا كان كما قال اللورد كرومر رغبته في أن تكون يدها طليقة في مصر. ولم يكن باعث فرنسا على عقد الاتفاق يختلف كثيراً عن باعث انجلترا فانها لم تشأ الاصطدام بانجلترا من أجل مطامع حليفها روسيا في الشرق الأقصى، ثم أنها كانت مثلها ميالة إلى تصفية سلسلة اختلافاتها معها. أضف إلى هذا أنها كانت تطمح إلى إطلاق يدها في مراكش واكتساب صداقة انجلترا ومخالفتها لتؤلف بذلك حلفاً دولياً يتكافأ مع المحالفة الثلاثية أو يرجح عليها. وبما جعل فرنسا تفكر جدياً في التقرب من انجلترا أنها رأت أن أمانها في التحالف مع روسيا قد خابت لا في فاشوده فحسب بل في عدة مناسبات أخرى. نعم أنه لم يخطر لديلكاسيه أن يغسل يده من المحالفة الروسية ولكنه رأى في مصادقة انجلترا ما يعوض على فرنسا ما فاتها في المحالفة الروسية الفرنسية.

لهذا اشترى ديلكاسيه في سنة ١٩٠٤ مطامع انجلترا وايطاليا في مراكش بأن وعد الأولى باطلاق يدها في مصر والثانية في طرابلس. كما أنه أرضى اسبانيا بمنطقة نفوذ في شمال مراكش. وقد رأى أن في مكنته الآن أن يشرع رويداً رويداً في التوغل السلمي في بقية الدولة الشريفة دون اكتراث بمطالب ألمانيا الطبيعية، واعتقد أن فرنسا قد أضحت في مركز سياسي قوى بوجود روسيا حليفة لها وانجلترا صديقة، وأنها تستطيع أن تجازف فتجاهل تلك الدولة التي استولت على الألزاس واللورين وظلت سنوات عديدة طويلة تسيطر على شئون القارة الأوربية. لكنها كانت واهمة في تقديرها ذلك ومخطئة جداً؛ فقد كانت فرنسا كما قال نقادة فرنسي تتخذ الحيلة من كافة جيرانها وتغفل الجارة الوحيدة التي يدعوها كل شيء إلى الخشية منها وهي ألمانيا. وأشار مستر جوش بحق إلى أنه «من بواعث الأسف أن

الوزارة البريطانية لم تستبن حكمة استرضاء المانيا أو تساعد فرنسا بأية حال على استبانتها. ومع أن معاهدات سنة ١٩٠٤ السرية لم تختص بريطانيا العظمى بنصيب ما في مرا كس حينما تقسم فان نصيينا من تلك الصفقة التي أوجبت عملاً مزدوجاً يلقي على الحكومة البريطانية جانباً من المسؤولية عن أزمتي ١٩٠٥ ١٩١١ ٦

### الازمة المرا كشية في سنة ١٩٠٥

يعتقد الناس عامة في فرنسا وانجلترا أن زبارة الامبراطور غليوم لطنجه في يوم ٣١ مارس سنة ١٩٠٥ بتلك الصورة المسرحية وما أعقبها من سقوط ديلكاسيه في ٦ يونيه من السنة نفسها كان نتيجة ما حاولته المانيا بالتهديد من جس نبض الوفاق الودي المعقود حديثاً أو احباطه والفصل بين انجلترا وفرنسا في الوقت الذي كانت فيه روسيا مجندلة في الشرق الأقصى . لكن هذا الاعتقاد كما تدل الوثائق الألمانية المنشورة حديثاً ليس صحيحاً في جملته ، وقد نشأ هذا الخطأ من التحامل والجهل ومن أن بعض الكتاب ظنوا أن مناورة الامبراطور غليوم في بچوركو والخطوات التي خطاها ييلوف في مرا كس كانت كلها جزءاً لا يتجزأ من سياسة معينة

والواقع أن الامبراطور وييلوف عند ما رأيا نفسيهما فجأة أمام وفاق ودي بين فرنسا وانجلترا لم يؤخذ فيه رأى ألمانيا برغم مساسه بمصالحها ونظراً لاعتقادهما بأن النصوص التي أعلنت للسلا لا بد أن تخفى وراءها مواداً سرية — قررا أن لا مفر من القيام بعمل ما ولكنهما اختلفا على شكل هذا العمل

أما ييلوف فقد استحسن التزام صمت أبي الهول ريثما يبلغ ديلكاسيه ألمانيا الاتفاقية المرا كشية بصفة رسمية ويقدم لها الضمانات التي تحتاجها مصالحها التجارية والتعويضات المناسبة . لكنه لما أصدر ديلكاسيه على اغفال

ألمانيا طيلة عام كامل أراد ييلوف لفت نظره إلى الموضوع بالضغط على الامبراطور بالقيام بذلك العمل السياسي المسرحي في طنجه في شهر مارس سنة ١٩٠٥ . ولا شك في أن الامبراطور كان مكرهاً على هذا العمل وليس أدل على ذلك من الفقرة الآتية في أحد خطاباته لييلوف إذ يقول :

« لا يبرح عن بالك أنك أنت الذي أكرهتنى رغم ارادتي على الذهاب إلى طنجه أملاً في نجاح سياستك في مراكش . ولو عدت الى قراءة التلغرافات التي أرسلتها إليك قبل زيارتي لطنجة . . . لرأيت أنني مرصاة لك وللوطن نزلت الى البر وامتطيت جواداً عربياً بالرغم من عجزى عن ركوب الجياد بسبب تقلص ذراعى الأيسر وبذا كنت على قيد أنملة من أن ألقى حتفى وهذا بفضل مغامرتك فضلاً عن أنى رأيت نفسى وسط الفوضيين الاسبان لأنك أردت ذلك . ولا شك أنك ظننت أن سياستك تريح من هذا العمل »

ودليل آخر على اختلاف رأيهما في المشكلة المراكشية أن ييلوف لم يكن يحيط مولاه بكل تطورات هذه المشكلة بدليل أن معظم الوثائق التي ظهرت في كتاب السياسة العليا خاصة بمراكش ظهرت خالية من ملاحظات الامبراطور على الهامش مما يلوح معه أنها لم تعرض عليه بانتظام أو أنها لم تلخص له التلخيص الوافى طبقاً لما كان متبعاً . ومن المحتمل أيضاً أن من بين الأسباب التي حملت ييلوف على التهديد بالاستقالة فيما بعد اعتقاده بأن الامبراطور سوف يرجوه البقاء فى منصبه وإذ ذاك تطلق يده فى شئون الدولة بالحزم المطلوب

أما الامبراطور فكان يرغب فى أن يتجنب ما من شأنه أن يثير استياء فرنسا وأن يدرأ الخطر المائل فى الاتفاق الانجليزى الفرنسى بتحقيق ما كان يحلم به من انشاء عصبة أوربية . كان يأمل أن يستخدم نفوذه الشخصى مع القيصر الضعيف الارادة لجذب روسيا إلى عقد محالفة دفاعية مع ألمانيا .

فاذا حدث ذلك حملت روسيا حليفها إلى الانضمام إليها . وتم له تكوين عصبة الأمم الأوروبية بالجمع بين الدول الخمس التي تؤلف المحالفة الثلاثية والمحالفة الثنائية فيزول الخطر الذي يخشى على أوروبا من تخاصم الفريقين، ويساعده هذا على ضمان سلام العالم كما يمكنه من صد سلطان إنجلترا البحري والاستعماري ونفوذها المنطوي على الصلف والغرور . وهذا حلم ذهب في الخيال بعيداً وكان صعب التحقيق لكنه في يولييه سنة ١٩٠٥ وفي لحظة ابتهاج وجيزة كان يبدو وشيك التحقق .

### ( ١ ) سياسة غليوم الثاني في بچوركو

بينما كان الأمبراطور يطوف في المياه الشمالية إقترح على قيصر روسيا فجأة أن يتقابلا على ظهر يختيهما في بچوركو . وقد خيل إلى الناس من تخلي فرنسا عن المسيو ديلكاسيه أولاً ومن ميل فرنسا إلى العمل باقتراح المانيا القاضى بعقد مؤتمر لحل المشكلة المراكشية ثانياً — إن الحكومة الفرنسية عدلت عن سياسة الانتقام وأنها قد تحمل على تحسين علاقاتها مع ألمانيا بنفوذ القيصر . لهذا عقد أمبراطور ألمانيا نيته على أن يستفيد من مقابلته لقيصر روسيا في بچوركو وبما حاق بالروسيا من المتاعب بسبب الحرب اليابانية الروسية ليحمله على استئناف مفاوضات الخريف السابق وعقد محالفة مع ألمانيا وكانت تلك المفاوضات قبل بضعة أشهر قد أسفرت بين العاهلين عن وضع مشروع محالفة لكن روسيا عادت فرفضته خوفاً من إغضاب فرنسا . أما الآن فربما كانت الفرصة ملائمة لعقد تلك المحالفة .

وقد يمم اليخت هو هنزلرن شطرميناء بچوركو وألقى مراسيه في صورة مؤثرة إلى جانب اليخت بولارستار وتبادل العاهلان الزيارات وكان منظر يلائم مزاج الأمبراطور وطبعه الذى يتعشق المظاهر . والدليل على ابتهاجه بهذه الزيارة ما نقتطفه من كتابه الذى بعث به إلى ييلوف يقص عليه ما وقع

في قرة بولارستار . ويقع هذا الكتاب في ست صفحات مطبوعة . قال  
الإمبراطور :

وزي في ٥ يولية سنة ١٩٠٥ .

عزيزي ييلوف

لا بد أن تكون أدركت من برقياتي أن عملية التقرب قد كللت بالنجاح  
وأننا قد كسبنا المعركة .

والآن وقد تم الأمر فإن المرء ليتساءل دهشاً كيف أمكن ذلك . إن  
الجواب واضح أمامي . فلقد جرى القلم بهذا في لوح القضاء وحققت إرادة  
الله رغم إرادة الانسان واحتقاراً لدسائسه فقبلت روسيا ما رفضته في الشتاء  
الماضي تعالياً وما حاولت أن تقلبه ضدنا حباً في الدسائس . قبلته الآن وهي  
أرضي ما تكون نفساً واعتبرته هبة من فضل الله بعد أن أذلتها يد الواحد  
القهار . ولقد ابتهلت إلى الله تعالى وسلبت له نفسي ودعوته أن يسدد خطاي ...  
وقد أحسست أنه شد أزرى وشعرت بالارادة والقصد يقويان ويتجلبان  
في نفسي فتوجهت إلى اللقاء والثقة تفعمني فهل تدري ماذا وجدت . وجدت  
استقبالا حاراً وحفاوة بادية الحماس كالذي يلقاه المرء من أخلص أصدقائه .  
عانقني القيصر كما لو كنت أخاه وظل يحدق فيّ ملياً مرة بعد أخرى وعيناه  
تبان عن الابتهاج والشكران .

قال القيصر إنه متعطش للبحث معي في كل شيء وأنشأ يظهر إرتياحه  
العظيم لاتفاقنا على المؤتمر المراكشي ، وتمنى أن يمهد الطريق لانشاء علاقات  
حسنة دائمة مع فرنسا . . . فقلت إن فرنسا برغم تحريض انجلترا لها قد رفضت  
بتاتا أن تقابل تحدينا بمثله فتخلت عن ديلكاسيه وعدلت عن فكرة الحرب  
لاسترجاع الالزاس واللورين قال : أجل وهذا رأيي فمن الجلي كل الجلاء أن  
مسألة الالزاس واللورين قد انتهت بحمد الله إلى الآن . وانتقلنا إلى الكلام عن  
انجلترا فاذا بي أتبين القيصر حانقاً عليها وعلى ملكها . فأدوارد السابع في رأيه شر

خلق الله وأخطرهم دساً وغشاً فلم يسعني إلا إقراره على رأيه فيه وزدت عليه أنى كنت عرضة لدسائسه فى السنوات الأخيرة بصفة خاصة وأنه مغرم بالتآمر على كل دولة وبأن يعقد معها « اتفاقات صغيرة » فضرب القيصر المائدة بقبضته مقاطعاً وقال أستطيع أن أؤكد لك أنه لن يحصل على مثلها منى وأناى لن أعقد معه اتفاقاً ضد ألمانيا أو ضدك ما بقيت على قيد الحياة . هذا ما أقسم عليه بشرفى . [ وفى اليوم التالى ذهب الأمبراطوار الى يخت القيصر وفى جعبته مشروع المعاهدة التى أمل عقدها مع روسيا فدار الحديث ثانية حول دسائس انجلترا فيما يتعلق بالحرب الروسية اليابانية . إلى أن قال الأمبراطور ] « هنا شعرت أن الفرصة ملائمة فقلت وماذا لو عقدنا فيما بيننا اتفاقاً صغيراً فلقد بحثنا فى الشتاء الماضى هذا الموضوع . . . فقاطعنى قائلاً نعم . نعم . أذكر ذلك ولكنى نسيت محتويات الاتفاق ولا توجد معى للاسف صورة منه فقلت هاهى ذى الصورة وجدتها فى جيبى اتفاقاً

« إذ ذاك تأبط القيصر ذراعى وقادنى الى مخدع أيه وأحكم إيصاد الأبواب وقال وأمارات الابتهاج بادية على محياه « أرجوك أن ترينى الصورة » فأخرجت الغلاف من جيبى ونشرت الورقة على منضدة اسكندر الثالث فى مواجهة صورة أم القيصر فتلا النص الذى أرسلته إليك مرة وثانية وثالثة ودعوت الله أن يشد أزرنا الآن وأن يميل قلب القيصر الشاب . وكان السكون إذ ذاك رهيباً كسكون الموت فلم يك يسمع إلا هدير المياه . وإذا تأمل أمامى اليخت هو هنزلرن ناصع البياض ومن فوقه العلم الأمبراطورى يداعبه نسيم الصباح وقع نظرى على صليبه الأسود وعليه « الله معنا » فلم أكد أقرأها حتى شق القيصر بصوته هذا السكون العميق يقول « هذا حسن جداً إنى موافق عليه كل الموافقة »

« إذ ذاك دق قلبى فاستجممت نفسى وقلت له عرضاً « هل تحب أن توقعه ؟ إن ذاك ليكون أحسن ذكرى لهذه المقابلة » فألقى على الاتفاق نظرة عجلي ثم

قال : نعم أوقعه ، ففتحت الدواة وناولته القلم فأمضى « نيقولا » ثم ناولته فوقعت باسمي ولمسا نهضت قائماً عانقني وقال لي والتأثر بالغ منه « إني أحمد الله وأشكر لك حسن مسعاك . إن هذه المعاهدة سيكون لها خير النتائج لبلادى وبلادك وإني لعلى يقين بأنك صديق روسيا الوحيد في هذا العالم . وقد تحققت من هذا في خلال الحرب الروسية اليابانية ، إذذاك شعرت كأن الدموع تترقرق في عيني من الفرح وفكرت في فردريك غليوم الثالث والملكة لويز وجدى والقيصر نيقولا الأول وخيل إلى أنهم جميعاً واقفون إلى جانبنا وأنهم اغتبطوا بما فعلنا .

« وهكذا أصبح يوم ٢٤ يوليه سنة ١٩٠٥ في بجور كو نقطة تحول في تاريخ أوروبا فله الحمد وإنه لبعدا الضيق فرج عظيم يناله وطنى العزيز وتتخلص به في النهاية من كلاليب السياسة الفرنسية الروسية المزعجة . »

على أن ابتهالات الامبراطور غليوم الحارة وتفاؤله لم يدوما طويلا بل صب عليهما بيلوف ماما باردا عند ما هدد بالاستقالة بحجة أن مولاه أدخل من تلقاء نفسه تغييرا طفيفا على مشروع المعاهدة الذى ارسلته اليه وزارة الخارجية إذ أضاف لفظة « فى أوروبا » إلى المشروع الأول . وبذا أصبحت المادة الثانية تنص على أنه فى حالة اعتداء احدى الدول الأوربية على احدى الامبراطوريتين فن حليفها تساعدها فى أوروبا بكافة قواتها البرية والبحرية . وبديهي أن اللفظة التى أضافها الامبراطور هي لفائدة المانيا لانها بذلك تتفادى من التقيد بمساعدة روسيا على حدود الهند أو فى الشرق الأقصى حيث يرجح كثيرا احتكاك روسيا بانجلترا . وقد كان تهديد بيلوف بالاستقالة صدمة فجائية قوية ولم يكن الامبراطور يستطيع التخلي عنه فوعد بأن يحمل القيصر على الموافقة على الغاء هذه الزيادة وإعادة المادة الثانية إلى نصها الأول وناشد بيلوف مناشدة لم يستطع إلا أن يصغى إليها قال : « إنك عندى وفى عين الوطن أعز مائة ألف مرة من كل معاهدات العالم . . . كلا يا عزيزى . فلتبق فى

منصبك إلى جانبي فعندئذ نستطيع أن نعمل سويا لرفع شأن ألمانيا . فاذا ما تلقيت خطابي هذا فارسل إلى تلغرافا بموافقتك لأعلم أنك باق في منصبك لأن اليوم التالي لوصول خطابك بالاستقالة لن يجد امبراطورك على قيد الحياة ففكر بربك في مصير قرينتي وأولادى المساكين . » .

لكن هذه الصدمة تلتها صدمة أشد منها بددت احلام الامبراطور . فان القيصر عندما عرض مشروع المعاهدة على وزير خارجيته لم يكده هذا يصدق عينيه أو أذنيه بيد أنه بعد أن أنعم النظر طول الليل في محتوياته بين للقيصر خطورة هذه الوثيقة التي وقعها وشرح له تناقضها مع روح المحالفة الفرنسية الروسية واستحالة دخول فرنسا في اتفاق كهذا مع ألمانيا والروسيا . فلم يسع نيقولا إذ ذاك إلا أن يكتب لجليوم بقدر ما يستطيع من الكياسة يقول إن « هذه الوثيقة ينبغي تعزيزها أو ايضاحها بشكل يكفل أن ينفذها كل فريق يهيمه أمرها بمنتهى الأخلاص والصراحة . . . في خلال وجودي في بچوركو لم تكن معي الوثائق التي وقعها أبي والتي تحدد المبادئ التي تقوم عليها المحالفة الفرنسية الروسية . فعند أول مسعى قمت به للوصول إلى الطريقة التي أحمل بها الحكومة الفرنسية على الانضمام إلى معاهدتنا الجديدة - تبينت أمامي صعوبة المهمة ومشقتها وأنه لا بد من مرور زمن طويل قبل ضمها إلينا بمحض إرادتها . . . »

أرى أن يؤجل العمل بمعاهدة بچوركو إلى أن تبين موقف الحكومة الفرنسية أزمائها . » .

ولا تسلم عن مبلغ استياء الامبراطور عند وصول هذا الكتاب الذي أجل معاهدة بچوركو إلى أجل غير مسمى . لكنه عاد فناشد نيقولا إلزام ما وقعته يده وبين له أن هذه المعاهدة لا تتعارض مع المحالفة الفرنسية الروسية قائلا « لقد تخلت عنك حليفتك في الحرب ( الروسية اليابانية ) في حين ساعدتك ألمانيا بكل وسيلة وعلى قدر ما تستطيع دون أن تحرق



قوانين الحياد . وهذا يطوق روسيا حيالنا بالجميل . . لقد وضعت يدك في يدي ووقفنا أمام الله . فليبق توقيعنا والله علينا شهيد » . لكن توسلات الامبراطور ذهبت هباء وتخطت آماله في تأليف عصبة من الدول الأوربية .

### ( ب ) سياسة ييلوف في مراکش

وندع الآن محاولات الامبراطور لعقد معاهدة دفاعية مع روسيا إلى مناورات مستشاره في المسألة المراكشية فانها بلا جدال أهم بكثير من المحاولات الآتية الذكر لأنها أدت إلى إحداث الأزمة المراكشية في سنة ١٩٠٥ كما أدت فيما بعد إلى المحادثات البحرية والعسكرية بين إنجلترا وفرنسا ، تلك المحادثات التي كان لها أعظم شأن في تطور نظام المحالفات السرية .

ففي مأدبة العشاء التي أقيمت للسيو ديلكاسيه في السفارة الألمانية ثم بعد ذلك بيضعة أيام في يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٠٤ أخطر المسيو ديلكاسيه البرنس رادولين بصفة غير رسمية بنياً المفاوضات الدائرة لعقد اتفاقية بين فرنسا وإنجلترا . وقد أشار ديلكاسيه إلى المناطق التي تتناول الاتفاقية وهي نيوفوندلند ومصر ومراكش وسوكوتو وسيام . أما فيما يختص بمراكش فقد كرر مرة أخرى رغبته قبل كل شيء في المحافظة على الحالة الراهنة مادام ذلك مستطاعاً لكن ضعف الحكومة الشريفة يعرض التجارة في مراكش للخطر ؛ وهذا ما يجعل فرنسا ترغب في تعزيز مركز السلطان وانهاء الفوضى الضاربة أطناها في الوقت الحاضر . قال : إن فرنسا وإن كانت لا تطمح إلى مصالح خاصة في مراكش إلا أنها ترى أن من واجبها وخدمة لمصالح الدول التي لها تجارة هناك أن تضع بقدر المستطاع حداً للفوضى الحالية الضاربة أطناها في هذه الدولة المتاخمة لأراضيها .

هذا كان بدء علم ييلوف بالاتفاقية الانجليزية الفرنسية المقبلة ، وفيما عدا هذا التبليغ الغير الرسمي ونشر المواد العلنية التي اشتملت عليها

الاتفاقية في الصحف فان ألمانيا لم تبلغ الاتفاقية رسمياً ولا استشارتها فرنسا رسمياً في هذه المعاهدة التي كانت تمس ما لألمانيا في مراکش من حقوق تجارية ومصالح سياسية . لهذا شعر ييلوف بأن ألمانيا أهينت وأن هيبتها فضلاً عن مصالحها المادية قد مست . وقد يكون حقيقة أن ييلوف استخف بادي بدء بما لهذه الاتفاقية من أهمية سياسية ، لكن هذا الاستخفاف لم يصل إلى الحد الذي افترضه الناس من الخطبة التي ألقاها في الريخستاج في يوم ١٣ ابريل لتبديد مخاوف الجمهور الألماني . وفي الواقع لقد حملته هذه الاتفاقية هو ومساعديه في وزارة الخارجية على إنعام الفكر في الأسابيع التالية . على أنه قرر هو وهولشتين أن يتمسكا بما نالته ألمانيا من الحقوق بمقتضى معاهدة مراکش الدولية المعقودة في سنة ١٨٨١ وأن يغفلا شأن الوفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا كأن لم يكن إلى أن يفتح ديلكاسيه باب البحث في الموضوع ويهيء الفرصة للملائمة لأن تسمعه ألمانيا رأيها فر بما حصلت على التعويضات المناسبة . وقد استقر رأيهما تدريجاً على أنه ليس لفرنسا وإنجلترا لمجرد الاتفاق فيما بينهما أن تجردا الدول الأخرى مما لها من الحقوق في مراکش . ثم إن إطلاق إنجلترا يد فرنسا في مراکش معناه تحويلها إلى تونس أخرى وبذا تهدد حقوق ألمانيا ومصالحها التجارية . هذا إلى ما يمكن أن يصيب هيئة ألمانيا من الأذى لو أنها سمحت لفرنسا وإنجلترا بأن تبتا في مصير مراکش كما لو كانت ألمانيا غير موجودة . ولقد لخص هولشتين الموقف بقوله إننا لو سمحنا للغير بأن يطاء أقدامنا في مراکش دون أن تنبس بينت شفة فاننا نشجع دولا أخرى على امتهان شأننا في جهات العالم الأخرى .

هنا كان أمام ألمانيا طريقان للاعراب عن رأيها : الاول أن تخبر ديلكاسيه بصراحة وفي لهجة ودية أن نشر نصوص الوفاق الودي قد أثار مخاوف شعبها فيما يختص بمصالح ألمانيا التجارية وأن تستفهم في شيء من التوسع

عن نوع الضمانات التي سوف تقدمها فرنسا لحماية تلك المصالح . وهذا هو الطريق السوي الذي يتفق وحقوق الجوار . الطريق الثاني هو أن تلتزم ألمانيا صمت أبي الهول فلا تعترف وجود الوفاق الودي ولا تحتج عليه بل تسير في سياستها كما لو كان هذا الوفاق لا وجود له بتاتا بالنسبة لها لمجرد عدم ابلاغها إياه . وهذا الطريق يتطلب أن تقلد ألمانيا فرنسا في كافة ما تتخذه من الوسائل البوليسية لوضع حد للفوضى في مرا كش فان أرسلت فرنسا مدرعة إلى المياه المراكشية أمكن ألمانيا ان تفعل مثلها وهكذا حتى تحمل ديلكاسيه بدون المساس بحقوق ما على أن يكون هو البادىء بالكلام والتساؤل عن غايات ألمانيا ونياتها . وكلما زهدت ألمانيا في شرح سياستها في الصحف كلما زاد قلق فرنسا حتى إذا ما أدرك ديلكاسيه أن ألمانيا جادة في الأمر سعى المستميت في الحيلولة بين ألمانيا وبين أن يكون لها موطىء قدم في مرا كش . ومع أن هذا الطريق الثاني كان ينطوى على المغامرة ويعرض سلام أوروبا للخطر فقد كان الطريق الذي آثر ييلوف وهولشتين اتباعه .

على أن سياسة صمت أبي الهول لم تؤت ثمرها العاجل كما كان يؤمل ييلوف : نعم إن ديلكاسيه إزداد قلقه لكنه اجتنب فتح باب الكلام في الموضوع . ولكي تحمله ألمانيا على الخروج عن صمته هذا أخذت تحرض الحكومة الشريفة على مقاومة البرنامج الذي اتتت فرنسا تطبيقه في مرا كش في شتاء سنة ١٩٠٤ - ١٩٠٥ وهو يتلخص كما قال تيلانديه رئيس البعثة الفرنسية في تنظيم الجيش المراكشى بواسطة معلمين فرنسيين ، وعقد معاهدة بين السلطان والحكومة الفرنسية باستبعاد ما للدول الأخرى من النفوذ السياسى وتحويل الفرنسيين مراقبة مالية السلطان . وقد لاح لكيلهان أن تنفيذ هذا البرنامج يضع مرا كش تحت الحماية الفعلية ، ومن ثم أخذت ألمانيا تشجع السلطان على معارضة هذا البرنامج وإن كان يياوف قد طلب الى مرؤوسيه ان يفهم السلطان ان مساعدة ألمانيا له لا تذهب الى حد اعلان الحرب على فرنسا من اجله

## ( ج ) زيارة الامبراطور غليوم لطنجه

في وسط هذا التنافس الشديد بين كيلمان وتيلاندييه للتقرب من سلطان  
مراكش ومحاولة التأثير فيه استقر رأى ييلوف فجأة على أن يعرج  
الامبراطور في طريقه من هامبرج الى كورفو على طنجه ليحيي سلطان  
مراكش . ولم يكن برنامج رحلة الامبراطور يتضمن هذه الزيارة لكن  
ييلوف جعل جريدة كولنشه تسايتونج تنشر تلغرافاً من طنجه بأن الامبراطور  
سينزل فيها في يوم ٣١ مارس ثم أرسل هذه القصاصة الى الامبراطور قائلاً  
إن زيارة جلالتك لطنجه ستخرج المسيو ديلكاسيه وتفسد عليه تديره وتفيد  
مصالحنا الاقتصادية في مراكش . فأظهر الامبراطور موافقته بادىء الأمر  
لكنه لما نعى إليه أن سكان طنجه ومنهم الانجليز قد عقدوا النية على استغلال  
هذه الزيارة ضد الفرنسيين كتب إلى ييلوف « أبرق إلى طنجه من فورك  
بان من المشكوك فيه جداً أن أنزل فيها وأنتى أسافر متكرراً كأحد السائحين  
فلست أريد حفلات استقبال ولا مقابلات » . فأجابه ييلوف بأن زيارته  
لطنجه قد سبق الاعلان عنها فان عدل عنها الآن لسبب ما أصبح في وسع  
ديلكاسيه أن يذيع في الخارج أن هذا العدول إنما كان بناء على اعتراض  
الحكومة الفرنسية لدى حكومة برلين وبذا يحرز ديلكاسيه فوزاً سياسياً  
لا يستحقه . وهكذا انصاع الامبراطور ولو أنه تردد مرة أخرى في لشبونة  
بل وعند ما دخل ميناء طنجه ولكنه وافق في النهاية على آراء حاشيته ونفذ  
البرنامج الذي أعد له .

وبالرغم من صعوبة النزول إلى البرهياج البحر ومن اجفال حواد الامبراطور  
من جراء ضجيج الأعراب وعجيج موسيقاهم واطلاق البنادق في الهواء بلا  
تميز فان زيارة الامبراطور انتهت بسلام وسط حفلات الشرق البهية في  
المفوضية الألمانية، واستقبل جلالته أعضاء الجالية الألمانية ورجال السلك

السياسى . وهنا لفت الامبراطور نظر ممثل فرنسا إلى أن زيارته لطنجة معناها أن ألمانيا ترغب فى حرية التجارة وفى مساواتها بغيرها من الدول الأخرى وأنه يريد أن يعامل السلطان مباشرة بصفته حاكماً حراً وسيداً لبلاد مستقلة وأنه يود من صميم قواده أن تراعى فرنسا رغبته هذه . ثم التفت إلى عم السلطان ونائبه فكرر له نفس هذه الملاحظات وقال له إن الإصلاحات التى يراد إدخالها ينبغى أن تكون مطابقة للقرآن وللسنة وأن لا ينبغى تقليد العادات الأوربية تقليداً أعمى وأن السلطان يحسن صنعاً إذا أصغى إلى رأى أعيان بلاده فى هذا الشأن .

وقد اقترح ييلوف عقد مؤتمر دولى تشترك فيه الحكومات التى وقعت معاهدة مدريد فى سنة ١٨٨٠ . وكان يرى أن هذه هى خير وسيلة لحل الأزمة المراكشية وصيانة مصالح ألمانيا التجارية ومصالح الدول الأخرى من محاولة ديلكاسيه جعل مراكش تونس أخرى . وقد أعلن أن ألمانيا لا ترمى إلى ضم أرض إليها وأنها لا تسعى وراء منافع خاصة بل أنها تعمل لمصلحة الدول التى لها مصالح تجارية فى مراكش .

وكان يعتقد أن معظم الدول ستقف إلى جانبه وتؤيده فى هذا الرأى وخاصة بعد أن جس نبض روزفلت وظن أنه موافق . والنمسا وإيطاليا كان يتوقع تأييدهما كحليفين ، وروسيا كانت مشتغلة بهزائمها فى منشوريا عن أن تعترض على عقد المؤتمر

وسلطان مراكش نفسه تشبث فى لهفة بفكرة المؤتمر لما أن اقترح عليه باعتار أنه الطريق الذى يسهل منه تحاشى حماية فرنسا الحقيقية . وإذ ذاك تصبح فرنسا طرف الأقلية فتوافق على الاستعاضة من اتفقاتها السرية مع إنجلترا وأسبانيا بتسوية دولية . ولما كانت سياسة فرنسا فى مراكش بحذافيرها من عمل ديلكاسيه فان السعى إلى أحباطها بعقد مؤتمر دولى يزعزع فى الراجح مركز ديلكاسيه فى فرنسا بخاصة إذا أصرت ألمانيا على

عقد هذا المؤتمر . وقد كان ييلوف في تلك الاثناء يلتزم صمت أبي الهول ويمضى في تجاهله الانفاقية الانجليزية الفرنسية الخاصة بمراكش والمعقودة في سنة ١٩٠٤ .

وقد تم الأمر كما توقع ييلوف إذ بات الفرنسيون عامة وديلكاسيه خاصة في قلق زائد وشعروا بأنهم واقعون تحت تهديد ألمانيا لكنهم لم يكونوا يدركون بالضبط ما تريده منهم . وقد اشتبه بعضهم في أن ألمانيا تبحث عن حجة تنذرع بها لاعلان الحرب عليهم وهو ما لم يكن يدور لألمانيا بخلد أو يخطر لها على بال كما تثبت الوثائق الألمانية الحديثة بجلاء . وقد كان في فرنسا فريق كبير يتعاضم شأنه يرى أن ديلكاسيه يتبع سياسة استعمارية خطيرة تنطوي على المغامرة وأنه يتعرض لخطر الوقوع في حرب مع سلطان مراكش وربما مع ألمانيا في وقت لم تكن فرنسا مستعدة فيه من الوجهة العسكرية فضلا عن ضعفها من جراء هزائم حليفتها روسيا . وقد كان هذا الفريق وفي جملته سفير فرنسا في برلين يرى النزول على إرادة ألمانيا في عقد المؤتمر حتى ولو كان في هذا إذلال ديلكاسيه وحمله على الاستقالة من وزارة الخارجية . وقد كان هذا أيضاً رأى المسيو روفيه رئيس الوزارة ثم مالبت أن أصبح رأى غالبية مجلس الوزراء .

. وفي يوم ٢٦ ابريل تناول المسيو روفيه العشاء مع البرنس رادولين في السفارة الألمانية وأفضى إليه والتأثر باد على محياه بأنه لا يرغب بحال ما أن يرى المتاعب قائمة بين ألمانيا وفرنسا وأكد له أن الشعب الفرنسي يميل بكليته إلى ألمانيا أكثر مما يميل الى انجلترا وإن كان هناك بعض السخفاء من الوطنيين الذين ما زالوا يبشرون بسياسة الانتقام . ثم قال إن ألمانيا وفرنسا ينبغي أن تقفا جنباً إلى جنب وأن تتعاونوا على صيانة سلام العالم وأنه سيعمل على تحقيق هذه الغاية ما دام رئيساً للوزارة . فأما ما يتعلق بمراكش فقد ضمن وأكد أنه لن يكون تغيير في حالتها الراهنة أو تقييد لتجارة الأمم الأجنبية .

قال والتأثر العظيم باد عليه « ان من المحال والاجرام أن تتشاجر الدولتان من أجل مرا كس وهما اللتان ينبغى أن تتفاهما وتتوثق العلاقات بينهما ، وما جعل لملاحظات المسيو روفيه قيمتها أن شخصاً يعتبر موضع ثقة المسيو روفيه أبلغ السفير قبل العشاء برهة وجيزة أن رئيس الوزارة لا يشاطر المسيو ديلكاسيه رأيه لعلمه أن الأسطول البريطانى لا يسير على عجل فهو إذن عاجز عن حماية باريس فمن هذا كله استخلص رادولين أن المسيو روفيه لمن يضمن بتضحية وزير خارجيته .

### ( ء ) سقوط ديلكاسيه وعواقبه

كانت ملاحظة المسيو روفيه هذه كافية لجعل ييلوف يصمم أن يعمل من الآن فصاعداً على هدم الرجل الذى اعتبره خطراً على ألمانيا وعلى سلام أوروبا . فهو لم يعد ديلكاسيه ممثلاً لسياسة العدوان الاستعمارى الفرنسى ولروح الانتقام فقط بل كان يعتقد أنه مادام يهيمن على شئون وزارة الخارجية فلا أمل على الاطلاق — لدسائسه وتشويهه الوقائع — فى تحسين العلاقات بين الدولتين القائمتين على جانبي نهر الرين . لكنه كان يوجد فى مواجهة الفريق الذى استهجن سياسة ديلكاسيه فريق قوى آخر من الصحافة والمتعنتين من الوطنيين رفع عقيرته محتجاً على الخطر الألمانى ، فالى تأييد هذا الفريق استند ديلكاسيه وجاهد جهاداً شديداً فى سبيل حياته السياسية .

فقد أصر على عدم عقد المؤتمر بحجة أن السلطان سوف يصبح تحت وصاية الدول ولكن الحقيقة أنه خشى أن ينهار بذلك برنامجه فضلاً عن أن الاستسلام اضغظ ألمانيا يعتبر إذلالاً لفرنسا ولشخصه أيضاً وصارح زملاءه بأن تهديد ألمانيا ليس إلا مجرد خدعة وأنه لا يتردد فى إفساد هذه الخدعة ولو أدى الأمر إلى الحرب وأنه يؤثر الاستقالة على التسليم .

بيد أن مركز ديلكاسيه أخذ يتقوض تدريجاً في فاس وفي باريس على السواء فقد أبى السلطان نهائياً في أواخر مايو قبول البرنامج الفرنسي وانضم إلى الاقتراح الألماني القاضي بدعوة الدول المختلفة إلى عقد مؤتمر. أما في باريس فقد بقي السفير الألماني مصراً على خطة الحزم وعدم الاستسلام بما جعل الناس يظنون أن ألمانيا سوف تؤيد السلطان بالقوة إذا اقتضى الأمر ومن ثم رأى المسيو روفيه نفسه في موقف مؤلم إذ خشى أن يدفع المسيو ديلكاسيه بفرنسا إلى هاوية الحرب ورأى أن يحس نبض ألمانيا بواسطة من يثق به فتبين له أنه إن تخلى عن ديلكاسيه وأبعده عن الوزارة ووافق على عقد المؤتمر فإن الموقف يتحسن بل إن ألمانيا لا تقيم المصاعب متى اجتمع المؤتمر. وأخيراً استصحب معه المسيو ديلكاسيه إلى الرئيس لوفيه وأبلغه أنه معارض لسياسة وزير الخارجية ولذلك سيعقد مجلس الوزراء في اليوم التالي ويقدم استقالته فعلاً إن لم تؤيده أغلبية الوزراء. وفي يوم ٦ يونيو كان أمام مجلس الوزراء أن يختار بين المسيو روفيه أو المسيو ديلكاسيه. ويؤخذ من المعلومات التي وصلت إلى رادولين أن الوزراء جميعاً انضموا إلى رئيسهم فلم يجد ديلكاسيه مندوحة عن تقديم استقالته وحل المسيو روفيه محله. على أن سقوط ديلكاسيه لم يؤد إلى تحسين الموقف كما ظن المسيو روفيه فقد انقضت أسابيع عديدة والدولتان تبحثان عن صيغة للأساس الذي يجتمع عليه المؤتمر. وقد بادرت إنجلترا في الوقت نفسه إلى تأييد كل نظرية تتقدم بها فرنسا ونشطت الصحف الإنجليزية للحملة على ألمانيا حتى خيل للمرء أن مسألة مرا كش أصبحت مسألة بين إنجلترا وألمانيا أكثر مما هي بين فرنسا وألمانيا. وإلى المستر روزفلت يعود الفضل الأكبر في عقد المؤتمر في النهاية نظراً لمكانته لدى سفيري فرنسا وألمانيا في واشنطن إذ استطاع بلباقة ومهارة أن يحمل فرنسا على قبول فكرة المؤتمر أولاً ثم قبول الأساس الذي ينبغي أن يدور عليه البحث.



ولما اجتمع مؤتمر الجزيرة في يناير سنة ١٩٠٦ كان لا يزال الاصطدام واقعاً بين ألمانيا من جهة وفرنسا وانجلترا من الجهة الأخرى. فقد لجأت هاتان الدولتان إلى كل حيلة للوصول إلى قرارات تكون في الواقع بمثابة تنفيذ لروح الوفاق الودي المعقود في سنة ١٩٠٤ وتكفل لفرنسا الرقابة على مراکش. ولم تكن ألمانيا أقل حيلة — وإن كان حظها من النجاح قليلاً — في السعي للحصول على حقوق متساوية لكافة الدول وإيجاد رقابة في مراکش تكون دوليه حقيقة لا فرنسية بحتة. وبحسبنا أن نذكر بغض النظر عن تفاصيل الدسائس التي جرت في المؤتمر أن ألمانيا كسبت من حيث المبدأ في حين كسبت فرنسا من حيث النتائج العملية. ولعل أهم شيء في الأزمة المراكشية الأولى هو أنها عززت من بدء الأمر أواصر الصداقة بين فرنسا وانجلترا وأدت إلى تفاهم سرى جديد بينهما.

لقد لاح أن سياسة ييلوف المراكشية كللت بفوز سياسي باهر كان من دواعي غبطة الأمبراطور. وقد دل على رضاه برفع ييلوف إلى مرتبة الأمراء في اليوم التالي لسقوط ديلكاسيه فلم يكن كيساً في هذا كما أحس الفرنسيون. وأنعم فوق ذلك بوسام على بتسولد الذي قام بالوساطة سرّاً بين روفيه ورادولين. وكان ييلوف قد طلب له نشان النسر الأحمر من الطبقة الثالثة فأنعم به عليه من الطبقة الثانية لأنه «أنقذنا من الحرب» على قول الأمبراطور. وكأنما غفل الأمبراطور عما عسى أن يترك مثل هذا الإذلال السياسي باسقاط ديلكاسيه من الأثر السيء في نفس شعب أبي كالشعب الفرنسي فكان يعتقد مخلصاً أن خروج ديلكاسيه من وزارة الخارجية يمهّد الطريق مثلاً لا لتحسين العلاقات بين البلادين فحسب بل لعهد جديد في نظام المحالفات. وقد اعتقد أن الطريق أصبح معبداً الآن لتحقيق سياسة بحوركو بعقد محالفة دفاعية مع روسيا تنضم إليها فرنسا بمجرد ما تفضع الحرب اليابانية الروسية أوزارها. لهذا سعى الأمبراطور هو والمستر

روزفلت لانها هذه الحرب وعقد صلح بورتسموت ؛ ثم بادر بكتابة برقية إلى روزفلت يطلعه فيها على فحوى ما تم عليه الاتفاق بينه وبين القيصر في مقابلته بجوركو ( لكن ييلوف عارض في إرسال هذه البرقية بحجة أن ما وضع من الترتيبات كان سراً ينبغي كتمانها ويخشى اقتضاحه في واشنطن قبل الوقت الملائم ) .

ولقد كانت سياسة ييلوف في الواقع نصراً من تلك الانتصارات التي هي شر من الهزيمة فانه بعمله على صيانة استقلال السلطان والمحافظة على الباب المفتوح في مراکش بالتزام مثل صمت أبي الهول الذي كان له في النفس وقع التهديد الخفي المزعج كان يسعى إلى الغرض الطيب من غير طريقه . وفي محاولته إرهاب روفيه بحمله على التخلي عن ديلاكاسيه كان يرمى إلى عمل سيء من غير طريقه . وقد ترك الحادث في أنفس الفرنسيين أثراً سيئاً وساعد مساعدة ليست قليلة على اقناع طائفة من قادتهم بأنه خير لفرنسا أن تخاطر في حرب عن أن تقبل هذا الاذلال . وأوخم من هذا عاقبة لألمانيا أن هذا الحادث دفع الحكومة البريطانية إلى الدخول مع فرنسا في تلك المحادثات البحرية والعسكرية التي أدت إلى اشتراك انجلترا في الحرب العالمية وبذا جعلت هزيمة ألمانيا أمراً محققاً .

## المحادثات العسكرية والبحرية بين فرنسا وانجلترا

١٩٠٥ - ١٩١٢

كما أن الوفاق الفرنسي الروسي في سنة ١٨٩٠ قد تلاه عقد اتفاق عسكري سرى كذلك حدث في مسألة الوفاق الودي بين فرنسا وانجلترا في سنة ١٩٠٤ . فقد أكمل بوضع ترتيبات عسكرية وبحرية بعيدة المدى ظلت في طي الكتمان الشديد . وهي ترتيبات أسماها السير أدوارد غراي « بالمحادثات » تلطيفاً لها . وقد كانت تنقصها في مبدأ الأمر الصفة الالزامية المتينة التي لازمت

المخالفة الروسية الفرنسية؛ لكنها أصبحت مع الزمن في الواقع لا في الصيغة حلقة جوهرية جداً في سلسلة المحالفات السرية . ذلك أنه بالرغم من محاذرة السير غراي ودقته في القول بأن إنجلترا مطلقة اليد وأن البت في الأمر متروك للبرلمان فإنه أرخى لفرنسا حبل الأمل القوي في أنه في حالة حدوث حرب أوروبية تكون ألمانيا سببها ستنزل إنجلترا إلى الميدان إلى جانب فرنسا . ثم إنه سمح لهيئتي أركان الحرب العسكرية والبحرية في البلادين أن تعدا التدابير الفنية التي يقتضيها اشتراكهما معاً في حرب ، وهي تدابير أصبحت فيما بعد الأساس الذي بنيت عليه الخطط العسكرية للدولتين . وقد تضمنت بطبيعة الحال تعهدات من كل من الفريقين كان لها في الواقع مالمخالفة الرسمية من قوة التقييد . ومن الخطر دائماً أن يسمح للسلطات العسكرية في بلدان أن ترسم خططاً حربية مرتبطة بعضها ببعض ، فإنه سرعان ما تقدم هذه السلطات على وضع ترتيبات تتضمن بطبيعة الحال تعهدات ملزمة للسلطات السياسية . ومن هنا تبدأ مسؤولية السير غراي العظيمة ويبدأ خطأه . ولذا كان من المهم جداً أن نذكر في شيء من التفصيل منشأ هذه المحادثات العسكرية والبحرية ونوعها وعواقبها ، وهي ترجع في جزء منها إلى سلفه في وزارة الخارجية اللورد لانسدون .

ففي المادة التاسعة من الوفاق الودي المعقود في سنة ١٩٠٤ وعدت إنجلترا بتقديم المساعدة السياسية فقط لفرنسا في صدد مرا كس ، لكن الصحف الانجليزية أوضحت هي والحكومة البريطانية بعد زيارة الأمبراطور لطنجه تعتقد أن ألمانيا ترمي من وراء إرهاب فرنسا إلى هدم الوفاق الآنف الذكر . ذلك أن روح الانجليز الرياضية لم تستسغ رؤية فرنسا هدفاً للتهديد لا لالذنب سوى صداقتها الجديدة لبريطانيا في الوقت الذي كانت الهزائم تتوالى على حليفها روسيا فيه . ثم إن الانجليز كانوا مغتبطين لتقوية الأسطول الألماني المطردة وللتنافس التجاري والسياسي الخفي الذي كان يجري منذ بضع

سنوات خلت في إفريقية وتركيا وجهات أخرى . وقد بعث بعض موظفي السفارة الألمانية في لندن بمن لم تكن تعميهم كراهيتهم لانجلترا أمثال الكونت مترنيخ والبارون فون ايكاردشتين تقارير عن الشعور الموجه ضد ألمانيا في الصحف وفي المجتمع فوصفوه بأنه قوى وأنذروا حكومتهم بأنه إذا نشأت حرب من جراء مرا كش فسوف تقف انجلترا إلى جانب فرنسا بلا قيد ولا شرط بل وتحارب ألمانيا بحماس . وبناء على هذا الشعور العام شرع لورد لانسدون والمسيو بول كامبون يتباحثان لتبادل مذكرات تخطو بموجبها انجلترا خطوة أخرى وتقدم لفرنسا شيئاً جوهرياً أكثر من مجرد التأييد السياسي . ويقول المستر جوتش بناء على ما استقاه من وزارة الخارجية البريطانية إن فرنسا هي التي طلبت هذه المحادثات . لكن المسيو بوانكاريه يقول بناء على تقارير المسيو بول كامبون إن المحادثات جرت بناء على طلب اللورد لانسدون وسواء أكان هذا أو ذاك فإن الفرنسيين فهموا من هذه المباحثات أن اللورد لانسدون مستعد لعقد اتفاق على صورة مذكرات تتبادل فيها الآراء معاً دون أن يعلم بها البرلمان والجمهور — اتفاق قد يؤدي إلى تحالف حقيقي . وقد كتب المسيو كامبون فيما بعد في هذا الشأن في شهرى ابريل وسبتمبر سنة ١٩١٢ يقول :

« أعلم أن الحكومة البريطانية لا تملك حقاً في الارتباط دون تفويض من البرلمان على أنه لا حاجة بنا إلى اتفاق مزدوج ومعاهدة يوضع مشروعها ويمضى ما دام أنه في وسعنا أن نتبادل التصريحات؛ وهذا ما كنا خليقين أن نفعله مع اللورد لانسدون في سنة ١٩٠٥ لو لم تقطع استقالة المسيو ديلكاسيه علينا الأحاديث .

« فهل من الممكن (يقول كامبون لغراي) أن نعود ولو بصفة جزئية على الأقل إلى مقترحات اللورد لانسدون فنرتبط أو نتبادل الرأي مثلاً فيما تتفق عليه في حالة وقوع مشا كل تهددنا، ونقرر أن نسعى معاً في مثل هذه

الحاله إلى تعرف أنسب الوسائل لأن نحى أنفسنا من خطر الحرب . .  
ومن المهم الآن أن نلاحظ كيف أنه من جهة قد شجعت مقترحات  
اللورد لانسدون المسيو ديلكاسيه في آماله حتى أسرف في تفسيرها . وكيف  
أن هذه المقترحات من الجهة الأخرى قد نمت خبرها إلى الألمان أو أحسوا  
بوجودها وهي التي أنكرها الانجليز عند ذلك بتاتاً .

ويلوح لنا أن المفاوضات بين لورد لانسدون والمسيو كامبون كانت  
قد تقدمت إلى النقطة التي وضعت عندها فعلا صورة المذكرات التي كان في  
النية تبادلها تم أرسلت إلى المسيو ديلكاسيه لاقرارها نهائياً . .

حدث هذا كله في الوقت الذي بلغت فيه الأزمة المراكشية منتهى التعقد  
وكان فيه ديلكاسيه يجاهد في سبيل اقناع زملائه برفض اقتراح الألمان الخاص  
بعقد المؤتمر . وقد فسر المسيو ديلكاسيه اقتراح لورد لانسدون بأنه تأكيد  
بعقد محالفة وتقديم المساعدة المسلحة . ولذا اتخذ من هذا الاقتراح سلاحاً  
حاول به اقناع الرئيس لوييه والوزارة بتأييد سياسته ورفض مطالب الألمان .  
ولكننا قد رأينا أن الوزارة ورئيس الجمهورية رفضا المجازفة في حرب مع  
ألمانيا مما اضطر معه المسيو ديلكاسيه إلى الاستقالة .

وفي أكتوبر سنة ١٩٠٥ نشرت صحيفة الماتان سلسلة افشاءات تتناول  
الحوادث التي لازمت سقوط المسيو ديلكاسيه ، وكانت تتضمن أن الحكومة  
البريطانية وعدته بحشد الأسطول الانجليزى للاستيلاء على قناة كيال وبانزال  
١٠٠,٠٠٠ جندي في شلزويج — هولشتين إذا ما اعتدت ألمانيا على فرنسا .  
فأثارت هذه الافشاءات ضجة وبقيت من ذلك الحين لغزاً لا يهتدى  
المؤرخون في أمره إلى حل وخاصة والانجليز ينفون على الدوام أنهم عرضوا  
على فرنسا أى اقتراح خاص بمحالفة أو مساعدة مسلحة . ويرى المستر جوتش  
أن توسع ديلكاسيه خطأ في تفسيره موقف الانجليز يرجع إلى ما يرجح من  
أن الملك أدوارد السابع قاله في إحدى زيارته لباريس من أن انجلترا

ستدخل إلى جانب فرنسا. ويقول أحد مصنفي الوثائق الألمانية المسماة « بالسياسة العليا » إن العرض المشار إليه جاء من السير فرانسيس برتى لا من اللورد لانسدون. والسير فرانسيس برتى كان سفيراً لـ إنجلترا في باريس إذ ذاك وكان شديد الميل للفرنسيين لكنه من البعيد أن يكون خطأ خطوة خطيرة كهذه دون تفويض. وليس ثمة دليل مقنع على أنه فعل ذلك، والراجح أن فكرة انزال ١٠٠,٠٠٠ جندي في هولشتاين منشؤها السير جون فيشر فإن هذا هو نوع الخطط الذي كان يحض عليه ويوصى به غالباً والذي يتفق ومشورته للملك أدوارد السابع. وقد يكون الملك أدوارد قد نقل فكرة فيشر إلى الفرنسيين أو أن تكون اتصلت بهم من خلال « المحادثات » البحرية المباشرة التي كانت دائرة بالفعل بين هيتي أركان حرب فرنسا وإنجلترا في سنة ١٩٠٥.

ومما لا يقل في أهميته عن هذا إحساس الألمان بوجود اقتراح من هذا القبيل والصرحة التي نفي بها السياسة الانجليزية هذا الخبر. ففي ١٦ يونيو سنة ١٩٠٥ أخبر لورد لانسدون السفير الألماني بأن النبا القائل بأن إنجلترا عرضت على فرنسا محالفة هجومية دفاعية « هو اختلاق محض » وزاد السفير في تقريره لبرلين قوله « وما دام لورد لانسدون قد نفي اشاعة المحالفة بكل صراحة ووصفها بأنها محض اختلاق فهو يرى أن المسألة قد انتهت عند ذلك الحد لأنه لا يظن أن لورد لانسدون بعد تلك التصريحات الأكيدة يمكن أن يتهم بمحاولة الغش والتزوير. لكنه لم تنقض على ذلك بضعة أيام حتى اتصلت بالكونت مترنيخ معلومات يظهر أنها آتية من مصادر وثيقة عن المسيو روفيه نفسه بأن إنجلترا وعدت فرنسا بالمساعدة البحرية فذهب يستفسر من لورد لانسدون عن حقيقة الخبر قائلاً إنه يفعل ذلك من تلقاء نفسه أي بغير صفة رسمية. فأجابه اللورد لانسدون بقوله :  
« إنى أعلم أنه قد أكد لفرنسا أننا سنؤيدها تأييداً سياسياً في

حدود الوفاق الودى أما مسألة عقد محالفة مع فرنسا فان مجلس الوزراء لم يتباحث فيها مطلقاً ولا عرضت على فرنسا مطلقاً معاهدة من هذا القبيل لافى الوقت الحاضر ولا قبله . وعلى أنه فى حالة حدوث الأمر البعيد الاحتمال وهو اعتداء ألمانيا على فرنسا وهو أمر لا يخطر له على بال فانه لا يستطيع أن يتكهن سلفاً بمبلغ ضغط الرأى البريطانى على حكومته ليدفعها إلى تأييد فرنسا . «  
وفى أكتوبر سنة ١٩٠٥ رأى السير توماس ساندرسون وكيل وزارة الخارجية نفسه مضطراً لإزاء افشاءات جريدة الماتان أن يكرر نفي وجود محالفة من هذا القبيل بين الدولتين فقال :

« إن الحكومة البريطانية لم تمنّ فرنسا مطلقاً بأية مساعدة عسكرية كما أنها لم تتناقش مطلقاً فى احتمالات قطع العلاقات بين فرنسا وألمانيا . ولذا فان مسألة إنزال ١٠٠,٠٠٠ جندى بريطانى فى شلزفيج هولشتين ليس إلا من مبتكرات الخيال ، إلى أن قال « ولعل خيال الفرنسيين كان له ضلع فى ترويج تلك الاشاعة . ففى وسع المرء أن يتصور المسيو ديلكاسيه وهو يؤكد لزملائه بأنه واثق من مساعدة انجلترا لفرنسا فى حالة وقوع الحرب . وفرق كبير بين هذا التصور إذا صح أن المسيو ديلكاسيه تصوره وبين وعد انجلترا بمساعدة فرنسا، فان شيئاً من هذا لم يحدث لابل أن الجانب الانجليزى لم يبحث مطلقاً احتمال نشوب الحرب بين فرنسا وألمانيا . « ومن الصعب تصديق هذا من ساندرسن والراجح أن التكذيبات السابقة تشبه فى صحة مبنائها وتضليل معناها ما فاه به المستر اسكويث والسير إدوارد غراى فى البرلمان من تكذيبات على أثر تبادل المذكرات فى سنة ١٩١٢ بين غراى وكامبون .

وفى ١١ ديسمبر سنة ١٩٠٥ شكل السير هنرى كامبل بانرمان وزارته وحل السير ادوارد غراى محل لورد لانسدون فى وزارة الخارجية على كره منه كما يحدثنا فى مذكراته الممتعة؛ فلم يكن مما يسره أو يسر زوجته أن يتولى

هذا المنصب لأنه كان بمثابة « منفي له عن موطنه في الريف وحرمان له من صيد السمك ومن النزهة في الغابات ». وقد يكون كرهه لهذا المنصب قد نشأ دون أن يشعر عن قلة مرانه وجهله باللغات الأجنبية ، وأيضاً عن احساسه بعدم قدرته على الاضطلاع بعمل وزارة الخارجية المصني ؛ لكنه كما يخبرنا لم يستطع أن يبرر لناخبيه أو أصدقائه رفضه النهوض بعبء المنصب فنهض به .

وقد كان من أول ما واجه السير غراي من الواجبات التي كانت موضع التفاته طمأنة فرنسا وإزالة مخاوفها . فقد كان مؤتمر الجزيرة وشيك الانعقاد وكان يظن أن ألمانيا تسلك سياسة تهديد حيال فرنسا التي كانت قلقة تريد أن تستوثق من وزارة الأحرار الجديدة أتلتزم تأكيدات اللورد لانسدون أو تذهب إلى أبعد منها . فقد ذهب كامبون لمقابلة السير غراي في يوم ١٠ يناير سنة ١٩٠٦ ثم في يوم ١٥ منه وسأله — هل الحكومة البريطانية مستعدة لتقديم المساعدة العسكرية لفرنسا فيما لو هاجمتها ألمانيا ، وهل توافق على استمرار المحادثات العسكرية والبحرية . فاعتذر السير غراي من الوعد بأي شيء نظراً لتفرق الوزراء في الانتخابات ، وقال له إن كل ما يستطيع أن يعرب عنه كراهة الشخصى مع مراعاة خطة لورد لانسدون — هو أنه لو هاجمت ألمانيا فرنسا من جراء مسألة مرتبطة باتفاقية مراکش فان رأى العام البريطانى سوف يكون متشعباً جداً لفرنسا . أما فيما يختص بالمحادثات البحرية والعسكرية فقد كانت أولاهما دائرة مباشرة بين ولاية الأمور البحريين في البلادين وعلى قاعدة مرضية إذ كان يديرها من الجانب الانجليزى السير جون فيشر . أما فيما يتعلق بالتعاون العسكرى فالمحادثات لم تكن تبعث على الارتياح التام لأنها كانت تجرى عن يد وسيط غير رسمى . ولقد تمكن السير غراي فيما بين اليوم العاشر والخامس عشر من شهر يناير من أن يقابل السير هولدين وزير الحربية الجديد في أحد الاجتماعات الانتخابية في نورثمبرلند فخوله هذا أن يقول ان المخابرات العسكرية يمكن أن تجرى بصفة رسمية من



الآن فصاعداً بين الجنرال جريرسن والملحق العسكرى الفرنسى مباشرة على أن يكون مفهوماً ان هذه المحادثات لا تقيد أية من الحكومتين. ولقد قص الكولونيل رينجتون مراسل التيمس الحربى وكان الوسيط فى المحادثات المذكورة حكاية ممتعة عن الاتجاه الجديد الذى تحولت اليه المحادثات العسكرية؛ ومع أن المشادة بين انجلترا وألمانيا كانت وقتئذ قد خفت وانتعشت الآمال لتحسن العلاقات بين البلادين فإن الكولونيل رينجتون عقد فى جريدة التيمس يوم ٢٧ ديسمبر فصلاً مزعجاً جاء فيه على ما سماه نيات ألمانيا التهديدية. وفى اليوم التالى نشر هذا المقال زاره المساجور أوجيه الملحق العسكرى الفرنسى وتناول معه العشاء وأبلغه أن موظفى السفارة الفرنسية فى شدة القلق من جراء الحالة العامة، فإن السير غراى لم يجدد التأكيدات المعطاة من لورد لانسدون فضلاً عن تغيب المسيو كامبون فى فرنسا. ثم استطرد المساجور أوجيه فقال إنه يعلم أن الاسطول البريطانى على استعداد وهو لهذا السبب مطمئن البال من جهته لكنه لا يدري ماذا عساه أن يقدم من المعونة فيما لو اضطرب جبل الأمور. ثم قال إن الجيش الفرنسى هو أيضاً على قدم الاستعداد ولكن وجه الخوف هو أن ألمانيا قد تهاجم فرنسا فجأة عن طريق بلجيكا. لهذا يريد أن تشد بريطانيا أزر بلجيكا فى حالة نشوب الحرب. فأبلغ الكولونيل هذا الحديث كتابياً فى خطاب إلى السير غراى وبعد يومين عرض الكولونيل رينجتون الحالة بحذافيرها وبأحث فيها السير جون فيشر وهو يتناول العشاء معه فأكد له هذا أن ثقته بالاسطول لا حد لها وأنه على استعداد لأن يبعث به إلى حيث يراد. وفى عيد رأس السنة تلقى الكولونيل رد السير غراى وفيه. « لقد شاقنى حديثك مع الملحق العسكرى الفرنسى وكل ما يمكن أن أقوله هو أننى لم أتحول قيد شعرة عن أى شىء قاله لورد لانسدون لفرنسا ولست أتردد مطلقاً فى توكيد ذلك ». ثم تناول الكولونيل طعام العشاء مع الجنرال جريرسن رئيس قسم

العمليات فأكد له هذا أنه على فرض اختراق ألمانيا للأراضي البلجيكية ، فإن إنجلترا سوف يكون في وسعها إرسال فرقتين إلى نامور في اليوم الثالث عشر من اعلان التعبئة وإرسال جيش الميدان إلى انفرس في اليوم الثاني والثلاثين . وبعد الحصول على موافقة عدد من الموظفين ومن بينهم السير جورج كلارك سكرتير لجنة الدفاع الامبراطوري قابل الكولونيل الماجور أوجيه مرة أخرى حيث دفع إليه بضعة أسئلة طلب أن يعرف رأى هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي فيها . فسافر الماجور إلى فرنسا من فوره وسرعان ما عاد إلى لندن يحمل طائفة من الأجوبة المرضية الهامة التي أطلع عليها الكولونيل في يوم ١٢ يناير . وبموافقة هولدين وغراي اتخذت هذه الأجوبة أساساً للباحثات الرسمية بين هيئتي أركان الحرب في البلادين على أن يقوم بها الماجور أوجيه والجنرال جريرسن .

وفي يوم ٢٦ يناير عاد السير غراي إلى لندن فألقى المسيو كامبون يترقب بياناً واضحاً عما إذا كان يمكن لفرنسا أن تعول على مساعدة بريطانيا . وبعد استئناف البحث من جديد مع هولدين ورئيس الوزارة - وبدون اتباع رأى ثانيهما بأن لا يقدم البيان المطلوب إلى السفير إلا بعد أن يقره مجلس الوزراء البريطاني - سلم السير ادوارد غراي للسفير جوابه الهام في يوم ٣١ يناير . وتدل الخلاصة المسهبة التي بعث بها غراي الى برتي في باريس على طبيعة هذا الجواب الخداع فقد أخذ باليسرى ما أعطى باليمنى : شجع فرنسا على أن تتوقع المعونة من إنجلترا إذا اقتضى الأمر لكنه لم يعد بتقديم أية مساعدة مسلحة بل احتفظ بحرية إنجلترا في العمل . وقد قال للمسيو كامبون بلهجة تبعث على التشجيع إن البحث قد تقدم كثيراً منذ مقابتهما في يوم ١٠ ، ١٥ يناير : « فان ولاية الأمور العسكريين والبحريين في بريطانيا قد باحثوا ولاية الأمور في فرنسا في الخطط اللازمة إلى حد يجعلني أظن أن الاستعدادات قد تمت بحيث لن يضيع عند حدوث الأزمة وقت في عقد اتفاق رسمي .

وقد انتهزت الفرصة لابداء رأي الشخصى للكونت مترنيخ وهو رأى فهمت أن لورد لانسدون سبق أن أبداه ( لكامبون ) باعتباره رأياً شخصياً وأعنى به أن العطف على فرنسا فيما لو هاجمتها ألمانيا من جراء اتفاقية مرا كش سيكون من الشدة بحيث يتعذر على أية وزارة بريطانية أن تلزم الحياد .

وقد أبان السير غراى أيضاً للمسيو كامبون ما عسى أن يلحق فرنسا من الضرر باصدار بيان رسمى أكثر من هذا عن العلاقات بين البلادين: فرنسا فى الوقت الحاضر وبمقتضى اتفاقية سنة ١٩٠٤ مطلقه اليد فى مرا كش، وييدها وعد بمساعدة انجلترا السياسية، فاذا ذهبت انجلترا بوعدها إلى أبعد من هذا الحد وعقدت محالفة رسمية قد تجرّها إلى الاشتباك فى الحرب فلسوف يقول مجلس الوزراء البريطانى بوجوب استشارة انجلترا من آن لآخر فى شأن السياسة الفرنسية فى مرا كش وبأن تكون لها الحرية إذا اقتضت الحال فى المطالبة بادخال بعض تعديلات على هذه السياسة تفادياً من نشوب الحرب . أفليس الموقف الحالى ملائماً لفرنسا بحيث أنه من الخير لها أن لا تطالب بتعديله بارتباط رسمى أكثر من هذا ؟

لكن السفير الفرنسى لم تقنعه هذه الآراء بل قال إن مؤتمر الجزيرة لو حبط وشدت ألمانيا أزر السلطان فقد تنشب الحرب فجأة بحيث تقتضى الحالة العمل فى الحال لا الانتظار بضعة أيام فاذا كان لا بد للحكومة البريطانية من الاستشارة والانتظار لاستطلاع اتجاه رأى العام البريطانى فقد يفوت الوقت قبل أن ينتفع بشيء .

ولقد أجاب السير غراى على طلب المسيو كامبون نوعاً من التأكيد فى سياق حديث بأنه ليس فى استطاعته اعطاء تأكيد رسمى من هذا القبيل « إلا بعد عرض الأمر على الوزارة والحصول على تفويض منها واتى لعل يقين باتى لو عرضت عليها الأمر لقال زملائى إن المسألة أخطر من أن

بيت فيها بمجرد ارتباط شفوي بل لا بد من تسجيله كتابة . وأحسب أن  
لا خوف من عرض المسألة على الوزارة الحاضرة وبخاصة متى راعينا ميولها  
الشديدة نحو فرنسا ؛ إذ أن أشد أعضائها تعلقاً بأهداب السلام هم في نفس  
الوقت أكثرهم عطفاً على فرنسا . لكنني بالرغم من ثقتي بميل الوزارة الى  
فرنسا أرى أن اعطاء مثل هذا التعهد كتابة خليق أن تعترضه صعوبات  
وأنة لا سبيل إلى اعطائه بلا شرط ولا قيد وتحديد هذه الشروط أمر من  
الصعوبة بمكان ، فاذا وجب إحداث تغيير فان يتحول الوفاق الودي إلى  
محالفة دفاعية وهذا كما لا يخفى تغيير رسمي واسع المدى . وقد سألت المسيو  
كامبون مرة أخرى ألا يرى معي أن الظروف التي تجعل إنجلترا وفرنسا  
تقفان جنباً إلى جنب قد تكون أقوى من أي تعهد لفظي يمكن اعطاؤه في  
الوقت الحاضر ، ثم قلت له إن ضغط الظروف ضغطاً كالذي يمكن أن ينشأ من  
نشاط المانيا مثلاً - قد يؤدي في النهاية إلى تحويل الوفاق الودي إلى محالفة  
دفاعية بيننا وبين فرنسا ؛ لكن الظروف ليست قاهرة في الوقت الحاضر بحيث  
تجعل هذا التغيير أمراً مرغوباً فيه . كذلك أفهمته أن مثل هذه المحالفة إذا  
عقدت لتكون من الخطورة بحيث لا يتسنى إخفاؤها عن البرلمان . نعم إن  
الحكومة تستطيع عقدها بدون موافقته لكنه لا بد من نشرها فيما بعد .  
وليس في وسع أية وزارة بريطانية أن تقيد البلاد بمحالفة خطيرة كهذه  
وتبقيها سراً مكتوماً إلى الأبد .

ولما جعل المسيو كامبون يعيد على السير ادوارد غراي مجمل الحديث ،  
أسهب في الكلام عن الرأي الذي أعرب عنه السير غراي شخصياً وهو  
« أنه لن يسع أية حكومة بريطانية التزام الحياد في حالة اعتداء ألمانيا على  
فرنسا » فلفت السير غراي نظره إلى أنه لا يصح أن تبني على الرأي الشخصي  
سياسة معينة في مسألة خطيرة كهذه ؛ ثم استطرد قائلاً « إن الكثير ليتوقف  
على كيفية نشوب الحرب بين ألمانيا وفرنسا ، ولست أتوقع أن يخوض الشعب

الانجليزى غمار الحرب لمجرد تمليك فرنسا مراکش بل انه سوف يرى أن على فرنسا أن تتحين الفرص الملائمة ، وأن تسير الهويتنا فى مشروعاتها ، وأنه ليس من الحكمة استعجال الأمور إلى حد « الاشتباك فى الحرب » لكنه إذا تبين أن ألمانيا هى التى دفعت فرنسا إلى الحرب لا لسبب سوى « هدم الوفاق الودى » فسوف يؤيد الرأى العام البريطانى فرنسا فى هذه الحالة كل التأييد . . . . على أنه للحكومة الفرنسية إذا شاءت أن تستأنف المحادثات فى أى وقت تشاء . ومهما يكن من أمر فإن الظروف قد تتغير ولكن ليس من رأى فى الأحوال الحاضرة أن تتعجل عقد محالفة دفاعية . .

هذا الحديث الخطير المسهب الذى حاولنا تلخيصه بغير تحيز وبدون أن نحذف منه شيئاً جوهرياً ، ذو مغزى من عدة وجوه . أولاً : أنه ينم عن عطف السير غراى الشديد على فرنسا ورغبته الظاهرة فى الذهاب الى أبعد حد ممكن فى سبيل تقديم المساعدة السياسية لها وامتناعه فى الوقت نفسه عن الارتباط رسمياً سواء أكان هذا الارتباط شفويماً أم تحريراً فى صيغة اتفاق قد يجر إنجلترا الى الحرب . فانه لا بد لاتفاق كهذا من أن يقره البرلمان الانجليزى وهذا أمر مشكوك فيه جداً ، فضلاً عن أنه يزيد هياج الخواطر بين إنجلترا وألمانيا . فهو إذن قد ذهب فى سبيل تشجيع فرنسا إلى أقصى ما يستطيع ولكن دون أن يتجاوز المدى الذى يظن أن تجاوزه يحتم عليه اخطار مجلس الوزراء والبرلمان ؛ ولقد كان مرتاحاً لتجنبه تحويل الوفاق الودى إلى محالفة دفاعية كما جاء بخطابه إلى قرينته التى ماتت بغتة تلك الميته المحزنة قبل تسليها اياه وكان يعتقد أنه سلك مسلكاً شريفاً وإن كان لا يعلم أفعل خيراً أم لم يفعل .

ثانياً . أقر السير ادوارد غراى وأكده « المحادثات » العسكرية والبحرية التى كانت دائرة رسمياً وأبدى أن كل المعدات حاضرة كما قال للسفير كامبون

وسيرى القارىء أن هولدين شرع من ذلك الحين فى تنظيم الجيش الذى يتعاون مع فرنسا فيما لو نشبت الحرب . ولقد استمرت هذه الاستعدادات تجرى على قدم وساق إلى سنة ١٩١٤ فكان من شأنها أن زادت إنجلترا تورطاً وجعلت شرفها مرتبطاً بالمبادرة إلى مساعدة فرنسا فيما لو نشبت الحرب من أجل المسألة المراكشية أو لآى سبب ما دامت فرنسا لا تظهر بمظهر البادى بالعدوان . والراجح أن السير ادوارد غراى لم يدرك إذ ذاك كل مدلولات هذه « المحادثات » وخطرها لكن رئيسه كان يدريها . فأنا لنعرف أن السير هنرى كامبل بانرمان كتب إلى اللورد ريبون فى ٢ فبراير — أى بعد حديث غراى مع كامبون بيضعة أيام — يقول : « يلوح أن كامبون مرتاح . لكنى لا أحب أن يستمسك بأن تكون الاستعدادات مشتركة ، فهذا قريب جداً من أن يكون تعهداً مرتبطاً بالشرف . وسوف يعرف على جانبي الرين . ولكن لارجو الخير مع ذلك . » وقد دل بهذا على غريزة صادقة التنبؤ . لكن الأعمال السرية التى كانت تقوم بها السلطات العسكرية ، وسكوت وزير الخارجية هذا السكوت الغريب عنها أو جهله إياها خمس سنوات — كل هذا قد غمر فراسة السير هنرى كامبل بانرمان أو حجبها عن الأنظار . وهكذا لم يمت اللثام عنها لأول مرة إلا سنة ١٩١٢ فعلتها الوزارة بأسرها . بيد أن البرلمان والشعب الانجليزى ظلا يجهلان أمرها حتى يوم ٣ أغسطس سنة ١٩١٤ عندما ألقى السير ادوارد غراى خطبته المشهورة فى مجلس العموم .

ثالثاً — لم يستشر السير ادوارد غراى زملاءه الوزراء ولا حصل على اقرارهم عند ما صرح للسفير كامبون بما صرح له به أو عندما أقر المحادثات العسكرية والبحرية . ولقد كتب إليه رئيس الوزراء فى يوم ٢١ يناير يسأله « ألا تحب أن يقر مجلس الوزراء جوابك للسفير قبل اعطائه إياه » واقترح أن يكون هذا فى ٣٠ يناير أو ٣١ أو فى أول فبراير . لكن السير ادوارد

غراى يقول فى مذكراته أنه لا يذكر بتاتاً ماذا كان جوابه على هذا السؤال . وما يذكره السير ادوارد غراى من الأسباب لتعليل عدم حصوله على اقرار الوزارة أميل إلى الضعف منه إلى القوة . فهو يقول إن الوزراء كانوا مشتتين من جراء الانتخابات وإن أقرب موعد ارتآه الرئيس لاجتماع الوزراء كان يوم ٣٠ يناير وأن السفير الفرنسى طال انتظاره للجواب . ولكننا ونحن نعرف أن اجتماعه بالمسيو كامبون لم يكن قبل يوم ٣١ لا نسيخ اعتذاره هذا بحال من الأحوال . زد على ذلك أن مجلس الوزراء اجتمع فعلاً فى ذلك اليوم وكان من أسهل الأمور عليه أن يسلك الطريق القويم فيستشير الوزارة قبل اجتماعه بكامبون أو على الأقل يخطر زملاءه بعد المقابلة مباشرة بما قاله له ، ويطلعهم على المحادثات العسكرية والبحرية التى كانت دائرة . لكنه لم يفعل ، فلماذا ؟ إن المرء لا يستطيع أن يحزم بشيء فى هذا المظهر الغريب لنفسية السير غراى . ولعله ظن أن محادثاته للسير بانرمان وهولدين بعد عودتهما إلى لندن كانت بمثابة موافقة منهما . أو لعله تبادر إلى ذهنه أنه إنما كان يواصل سياسة لورد لانسدون وأن هذا ما دام لم ينطو على أى تغيير أساسى فى اتجاه السياسة الخارجية لا يحتاج إلى استشارة وزارة جديدة . أو لعله خشى أن لا يذهب زملاؤه الوزراء الذين هم أحرص على السلام وأكثر تعلقاً به كمستر مورلى ولورد لوربيرن ورئيس الوزارة نفسه إلى الحد الذى ذهب إليه هو فى تشجيع الفرنسيين والاشتراك معهم فى اعداد المعدات العسكرية . ويلاحظ خلال مذكرات السير غراى فيما ورد فى الوثائق الألمانية الجديدة عن مسلكه مع الألمان ميله الشديد إلى فرنسا وارتياحه فى نيات ألمانيا . ولعل هذا هو الذى جعله يؤثر أن يبقى حراً كما يبسط لكامبون آراءه الشخصية بصورة ربما لم يكن ليستطيعها لو أنه عرض الأمر على وزاره واستقر رأيها على بيان رسمى عن السياسة التى تسلكها إنجلترا فى هذا الموضوع مما تكون عاقبه تقييد السير ادوارد غراى .

ومهما يكن من أمر فقد أخفى عن أغلبية زملائه هذا الموضوع الهام بشكل يتعارض مع ما يبدو على مذكراته من الاستقامة والصرامة . ولقد أخذ ينزلق ويتورط في تفكيره بأن في استطاعته تشجيع فرنسا من ناحية دون أن يرتبط بوعده أو عهد ما ؛ وهي سياسة نفاق وخيمة ظل يسلكها ثماني سنوات متواصلة . لكنه بعد أن زادت الأيام خبرة وأمكن أن يدرك ما لانتقادات أمثال اللورد لورييرن من شأن جدى سلم في مذكراته بعد الحرب في شيء من الأسف والحسرة بأنه كان من الأصوب استشارة الوزارة وهو في هذا محق .

ولقد روى هولدين حكاية الاستعدادات التي كانت تجرى في الخفاء للتعاون مع فرنسا عسكرياً ، فأخبرنا كيف ذهب في الحال الى لندن في يناير سنة ١٩٠٦ والانتخابات دائرة فدعا اليه رؤساء هيئة أركان الحرب في الجيش البريطاني والملحق العسكري الفرنسي الكولونيل اوجيه وهو رجل عاقل قدير ، قال « فأحسست على الأثر ان هنالك مشكلة جديدة تتعلق بالجيش هي كيف نعيء تجاه الحدود البلجيكية ونحشد قوة بريطانية تكفي ( مع ضغط روسيا في الميدان الشرقي ) لسد عجز الجيش الفرنسي وتمكينه من القيام بمهمته الشاقة وهي الدفاع عن الحدود الفرنسية كلها من دنكرك إلى بلفورت أو إلى أبعد من هذا جنوباً اذا اشتركت إيطاليا مع التحالف الثلاثي في هجوم » . ومن ثم شرع من فوره في تنظيم تجريدة بريطانية تتعاون مع فرنسا على حل هذه المشكلة . وقد خيل اليه تحت تأثير الاعتقاد بأهمية القوى المعنوية للجيش وأهليتها في فن الحرب الحديث أن قوة بريطانية متمرنة مدربة تكفي اذا انضمت الى الجيوش الروسية والفرنسية لهزيمة الجيش الألماني متى ما حاول غزو فرنسا وتمزيقها . لكنه سرعان ما استبان بعد تحر دقيق أنه من غير المستطاع في الأحوال الراهنة أن يبعث الى الميدان بأكثر من ٨٠٠٠٠ وان هذا لن يكون الا بعد شهرين من نشوب



الحرب . وقد لفته الفرنسيون إلى أن أداة بهذا البطء لن تنفعهم كثيراً وأنه قد يحل بهم الدمار قبل أن تصلهم هذه النجدة فاضطر هولدين لمصلحة الفرنسيين أن يغير نظام الجيش البريطاني ويبدله تبديلاً تاماً . وقد فرغ من ذلك في نهاية سنة ١٩١٠ وأصبح في استطاعته أن يعيء بسرعة ١٦٠.٠٠٠ ر. ١٦٠.٠٠٠ جندي لا ١٠٠.٠٠٠ فقط ، وأن ينقلهم بواسطة الأسطول إلى نقطة احتشاد اتفقت عليها سلفاً هيئتاً أركان الحرب الفرنسية والانجليزية بحيث لا تنقضي اثنا عشر يوماً حتى تكون هذه القوة في المكان المقرر لها .

ومع ما ذكره اللورد هولدين عن مقابله للكولونل اوجيه وسماحه بإجراء مفاوضات مباشرة بين هيئتي أركان الحرب في فرنسا وانجلترا وهما اللتان كان اوجيه وجريسن يمثلانها ، وما أبداه عن تسليمه من فوره بوجوب تعاون الجيش الانجليزي مع الفرنسيين — نقول مع هذا الذي ذكره فانه لما ثارت مخاوف الألمان وريهم من جراء روغان المسيو كليمنصو في رده على نائب فرنسي سأله عما اذا كان هنالك اتفاق عسكري بين انجلترا وفرنسا ذهب الكونت مترنيخ الى اللورد هولدين يسأله عن تصريح كليمنصو في هذا الشأن وكان قد أجاب النائب الفرنسي بأن هنالك اتفاقاً بحرباً لا حربياً . فنفى له اللورد هولدين بتاتاً وجود اتفاق حربي ؛ فكان هذا النفي البات بما لا يتفق والواقع . وقد رفع السفير الألماني الكونت مترنيخ تقريراً عن هذا جاء فيه عدا النفي المتقدم « أن المستر هولدين نفى أيضاً وجود استعدادات يقصد منها إلى عقد اتفاق حربي ، وهذا مع قيام « المحادثات » والاستعدادات الانجليزية الفرنسية سرّاً منذ أكثر من سنة . فكان أثر هذا في برلين ما علق به الامبراطور على هامش تقرير السفير من عبارات « انه يكذب » « إنه نفسه فعل هذا » « هذه أكاذيب مجيدة » يقصد بذلك هولدين وتصريحه .

وبينما كانت هذه الاستعدادات العسكرية المشتركة تجري كانت الضباط

التابعون لهيئتي أركان الحرب في الجيشين الانكليزي والفرنسي يستطلعون بدقة طبيعة الأرض التي قدر أن تقاتل عليها جيوشهما في بلجيكا وفرنسا . وقد كان السر هنرى ولسن يقضى عطلته في التجول بدراجته في تلك الجهات ، وكانت جدران مكتبه في لندن مغطاة بخريطة هائلة لبلجيكا بينت فيها كافة الطرق الصالحة لزحف الجنود . وكان السر هنرى ولسون على قول المستر تشرشل في كتابه « الازمة العالمية » ، « ملأ بأسرار هيئة أركان الحرب الفرنسية ، قضى سنوات يعمل لغاية واحدة هي أن تنضم في الحال إلى فرنسا إذا ما نشبت الحرب . وقد كان على يقين بأن الحرب لا مفر منها إن عاجلا وإن آجلا ، ولم يكن الفرنسيون وخدمهم هم الذين يعتمدون على تجريدة هولدين باعتبار كونها جزءاً مضموناً جوهرياً من خططهم الحربية الموضوعة في حالة نشوب الحرب مع المانيا بل كان الروسيون يشاطرونهم ذلك . يدل على هذا التقرير السرى الذي نشره البلاشفة عن الاجتماع الذي كان يعقده سنوياً رؤساء هيئتي أركان حرب الجيش الروسى والفرنسى . ففي شهر اغسطس سنة ١٩١١ أكد الجنرال دوباى لزملائه الروس « أن الجيش الفرنسى سوف يعبأ بنفس السرعة التي تجرى بها تعبئة الجيش الالمانى وأنه سوف يصبح قادراً من اليوم الثانى عشر على اتخاذ خطة الهجوم ضد المانيا بمساعدة الجيش البريطانى على جناحه الأيسر أى على الحدود البلجيكية ،

## الوفاق الانجليزى الروسى فى سنة ١٩٠٧

فى خلال الحرب اليابانية الروسية جرى حديث بين الملك ادوارد السابع والمسئو ايزفولسكى على وفاق انجليزى روسى رحب به ايزفولسكى كل الترحيب وتلقاه الأحرار الروسيون بمزيد الارتياح وان لم يكن هذا شأنه لدى القيصر والرجعيين والعسكريين الروسيين . وقد سوى هذا الوفاق مسائل طال عليها الخلاف بين انجلترا وروسيا فى الشرق الأوسط وكان

بمثابة تكلمة ظاهرة للوافق الودى الانجليزى الفرنسى . وكان ايزفولسكى يشغل  
إذ ذاك منصباً سياسياً فى كوبنهاج لا يذكر بالنسبة لغيره من المراكز فكان  
يتطلع إلى أهم منه كأن يكون سفيراً لدولته فى إحدى عواصم أوروبا أو وزيراً  
لخارجيتها ، فلما فاتحه الملك ادوارد فى ذلك الاقتراح الخطير سر بهذا الالتفات  
أىما سرور وجعل الاقتراح من ذلك الحين نقطة أصلية فى سياسته . وقد كان  
يرى أن الحرب اليابانية أضعفت روسيا كثيراً وان المحالفة الفرنسية الروسية  
فقدت من قيمتها كثيراً إذا هى قورنت بالمخالفة الثلاثية . فالروسيا والمخالفة  
الفرنسية الروسية بحاجة من جراء ذلك إلى تقوية بتوثيق علاقتهما بأعظم  
دولة بحرية فى العالم

وكان ايزفولسكى يخشى على روسيا أمرين : الأول أن تستأنف اليابان  
حربها معها وهى التى أصبحت فى حالة ضعف شديد تحتاج معه إلى أن تعيش  
فى سبلام سنوات طويلة ؛ وخير وسيلة للتفاهم مع اليابان هى بلا ريب تقسيم  
المصالح فى منشوريا بين الدولتين بعقد معاهدة سرية مع الاحتفاظ أمام  
الملا بمبدأ الباب المفتوح . والقنطرة الطبيعية التى توصل إلى هذا التفاهم هى  
انجلترا حليفة اليابان منذ سنة ١٩٠٢ فالتقرب من انجلترا خلىق أن يسهل  
تصافى روسيا واليابان ، خلىق أن يقوى مركز روسيا باعتبارها حليفة  
لفرنسا ويقم المحالفة الفرنسية الروسية على أساس جديد متين .

الأمر الثانى : أنه كان يخشى استمرار الخلاف الذى كان قائماً بين انجلترا  
والروسيا لتضارب مصالح الدولتين فى الشرق الأدنى والشرق الأوسط منذ  
زمن بعيد . فحرب القرم وتهديد الأسطول الانجليزى باختراق الدردنيل  
فى سنة ١٨٧٨ ثم حادث « دوجار بنك » وغيره من حوادث الحرب  
اليابانية الروسية كان كله يلهب الشعور العام فى كلا البلدين . والحرب مع  
انجلترا معناها ارتداء روسيا فى أحضان ألمانيا بما تكون عاقبته أضعاف  
المخالفة الفرنسية الروسية التى هى الحجر الأساسى فى السياسة الروسية فى

حين أنه لو صفيت المنازعات والمنافسات بيدهما لتعزز مركز روسيا الدولي كثيراً، لاصبح في وسعها استئناف نشاطها في البلقان بعد أن قضى على هذا النشاط في الشرق الأقصى ولرحت به فرنسا وكان خطوة كبيرة في سبيل إنشاء تحالف رباعي من إنجلترا وفرنسا والروسيا واليابان يصد مطامع النمسا في البلقان ومطامع ألمانيا في تركيا .

هذا هو البرنامج الذي اعتزم المسيو ايزفولسكى تنفيذه عند ما تقلد منصب وزير خارجية روسيا في شهر مايو سنة ١٩٠٦ .

كذلك كان الملك أدوارد والسير غراى يرغبان في التفاهم مع روسيا فان الأزمة المراكشية الأولى وازدياد بأس الأسطول الألماني جعلهما يرتابان في نيات ألمانيا ويرغبان في ازالة الخطر الذي كان يمكن أن يداهمهم من روسيا العدو اذا ما نشأت بينهم وبين ألمانيا متاعب . ثم أن السير تشارلس هاردنج سفير إنجلترا في روسيا سابقاً ووكيل وزارة الخارجية إذ ذاك كان دائم التأثير في السير غراى لملحه على تحقيق فكرة انشاء ما سموه بعد بالوافق الودى الثلاثى وكان يؤيده في مساعيه هذه السير أرثر نيكلسن الذى حل محله فى سان بطرسبورغ . ولذا لم يمض على تقلد المسيو ايزفولسكى منصب وزير الخارجية الروسية بضعة أشهر حتى كانت المفاوضات بين روسيا وإنجلترا فى الطريق . ولم ير ايزفولسكى بأساً فى أن يصرح أثناء مروره ببرلين فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٠٦ بأنه مضطر إلى خطب ود إنجلترا فى التبت وأفغانستان وإيران لاجتناب عدوان اليابان . وقد شرع السير غراى والسير أرثر نيكلسن فى وضع مشروع باقتراحات لتقسيم إيران إلى مناطق نفوذ بين إنجلترا وروسيا . وبعد معارضة فريق من متطرفى المستعمرين الروسين تمت الموافقة على هذه الاقتراحات . وفى مارس سنة ١٩٠٧ زار الأسطول الروسى ثغر بورتسموث تمهيداً لعقد الاتفاق بين الدولتين . ثم دعا الملك أدوارد فريقاً من الضباط والبحارة الروس لزيارة لندن حيث

أضاقهم وزارة البحرية وهيأت لهم استعراضاً تمثيلاً خاصاً في هيبودروم ثم أقيمت لهم مأدبة أعقبها حفلة تمثيلية في مسرح الهمبرا حضرها أمير البحر السير جون فيشر والسير ادوارد غراي حتى لقد قال السفير الألماني إنه لم يحدث بالتأكيد من قبل أن ذهب وزير انجلىزى للخارجية إلى مسرح فاريتيه ليحيى ضيوفاً أجنب .

لكنه كما كان اختلاف المبادئ السياسية عند الفرنسيين والروسين سبباً لتعطيل مفاوضات الفريقين قبل ذلك بعشرين سنة كذلك كان اختلاف مبادئ انجلترا الحرة والأوتوقراطية الروسية سبباً لاعتياق التسوية واعتراض عقدها . فقد كان الرجعيون والعسكريون الروس ومعهم القيصر أيضاً يعارضون بادية الرأي فى التقرب من انجلترا ، كما كان انتقاد الصحف الانجليزية الحرة للحكم القيصرى المطلق وما صحبه من اضطهاد ، سبباً لتصعب المهمة التى كان يضطلع بها غراي وهاردنج ونيكولسن . على أنه قد أمكن التغلب على هذه المتاعب بفضل ما أبدته وزارة الخارجية الانجليزية من اللهفة وما أجرته من الضغط مظهره فى هذا أكثر بما أظهرت وزارة الخارجية الروسية .

وسبب آخر لتأخير المفاوضات أن السير غراي أراد أن يتم الاتفاق بين روسيا واليابان فى نفس الوقت الذى تعقد فيه المعاهدة الروسية الانجليزية ، فأمضى الاتفاق الروسى اليابانى بالفعل فى ٣٠ يوليه سنة ١٩٠٧ أى قبل عقد الاتفاق الروسى الانجلىزى بشهر . وقد نص الاتفاق على تعهد الفريقين بالاحتفاظ بالحالة الراهنة ومراعاة كل منهما لمصالح الأخرى فى الشرق الأقصى والاعتراف باستقلال الصين وسلامة أملاكها وبمبدأ الباب المفتوح . وقد أبلغت ألمانيا هذه النصوص التى لا غبار عليها لكنه كانت هناك مواد سرية ملحقة بالاتفاق لأن المعاهدة السرية المعقودة فى سنة ١٩١٠ بين روسيا واليابان تناولت الكلام عن تحديد مناطق مصالح فى منشوريا طبقاً

لما نصت عليه المادة الاضافية في المعاهدة السرية المعقودة في سنة ١٩٠٧. ولشد ما كانت دهشة العالم عند ما رأى أن تنافس روسيا واليابان قد تحول إلى تقاوم بين الدولتين لاستغلال ذلك القطر وابعاد أى فريق آخر عنه مع أنهما اللتين كاتتا مشتبكتين في حرب شعواء فكان ينبغى أن يكفل تنافسهما بقاء الباب مفتوحاً في منشوريا

وقد سبق المعاهدة الروسية اليابانية المعقودة في ٣٠ يولييه سنة ١٩٠٧ اتفاق بين الفريقين على تسوية بعض مسائل نشأت من معاهدة بورتسموث خاصة بالتجارة وبمصايد الأسماك وبمعاهدة بين اليابان وفرنسا لضمان مصالحهما المشتركة في الشرق الأقصى . فهذه المعاهدات المعقودة بين اليابان وروسيا وبينها وفرنسا يضاف إليها محالفة اليابان لانجلترا — تلك المحالفة التي جددت في سنة ١٩٠٥ وكانت أساساً للتعاون الودى في الشرق الأقصى بين الدول الغربية الثلاث التي كونت بعد قليل الفريق المسمى بالوفاق الودى الثلاثى . ولقد شعرت ألمانيا إذ ذاك بعزلتها السياسية فشرعت تجس نبض الرئيس روزفلت لعقد اتفاق مع الولايات المتحدة يحتفظ باستقلال الصين ويراعى مصالحهما المتبادلة في الشرق الأقصى لكن محاولتها هذه لم تكمل بالنجاح .

وأخيراً أمضى الاتفاق الانجليزى الروسى في ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٧ متناولا الشرق الأوسط والتبت وأفغانستان وايران . ففي صدد التبت اعترفت الدولتان المتعاقدتان بسلامة أراضيه تحت سيادة الصين واتفقتا على عدم التدخل في شئونه الداخلية والامتناع عن السعى وراء امتيازات خاصة فيها؛ وهكذا تقرر أن تبقى بلاد اللاما حاجزاً بين الدب الروسى والأسد البريطانى .

أما أفغانستان فقد صرحت روسيا بأنها خارج منطقة نفوذها السياسى وذلك في مقابل وعد بريطانيا بأن لا تحتل البلاد ولا تضمها إلى أملاكها

مادام أميرها يؤدي تعهداته . وقد سحبت روسيا معتمديها السياسيين في هيرات ووافقت على أن لا تخاطب الأمير في أى شأن إلا عن طريق ولاية الأمور الانجليز . وبذا لم تعد أفغانستان مسرحا لدسائس الروس ضد الهند وزال عن انجلترا ذلك الكابوس الذى أقلقها أكثر من قرن من الزمان .

أما إيران فقد كانت بلاريب أهم مسألة تناولها الاتفاق المذكور . فمع أن دياجة المعاهدة كانت تحتوى تعهد الدولتين باحترام استقلال إيران وسلامة أراضيها فقد كان الاتفاق يقسم البلاد إلى ثلاث مناطق، فأصبح القسم الشمالى وهو أغنى الأقسام الثلاثة وأكبرها وأكثرها سكانا منطقة نفوذ لروسيا لا تسعى فيه بريطانيا لنفسها أو لدولة أخرى وراء امتيازات سياسية أو تجارية، وأضحى القسم الجنوبى وهو عبارة عن صحراء جرداء لكن فيه الطريق المؤدية إلى الهند من نصيب انجلترا لا تسعى فيه روسيا وراء امتياز ما . أما القسم الأوسط فبات محايداً يشمل رأس الخليج الفارسى ، وقد تعهدت الدولتان ألا تسعيا للحصول على امتياز خاص فيه إلا باتفاقهما وقد أغفل شاه إيران فلم يؤخذ رأيه مطلقا في هذه التدابير .

على أن الاتفاق الروسى الانجليزى الذى أذيعت محتوياته ولم يتضمن تعهداً بتقديم مساعدة عسكرية أو سياسية أو يؤد من فوره إلى توثيق الروابط السياسية قد أكمل مع ذلك دائرة التعاون السياسى بين روسيا وفرنسا وانجلترا فشرعت صحف البلاد الثلاثة تشير إلى « الوفاق الودى الثلاثى ، الجديد .

## الفصل الرابع

نظام المحالفات السرية بين سنتي ١٩٠٧ - ١٩١٤

تعارض المحالفة الثلاثية والوفاق الودي الثلاثي

في سبع السنوات الواقعة بين ١٩٠٧ ، ١٩١٤ كان تعارض الفريقين اللذين انقسمت اليهما الدول الأوربية الست العظمى يزداد جلاء ويتخذ مظهراً يبنياً . وقد كان يتمشى في السنوات الأربع الأولى بطيئاً ثم أخذت الهوة تتسع بسرعة لما احتلت فرنسا فاس وتظاهرت ألمانيا ضدها في أغادير ، ولما استولت إيطاليا على طرابلس وازداد التنافس البحري بين ألمانيا وانجلترا وفشلت بعثة هولدين ونشبت الحرب البلقانية . ولقد ظهرت آثار هذا الخلاف والشقاق في مراكش والعراق والبلقان وفي كثير من المسائل العديدة الأخرى ابتداء من مسألة التسليح الأوربي إلى مسألة القروض الصينية . فأما ما يتعلق بالبلقان فقد كان الخلاف عليه جوهرياً لا ارتباطه بالأسباب المباشرة للحرب العالمية بحيث أفردنا لبعض مظاهره في تلك المنطقة فصلاً خاصاً يلي هذا الفصل . ذلك أن سرد كافة أدوار الاختلاف بين الفريقين بما فيها من تعقيد وما تنطوي عليه من نزاع مما يتجاوز حدود هذا المجلد . ولذا ضربنا صفحاً عن الأسباب في إيراد تاريخ هذه الفترة لأن غرضنا هو أن ندل في ضوء الوثائق الألمانية الحديثة ومذكرات المسيو بوانكاريه وغير هذه وتلك من المعلومات التي نشرت أخيراً - نقول إن غرضنا هو أن ندل في ضوء هذا كله على أهم العوامل التي تفاقم معها خلاف الفريقين وتحول بها هذا التحول المشؤم الذي وقع في سنة ١٩١٤ .

ولقد صحبت هذا التعارض بين المحالفة الثلاثية والوفاق الثلاثي وزادت

في حدته أربعة أمور :



أولاً — ان نظام التحالف عند الطرفين كان ناقصاً من حيث صبغته الدفاعية الأصلية فكان ان اتسع نطاقه مع الزمن ليستر خططاً تنطوي على إجراءات عسكرية هجومية . مثال ذلك ان المانيا كانت تشعر بأنها مضطرة إلى تأييد النمسا إذا تورطت هذه مع روسيا في حرب من جراء ما كانت تبذل من جهود لدفع خطر التوسع الصربي بصورة ما كان بسمارك ليقرها . وبالمثل ما كانت فرنسا تحسه في عهد الميسو بوانكاريه من اضطرارها إلى تأييد روسيا إذا ما تورطت مع النمسا وألمانيا في حرب من جراء سعيها وراء تحقيق مطامعها في البلقان في صورة ما كان الساسة الفرنسيون الذين سبقوا الميسو بوانكاريه ليقروها .

ثانياً — لقد حاولت ألمانيا تقوية التحالف الثلاثي كما حاول الميسو بوانكاريه توثيق عرى الوفاق الودي الثلاثي . بيد أن الاخير كان أكثر توفيقاً من الأولى لان المحالفة الثلاثية على الرغم من تجديدها في سنة ١٩٠٧ ثم في سنة ١٩١٢ كانت آخذة في الوهن والضعف ، فكانت توهنها مشاكل النمسا الداخلية وتعقد أحوال البلقان وانتفاء الثقة من قديم بين ايطاليا والنمسا وأنانية ايطاليا التي جعلتها كثيراً ما تعارض حليفيتها وخاصة النمسا في الشؤون السياسية حتى حملتهما على الارتياب في ولائها فيما لو نشبت حرب . أما الوفاق الودي الثلاثي فكان على النقيض من ذلك آخذاً في أسباب القوة لان دوله لم تكن تفصلهن أمثال هذه المنازعات التي كانت قائمة بين النمسا وايطاليا . أضف إلى ذلك ان انجلترا وفرنسا وروسيا أمكنهن أن يزدن ما يبين من اتفاقات سعياً وراء التعاون الحربي البحري

ثالثاً — انه رغم توثق الروابط بين مجموعة دول كل من الطرفين وخاصة الوفاق الثلاثي كانت لا تزال هناك مناسبات للخلاف وسوء الظن والارتياب بين أعضاء كل فريق أكثر مما كان يظن على وجه العموم . فمثلاً كان تودد فرنسا الى ايطاليا في سنة ١٩٠٢ وإلى روسيا بعد مقابلة راكونيجي

في سنة ١٩٠٩ أظهر مثال لهذا النوع من الخيانة «الاهلية» ومصدراً دائماً للقلق والمتاعب لكل فريق . وفرنسا مثلاً كانت تتضايق كثيراً كلما دخلت انجلترا في مفاوضات سرية مع ألمانيا كما فعلت بارسال بعثة هولدين إلى برلين أو عندما دارت بينهما المفاوضات في صدد سكة بغداد الحديدية، كذلك عندما عقدت روسيا مع ألمانيا اتفاقات بوتسدام في سنة ١٩١٠ - ١٩١١ أو عند ما بدا أنها ميالة إلى القيام بمناورات سياسية في البلقان دون أن تبلغ عنها حليفتها فرنسا سلفاً . كذلك كان السير غراي قلقاً على وفاقه مع روسيا خيفة أن ينهار إذا لم يقدم لها المساعدة السياسية التي كان يطمح فيها المسيو سازونوف في كثير من الظروف الحرجة كما حدث في مسألة ليمان فون ساندرس (\*) وفي شهر يولييه ١٩١٤ . وألمانيا أيضاً كثيراً ما ربكتها «الجهالات» التي كانت تبدو من النمسا في البلقان ضد مشورتها أو دون موافقتها . لذلك كانت تبذل على الدوام المساعي الخاصة في داخل كل فريق لتلطيف الخلاف والارتباب وزيادة الوفاق والتضامن والثقة بين أعضائه بالتساهل فيما بينهم . فالاذعان أو التشجيع الذي بدا من المسيو بوانكاريه للروسيا ومن ألمانيا للنمسا كان إلى حد كبير بقصد الاحتفاظ بالتضامن أكثر منه سعياً وراء حرب لاسترداد الالزاس واللورين من ناحية أو للسيطرة على أوروبا من الناحية الأخرى . لكنه أدى بالنمسا والروسيا على كل حال إلى الانزلاق في طريق البلقان إلى هاوية سنة ١٩١٤ السحيقة

رابعاً - كان كل فريق من الفريقين يضاعف تسليحاته العسكرية والبحرية بسرعة وهو ما أدى إلى ازدياد الشكوك والخاوف وإلى المهاترة الصحفية لدى الفريق الآخر . وهذا أفضى بدوره إلى زيادة التسليحات . وهكذا كانت الأمور تجري في هذه الحلقة المرذولة فتزداد على الدوام استعدادات الحرب وتكاثف سحب الخوف والارتباب بين الفريقين . وفي

---

(\*) سيأتي حديث هذه المسألة بعد (المغرب)

سنة ١٩٠٧ قبل أن يتجلى التناوب كانت المحالفة الثلاثية والوفاق الثلاثي يقفان كما قال الأستاذ شميت بحق « جنباً الى جنب . أما في سنة ١٩١٤ فقد وقفوا وجهاً لوجه » .

## تخوف ألمانيا من التطويق بعد سنة ١٩٠٧

لما عقدت الاتفاقية الانجليزية الروسية في سنة ١٩٠٧ تظاهرت ألمانيا بقبولها في رباطة جأش . حتى قبل عقدها أشار الكونت ييلوف في خطبته التي ألقاها في مجلس الريخستاج في ٣٠ ابريل سنة ١٩٠٧ إلى المفاوضات التي كانت دائرة في شأنها إشارة ملؤها التفاؤل . فلما نشرت الاتفاقية الانجليزية الروسية بعد ذلك أوعز الكونت ييلوف إلى الصحف بالتزام الاعتدال وعدم التعلق بالنظريات في تعليقاتها ، وأن تعتبر الاتفاقية كما قيل عنها — تسوية للخلافات بين انجلترا وروسيا لا تضافراً عدائياً بينهما ضد المصالح الألمانية . لكن ألمانيا كانت قلقة جداً في الواقع وكانت تخشى ألا تكون المواد الخاصة بالتبت وأفغانستان وإيران غاية في ذاتها بل واسطة لغاية بعينها هي تكوين كتلة سياسية من انجلترا وفرنسا وروسيا ، ذلك أن مثل هذا الوفاق الثلاثي سوف يفوق المحالفة الثلاثية في القوة السياسية لأن إيطاليا نظراً لحسدها وبغضها للنمسا فيما يتعلق بالبلقان ولرغبتها في أن تكون علاقاتها بفرنسا وانجلترا طيبة ، سوف تكون أميل إلى رأيها منها إلى رأي حليفيتها كما فعلت في مؤتمر الجزيرة . كذلك سوف تمتاز دول الوفاق الثلاثي على المحالفة الثلاثية من حيث الموارد الاقتصادية والقوة العسكرية والبحرية بحيث تصبح في النهاية قادرة على اعتياق ألمانيا عن اتمام سكة بغداد الحديدية وعرقلة تجارتها وصناعتها ومعارضة مطامعها الاستعمارية حيثما تضاربت هذه المصالح مع مصالحها . ثم في المسائل الشائكة كالألزاس واللورين أو مراکش أو الشرق الأوسط أو التنافس البحري كانت تعترض ألمانيا رأساً هذه الدولة

أو تلك من دول الوفاق الثلاثي؛ كما أن مسألة البلقان خليفة أن تنقلب في أي وقت إلى أزمة خطيرة. فاذا ثبت أن التقرب إلى روسيا وانجلترا ( كما دلت الحوادث فيما بعد ) مقدمة لمجهود تبذله روسيا لأحياء سياستها العدوانية في البلقان واسترداد هيبتها في الشرق الأدنى بعد أن فقدتها في الشرق الأقصى فلا مناص من اصطدام خليفة فرنسا بخليفة ألمانيا عاجلاً أو آجلاً. فاذا نشأت أزمة في أمر من هذه الأمور فسوف تجد ألمانيا نفسها تؤيدها النمسا وربما إيطاليا وجهاً لوجه بأزاء الوفاق الودي الثلاثي وقوته المتقدمة، وهناك تضطر ألمانيا إلى أن تسلك أحد طريقين: إما أن تتقهقر وإما أن تمتشق الحسام. وهما احتمالان كلاهما بغيض.

هذه هي الاعتبارات التي هجست بخواطر الألمان وسببت قلقهم حتى باتوا يعتقدون أنهم «مطوقون»، ومع أن روسيا وانجلترا جاهرتا كثيراً بأن اتفاهما ليس موجهها بحال من الأحوال ضد ألمانيا وأنه لا ينطوى على أغراض خفية فان أقوالهما لم تلق مصداقاً في برلين. وموقفهما حيال سكة بغداد الحديدية كان يلوح دالاً على تصميم كل منهما على معارضة غرض يعد من أعز الأغراض إلى قلب ألمانيا.

ذلك أنه في سنة ١٩٠٢ حصلت ألمانيا من تركيا على امتياز بإنشاء سكة حديد بغداد ومد المواصلات الحديدية من الخط المنتهى عند مدينة قونية إلى الخليج الفارسي عن طريق بغداد. وفي العام التالي اتفق «البنك الألماني» مع البنك العثماني على التدابير اللازمة لتمويل المشروع. وقد رغبت ألمانيا في أن يشترك أصحاب رؤوس الأموال الأجنبية في تنفيذ هذا المشروع الباهظ التكاليف فدعتهم بالفعل إلى ذلك لكنها قوبلت بالرفض بدل التعاون وكان هذا الرفض من جانب روسيا وفرنسا وانجلترا. على أن ألمانيا برغم هذا الرفض شرعت في تنفيذ المشروع فلم يمض عام أو بعض عام حتى كانت قد أتمت المائتي كيلو متر الأولى بين قونية وارجلی وافتتحت هذا القسم

للواصلات في ٢٥ أكتوبر - وكان يوم عيد ميلاد السلطان - وسط مظاهر الابتهاج والاحتفالات الباهرة . لكن الماتى كيلومتر الثانية إلى جبال طوروس كانت تقتضى أعمالاً هندسية كبرى ونفقات باهظة لم تستطع الدولتان دفعها . ولما لم يكن في استطاعة تركيا الحصول على المال إلا برفع التعريفة الجمركية وكان هذا لا يتم إلا بموافقة الدول عارضت انجلترا وفرنسا وروسيا في هذه الزيادة لكي لا يتم مشروع السكة الحديدية فتوقف العمل فيه وظل معطلاً بضع السنوات التالية .

ولقد شرعت ألمانيا في غضون سنة ١٩٠٥ والتي تلتها في مفاوضات لمل الفرنسيين والانجليز على الاشتراك معها مالياً والتعاون معها سياسياً على انشاء خط بغداد الحديدى . ولاح في صيف سنة ١٩٠٦ أن بعض أعضاء حكومة الأحرار الانجليزية الجديدة وفي جملتهم غراى وهولدين يرغبون في تسوية مسألة بغداد مع ألمانيا . بيد أن السير أدوارد غراى أصر على وجوب اشتراك فرنسا مع انجلترا إذا هي اشتركت ، حرصاً منه على روح المحالفة التي تربط بلاده بفرنسا . وقد طالبت الصحف الانجليزية أيضاً بأن تكون السكة الحديدية دولية أو تسيطر انجلترا على هذا الخط من بغداد إلى الخليج الفارسى إذا أرادت ألمانيا السيطرة عليه لغاية بغداد . لكنه لم يمكن الوصول إلى تدير عملي يرضى مطالب الانجليز . كما كانت هذه النتيجة السلبية مصير المفاوضات الطويلة التي أدارتها ألمانيا مع ايزفولسكى لتكف يدها عن التدخل في شئون فارس في مقابل عدول روسيا عن المعارضة في خط بغداد .

وتوجه الامبراطور غليوم إلى وندسور بعد عقد المعاهدة الروسية الانجليزية في سنة ١٩٠٧ بثلاثة أشهر فاحتفوا به ، وانتهز هو هذه الفرصة فعاود البحث في مسألة سكة بغداد الحديدية مع لورد هولدين والسير ادوارد غراى فألنى أولها مصرأ على وجوب اشراف انجلترا على القسم الممتد من بغداد إلى الخليج الفارسى لتكون من ذلك « بوابة » تحمى الهند من جيش قد

ينحدر عن طريق هذا الخط . فقال له الامبراطور على الفور « سأعطيكم هذه البوابة » وأبرق لساعته إلى ييلوف بهذا المعنى . لكن السير غراي أصر على وجوب اشتراك فرنسا وروسيا في المباحثات فكان هذا الاصرار عقبة كأداء في سبيل الاتفاق على اقتراح الامبراطور اتفاقاً مرضياً . وهكذا كان تمسك السير أدوارد غراي في خريف سنة ١٩٠٧ بالتضامن بين فرنسا وانجلترا والروسيا في مسألة بغداد دالاً مقدماً على مبلغ التضامن الذي كان خليقاً أن يزداد بين دول الوفاق الثلاثي في ميدان أفسح من ذلك مجالا وأبعد ترامياً . وقد وضع هذا التمسك حداً لكل مناقشة جديدة ذات شأن في مسألة بغداد إلى أن حل اليوم الذي هجرت فيه الروسية صديقتها وعقدت مع ألمانيا اتفاقات بوتسدام سنة ١٩١٠ - ١٩١١ .

### تنافس الانجليز والالمان في ١٩٠٤ - ١٩٠٩

وحدث أيضاً أن أخذت ألمانيا ترتاب عند اجتماع مؤتمر السلام الثاني في لاهاي وبمناسبة المباحثات البحرية التي كانت دائرة في بدء عهد التنافس على إنشاء المدرعات - نقول حدث أن ألمانيا أخذت ترتاب في أن انجلترا تريد أن تحد من حريتها في العمل . وكان السير جون فيشر قد انتهى ولما يكدم من إعادة تنظيم الأسطول البريطاني وتقويته بينما كان الأسطول الألماني ما يزال في بداية نموه . فاقترحت انجلترا البحث في تحديد التسليحات وحثت كثيراً على النظر في هذا الاقتراح . فبدأ هذا المسعى منها كما لو كان مشروعاً يراد به وقف الانشاء البحري ولاح أن الغرض منه منع ألمانيا من الأخذ بأسباب القوة بينما انجلترا لا تزال تستمتع بتفوق بحري مشهود . وما كان ليسع ألمانيا أن توافق على تحديد جيوشها بعد أن أضعفت المشاكل الداخلية حليفتها النمسا وأصبحت الشكوك تحوم حول إخلاص إيطاليا كحليفة . زد على ذلك خشيتها من خطر القتال في ميدانين متى ما نقهت الروسية من حربها

مع اليابان واستأنفت نشاطها في البلقان . ولذا أصرت ألمانيا على ألا يكون تحديد التسليح من بين الموضوعات التي تتضمنها الدعوة إلى المؤتمر . لكن انجلترا والولايات المتحدة مع ذلك عرضتا الموضوع أثناء انعقاده ، ومع أن فرنسا والروسيا شاطرتا ألمانيا الاعتراض على ذلك إلى حد كبير فقد كانت هذه المشاطرة ضمنية وغير صريحة لأن هاتين الدولتين تركتا للهندويين الألمان الاعراب وخدمهم عن هذه المعارضة ليتحملوا مسئولية حبوط الاقتراحات . ولا شك أن ألمانيا ارتكبت في هذا غلطة كبيرة لأنه وإن كانت مشكلة تحديد التسليح من أصعب المسائل كما تدل الجهودات الخائبة التي بذلتها عصبة الأمم في هذا السبيل والفشل الذي منى به مؤتمر الرئيس كولدريج فقد كان من الممكن لو لم تقف ألمانيا الموقف الذي وقفته في سنة ١٩٠٧ أن تحذو الدول الأوربية الأخرى حذوها فيكون هذا مقدمة لوقف التوسع المشثوم في الاحتفاظ بالجيش والأساطيل والتنافس على ذلك . أجل لو أن ألمانيا فعلت هذا لما أمكن أن توسم بأنها البلد الذي يضطلع بأكبر قسط من اللوم عن إحباط مجهود بذل لتخفيف خطر مطرد كان من أكبر أسباب الحرب العالمية ومن سخرية التاريخ أن يكون التنافس البحري قد وصل بين انجلترا وألمانيا أثناء انعقاد مؤتمر السلام في لاهاى إلى مرحلة جديدة اتتأها من الريب والمرارة ما لا نظير لهما ؛ فقد كان الأميرال فون تربتس والامبراطور قد وضعا بالقانونين البحريين الخاصين بستى ١٨٩٨ ١٩٠٠ ٦ الحجر الأساسى لإنشاء أسطول قوى . وكانا يرومان أن تبدو عظمة ألمانيا الحديثة بإنشاء أسطول يتناسب مع تجارتها النامية ومصالحها الاستعمارية ويتيح لها الحماية الكافية . كانا يريدان قبل كل شىء أن تكون لألمانيا قوة بحرية تسند حججها السياسية فى السعى وراء المنافع الاستعمارية والتجارية . وقد قال الامبراطور فى أحد هوامشه إنه « لم يفكر فى مهاجمة انجلترا فى المستقبل القريب ولو فعل لكان هذا منه الآن ولسنوات تتلو خرقا لا يعدله خرق .

لكن وجود قوة بحرية محترمة لألمانيا مما ترغم به انجلترا على التساهل معها في المنطقة الاستعمارية لا مما تبغى به الاشتباك معها في صراع بحرى .

هذا ما كان يرمى إليه الأميرال تربتس لكنه لم يقدر ما يترتب على عمله هذا من الاثر السئ في نفوس الانجليز وسياستهم . فع ان انشاء الاسطول الألماني جعل انجلترا تتقدم بعدة اقتراحات لتحديد التسليح إلا أنه لم يخفها أو يدفعها إلى تساهلات ذات بال . بل لقد أدى على العكس من ذلك إلى خلق جو من الشكوك والخصومة لم يكن ليؤاتى عقد اتفاقات ودية لا في سكة بغداد الحديدية ولا في غيرها من المسائل ، اذ كانت كل زيادة في الاسطول الألماني تقابل من انجلترا بالتصميم على الاحتفاظ بما لها من السيادة البحرية التي تقتضيها سلامة الامبراطورية البريطانية وكيانها نفسه . مثال ذلك أنه في سنة ١٩٠٤ عند ما رأت انجلترا الاسطول الألماني الناشئ يبدى رغم حدائمه دلائل نمو قوى بدأت ترتب أسطولها من جديد وتعيد تنظيمه ، وشرعت تنشئ في بحر الشمال أسطولا قويا وتعدده لأى عمل فورى ضد ألمانيا . وقد بدل السير جون فيشر وغيره وأحدث الشيء الكثير حتى قال « ستزيد كفايتنا للقتال ثلاثين فى المائة وسنكون مستعدين للدخول فى أية حرب فجائية » .

وهكذا بدأ فى العام التالى بانشاء أول « دردنوط » وكان قد تقرر أن يفوق هذا النوع من المدرعات أى شىء عائم لتكون للبحرية الانجليزية منه قوة لا تستطيع دولة تهديدها . بيد أن ادخال الدردنوط فى الأساطيل كان يكلف ضعف ما يتكلفه انشاء البوارج فضلا عما ترتب عليه من تضائل أهمية السفن الكبرى والصغرى إلى جانبه وهى السفن التى كانت تعتمد عليها انجلترا إلى ذلك الحين فى تفوقها البحرى . وقد تمكن تربتس من احتذاء مثال انجاءه ، وبات ينافسها فى بناء هذا النوع الجديد من السفن الحربية التى لم تكن هنالك أمة تملكها حتى أصبح يدانها ولا يضارعها . أما أنواع السفن الاخرى فكانت



ألمانيا متخلفة فيها عن إنجلترا بمراحل . وإلى القارى ما يعبر عن ذلك بالأرقام :  
لقد أوصلت إنجلترا على صنع ١٢ دردنوتا تكون جاهزة في سنة ١٩٠٨  
وأوصلت ألمانيا على تسع ، بينما كانت نسبة ما تملكه إنجلترا لما تملكه ألمانيا من  
النوع الأقدم من الدردنوط ٦٣ : ٢٦ ، وقد كان تربتس دائم الاعتراض  
على أى تحديد خطير لبرنامجها الذى كان يعتقد أنه يقرب البحرية الألمانية  
تدريجاً من البحرية الإنجليزية ويجعلها تدانيها فى القوة وإن كان لم يأمل فى  
أن تضارعها . وألمانيا فى هذا سوف تجتاز منطقة الخطر التى يكون أسطولها  
فيها دون الأسطول الإنجليزي كثيراً وسوف تتعرض لاحتمال مهاجمة إنجلترا  
لأسطولها للقضاء عليه فى حرب « مانعة » لكنه لم يكن يظن هذا الخطر عظيماً  
بخاصة إذا تحاشت السياسة الألمانية إثارة إنجلترا فى ميادين أخرى . وقد  
قدر تربتس للخروج من منطقة الخطر اثنتى عشرة سنة تصبح ألمانيا بعدها  
آمنة ويكون لها أسطول محترم تستطيع أن تجازف به . وألمانيا قادرة على  
النهوض بالعبء المالى لكنه أنى لا إنجلترا ذلك على مر السنين ، فكل ما على  
ألمانيا أن تفعله هو أن تسير إذن بالإنشاء البحرى إلى الأمام .

وقد كان ، فصل تربتس بالقانون البحرى الثالث لسنة ١٩٠٦ على تفويض  
بانشاء ست مدرعات جديدة كما استطاع بقانون سنة ١٩٠٨ تخفيض مدة  
استبدال قطع جديدة بالقطع القديمة من ٢٥ سنة إلى ٢٠ . وهكذا أوصى  
بأن تحل سفن جديدة عاجلاً محل سفن قديمة لا تصلح للاستعمال . وقد نص  
هذا القانون على انشاء أربع دريدنوطات ( وتدخل فى ذلك القطع المستجدة )  
فى كل عام ابتداء من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١١ واثنين فى كل عام من سنة  
١٩١٢ إلى ١٩١٧ : فأفضى هذا وغيره فى سنة ١٩٠٨ إلى انتشار الفزع خشية  
وقوع حرب ، ودارت من جراء ذلك مفاوضات أخرى عقيمة للوصول إلى  
أى تفاهم بحرئ ، إذ قدم الإنجليز اقتراحات كثيرة لتخفيض النفقات البحرية  
كما يخف الخلاف المتزايد مع ألمانيا . وارتأوا عرض الموضوع على مؤتمر

لاهاى للسلام . وأن يتحدث السير جون فيشر مع الاميرال تربتس فيه أو أن يقوم كل من الفريقين بالتفتيش على حياض الآخر ويحيطه برنامجه البحرى . وأبلغت انجلترا ألمانيا بصفة غير رسمية أنه إذا كانت ألمانيا قلقة من سياسة التأمين التى تجرى عليها انجلترا بتوثيق علاقاتها بفرنسا والروسيا فخير ما تصنع لتزيل هذا القلق وتعيد علاقاتها الودية بانجلترا إلى سابق عهدها هو أن تؤخر برنامجها البحرى أو أن تتفاهم مع انجلترا بأية صورة على نسبة معينة للبحريتين الانجليزية والالمانية .

لكن انجلترا لم تكن لتفوز بأى جواب مرض عن أى من اقتراحاتها هذه . فان هذه الاقتراحات وقد قدمت بعد إذ قوى السير جون فيشر الأسطول الداخلى فى بحر الشمال تقوية عظيمة وجعل ينشئ الدردنوطات ، كانت للذهن الألمانى بمثابة تبليغ من أقوى دولة بحرية بأنها ترى وقف المنافسة البحرية فى اللحظة التى بلغت هى فيها أشدها . ولكون هذه الاقتراحات قد قدمت فى وقت واحد مع تنظيم اللورد هولدين للقوة التى ستكون بمثابة تجريدة ، ومع توثق العلاقات السياسية بين انجلترا وفرنسا والروسيا فقد بدت كما لو كانت خطة مدبرة من جانب الدول الثلاث للضغط على ألمانيا . وكل اين لضغط كهذا لم يكن لتقبله ألمانيا باعتباره مما لا يتفق وكرامتها كدولة عظمى . وقد كتب ييلوف بصفة خاصة إلى بفاريا وبعض الحكومات الألمانية فى ٢٥ يونيه سنة ١٩٠٨ بعد زيارة الرئيس فالير للندن ومقابلة الملك إدوارد المشهوره لقيصر الروسيا فى ريفال يقول : إن كل اتفاق يرمى إلى الحد من قوتنا الدفاعية لا نقبل البحث فيه كائنه ما كانت الظروف ، والدولة التى تطلب منا مثل هذا الاتفاق يجب أن تعلم أن طلبها هذا معناه الحرب . أما الامبراطور فكان يعتبر مقترحات الانجليز محاولة لا مسوغ لها للتدخل فى حقوق سيادته وفى واجبه الذى يحتم عليه اتخاذ كافة الاجراءات التى تقتضيا كرامة الامبراطورية الألمانية ويستلزمها الدفاع عنها ؛ ولذا رفضها

غاضباً . ولقد أخذت مخاوف الامبراطور غليوم من أن انجلترا ترمى إلى وضع العراقيل في سبيل الأسطول الألماني وتقصّد إلى تطويق ألمانيا، تزداد عاما بعد عام من جراء الزيارات العديدة التي تبودلت بين الملك إدوارد السابع ورؤساء الدول ووزرائها في روسيا وفرنسا في صيف سنة ١٩٠٨ . ففي شهر مايو زار المسيو فالير رئيس الجمهورية الفرنسية لندن فقبل فيها بحفاوة وأقيمت له مأدبة في وزارة الخارجية لم يحضرها فيما عدا المدعوين الفرنسيين والانجليز سوى السفير الروسي .

وهذا تمييز كان يلوح مربكاً للكونت بنكندورف الطيب . وقد اهتمت الصحف الفرنسية بهذه المأدبة وانبرى المسيو تاردييه يعرب في جريدة الطان عن آماله في أن يزداد توطد العلاقات بين فرنسا وانجلترا بشرط أن تحدث انجلترا تغييراً سياسياً في نظامها العسكري . وكان يريد بهذا التليح نظام الخدمة الاجبارية الذي كان لورد روبرت وغيره من رجال العسكرية يحضون علناً على اتباعه . وفي شهر يونيه توجه الملك إدوارد لزيارة قصر روسيا في ريفال فلم تكن زيارته مجرد مجاملة عائلية لأنه كان مصحوباً بالاميرال فيشر والسير جون فرنش والسير تشارلس هاردنج الذين كانت لهم محادثات طويلة مع ايزفولسكى ومع رئيس الوزارة المسيو ستولين . وقد أبلغ هاردنج المسيو ايزفولسكى بأن انجلترا لا تضمر عداً لألمانيا وأنها تود الاحتفاظ بأطيب العلاقات معها لكن إطاراد زيادة الأسطول الألماني زيادة لا لزوم لها أثار سوء ظن انجلترا في نيات ألمانيا المستقبلية . وسوء الظن هذا خليق أن يتضاعف على مر الزمن وقد لا تمضى سبع سنوات أو ثمان حتى تصبح روسيا— إذا هي ظلت قوية في أوروبا—الحكم بين الدول فيما لو نشأت حالة عصية . وقد يكون لها من النفوذ لتوطيد دعائم السلام أكثر من أى مؤتمر في لاهاي . لهذا كان ضرورياً أن تحتفظ انجلترا وروسيا كل منهما حيال الأخرى بنفس العلاقات الودية التي تقوم الآن بين انجلترا وفرنسا . وقد

استخلص المسيو ايزفولسكى من هذا الحديث . أن انجلترا تريد أن تقوى  
روسيا جيشها وأسطولها بقدر الامكان لتستطيع صد ألمانيا في المستقبل .  
وقد ذكر السير جون فيشر أنه طالما جلس بين المسيو استولين والمسيو  
ايزفولسكى وأنه ألح عليهما بضرورة تقوية الجيش الروسى على الحدود  
الألمانية . قال « وقد سألتى استولين ماذا نزن أننا أحوج إليه . وكان فى  
مرجوه أن أجيبه أنكم أحوج إلى كثير من السفن الحربية وكثير من  
الطرادات الخ لكنى قلت له « إن حدودكم الغربية مقفرة من الجنود  
ومستودعاتكم خالية فسدوا فراغ الاثنين ثم تحدثوا عن الأساطيل ، ولم  
تخل مقابله ريفال هذه من تناول موضوعات أخرى كموضوع الاصلاح فى  
مقدونيا وموضوع ايران وكريت وسكة حديد صنجق نو فى بازارا وموقف  
الصحافة الروسية . ومع أن المسيو ايزفولسكى أعلن مراراً أن اجتماع ريفال  
لم يكن موجهاً ضد ألمانيا فان الامبراطور لم يقتنع بتأكيداته هذه ، ففترت  
العلاقات بين انجلترا وألمانيا بعد مقابلة ريفال . وقد ازداد من ذلك الحين  
تمسك الامبراطور برفضه البحث مع انجلترا فى تحديد برنامج البحرى وكان  
هذا موقفه عند ما تناول هاردنج هذا الموضوع معه مباشرة أثناء زيارة  
الملك إدوارد القصيرة لكرونبرج فى ١١ أغسطس سنة ١٩٠٨ . فقد حمى  
وطيس الجدل إذ ذاك بينهما حين شك هاردنج — كما روى الامبراطور فى  
حكايته التى سردها على شكل محاوره — من أن ألمانيا تنشئ دردنوطاتها بسرعة  
سوف تجعلها بعد بضع سنوات فى مثل قوة انجلترا من حيث المدرعات  
والبوارج فلاحظ له الامبراطور أن هذا هراء محض وبعث فى طلب تقويم  
يشتمل على إحصائيات مفصلة لآساطيل الأمم جميعاً — والظاهر أن هاردنج  
لم يكن قد سمع به — ثم دله على خطئه ، فلما أصر هاردنج على وجوب الكف  
عن المنافسة فى الانشاء البحرى أجابه الامبراطور بحجته المعهودة وهى أن  
ألمانيا لا تنشئ السفن لمنافسة انجلترا وإنما لتسد حاجاتها التى تبين عنها قوانين

تربتس البحرية فأمعن هاردنج في أصراره قائلاً : « يجب أن تكفوا عن البناء أو تبنوا ببطء ، فخدجه الامبراطور بنظرة حادة وقال « إذن سنحارب لأن المسألة تتعلق بشرف البلاد وكرامتها ، فاحمر وجه هاردنج وأحس بخرج مركزه فسأل الامبراطور المعذرة ورجاه أن ينسى كلمات قيلت في حديث خاص ثم غير موضوع الحديث . ولما تحادث مع الامبراطور فيما بعد في نفس اليوم كان لطيفاً متودداً ما أمكن ؛ ولشد ما كانت دهشته حين أنعم عليه الامبراطور بالطبقة الأولى من نشان النسر الأحمر .

لقد كانت الوزارة التي كان هاردنج يعبر عن آرائها مصممة على الاحتفاظ بسيادة انجلترا على البحار متمسكة بضرورة التفوق على ألمانيا في انشاء الدردنوطات لكنها تنبأت بالمرارة التي يمكن أن يحدثها بين الدولتين المضي في المنافسة البحرية ونهوض انجلترا بما يترتب على تلك المنافسة من عبء مالي باهظ ، ولذا رغبت مخلصه وحاولت الوصول إلى تفاهم ما مع ألمانيا في هذا الشأن . وقد كانت غلطة محزنة من تربتس والامبراطور أن يسترسلا في رفض البحث بتاتا إذ دفعا انجلترا بعنادهما إلى أحضان فرنسا والروسيا فقويا بعملهما الوفاق الثلاثي وساعدا على وقوفه في وجه ألمانيا .

ولقد كان من تأثير معارضة انجلترا في خط بغداد الحديدي ، ومساعدتها لتحديد البحرية الألمانية ، ومقابلة ريفال ، وتآلف فرنسا والروسيا وانجلترا الظاهر الذي تمخض عن الوفاق الثلاثي ، نقول كان من تأثير هذا كله في ألمانيا أن اعتقدت بأنها طوقت . وقد كان الألمان يعتقدون أن هذا التطويق من عمل إدوارد السابع شخصياً وأنه يرمى إلى القضاء على توسع ألمانيا التجاري والاستعماري بل أيضاً إلى سحق مركز ألمانيا السياسي والحربي . ومثل هذا التصور يرجع إلى تخيلات الألمان وخوفهم وارتياحهم وان كان هنالك مع ذلك شيء من التطويق السياسي . فقد أصبحت ألمانيا إذ ذاك محوطة بثلاث دول نظمي مفروض أن قوتها مجتمعة تضارع قوة المحالفة الثلاثية أو تفوقها .

ثلاث دول كان يزداد استعدادهن للعاون على الدفاع عن مصالحهن الخاصة سواء في مراکش أو العراق أو البلقان . وقد كان في هذا التضافر بين الدول الثلاث أمان لهن من خطر اعتداء ألمانيا ذلك الخطر الذي اقترضوا وجوده ، لا عمل أردن به أى عدوان على مركز ألمانيا الراهن في أوربا وفي العالم التجارى . بين أن عين الألمان كانت ترى لهذا التضامن مظهرا أكثر انطواء على الشر والتحرش .

على أن ييلوف كان يعتقد من جهة أخرى أن من الحكمة الحرص على تجنب كل ما من شأنه أن يدل على التهيج أو القاق . وهذا يتفق مع خلقه السياسى الذى كان يقتضيه أن يتسم للوقف الأليم . كان يوافق على أن تملك ألمانيا أكبر قوة ممكنة للدفاع لكنه كان يرى أن تعمل ألمانيا لهذا في هدوء . وكان يميل إلى الأخذ برأى مترنيخ سفير ألمانيا في لندن في أنه ينبغي أن لا توصل ألمانيا الباب في وجه كل مقترح للانجليز لوضع تدبير ما يدره الشر الذى تنطوى عليه المنافسة البحرية بين انجلترا وألمانيا .

كان أيضا يعتقد أن تكون الوفاق الثلاثى جعل من الأذى والاهم أن تقف ألمانيا ثابتة تظاهر حليفها النمسا « فان حليفنا النمسا والمجر مهددة كما نحن مهددون بهذه العصبية الجديدة وبخاصة لأن الاهواء والدسائس الموجهة ضد كيان المملكة الثنائية بالذات تثير في الأمم الأخرى هواجس تجعلها تتوقع من الخارج ضربة قاضية . فالإخلاص في التعاون مع النمسا والمجر سيبقى ويجب أن يبقى في المستقبل القاعدة الجوهرية التى تقوم عليها سياسة ألمانيا الخارجية ؛ وإذا كان لا يسع ألمانيا أن تدخل في مناقشة مع الدول الأخرى لتحديد التسليح فان عليها أن تتجنب بقدر المستطاع إثارة الغير وأن تكبح في الصحف الألمانية كل تطرف في التعبير . »

## علاقات ألمانيا بفرنسا بين سنة ١٩٠٨ و ١٩١٦

بينما كان الخلاف شاجراً بين إنجلترا وألمانيا من جراء التنافس البحري وبينما كانت ثورة حزب تركيا الفتاة وأزمة البوسنة تؤديان إلى توتر جديد في علاقات ألمانيا بالروسيا استطاعت ألمانيا أن تحسن علاقاتها بفرنسا من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١١ . يبين ذلك أن مؤتمر الجزيرة لم يؤدي إلى تحسن الأحوال في مراکش تحسناً مرضياً إذ ثار مولاي عبد الحفيظ على أخيه السلطان بعد إذ تجمع حوله عدد كبير من الأنصار والزعماء الذين كانوا ينقمون على الفرنسيين والأسبان مجهوداتهم في حفظ النظام . وقد قتل في تلك الثورة طبيب فرنسي أتاح مقتله للفرنسيين مناسبة لاحتلال بعض الأراضي المراكشية الواقعة على مقربة من الحدود الجزائرية في ربيع سنة ١٩٠٧ . وتلا هذا الاعتداء اعتداءات أخرى على الأوربيين حملت الفرنسيين على إرسال جنود إلى الدار البيضاء في شهر أغسطس وعلى وضع شرطة منهم في موانئ أخرى على الساحل الغربي . وقد جعل السلطان يفقد سلطته شيئاً فشيئاً حتى أجلى عن عاصمته إلى رباط الواقعة على الساحل وأعلن أنصار مولاي عبد الحفيظ خلعه .

كل ذلك وييلوف والامبراطور ممتنعان عن أي تعرض جدي لاجراءات الفرنسيين وإن كان النفوذ الألماني قد ساعد على اضطراب ما بين السلطانيين المتنازعين بعد إذ بات ييلوف والامبراطور يريان أن سياسة ألمانيا في مراکش فيما مضى من الزمان قد أدت إلى توطيد الوفاق الانجليزي الفرنسي . وقد وقع حادث الدار البيضاء بينما كانت المفاوضات دائره للاتفاق على الشروط التي يتنازل بمقتضاها السلطان عبد العزيز لأخيه مولاي عبد الحفيظ فكاد هذا الحادث أن يؤدي إلى قطع العلاقات بين فرنسا وألمانيا . وتفصيله أن القنصل الألماني في الدار البيضاء حاول أن يساعد في يوم

٢٥ سبتمبر سنة ١٩١١ ستة من جنود الفرقة الأجنبية الفرنسية على الفرار من الجيش على ظهر باخرة ألمانية . لكن ولاية الأمور الفرنسيين قبضوا عليهم وعاملوهم وسكرتير القنصل وجندياً كان معهم معاملة سيئة بعض الشيء . وقد اتهم القنصل بتجاوزه حدود واجباته كما اتهم الألمان ولاية الأمور العسكريين الفرنسيين بالاعتداء على حقوق القنصلية . ودار الأخذ والرد أياماً في صحف البلدين ثم عرض النزاع للتحكيم فتقرر أن الفريقين مخطئان إلى هنا انتهى الحادث وارتاح الفريقان لهذه النهاية حتى لا يضاف عامل جديد إلى حالة القلق التي كانت سائدة في أوروبا وقتئذ من جراء الثورة التركية وأزمة البوسنة . ولقد أبدى الامبراطور غليوم بصفة خاصة منتهى الحكمة في سبيل الوصول إلى حل ودي وكان قد أعرض عن سياسة ييلوف وهولشتين، في مراكش فجعل ينتقدها بشدة وأصبح يرى أنه لا سبيل إلى منع فرنسا من بسط نفوذها على مراكش إلا بامتناع الحسام . وفي ٤ أكتوبر أخطر الامبراطور وزارة خارجيته بأن ألمانيا يجب أن تنسحب بشرف قبل قوات الأوان وأن تبادر إلى التفاهم مع فرنسا على الرغم من حادث الدار البيضاء . وبعد يومين كتب إلى ييلوف مظهراً ألمه من ضم النمسا لأقليم البوسنة ذلك الضم الذي فاجأه ويقول إنه ينبغي نظراً لتلك الظروف أن تحل هذه المسألة المراكشية السيئة حلاً حاسماً سريعاً إذ لا يرجى منها فائدة ما . « فمراكش ستؤول إلى فرنسا على كل حال فلنعمل على الخروج من هذه الورطة بشرف لينتهي هذا الشجار مع فرنسا بعد أن أثرت مسائل خطيرة تتطلب الحل ، وقد أجاب ييلوف على هذا بالموافقة لكنه اشترط أن لا يرى الفرنسيون هذا التهافت من ألمانيا على الانسحاب واضحاً خشية أن لا تعوضها منه شيئاً

وهكذا سرعان ما وافقت ألمانيا على الشروط التي وضعها الفرنسيون وكانت موافقة لهم جداً؛ وهي شروط ارتقاء مولاى الحفيظ لعرش مراكش .



وفي الوقت نفسه أبلغ شين وزير الخارجية الألمانية جيل كامبون سفير فرنسا في برلين أن الوقت قد حان لأن تتصافى الدولتان في صدد المسألة المراكشية وأن هذه هي رغبة الامبراطور غليوم . وأعقب هذا التبليغ مفاوضات أسفرت عن الاتفاق الفرنسي الألماني المعقود في ٩ فبراير سنة ١٩٠٩ . وقد وعدت فرنسا فيه بمعاملة ألمانيا في الشؤون الاقتصادية على قاعدة المساواة مصرحة كما كانت تفعل إلى ذلك الحين باحترام استقلال مراكش وسلامة أراضيها . واعترفت ألمانيا بما لفرنسا من مصالح سياسية خاصة في المحافظة على السلم والنظام ووعدت ألا تتعرض لها مع تصريحها بأنها لا تسعى في مراكش إلا إلى أغراض اقتصادية بحتة . وقد جرت المفاوضات النهائية بسرعة زائدة ولعدة أسباب : فقد كانت أزمة البوسنة قد أخذت في الاشتداد في صورة خطيرة جعلت من المرغوب فيه تسوية المسألة المراكشية من جهة . ومن جهة أخرى كان ييلوف قد أخذ بفكرة السفير الألماني في إنجلترا وهي وجوب التساهل حيال هذه الدولة بتعديل برنامج ألمانيا البحري واقتضاؤها منفعة سياسية تكافئ هذا التساهل كأن تتبادل معها بعض المستعمرات أو تحصل منها على وعد بالتزام الحياد إذا نشبت حرب أوربية . وكان قد اتصل ييلوف أن وزير إنجلترا المفوض في طنجه تلقى تعليمات بأن يخلق المتاعب بين الفرنسيين والألمان؛ وكان واثقاً بأن الإنجليز لن ينوا عن ترويج الدعاية في باريس ضد الألمان ما داموا على انزعاجهم من سرعة ألمانيا في إنشاء الدردنوطات . فلكى يسوى هذا كله أبدت ألمانيا رغبتها في مضافة فرنسا نهائياً في صدد المسألة المراكشية .

وسبب أخير لتلك السرعة التي عقد بها الاتفاق الفرنسي الألماني هو انه كان قد تقرر أن يزور الملك إدوارد برلين في يوم ٩ فبراير فأحب ييلوف أن ينشر الاتفاق قبل وصوله حتى لا يتسرب إلى الأذهان أنه كانت لأدوارد السابع يد في تحقيقه . وقد قوبل الاتفاق بالابتهاج في الصحف

الفرنسية وهنا السير غراي والسير هاردينج الكونت ييلوف معربين عن سرورهما بأن تسوى هذه التسوية الموقفة مسألة كانت مصدرا لقلق إنجلترا الدائم لارتباطها بالوفاق الودي الذي يحتم عليها مساعدة فرنسا سياسياً. وقد سارع الامبراطور إلى الانعام بنشان النسر الاحمر على السفير الفرنسي في برلين ، وأصدر وزير الخارجية الألمانية إلى الوزير الألماني في سراكش تعليمات بأن يتعاون مع الفرنسيين من كل قلبه وأن يتحاشى كل خلاف معهم ثم أوصاه باتباع نصوص الاتفاق الجديد بولاء تام . ومع ان الاتفاق السالف لم يوث كل الثمرات التي علقها عليه الفريقان إلا انه ساعد على تحسين العلاقات بين البلدين الى أن نشأت في ربيع ١٩١١ اضطرابات جديدة في سراكش أدت إلى زحف الفرنسيين على فاس وكانت سبباً لارسال المدفعية الألمانية إلى ثغر أغادير على سبيل التهديد .

## علاقات المانيا بالروسيا بين ١٩٠٨ ١٩١٦

اذا كان قد لاح لألمانيا أن الاتفاقية المعقودة بين روسيا وانجلترا في سنة ١٩٠٧ قد حوات الأولى عن الصداقة القديمة التي كانت تربط آل هوهنزرن بآل رومانوف فانها في الواقع لم تؤثر بادية الامر تأثيراً خطيراً في علاقات البلدين ؛ فتمد كان ايزفولسكى لا ينى عن التأكيد بأنه لم يقصد بالاتفاقية إلا إلى تصفية المنازعات مع إنجلترا في الشرق الأوسط وانها ليست موجهة ضد ألمانيا أو عدائية لمصالحها . ولما كانت مصالح روسيا تلوح منسبة على إيران فقد عنيت ألمانيا بأن لا تخاشنها في تلك المنطقة حتى انها ترددت في إجابة فارس إلى ما طلبته في سنة ١٩٠٦ من إنشاء بنك ألماني في طهران أملا في دفع تعديت روسيا ، واطحرت ايزفولسكى بأنه ليس لها أى مطمع سياسي في إيران . وهذا ما حدا بايزفولسكى إلى أن يقترح على ألمانيا في أوائل سنة ١٩٠٧ أن تعقد مع روسيا اتفاقاً تكف روسيا بمقتضاه عن

معارضتها لاتمام سكة بغداد الحديدية في مقابل اعتراف ألمانيا بتفرد روسيا بالشئون السياسية والعسكرية والاقتصادية شمالي إيران . وقد لبث ايزفولسكى يفاوض في عقد مثل هذا الاتفاق طيلة فصل الربيع وفي أوائل فصل الصيف سنة ١٩٠٧ حيث كان يفاوض إنجلترا في نفس الموضوع محاولا الايقاع بين الدولتين . فلما أن وصل إلى الاتفاق مع إنجلترا أهمل محادثاته مع برلين واثقاً بأن معارضة روسيا لسكة حديد بغداد ستظل قائمة بطبيعة سياسة السير غراى التي تحتم أن تكون كل مفاوضة تجرى بشأنها بين الدول الأربع واذ ذاك ترى ألمانيا نفسها وحدها بلا نصير أمام دول الوفاق الودى الثلاث . هذا في حين ان ألمانيا كانت واثقة بأن مطامع روسيا في إيران ستؤدى بها إلى الاصطدام بإنجلترا إن عاجلا وإن آجلا

وفي سنة ١٩٠٨ أخذت العلاقات تتوتر بين ألمانيا وروسيا إذ كان ايزفولسكى يعتقد أن مخالفة فرنسا وإنجلترا تضمن له عطفهما وتمكنه من أن يطلب فتح البواغيز للبوارج الروسية . ولما كانت ألمانيا قد صرحت مرارا بأنها لا تمنع في ذلك فلم يبق أمامه سوى النمسا وهذه يمكن ارضاؤها بأغرائها بضم البوسنه والهرسك إلى أملاكها . وقد بادر البارون ايرنتال وزير الخارجية النمسوية إلى قبول الاقتراح وحقق من المساومة ذلك الجزء الخاص بالنمسا . وإذ يستبين ايزفولسكى أن خطته القاضية بفتح البواغيز لم تصادف قبولا لدى فرنسا وإنجلترا وأن وضع سكان البوسنه الارثوذكس تحت اشراف النمسا الكاثوليكية قد أثار غضب أنصار الجامعة السلافية عليه كما أغضب صربيا التي كانت تمنى نفسها بالاستيلاء على هذا الاقليم كخطوة في سبيل انشاء صربيا الكبرى ، اجتهد في أن يلغى تلك المساومة التي جرت في بوخلاو متذرا بأن أى تغيير في معاهدة برلين المعقودة في سنة ١٨٧٨ كذلك الذى حدث بضم النمسا لاقليم البوسنه ينبغى أن يعرض أولا على مؤتمر من جميع الدول العظمى . لكن النمسا رفضت هذا الاقتراح وأخذت هي وصربيا تعبثان

جيوشهما الواحدة ضد الأخرى .

ولقد أبدى الامبراطور غليوم سخطه على الطريقة الفجائية التي استعملها ايرتال في ضم البوسنه ، لكن ييلوف أبان لمولاه أن ألمانيا لا يسعها أن تحبس عن النمسا حليفها المخلص الوحيده تأييدها في الأمر الواقع . وهكذا أيدتها في رفض عقد المؤتمر وعجلت بأرضاء إنجلترا وفرنسا بعقد الاتفاقية الخاصة بمراكش في فبراير سنة ١٩٠٩ بينما كانت النمسا وصرىا تبدوان في تلك الاثنا . على شفا الاشتباك في حرب ، تعتمد أولاهما على مساعدة ألمانيا وتعول الثانية على مساعدة روسيا . لسوء حظ ايزفولسكى لم تكن روسيا قد أفاقت بعد من اعيائها ومن اختلال شئونها العسكرية الذى أعقب الحرب مع اليابان ؛ فلم يكن يسعها تأييد اقتراح عقد المؤتمر بالقوة . هذا الى أن فرنسا لم تكن بعد على استعداد لتأييد مطامع روسيا في البلقان ؛ أما إنجلترا فلم تقدم للروسيا مساعدة تذكر .

وقد اقترحت ألمانيا للتفادى من وقوع الحرب بين النمسا وصرىا تسوية معينة تخرج ايزفولسكى من الورطة التى زج بنفسه فيها وطالبه بأن يقبلها أو يرفضها صراحة فأجابه ايزفولسكى بالقبول وانتهت أزمة البوسنه بسلام . وليس شك في أن الأزيمة انتهت من جهة بفوز سياسى للنمسا ولألمانيا على السواء وبأذلال روسيا وصرىا من الجهة الأخرى . وقد تركت في نفس الأخيرتين شعورا مؤلما كالذى تتركه المذلة دائما في النفوس . فان ايزفولسكى لم يغنفر للبار ، ن ايرتال تعجيله بضم البوسنه دون استشارته ثم رفضه فكرة عقد المؤتمر فيما بعد . وقد زعم أن ايرتال نقض عهده في هذين الأمرين وأنه لهذا ليس « بالجنتملان » . لكن ايرتال نفى هذه المزاعم وهدد بنشر الوثائق التى تبودلت في هذا الصدد فبادر ايزفولسكى إلى ألمانيا يريجوها ان تحول دون النشر وإذ ذاك امتنع وزير الخارجية النمسوية عن تنفيذ وعيده عملا بنصيحة ألمانيا .

وقد ظهر هذا العداء الشخصي بين ايزفولسكى وايرتال على صفحات فورتنيتلى ريفيو فتراشقا بالتهم وحققت كل منهما على الآخر وبات من المستحيل عليهما فى خلال سنة تقريبا أن يتعاملا سياسياً . وقد تمكن ايزفولسكى فى تلك الأثناء من عقد اتفاقية سرية مع ايطاليا فى راكونيجى تعهدت ايطاليا بمقتضاها بأن تنظر بعين العطف إلى مصالح روسيا فى البواغيز فى مقابل وعد كهذا من جانب روسيا فيما يتعلق بالمصالح الايطالية فى طرابلس . وبذا كان ايزفولسكى يفوز بموافقة ايطاليا على ما لم يفز به فى مساومة بوخلاو . كما كانت ايطاليا بذاك تخطب ود دولة أخرى خارج المحالفة الثلاثية .

ولم تجر العلاقات بين ايزفولسكى وايرتال مجراها السياسى العادى إلا فى أوائل سنة ١٩١٠ حيث أشيع أن بينهما تقرباً بل اتفاقاً سرى . وقد أحدث هذا شيئاً من الهلع إذا خشيت بلغراد أن تكون روسيا بسبيل ترك صربيا تحت رحمة النمسا ، كما خشيت الأستانة أن يكون تقسيم تركيا قيد الفكر . بل أن برلين نفسها خافت أن يكون ايزفولسكى يحاول بمساعدة فرنسا وانجلترا واغرائهما بذر بذور الشقاق بين برلين وينا . ولقد لبث ايزفولسكى أسابيع يحاول حمل ايرتال على توقيع اتفاق بالاحتفاظ بالحالة الراهنة فى البلقان على أن يؤكد الاتفاق بتبليغه إلى الدول العظمى . ومع استعداد ايرتال لعقد اتفاقية خاصة مع روسيا فانه لم يكن يرى ثمة ضرورة لأبلاغها إلى الدول . وساء فهم كليهما للآخر وازدادت المهاترة بينهما حتى أفضى الأمر فى النهاية إلى أن نشر ايزفولسكى دون موافقة ايرتال بعض المراسلات التى تبودلت بينهما فجاء هذا منه ضغثاً على إباله وازداد الخلاف الشخصى بينهما استعاراً . على أن ايزفولسكى عمد فى تلك الأثناء إلى مناورات أخرى لتحقيق مطامع روسيا فى البواغيز وتكوين عصبة فى البلقان تحت اشرافها .

لم يكن لازمة البوسنة فى علاقات ألمانيا بالروسيا نفس الأثر السىء الذى تركته تلك الأزمة فى علاقات روسيا والنمسا ، فان وزارة الخارجية الروسية

على الرغم من أن صحف الجامعة السلافية كانت تحمل أكبر الضغن لألمانيا لا للنمسا كانت تعلم حقيقة الأمر في تدخل ألمانيا فلم تسخط على برلين سخطها على فينا .

وفي شهر سبتمبر مر ايزفولسكى ببرلين ومع أنه كان يسافر متنكرا فقد عني بأن يتناول العشاء مع بيتمان هولفيج والتعرف إلى المستشار الألماني الجديد . وقد تحدثا في الموقف السياسي العام ماضيه وحاضره ومستقبله حديثاً صريحاً ودياً انطلق في غضون ايزفولسكى يشكو من ارتتال ويعدد كعادته ما يمضه من ناحيته . وكان ايزفولسكى يأمل أن تصد ألمانيا ارتتال عن اتباع سياسة في البلقان تنطوي على العداء وعدم الاكتراث ، وقد أكد لبتمان أنه لم يخطر للروسيا مطلقاً أن تسلك مسلكاً عدائياً نحو ألمانيا وساعد على هذه العلاقة الودية ما كانت ألمانيا ماضية فيه من الابتعاد عن كل تدخل سياسي في ايران حيث كانت الثورة والاضطرابات سبباً لتنازع روسيا وانجلترا على المنافع تنازعا شديدا . وقد كافت روسيا ألمانيا على غضها النظر عن سياسة خنق ايران بتساهلها معها في سكة بغداد الحديدية كما تدل اتفاقات بوتسدام لكنه قبل الخوض في هذا التساهل يصح أن نقول كلمة عن استقالة بيلوف وعن الرجال الذين انخرطوا في سلك وزارتي الخارجية الألمانية والروسية في ١٩٠٩ و ١٩١٠ فقد كانت مصائر العالم بأيديهم في يولييه ١٩١٤ عند ما خلف فون بيتمان هولفيج بيلوف في قلهلشتراسه في يولييه ١٩٠٩ وأصبح كيدرلن فيختر وزيرا للخارجية بعد ذلك بقليل كان يلوح أن مركز ألمانيا الدولي قد تحسن كثيرا ، فالمعاهدة التي عقدها بيلوف مع فرنسا في ٩ فبراير ١٩٠٩ بشأن مراكش ، والفوز السياسي الذي أحرزته النمسا في مشكلة البوسنه جعل كلاهما برلين تتنفس الصعداء ، فقد بدا لها أن الوفاق الثلاثي يملكه شيء من الضعف الظاهر ، ولاح خطر التطويق أخف ازعاجا لها مما كان ، وقد أعلن بيلوف في يوم ٣ يونيه ١٩٠٩ في اجتماع سرى حضره

تربتس ويتمان هولفيج ومترنيخ ومولتكه الذي جاء من لندن خصيصاً لهذا الغرض ، أن ألمانيا لم تكن في خلال العشرين عاماً الماضية مسموعة الكلمة مهية الجانب في كافة أنحاء المعمورة كما هي الآن ثم قال : ولعل السحابة الوحيدة التي تشوب الأفق السياسي هي الحالة القائمة بين ألمانيا وانجلترا . ولما كانت هذه الحالة قد بدت إذ ذاك كالعاصفة المرعدة فقد عقد هذا الاجتماع خصيصاً للنظر في الموضوع ، وكان الإمبراطور قد لام مترنيخ في شهر ابريل لوماً شديداً لأنه أفهم انجلترا أن ألمانيا لا تفكر في زيادة أسطولها في المستقبل ثم ظهر إذ ذاك أن تربتس والإمبراطور يفكران في سن قانون بحري اضافي لسنة ١٩١٢ . وكان رد مترنيخ على هذا اللوم أن ما فعله لم يكن إلا بناء على اوامر مولاه الصريحة وانه لسوء الحظ لم يعلم قبل ذلك ان في نية تربتس زيادة الأسطول زيادة جديدة . وقد ختم كتابه بكلمات توجب أطيب الثناء على خلقه وأشد الانحاء على الإمبراطور وتربتس . قال « إني لأعرف حق المعرفة أني حين قمت بواجبي فأبدت مراراً وتكراراً ان المسألة البحرية تكدر علاقتنا بانجلترا قبل غيرها من المسائل ، قد وقفت موقفاً لا يروق مولاي صاحب الجلالة وحملت وزير البحرية على الطعن عليّ في أحاديثه مع جلالته ، وطبيعي أن لايسر وزير البحرية ارتباط برنامجنا الأنشائي وعلاقتنا بانجلترا أحدهما بالآخر ، بيد أني لا كذب على التاريخ إذا أناضمت تقاريري غير هذا ، ولست بمستطيع أن أخالف ضميري ولو في سبيل رضاء مولاي . وهل اذا لبثت أبعث بتقاريرى مطمئنة سارة حتى نجد أنفسنا بغتة في حرب مع انجلترا ، أكون قد خدمت جلالته ؟ »

وفي اجتماع ٣ يونيه هذا دافع ييلوف عن سفيره مترنيخ من انتقادات تربتس والإمبراطور التي لا يستحقها وقال إن أول واجب علي من يمثل جلالة الإمبراطور في الخارج أن يروي الحقيقة وأن يصور الحالة كما هي . وهو - أي ييلوف - سوف يؤيد على الدوام كل سفير يفعل هذا بغض النظر

عما إذا كانت الحقيقة المجردة بما يسوء سماعها أو يسر . وليس من الخير أن تلوم البارومتر إذا هو ذلك على طقس ردىء .

وقد اقترح الهريتمان وزير الداخلية في سياق المناقشة عقد اتفاق مع إنجلترا على أساس تخفيض سرعة ألمانيا في انشاء البوارج وجعلها ثلاثا بدلا من أربع في العام على شريطة أن تتقدم إنجلترا باقتراحات سياسية جوهرية ، لكن تربتس عارض كل حل وقال إنه إذا كان لامناص من أن تخفض ألمانيا سرعتها من أربع بوارج الى ثلاث في العام من سنة ١٩٠٩ الى ١٩١٢ فلتعوض هذا في السنوات التالية فتبنى ثلاث سفن في العام بدلا من اثنتين حتى يتم لها في سنة ١٩١٥ كل العدد المراد من الدریدنوط . ومع قبول تربتس لما اقترحه يتمان من تخفيض السرعة فإنه رفض أن يضع أو يحدد أية صيغة لتنفيذها ما لم تقدم اقتراحات جوهرية من جانب إنجلترا . وقد ثبت هذا همة مترنيخ وييلوف والراجح انه كان له كبير دخل في استقالة ييلوف في ٢٦ يونه ، تلك الاستقالة التي قبلها الامبراطور في ١٤ يوليه . والسبب الظاهر لاستقالة ييلوف هو رفض ائتلاف المحافظين ورجال الكنيسة الموافقة في ٢٤ يونه على مشروع القانون المالي الجديد الذي تضمن فرض ضريبة فادحة على الميراث ، وكانت تقتضيه المطالب الباهظة الخاصة بالتسليحات . وقد أتاح هذا الرفض لييلوف عذراً حسناً للانسحاب من منصبه وباعثاً لم ير فيه الجمهور شيئاً من الغموض فقبله على أنه السبب في تخلي ييلوف عن منصب المستشار الذي ظل يشغله عشر سنوات حافلة بالعمل المضنى . لكن من يطلع على جهاده الطويل في سبيل الدفاع عن رأى مترنيخ القاضي بتحديد الانشاء البحري ومناهضته لمسلك تربتس الذي كان يأبى في حزم كل تساهل ذي شأن ، ومن يقرأ بصفة خاصة محضر اجتماع ٣ يونية ١٩٠٩ السرى والوثائق المتصلة به يقع في نفسه أن معارضة تربتس والامبراطور للساعى التي كانت تبذل للوصول مع إنجلترا الى اتفاق بحرى كانت من أكبر أسباب



استقالة ييلوف . فهو كترنيخ لم يكن يرى أن يخالف ضميره ولو في سبيل  
ارضاء الأمبراطور . لكنه لما كان هذا السبب يدل على الانقسام داخل  
الوزارة ويتناول نفوذ الأمبراطور السياسي وعلاقات البلاد بانجلترا ، فقد  
اقتضى الأمر ألا يشار إليه علانية . وهكذا ترك ييلوف العالم يعتقد أنه اختلف  
مع الأمبراطور لسبيين : الأول لأن الريخستاج لم يوافق على مشروع القانون  
المالى والثانى لأن الأمبراطور لم يرضه دفاعه الضعيف عنه فى مسألة الديلى  
تلغراف التى وقعت قبل ذلك ببضعة أشهر . فاذا كانت المسألة البحرية هى  
التى بعثت ييلوف على الاستقالة كما أبدينا فانه ليس فى كافة ما قام به من عمل  
أثناء توليه منصب المستشار ما هو خير من الصورة التى ترك بها منصبه العظيم .  
لقد قبلت « استقالة ييلوف المرصعة » فى ١٤ يوليه فقد انعم عليه  
الأمبراطور بنشان النسر الأسود وهو أرفع نشان أنعم به الأمبراطور .  
وكان يستحقه لأنه لم يتفق لمستشار ألمانى أن كان له هذا المركز الشخصى  
الصعب وتخلص منه بهذا الشكل الباهر . فقد كان رجلا سهلا حلما دمث  
الخلق حاضر البديهة ، عرف كيف يعالج أكثرىات الريخستاج بمثل المهارة  
التى صانع بها الأمبراطور ، وقد كان على شىء من جلد تربتس وبعد نظره  
فى تحاشى ما يورطه لكنه كانت تنقصه عزيمة الأmirال القوى ووضوح  
غرضه واعتماده المطلق على نفسه . وقد آثر ييلوف فى تحقيق أغراضه طرقاً  
أسهل مأخذاً واستخدام لساناً ذرباً . ولجأ فى مختلف المناسبات بحذقه وذكائه إلى  
إخفاء الحقيقة كلها أو إلى إحاطتها بالغموض . وكان خبيراً بمواطن الفكاهة  
والمصانعة يعرف كيف يجرّد خصومه ( أما أعداؤه فكانوا قليلين أو فى حكم  
العدم ) فاذا خطب أو كتب شاق القارىء ما فى خطبه أو كتبه من أدب . يخلع  
على الرأى الذى يبدية ثوباً من الاستعارات الممتعة والتفاؤل الذى كان يتظاهر  
به فيفوت رأيه على منتقديه ويخرسهم على الرغم من صدق انتقادهم . وقد كان  
أن عرض سفينة الدولة لتيارات خطيرة فى اللحظة التى تسلم فيها بيتمان الدفة .

وهو وهولشتين مسئولان في الغالب عن رفض اليد التي مدها تشمبرلين وعن الخطط السياسية التي أفضت إلى تكوين الوفاق الثلاثي. وقد أظهرت كارثة ١٩١٤ عقم أعماله وان كانت قد تبدت منها ألمانيا الإمبراطورية في ثوب زاه، وجاوزت شهرته القدر الذي يستحقه وسيد كره التاريخ مستشاراً مضيقاً للفرص. وقبيل استقالة ييلوف بأشهر أخرج من ظلمات بوخارست رجلاً مجهولاً يعده الكثيرون خير سياسي أنجبته ألمانيا بعد بسمارك. هذا الرجل هو كيدرلن فيختر الذي كان على جانب من عزيمة المستشار الحديدي الماضية ويتبع طرقة المباشرة؛ إلا أنه كانت تعوزه إحدى الصفات البارزة التي كانت سر نجاح بسمارك السياسي ألا وهي استبانة وجهة نظر الخصم والعمل على التوفيق بينها وبين وجهة نظره إلى أقصى حد ممكن.

كان كيدرلن خفيف الروح، رقيق الحاشية، جياشاً، فكانت لذلك تنقصه القوة الأدبية التي أسلست لبسمارك قياد الإمبراطور الشيخ والشعب الألماني. وكان سياسياً بمهنته محنكا قوى الملاحظة بما أتيح له من الفرص. وكان أول التحاقه بوزارة الخارجية في سنة ١٨٧٩ كاختصاصي في الشؤون التجارية ثم خدم سكرتيراً للسفارة في بترسبورج وباريس والآستانة (١٨٨١ - ١٨٨٨) ثم ظل عشر سنوات يرافق الإمبراطور في أسفاره مندوباً عن وزارة الخارجية. ثم غضب عليه الإمبراطور لما نمي إليه من فكاهاته فأبعده إلى بوخارست حيث لبث وزيراً مفوضاً من سنة ١٩٠٠ إلى ١٩١٠ وهناك وطد العلاقات بين رومانيا والتحالف الثلاثي. وكثيراً ما كان ييلوف يلجأ إلى نصائحه؛ وقد دعاه في شتاء ١٩٠٨ - ١٩٠٩ إلى برلين ليحل محل وزير الخارجية «شون» في أثناء مرضه. وإلى يرجع الفضل في عقد الاتفاق الخاص بمراکش وتسوية مسألة البوسنة أكثر مما يرجع إلى ييلوف. فلما عين شون سفيراً في باريس (يونيه سنة ١٩١٠) استدعى الهرفون تيمان كيدرلن فيختر إلى برلين وعهد إليه بوزارة الخارجية لأنه كان بحاجة إلى سياسي قوى

ماهر يستند اليه . وظل فيها الى أن أدركته الوفاة فجأة في نهاية سنة ١٩١٢ .  
وقد كانت سياسة كيدرلن تقضى بصد شكيمه النمسا والاحتفاظ  
بالعلاقات الودية مع روسيا والتفاهم مع انجلترا على المسألة البحرية والتنازل  
عن كل دعوى في مراكش مقابل تعويضات كافية في الكونغو الفرنسية .  
أما الهرفان تيمان هولفيج الذي تبوأ منصب المستشار بعد ييلوف فقد  
أوجد على الرغم من افتقاره الى ذكاء سلفه جوا مشعباً بروح الثقة العامة  
بفضل مثابرتة على العمل وإخلاصه واستقامة خلقه . وهى صفات جعلته  
موضع احترام جميع من عاملوه فى الداخل أو الخارج . وقد كان صديق  
الامبراطور ورفيق صباه ، تقلد مناصب القضاء ثم لم يلبث أن وصل بقدرته  
وانكبابه على العمل الادارى إلى منصب وزير الداخلى . وهو منصب كان  
أهلاً له وكان أكثر إلماماً بشئونه منه بشئون وزارة الخارجية . على أنه  
ما كاد يتبوأ منصب المستشار حتى شرع يتعرف إلى سفراء ألمانيا ويختلط  
برجال السلك السياسى ثم أكب على دراسة وثائق وزارة الخارجية  
واستظهارها . أما علاقته بالامبراطور فقد طلت ودية صميمة .

فاذا كانا معا فى برلين ركبا أو مشيا سويا فى كل يوم تقريبا وتناولا  
بالحديث كافة الشئون السياسية التى كان الامبراطور يظهر فى معالجتها من  
الانصاف بقدر ما يظهر من التحيز . وكان يتيمان من الطامحين إلى المثل العليا  
ومن الراغبين أشد الرغبة فى سلام أوروبا ولذا كان يبغض من صميم قواده  
زيادة التسليح البحرى . وكان يؤمل التفاهم مع انجلترا على المسألة البحرية  
ويعتقد بإمكان الوصول اليه بتخفيض سرعة ألمانيا فى الانشاء وتساهل  
انجلترا سياسياً فى صدد سكة حديد بغداد وتعهدا بالتزام الحياد بقدر  
ما استطاع . وقد كان الانجليز مقتنعين بإخلاصه فى هذه المسألة حتى أن السير  
غراى أعلن فى سنة ١٩١٢ بعد اخفاق لجنة هولدين أن أى اختلاف يجد  
بين ألمانيا وانجلترا لن يصل الى درجة الخطر مادامت دقة سياسة ألمانيا فى يد

« المستشار » وهي عبارة غضب لها الأمبراطور وقال في الرد عليها « إنها تدل على أن غراي لا يدري من هو السيد المطاع هنا ولا يعرف أتى أحكم . وهو يعين لي من ينبغي أن أستوزره في حالة عقدي اتفاقاً مع إنجلترا ، .

ولقد كان نفور بيتان من زيادة التسليح ورغبته في التساهل بعض الشيء في المسألة البحرية سبباً لاصطدامه بالأمبراطور حتى لقد قدم استقالته مرتين ، لكن الأمبراطور كان يأبى التخلي عنه لفرط ثقته بمتانته أخلاق مستشاره ولعله بمبلغ ماله من الاحترام في خارج ألمانيا باعتباره من الساعين الى السلام . وقد يرى البعض أنه كان خليقاً بيتان أن يصر على استقالته حينما لم يستطع حمل الأمبراطور على العمل بنصيحته وأنه كان جديراً به أن يجعل ولاءه لضميره فوق ولائه لأمبراطوره ؛ لكن بيتان كان كما كتب الى كيدرلن في رأس سنة ١٩١٢ يقول «حقاً إن هذه السياسة (زيادة الضرائب للاستزادة من التسليح) مما لا أستطيع الجرى عليه . وهذا ماتعله . لكنني أسأل نفسي مرة بعد أخرى ألا تزداد الحالة خطراً اذا أنا استقلت الآن ؟ ، لقد كان حقاً إخلاصه لبلاده لا إخلاصه لشخص الأمبراطور هو الذي حمله على التساهل والبقاء في منصبه . وكان من سوء حظ بيتان وألمانيا أن يده لم تكن طليقة تماماً في تنفيذ الخطط السياسية التي كان يجبها ، فقد كان على الدوام يناهض نفوذ موظفي الجيش والبحرية الذين كانوا يدخلون على الأمبراطور رأساً في أى وقت بينما كان سفراء ألمانيا ووزراء الخارجية لا يستطيعون في العادة الادلاء بأرائهم اليه إلا بواسطة « المستشار المدنى » .

وحدث في وزارة الخارجية الروسية أيضاً تغيير حين ضمن ايزفولسكى لنفسه نهائياً في سبتمبر سنة ١٩١٠ منصب السفارة الروسية في باريس وما يتبعه من مرتب سخى ، إذ كان مذ أخفق سعيه في فتح البواغيز في مساومة بوخلاو ومذ أسفرت الأزمة البوسنوية عن هذه النتيجة المذلة ، عرضة لحملات أنصار الجامعة السلافية وانتقادات بعض الوزراء ، فكان يسره أن يفر في الحال

من وابل هذه الانتقادات التي كانت تنهال عليه بأن يستبدل بمنصبه في وزارة الخارجية الروسية سفارة باريس . لكنه لم يكن يود أن يستقيل عقب أزمة البوسنة مباشرة ولم يكن القيصر يجد الشخص اللائق لأن يخلفه . ولذا بقي ايزفولسكي وزيرا للخارجية سنة ونصف سنة بعد تلك الأزمة وان كان قد قضى بضعة أشهر خارج بلاده . وقد قام خاريفوف بأعماله في غضون غيبته في شهرى ابريل ومايو سنة ١٩٠٩ فلما عين سفيرا في الأستانة حل محله سازونوف . وكان لسازونوف هذا خلق زئبقى وكان عصبي المزاج ويقال إنه أراد في حدائته أن يلتحق بالدير ليكون راهبا لكن ضعف صحته حال دون تحقيق أمنيته هذه فانصرف عنها إلى السلك السياسى . وفى يونيه سنة ١٩٠٤ عين مستشارا لسفارة لندن حيث لبث ثلاث سنوات قويت فيها ميوله نحو إنجلترا . ثم انتقل فى سنة ١٩٠٧ إلى الفاتيكان فسلخ فيه عامين استدعى بعدهما فى سنة ١٩٠٩ إلى بطرسبورج ليشغل منصب مساعد لوزير الخارجية ايزفولسكى . ولذا لم يكن اختياره خلفا لاي زفولسكى أمرا غير طبيعى فقد أوصى به سلفه لأنه لم يكن هناك من هو أخلق منه بهذا المنصب .

وكان سازونوف فى شئون روسيا الداخلية محافظا ومن أشد أنصار القديم فى روسيا ، أما فى الشئون الخارجية فكان من غلاة الوطنيين . ويقال إن شفتيه كانا ترتعشان من شدة التأثير عند ما صرح بأنه لن يستطيع البقاء على قيد الحياة يوما واحدا إذا أصيبت روسيا بهزيمة أخرى كالتى أصابها فى الحرب اليابانية . وقد وصفه السفير الألمانى فى روسيا بقوله إن « وطنيته حامية إلى درجة التطرف ، فاذا تكلم عن حوادث ماضية يظن أن بلاده لم تعامل فيها بأنصاف بدا التعصب على سحنته . ومع ذلك فالتحدث معه أروح للنفس وأدعى إلى الارتياح منه مع ايزفولسكى فهو مؤدب دائما ، يضبط نفسه ، ولا يعنى بالشخصيات » .

كان سازونوف شخصيا ميالا الى ألمانيا اذ كانت جدته ألمانية ومن ثم كانت

علاقاته الشخصية بألمانيا كثيرة . وكان إذا تحدث مع المستشار بيتمان حادته بالألمانية بدلا من الفرنسية . ومع أنه كان من رأى القائلين من رجال بلاط القيصر بوجوب إعادة العلاقات بين ألمانيا وروسيا إلى عهدا السابق فإنه كان ككثيرين من انصار الجامعة السلافية يعتقد أن بسمارك أساء إلى روسيا في مؤتمر برلين كما أساء إليها بيلوف في أزمة البوسنة . بيد أنه كان ميالا إلى التعاون مع ألمانيا راغبا في إعادة الثقة المتبادلة بين البلدين ومن ثم رحب بالزيارة التي كان القيصر قد قرر أن يؤديها للإمبراطور غليوم في بوتسدام في شهر نوفمبر سنة ١٩١٠ .

وسازونوف كبيتمان هولفيج شديد الاخلاص لقضية السلام لكنه كان شديد القلق لأى ازدياد في نفوذ النمسا وألمانيا في البلقان مما عسى أن يعرقل مهمة روسيا التاريخية وهي الاستيلاء على البواغيز وعلى الاستانة أيضا . وقد كان جد حريص على أن لا يغضب صحف الجامعة السلافية ، إذ كان للصحف الروسية على العموم تأثير في سياسة روسيا الخارجية أكثر مما كان يتصور .

وقد كانت صحف الجامعة السلافية هي التي تخيف سازونوف على الدوام في خلال السنوات الأربع التي تلت . فقد دفعته مرارا إلى الاشتداد في تأييد صربيا ومخاصمة النمسا وألمانيا أكثر مما كان هو نفسه يحب . وإلى هذه الصحف يرجع بعض السبب في تبدل خطته السياسية وعدم استقرارها الأمر الذي أتعب فرنسا وإنجلترا كما أتعب ألمانيا على السواء . وفي الواقع لم يثر بين سنة ١٩٠٨ و ١٩١٤ موضوع من الشكوى والجدال ما أثاره بين ممثلي ألمانيا وروسيا نفوذ صحف الجامعتين السلافية والألمانية السيء وأثر هذه الصحف في إهاجة خواطر البلدين .

غير أنه من الخطأ أن يظن أن سازونوف لم تكن له صلة بالصحافة وقد كان يخشى بأسها هذه الخشية ، فإن هناك ما يثبت علاقته الوثيقة بالنوفو

فريميا وغيرها من الصحف الوطنية المتطرفة . فقد كان هو أو مرؤوسوه يزود الصحف ويوعز اليها بما توجهه ضد ألمانيا . فكان بذلك يحرصها على القيام بحملة قومية يستتر وراءها لتبرير السياسة التي يضطره الرأي العام إلى اتباعها . كذلك كان هناك صحفيون أجانب يكتبون لمصلحة الجامعة السلافية ويتلقون في الوقت نفسه مرتبات مالية من وزارة الخارجية الروسية كما كان يفعل « وسلتسكى » مراسل جريدة نوفو فريميا في لندن . فانه فضلا عن المرتبات التي كان يتقاضاها كانت له « فيلا » صيفية في سان بطرسبرج خصه إيزفولسكى بها يوم كان وزيراً للخارجية . وقد كتب هذا في سنة ١٩١١ يقول إن الأموال التي تعطى « لوسلتسكى » لا تضيع سدى . ولذا أوصى بأن لا يحيد خلفاؤه في الوزارة عن خطته هذه . وقد كان هذا الرجل بصفة كونه رئيساً لنقابة الصحفيين الأجانب في لندن ولزياراته المتعددة للمالك المختلفة ومقالاته التي كان يزود بها نوفو فريميا يتتهز كل فرصة لبذر بذور الخلاف بين روسيا وألمانيا وتوثيق العرى بين دول الوفاق الثلاثي .

والآن وقد أوردنا هذه العجالة عن بيتمان وسازونوف والعوامل التي كانت تؤثر في سياستهما نعود إلى سرد ما احتوته مفاوضاتهما في سنة ١٩١٠ المتداخلة في سنة ١٩١١ فنقول ان سفر ايزفولسكى إلى باريس أفسح الطريق أمام القيصر وسازونوف ليعملا على تحسين العلاقات مع ألمانيا ومع أن الامبراطور كان لا يزال يسيء الظن بالروسيا ولا ينفك متهيج الأعصاب مما عده في سنة ١٩٠٧ موقفاً غير ودي ومسلكاً من جهة روسيا ينطوى على الميل نحو الانجليز ، فقد كان بيتمان وكيدرلن فينختر مستعدين لملاقاة الروسيين إلى أبعد من منتصف الطريق عند ما زاروا بوتسدام في نوفمبر سنة ١٩١٠ وكان كيدرلن مستعداً لأن يؤكد للروسيا ان ألمانيا ليست مرتبطة ولا ميالة إلى تشجيع عدة مطامع للنمسا في البلقان ، وأنها لا تسعى إلى أغراض سياسية في الشرق الأدنى اذ هي تعتبر سكة بغداد الحديدية مجرد

مشروع اقتصادى وتريد ألا تصاب تركيا بسوء لمصلحة السلام والحالة الراهنة، وأن هناك مسائل كثيرة لا تتعارض فيها مصالح ألمانيا والروسيا يحسن البحث فيها بصراحة مع التكم، حتى يوضع حد للبهاترة من الجانبين ويعود بذلك الاتصال الودى الذى انقطع فى عهد وجود ايزفولسكى فى وزارة الخارجية. وقد صادفت هذه الآراء قبولا حسناً لدى سازونوف فأعلن أن أزمة البوسنه قد أصبحت فى ذمة التاريخ وأنها لن تؤثر فى سياسة روسيا فى المستقبل وأن هذه لا تطمع فى التوسع وأن كل اهتمامها هو توطيد حالتها الداخلية، وأن اتفاقية سنة ١٩٠٧ المعقودة مع إنجلترا لم يقصد بها إلا إلى ازالة أسباب النزاع فى الشرق الأوسط، وأن إنجلترا اذا سلكت مسلكاً عدائياً نحو ألمانيا فلن تجد روسيا فى جانبها، وأن روسيا وألمانيا جارتان وينبغى أن يعيشا فى سلام.

أما فى صدد إيران فقد صرحت ألمانيا من جديد بأنها لا تسعى إلى غايات سياسية فى تلك البلاد المضطربة وإنما تريد بقاء سياسة الباب المفتوح لرواج تجارتها التى لحقها الضرر من جراء ما فرضته التعريفه الروسية من رسوم على البضائع المارة وبسبب رداءة طرق المواصلات. وقد رد سازونوف على هذا بأن الحالة المضطربة شمالى إيران تجعل من المستحيل على روسيا أن تسحب جنودها ولكن اذا انسحبت ألمانيا من مشروعات السكك الحديدية والمواصلات التلغرافية فى المنطقة الروسية فان روسيا تزيل من طريق البضائع الألمانية إلى إيران ما يعترضها من الرسوم الجمركية المنطوية على التمييز وغير ذلك من العقبات. وقد اقترحت روسيا لتقدم الحالة فى إيران أن تمد خطوطها الحديدية من القوزاق إلى تبريز وطهران ثم إلى خانقين على حدود إيران الغربية ومن ثم تستطيع ألمانيا إنشاء خط يصل بين خانقين وسكة حديد بغداد. وقد فهم يتمان أن روسيا لا تضع العراقيل فى سبيل مد سكة بغداد الحديدية إلى بغداد.



لقد كانت محادثات بوتسدام وديه وصريحة من الجانبين وكان وقع كل من بيتمان وسازونوف في نفس صاحبه حسناً جداً . كانت هذه المحادثات بمثابة خطوة طيبة في سبيل إزالة الشكوك وإعادة المياه إلى مجاريها بين البلدين بعد إذ فرقت بينهما سياسة ايزفولسكى الفعالة الميالة إلى الوفاق الثلاثي ، ومطامعه الحابطة في البلقان . ولما كان جوهر الحديث لم يثبت كتابة فقد وضع بيتمان بياناً عاماً ليصدق عليه سازونوف وليكون قاعدة يستند إليها في الاشارة إلى الموضوع في خطابه المقبل بمجلس الريخستاج . وقد وضع أيضاً تسعة بنود أمل أن يوقعها سازونوف مع تعديلها بما يراه على أن تكون سجلاً مكتوباً لمحادثات بوتسدام أدق من غيره . لكن سازونوف أقام العراقيل إذ أنه لما عاد إلى بلاده خشي فيما يلوح أن تحمل عليه صحف الجامعة السلافية فبادر بدون استشارة ألمانيا بعمل حديث مع جريدة نوفو فريميا فنشرت الصحيفة عن المحادثات رواية بولغ فيها فيما تساهلت ألمانيا للروسيا فيه وقلل بالتالي من أهمية ما تنازلت عنه روسيا لألمانيا ، وقد اعتذر سازونوف لسفير ألمانيا من ذلك بقوله إنه إنما أراد به التفادي من حملة يقوم بها هذا الجانب من الصحافة ضدهم أبدى له أيضاً موافقته التامة على البيان الذي سيستند إليه المستشار الألماني في خطبته التي سيلقيها في الريخستاج . وقد كان في هذا البيان جملة علق عليها كيدرلن أهمية عظمى وهي « إنني يمكنني تلخيص المحادثات الأخيرة بأنها بمثابة تأكيد جديد من جانب الحكومتين بأن لا تشترك إحداهما مع أية عصابة دولية تكون سياستها موجهة ضد الدولة الأخرى » . لكن سازونوف لم يشر بكلمة واحدة لا في حديثه مع القيصر ولا مع الصحافة ولا مع سفيرى فرنسا وانجلترا ، على ما يرجح ، إلى هذا الاتفاق الذي يقيد روسيا بان لا تشترك مع فرنسا أو انجلترا في سياسة عدائية لألمانيا ، ولا شك أنه خشي ما يحدثه هذا من هياج في لندن وباريس .

ولذا كان يراوغ بورتاليس سفير ألمانيا في روسيا كلها حاول هذا حمله على امضاء بيان مكتوب كالبند التسعة التي وضعها بيتان وصاغ فيها النقط المتعلقة بالسياسة العامة والاتفاقات الخاصة بايران وسكة بغداد الحديدية . وآثر في النهاية أن لا يوقع بتاتاً أى بيان يتعلق بالسياسة العامة مؤكداً أن وعود الوزراء الشفوية وخاصة ما وعد به الامبراطور والقيصر أعظم قيمة بكثير من أى تبادل لمذكرات مكتوبة .

في تلك الأثناء ألقى بيتان هوافيج خطبته في مجلس الريخستاج بتاريخ ١٠ ديسمبر سنة ١٩١٠ فأجمل محادثات بوتسدام في أنها عبارة عن تأكيد جديد بأن لا تدخل ألمانيا والروسيا عصبة تكون فيها إحداها معادية للأخرى ، فانقض هذا كالصاعقة على باريس ولندن حيث ترك سازونوف رجال السياسة في العاصمتين يفهمون أن مسألتى ايران وسكة حديد بغداد هما أهم ما تناولته محادثات بوتسدام . وهنالك بادر السفير الانجليزى الذى كان قد عين حديثاً لدى بلاط بطرسبرج وهو السير جورج بوكانان بتقديم أوراق اعتماده إلى القيصر وأكده رغبة إنجلترا الصادقة في أن ترى الاتفاق الانجليزى قائماً ثابتاً وأبدى مخاوفه من محادثات سازونوف مع ألمانيا . لكن القيصر الذى كان على الدوام ميالاً إلى موافقة من يعيرهم سمعه أكد له أن روسيا لن تعقد اتفاقاً مع ألمانيا قبل أن تعرضه على حكومة صاحب الجلالة البريطانية أما بورتاليس السفير الألمانى فلما أدرك بذكائه أن موقف المراوغة الذى يتخذه سازونوف لا بد أن يكون بتأثير الانجليز وضغطهم قرر ألا فائدة من الالحاح فى التوقيع على بيان يتناول السياسة العامة وقبل متظاهراً باللطف والثقة ما أبداه سازونوف من أن مجرد الوعود الشفوية كافية فيما يتعلق بالسياسة العامة ، أما تفاصيل المسألة الايرانية فيمكن أن يحتويها اتفاق كتابى . وسرى بذلك عن سازونوف كثيراً

وقد أخذوا وفاقاً لما تقدم يضعون فى خلال ستة الأشهر التالية شروط

إتفاق روسى ألمانى على إشرق الأوسط فكانت المفاوضات التى دارت حول ذلك تعطل بما كانت تبدله إنجلترا من جهود متواصلة للحد من نفوذ ألمانيا فى فارس وللغوز بالسيطرة أو بالاشتراك فى القسم الذى يمد من سكة بغداد الحديدية بين بغداد والخليج الفارسى . على أن أزمة أغادير حملت ألمانيا على التساهل وأمضى الإتفاق نهائياً فى ١٩ أغسطس سنة ١٩١١ وكان ينص على ألا تطالب ألمانيا بأى امتياز اقتصادى فى المنطقة الروسية من فارس ( كالخطوط الحديدية والطرق والملاحة والتلغرافات ) وعلى أن تمد روسيا فى المستقبل خطاً حديدياً من طهران الى خانقين الواقعة على الحدود الغربية ليتصل بفرع من سكة بغداد الألمانية ، ثم على أن لا تضع روسيا بعد الآن عراقيل فى طريق إنشاء خط بغداد الحديدى أو اشتراك رؤوس الأموال الأجنبية فيه .

ولم تؤثر محادثات بوتسدام بحال من الأحوال فى تماسك المحالفة الثلاثية لأن ألمانيا كانت تحيط النمسا بكل خطوة تخطوها أولاً بأول ، ولأنه لم يكن للنمسا مصالح خاصة فى الشرق الأوسط . أما الوفاق الثلاثى فقد تكدر صفوه كثيراً بتلك المفاوضات التى قام بها سازونوف مع ألمانيا على انفراد وفى ميدان كانت مصالح إنجلترا وفرنسا فيه ذات شأن كبير . فقد وجهت إلى مسيو بيشون وزير الخارجية الفرنسية أشد الاتقادات ولامه مجلس النواب والصحف بقسوة بزعم أنه لم يصن المصالح الفرنسية ولم يحافظ على تماسك الوفاق . وتساءل رجال عظام كهانوتو فى فرنسا ومستر لويد جورج فى إنجلترا عن مسلك سازونوف ألم يكن مؤدياً الى حل الوفاق الثلاثى ؟ .

ومع ذلك فإن عدول روسيا عن معارضتها لرغبة ألمانيا العزيزة وهى اعمام سكة بغداد الحديدية مهد الطريق فى النهاية لمفاوضات ألمانيا الناجحة مع تركيا وإنجلترا بعقد اتفاقات أخرى تعود بالفائدة على الفريقين فقد حصلت ألمانيا على أحواض فى الاسكندرونة وعلى فرع حديدى من الاسكندرونة شمالاً

يسهل به استيراد المهمات اللازمة للسكة الحديدية التي أريد المضي في انشائها شرقى جبال طوروس . ووافقت الدول على زيادة الرسوم الجمركية في تركيا من ١١ الى ١٥ في المائة كما يتيسر المال لشراء سندات السكة الحديدية ، وأعطيت انجلترا مقعدين في مجلس ادارة شركة سكة بغداد الحديدية وضمنت مركزاً ممتازاً فيما يتعلق بحقوق الملاحة وموارد الزيت في العراق وبددت مخاوفها الى حد كبير من ان تصبح سكة بغداد خطراً يهدد الهند من ناحية ألمانيا . وقد ظلت المفاوضات دائرة للوصول إلى هذه التداير ثلاث سنوات ثم كلت بالنجاح في ١٥ يونيه ١٩١٤ قبل حادث اغتيال الخرناندوق فرنتس فرديناند في سيرا جيفو . ولم يكن ينقص هذه الاتفاقات سوى التوقيع النهائي عند ما نسفها نشوب الحرب العالمية

لقد كانت محادثات بوتسدام والاتفاقات التي عقدت من ورائها في ١٩١٠-١٩١١ دليلاً آخر على أن مسائل الاستعمار الاقتصادي أسهل في الحل على الحكومات من المسائل التي تتناول الهيبة أو المحالفات أو التسليحات . والمسائل الأولى تساعد في الواقع أحياناً على تذليل الأخيرة . لكنه بينما كانت ألمانيا في طريقها إلى تحسين علاقاتها بالروسيا سنة ١٩١١ ساءت علاقاتها بغتة بدولتي الوفاق الثلاثي الآخرين عما كانت من جراء أزمة مراكشية جديدة .

## أزمة أغادير في سنة ١٩١١

ظلت الاتفاقية المعقودة بين فرنسا وألمانيا في سنة ١٩٠٩ في شأن مراكش محترمة من الجانبين وقتاً ما ، غير أن الاحتكاك جعل يتخذ بين الفريقين شكلاً جدياً على أثر الامتياز الذي نالته شركة مانزمان من مولاي الحفيظ لاستثمار بعض المناجم . فان فرنسا لم تعترف به فضلاً عن أنه كان منافياً للحقوق التي كان الاتحاد الدولي للمناجم المرأكشية يزعمها لنفسه . تم إن

انتشار القلاقل في البلاد أتاح لفرنسا حجة جديدة للتوسع المتواصل في السيطرة البوليسية والحربية على مراكش وجعلها توجه انداز نهائياً إلى مولاي الحفيظ أرغمته به على قبول قرض منها زاد غل الفرنسيين حول عنقه استحكاماً . وكان من جراء ذلك أن بدا شيئاً فشيئاً أن مبدأ المساواة في الفرص الاقتصادية وهو ما نصت عليه اتفاقية سنة ١٩٠٩ وكذلك فكرة وجود سلطان مستقل على رأس حكومة منظمة أصبح كلاهما مع تعاضم نفوذ الفرنسيين حديث خرافة .

على أن الأساليب التي اتبعتها فرنسا في الشؤون العسكرية والمالية لم تجبها إلى زعماء المراكشيين الذين نقموا على مولاي الحفيظ استسلامه واستخذاه والذين أغضبهم الاعتداء على استقلالهم القومي . وبلغ الاستياء بين الأهالي أشده في مارس سنة ١٩١١ على أثر اعدام الكولونيل مانجان لجنديين مراكشيين علنا بعد أن ضبطا فارين من الجيش ، فشبت الثورة في فاس وطير الفرنسيون الاشاعات المزججة بأن حياة الأوربيين في خطر . ثم كان أن أبلغ السفير الفرنسي في برلين جول كمبون الحكومة الألمانية في ٥ أبريل بأن اغتيال الكابتن مارشان وما وقع غير ذلك من القلاقل قد يحتم على فرنسا أن تحتل رباط وأن ترسل حملة تآديبية إلى منطقة شاديا وقوة عسكرية إلى فاس للمحافظة على حياة الأوربيين . ثم زاد على ذلك قوله إن تلك الاجراءات لا تملها سوى الضرورة الملحة وإن غايتها المحافظة على سيادة السلطان وإنها ستنفذ طبقاً لروح عهد الجزيرة . فأجابه الهركيدرلن فيختر الذي تولى ادارة السياسة الألمانية في خلال أزمة أغادير بأنه يقدر قلق فرنسا على أرواح الأوربيين في فاس ولكن احتلال الفرنسيين لميناء آخر كرباط بعد احتلال الدار البيضاء خليق بأن يضاعف لا أن يضعف هياج الأهالي . هذا إلى انه قد يثير ثائرة الرأي العام في ألمانيا ويبدو بمثابة خطوة أخرى في سبيل تمزيق عهد الجزيرة . وأعرب عن أمله في أن توجل فرنسا الاحتلال

العسكري إلى أبعد وقت ممكن وأن تسوى الشؤون المراكشية بطريقة مرضية بين ألمانيا وفرنسا. وهو تليح بطلب تعويضات لألمانيا لم يفت السفير الفرنسي الذي أكد بعد برهة وجيزة أن فرنسا ستحترم اتفاق الجزيرة وأنها ستسحب جنودها بمجرد عودة النظام في فاس إلى مجاريه .

بذلك لم يوافق الهركيدرلن أو يحتج احتجاجا رسميا لكنه أشار فقط بلهجة التحذير إلى ان احتلال مدينة مثل فاس أسهل من الحلاء عنها وأنه إذا بقيت الجنود الفرنسية في العاصمة المراكشية بحيث لا يحكم السلطان إلا في ظل حرابها فلن يسع ألمانيا إذذاك أن تعتبره السلطان المستقل المشار إليه في عهد الجزيرة وهنالك تصبح معاهدة الجزيرة واتفاقية سنة ١٩٠٩ لاغيتين. فتستعيد ألمانيا حريتها في العمل . أما الامبراطور غليوم فكان من رأيه عند ما سمع بنبا المذابح في فاس وبفرار مولاي الحفيظ إلى القنصلية الفرنسية أنه ينبغي على فرنسا أن ترسل قوة عسكرية كبيرة وأن ليس ما يدعو ألمانيا إلى اعتياق ذلك لأنه بهذا تتحول الجنود الفرنسية والنفقات العسكرية من حدود ألمانيا الغربية إلى مراكش ، فان عبثت فرنسا بعهد الجزيرة فلتحتج الدول الأخرى كاسبانيا مثلا ، وقد كان من رأيه أن تضع وزارة الخارجية حد للحملة المراد بها ارسال بوارج حرية ألمانية إلى المياة المراكشية .

ومن الصعب أن تبين مبلغ ما أذاعه الفرنسيون عن القلاقل من الواقع وما أبدوه من القلق على سلطتهم وعلى ارواح الأجانب من الصحة وأن نبدي إلى أي حد هولوا فيه ليتخذوا منه حجة لاحكام قبضتهم على البلاد . فمن المحقق أنهم كانوا يواصلون توغلمهم السياسي في مراكش وأنهم كانوا ينتوون وضعها في النهاية تحت حمايتهم . وقد شبه كيدرلن هذه الحالة بالزيت لا يكاد ينال الماء حتى ينتشر فوقه . وعندما استفسر السفير الروسي في باريس وزير الخارجية الفرنسية عن المدة التي تنتوى الجنود الفرنسية بقاءها في فاس. راوغه الوزير في الرد . وقد صرح المسيو كايو الذي تولى رئاسة الوزارة في

يونيه سنة ١٩١١ بأن « مسألتنا لم تكن إلا محاولة من جانبنا لاستعادة كل ما خسرناه منذ سنة ١٩٠٥ واصلاح عواقب الصدمة السياسية الخطيرة التي أصبنا بها » ويذكر القارىء أن المسيو ديلكاسيه أرغم في سنة ١٩٠٥ على ترك الوزارة لكنه عاد إليها الآن في الوقت الذي كانت الجنود الفرنسية تستعد فيه لاحتلال رباط والزحف على فاس . صحيح أنه عين وزيراً للبحرية في الوزارة الجديدة ، وأن المسيو مونييس رئيس الوزارة أكد للسفير الألماني أنه أدخل المسيو ديلكاسيه في الوزارة نظرا لعمله البارز في البحرية ولأنه لاغنى عن خبرته الفنية ، هذا إلى أن ديلكاسيه كان قد وعد بأن لا يتدخل في السياسة الخارجية وأبدى أن آراءه اليوم تختلف كثيرا عما كانت عليه قبل بضع سنوات . لكنه كان طبعيا أن تساور الصحف الألمانية وساوس من ناحية ديلكاسيه وأن تعتقد أن له ضلعا في السياسة المراكشية . وقد دلت الحوادث فيما بعد على أنه ظل خصما لدودا لألمانيا . وقد قال ايزفولسكى « إن دخوله الوزارة دليل على العناية الخاصة التي ستوجه إلى قوات فرنسا العسكرية وإنه سيعنى قبل كل شيء بإيجاد أسطول قوى ومضاعفة الجهود لتقوية الجيش وإنه وإن كان لا يريد أن يتجاوز حدود منصبه حتى لا يثير وساوس ألمانيا تواق إلى توثيق العلاقات مع روسيا . قال والاعتقاد عام بأنه سيؤثر حتما في أعمال وزير الخارجية لأن خبرة الأخير بالشئون الخارجية محدودة » .

لقد ظلت فرنسا في حيرة من نيات ألمانيا لا قبل لها باكتناها . لكن هذه النيات أصبحت واضحة بالمذكرة المسهبة التي وضعها كيدرلن في ٣ مايو وتلخص في أن عهد الجزيرة أصبح مما لا يمكن الاحتفاظ به أمام تمرد الأهالي والضغط الاستعماري الناشئ من فرنسا وأسبانيا كما دلت على ذلك حوادث السنوات الثلاث الماضية ، وأن مراكش سوف تقسم بينهما إن عاجلا وإن آجلا ، وأن الفرنسيين يعدون العدة للزحف على فاس خوفاً عليها من الأهالي . ولهم الحق في ذلك لكنهم متى ما دخلوها يصبح من غير

المحتمل أن ينسحبوا منها وإلا عد الأهالي انسحابهم دليلاً على ضعفهم .  
وهناك تتجدد الفتن ويعود الفرنسيون إلى تسيير تجريداتهم العسكرية .  
وقد دل مجرى الحوادث على أنه من المتعذر تنفيذ نصوص عهد الجزيرة ،  
وإذا أصبح هذا العهد كما مهلاً فإن الدول التي وقعته تستأنف حريتها في  
العمل . وليس يفيدنا شيئاً أن نحتج على ابتلاع فرنسا لمراكش بل علينا أن  
نحملها على إعطائنا تعويضات . وما دام من حقها أن تحمي رعاياها في فاس  
فإن في وسعنا أن نفعل فعلها وأن نرسل بوارجنا إلى موغادور وأغادير  
لتربط في مياها ريثما نرى هل تعرض علينا فرنسا تعويضات مناسبة . فإن  
وقفنا إلى ذلك محونا آثار الفشل الماضي وكان لهذا وقع حسن في سير  
الانتخابات المقبلة لمجلس الريخستاج . وقد أقنع الامبراطور بصواب هذه  
السياسة مع أنه كان ينبغي أن يرى أن هذا الحل شبيه في خطره بالحل الذي  
وضعه بيلوف وهولشتين في سنة ١٩٠٥ . ثم توجه الامبراطور إلى لندن  
لحضور حفلة إزاحة الستار عن تمثال الملكة فيكتوريا وخيل إليه من  
الحفاوة التي قوبل بها هناك أن الانجليز ينظرون بعين الأسف إلى سياسة  
فرنسا في مراكش .

وقد لمح السير أرنست كاسل والبرنس لويس أوف باتنبرج إلى أنهما  
يأملان أن لا تختلف السياسة الألمانية عن السياسة التي تسلكها إنجلترا .  
لكن الامبراطور وبيتمان لم يجدا ما يحملهما على العمل بهذا التلبيح ما دام  
أن إنجلترا لم تستشر ألمانيا فيما يتعلق بمراكش في سنة ١٩٠٤ كما لم تستشرها  
الروسيا في ريثال .

لقد كان يلوح في بادئ الأمر أن البرنامج الذي وضعه كيدرلن  
سيصادف نجاحاً وأن فرنسا لم تلبث أن استولى عليها القلق لما أن أخذت  
صحف الجامعة الألمانية تطالب بالتعويضات أو بتقسيم مراكش ولما أن  
التزمت الحكومة الألمانية الصمت الرهيب فلم تفصح عن كيفية إسترداد



حريتها في العمل . وقد بعث ايزفولسكى في تقرير له يقول إنه على قدر ما يسعه الحكم يرى « ان وزارة برلين قد اختارت موقفاً ينطوى على المهارة وعلى الفائدة العظيمة لها . فانها دون أن تحتج إلى الآن على الكيفية التي يعمل بها الفرنسيون تحتفظ بالأعلان في أية لحظة أن عهد الجزيرة قد نقض وبذا تتسلط السياسة الألمانية على الحالة وتستطيع أن تزيد المسألة المراكشية حدة في أى وقت . . . والسير فرانسيس برتى مقتنع شخصياً بأن ألمانيا انما تنتظر اللحظة المناسبة لتعلن أن عهد الجزيرة لاغ وإذ ذاك تحتل ميناء أو اثنين ( منهما موغادور ) على الساحل الاطلانطيقي من مراكش . . . ولم يمض على احتلال الفرنسيين لفاس أسبوعان حتى أنزلت أسبانيا جنودها إلى البر في الأعراش فاستنكرت فرنسا بدورها هذا العمل وعدته بمثابة صدمة لعهد الجزيرة من شأنها أن تربك الحالة الدولية . ولم يتنصف شهر يولييه حتى بدأت فرنسا تتكلم عن التعويضات التي تعطى لألمانيا . وقد لمح كامبون محاذراً إلى هذا في سياق كلامه في ١١ يونيه عن مراكش ووصفه إياها بأنها الثمرة الناضجة التي سوف تكون من نصيب فرنسا يوماً ما كما نعتها كروبي وزير الخارجية الفرنسية أيضاً بمناسبة مشروع اسكة حديدية في الكونغو والكاميرون بيد أن كيدرلن عد هذا كله شيئاً تافهاً لا يفنى ولا يسمن من جوع اذ كان يطمع في أخذ الكونغو الفرنسية بأسرها . لكنه لم يشأ ان يتقدم بهذا المطلب إلا بعد ان يكون ظهور سفينة ألمانية في مياه أغادير قد أخاف الفرنسيين وحملهم على التقدم اليه بعرض سخى جداً مقابل تنازل ألمانيا لهم عن مراكش .

لهذا كانت خطة كيدرلن عند ما قدم كامبون الى كيسنجن في ٢٠ يونيه ليفاتحه في الموضوع خطة تنطوى على التحفظ . ولما ابلغه كامبون ان فرنسا على استعداد للتنزل عن أشياء في الكونغو وأنه لا فائدة من الكلام اذا كانت ألمانيا تريد جزءاً من مراكش وافقه كيدرلن كل الموافقة . ولما غادر كامبون

كيسنجن قاصداً باريس للتحقق من مبلغ ما تنوى حكومته عرضه ، شيعه كيدرلن بقوله . « عد لنا من باريس بشيء في جعبتك » . فلما انقضت أيام عدة دون أن تعرض فرنسا اقتراحاً ما ، وكان الإمبراطور يوشك أن يبدأ رحلته الى المياه الشمالية ذهب كيدرلن الى كيال لتقديم تقرير الى الإمبراطور عن الحالة وليطلب منه الموافقة من جديد على إرسال سفن حربية الى مراكش . وفي يوم ٢٦ يونيه وردت برقية موجزة من كيدرلن لا تزيد على هذه العبارة « أجزت السفن » فدلّت على انه حصل على موافقة الإمبراطور . وهكذا أرسلت التعليمات الى المدفعية بانتر وهي عائدة من جنوب افريقيا بان تلقى مراسيها في ميناء أغادير في اول يوليه . وفي عصر يوم السبت اول يوليه بينما كانت البانتر تدخل أغادير أبلغت ألمانيا فرنسا والدول الأخرى بأن أصحاب المتاجر الألمانية الذين أزعمهم هياج الأهالي من جراء الحوادث الأخيرة قد سألوها حماية أرواحهم واملاكهم في جنوب مراكش ولذا أرسلت الحكومة الألمانية المدفعية بانتر الى أغادير على أن تنسحب منها متى عادت المياه الى مجاريها في مراكش . نعم ان الشركات الألمانية طلبت الحماية من وزارة الخارجية لكن كيدرلن كان يتذرع بطلبها هذا لجل الحكومة الفرنسية على التقدم بعطية سخية من أراضي الكونغو وللتأكد للدول بأن عهد الجزيرة قد انهار .

وفي ٩ يوليه عاد كامبون الى مقابلة كيدرلن وكان السفير منقبضاً قلقاً لما حدث في أغادير مما لم تشعر به ألمانيا أحداً من قبل بينما فرنسا قد أخطرت اخطاراً كافياً بعزمها على الزحف على فاس . وكانت المحادثة طويلة عسيرة تخللها الصمت الكثير من الجانبين لأن كل طرف كان يريد أن يفاتحه صاحبه بما يريد . وأخيراً ذكرت لفظتا « الكونغو » و « توجولاند » ولكن أحداً منهما لم يشأ التورط في الدخول في أى تفصيل معتذراً بأنه لا بد له من الحصول على معلومات وتعليمات أخرى . وأخيراً أدى هذا

التلكؤ والصراع السياسى إلى تعليق من الامبراطور الذى عيل صبره :  
« أربعة أسابيع تنقضى على هذه المهزلة الخاسئة ثم لا يتم شيء . فماذا عسى  
أن نفعل الآن . إنها حقاً لاضحوكة أن تجرى المفاوضة ثم تستمر متواصلة  
دون أن تتقدم خطوة واحدة . وبينما نحن نضيع وقتنا عبثاً إذا بانجلترا  
وروسيا تشدان أزر فرنسا الخائفة وتمليان عليها الحد الأقصى لما تستطيع  
أن تنزل لنا عنه »

اذ ذاك بات كيدرلن فى مركز حرج جداً فلما جاءه كامبون فى ١٥  
يوليه وجعل يتكلم عن تعويضات طفيفة قرر أن يعدل عن اللف ويدخل  
فى الصميم فبسط خريطة ووضع أصبعه على الكونغو الفرنسية وقال انه  
ينبغى أن تحصل ألمانيا عليها كلها . فراجع كامبون وكاد يسقط مر فرط  
الدهشة ، ثم قال إنه لا توجد وزارة فرنسية تستطيع النزول عن مستعرة  
بأكملها لكنها قد تتساهل فى جزء منها بشرط أن تنازل ألمانيا عن توجولنده  
وجزاء من الكمرون . فوقع فى نفس كيدرلن من هذا الحديث أن الوصول  
إلى نتيجة مرضية لا يكون إلا باستعمال الحزم والصلابة فبادر بارسال برقية  
إلى الامبراطور وكان لا يزال فى رحلته الشمالية يطلعه فيها على كل ما دار .  
فازداد سخط الامبراطور واستولى عليه القلق من خطة كيدرلن فأصدر  
أمراً صريحاً بأن لا تتخذ فى غيبته أية خطوة تنطوى على تهديد فرنسا . وإذا  
كان يدرك أنه سهل على الوزارة الفرنسية أن تنزل لألمانيا عن أراضى  
الكونغو لو تنزلت هذه لها عن بعض ممتلكاتها الصغيرة فى أفريقيا ، فقد  
صرح لكيدرلن بأن يواصل مفاوضاته مع كامبون على هذا الأساس . وفى  
الوقت نفسه أبرق الهرترويتلر الوزير المفوض المرافق للامبراطور إلى  
كيدرلن يقول « من الصعب جداً كما تعلم أن يوافق جلالة الامبراطور على  
أى اجراء قد يودى إلى الحرب » وهنا أراد كيدرلن أن يقدم استقالته  
لسلك الامبراطور معه لأنه كان على يقين بأن الطريقة الفعالة لحل فرنسا

على التسليم هي إفهامها أن تشبثها قد يؤدي إلى الحرب لكن يتمان أقنعه بالبقاء في منصبه وبمفاوضة المسيو كامبون على الأساس الذي وضعه الامبراطور .

في اللحظة التي كان يلوح فيها أن المفاوضات بين كامبون وكيدرلن تسير بخطى بطيئة تدخلت إنجلترا . فقد كان السير غراي قبل ارسال الباتر إلى أغادير بعدة أسابيع يخشى أن تطالب ألمانيا بتعويضات غربي مرا كش لتنشئ لها قاعدة بحرية على ساحل المحيط الاطلانطيقي وهذا ما كانت إنجلترا تعارض فيه منذ سنين وما كان من بواعث تأييدها لفرنسا في مرا كش . فلها أرسلت الباتر إلى أغادير لاح هذا مؤكدا المخاوف غراي . فأنذر في يوم ٤ يوليه « بأن حالة جديدة قد نشأت عن ارسال مدفعية ألمانية إلى مياه أغادير وأن التطورات المقبلة قد تمس المصالح البريطانية رأسا أكثر مما مستها إلى الآن . وعليه فليس في استطاعتنا التسليم بأي اتفاق جديد يوضع بدون علمنا » . وربما لم يكن السير ادوار غراي قد انزعج هذا الانزعاج لو أنه عرف أن ألمانيا لم ترم إلا إلى الكونغولا إلى انشاء قاعدة بحرية على الساحل الاطلانطيقي من مرا كش . وقد أخطأ كيدرلن في أنه لم يطمئن انجلترا من هذه الناحية إذ كان هو وبيتمان والامبراطور معتمدين جميعا أن تجري المفاوضات الخاصة بالتعويضات مع فرنسا وحدها رأسا . ولذا أبدوا في أدب أن تدخل الغير أمر غير مرغوب فيه ، لأنهم كانوا يؤملون الحصول من فرنسا على أكثر مما يحصلون لو اشترك في المفاوضات فريق ثالث .

ولبت السير غراي زهاء اسبوعين ينتظر ردا على بيانه الذي ألقاه في ٤ يوليه وقال فيه بوجوب أخذ رأى انجلترا في كل تسوية تتعلق بمرا كش . لكن ألمانيا كانت لا تزال ملتزمة الصمت . وقد كان السير غراي على استعداد لقبول تسوية بين فرنسا وألمانيا على قاعدة النزول عن أراض في الكونغولا الفرنسية مقابل بعض ممتلكات ألمانيا في أفريقيا بشرط أن يقبل الفرنسيون

هذه التسوية وبشرط أن تعدل ألمانيا عن أية نية في أن يكون لها موضع قدم على الساحل المراكشي . ولذا رحب باقتراح ايجاد تسوية في الكونغو الفرنسية لكنه لما أصر كيدرلن على أخذ الكونغو بأسرها أبلغت فرنسا السير غراي أن مطالب ألمانيا غير مقبولة وذكرته بالتزامات انجلترا التي يقضى بها اتفاقية مراكش المعقودة في سنة ١٩٠٤ واقترحت أن يتولى هو إرسال دعوة لعقد مؤتمر دولي لمعالجة الموضوع .

هذا التلبيح باحتمال قطع المفاوضات التي كانت دائرة رأساً بين ألمانيا وفرنسا جدد مخاوف غراي من أن تبقى ألمانيا في أغادير فطلب إلى السفير الألماني أن يحضر لمقابلته وأبلغه بصفة غير رسمية انه علم ان المفاوضات قد لا تسفر عن نتيجة وإذ ذاك تثار مسألة أغادير وماذا عسى أن تصنع ألمانيا فيها وفي الأراضي الواقعة خلفها وهذه مسألة تمس المصالح البريطانية . وقد ظل ملتزماً الحياد آملاً الوصول إلى تسوية بين ألمانيا وفرنسا بتبادل مستعمرات في أواسط إفريقيا ، أما وقد أصبحت هذه التسوية بعيدة الاحتمال وباتت المسألة تمس مصالح لبريطانيا خطيرة الشأن فهو يريد أن يبدى بصفة خاصة هادئة ان الوقت قد حان لسماع رأى انجلترا أيضاً وأن يدور البحث بين الدول الثلاث . فرنسا ، وألمانيا ، وانجلترا . وكان غراي على صواب في رغبته الوقوف على نيات ألمانيا الحقيقية ومعالجتها بالطرق السياسية بعيداً عن لغط الصحافة وتدخلها المخرج في كل مكان ، لكنه لم تكن لدى مترنيخ تعليمات تخوله التصريح بأن ألمانيا انما تطلب تعويضات في الكونغو لا قاعدة بحرية في اغادير . وعلى ذلك استنتج غراي ان الوقت قد حان لانذار ألمانيا إنذاراً علنياً لا غموض فيه ولا إبهام حتى ولو جر هذا إلى الاخطار التي تنشأ من هياج الصحافة والتعرض لمسألة الهيبة والسمعة . وهكذا حدث في مساء اليوم نفسه وبدون أن يتيح لمترنيخ الوقت الكافي للحصول على تعليمات جديدة من برلين أن سمح السير غراي للستر لويد

جورج بأن يعلن للهلاً أن إنجلترا تريد ان يسمع رأيها في الموضوع . وقد جاء في الخطبة الشهيرة التي ألقاها المستر لويد جورج في المانشن هاوس في ٢١ يولييه ما نصه :

«إنتى لا أرى محيصاً عن أن أقول هذا : وهو أنتى أعتقد ان من المصلحة لا لهذه البلاد وحدها بل للعالم أجمع أن تظل بريطانيا مهما كلفها الأمر محتفظة بهيبتها بين دول العالم العظمى . فان نفوذها القوى كان فى كثير من الأحيان ، وقد يكون أيضاً كذلك فى المستقبل ، عظيم القيمة لقضية الحرية البشرية . وقد أنقذ هذا النفوذ فى الماضى أمماً فى هذه القارة من كارثة داهمة بل من الهلاك . وإننا لعلى استعداد لبذل تضحيات عظيمة فى سبيل المحافظة على السلام . وفى اعتقادى أن لا شىء مطلقاً يبرر أن تشوب حسن إرادة الدول شائبة اللهم إلا أن تكون هناك مسائل على أعظم جانب من الخطورة القومية . بيد انه إذا فرضت علينا حالة يتعذر معها الاحتفاظ بالسلام إلا بتضحية المركز العظيم النافع الذى أحرزته إنجلترا فى قرون حافلة بالبطولة وجلال الأعمال أو بالسماح بأن تعامل بريطانيا فى جهة لها أساس بمصالحها الحيوية كما لو كانت عضواً مهملاً فى مجموعة الأمم ، فانى أقول بكل صراحة ان سلاماً لا ينال إلا بهذا الثمن هو ذل لا تحتمله دولة عظيمة كدولتنا . »

وقد أثارت هذه الخطبة عاصفة من السخط فى ألمانيا التى عدتها بمثابة تهديد وتدخل من جانب إنجلترا فى المفاوضات الفرنسية الألمانية التى لا تعنيها . وبما جعل وقع الخطبة أشد إيلاًماً للنفس أن الذى ألقاها ليس السير غراى المعروف بخصومته لألمانيا بلا موجب بل وزير المالية المعروف بنزعة السلمية وميوله نحو ألمانيا بوجه عام . ولقد أخذ رأى المستر اسكويث والسير غراى فى خطبة المستر لويد جورج فوافقا عليها كما ابتهج بها المستر ونستون تشرشل وزير الداخلية وإن كان قد صرح بأنه كان يعلم أنها لعب خطير بالنار ، إذ أدت الى زيادة التوتر الناشئ بين إنجلترا وألمانيا من التنافس البحرى .

لقد كان من الممكن أن تؤدي الخطبة الموما إليها إلى الحرب لولا تصميم  
الإمبراطور ومستشاره على أن لا يدها المشكلة المراكشية تفضي إلى حرب  
أوربية . على أن الخطبة أدت إلى نتيجتين كان لهما الفضل في الوصول إلى  
تسوية المسألة المراكشية تسوية سلمية . الأولى أنها جعلت ألمانيا تصارح إنجلترا  
بأنها لا تنوي إنشاء قاعدة بحرية على الشاطئ الاطلنطي وهو الباعث على  
مخاوف السير غراي وقلقه . والثانية هي أنها ساعدت على اعتدال ألمانيا  
بعض الشيء في مطالبها من فرنسا . وبذا أمكن بعد أربعة أشهر قضائها الطرفان  
في مفاوضات طويلة شاقة أن يوقع كيدرلن وكامبون اتفاقية ٤ نوفمبر سنة  
١٩١١ التي اعترفت ألمانيا بمقتضاها بأن لفرنسا أن تعلن الحماية على مراكش  
في مقابل نزول فرنسا عن نحو ١٠٠.٠٠٠ ميل مربع من أراضي الكونغو  
الفرنسية . ولكي يسهل على الحكومة الفرنسية تسوية الاتفاقية تنازلت  
لها ألمانيا عن قطعة أرض عديمة القيمة في الكامبيون شرق بحيرة تشاد  
لم تؤد أزمة أغادير بين إنجلترا وألمانيا إلى زيادة المشادة بين الحكومتين  
فحسب بل ضاعفت فيما يلوح ارتياب غراي في ألمانيا واشتباهاه في أنها تنزع  
إلى الحرب . وهذا واضح من مذكراته التي أبدى فيها ما يخالف الواقع حين  
لاحظ أنه كان يراد بأزمة أغادير أن تفضي إما إلى اذلال فرنسا أو إلى  
حرب عامة . وقد أعرب غراي عما خالجه نفسه وقتئذ لسفير روسيا في لندن  
فقال ان الحرب لو نشبت بين ألمانيا وفرنسا لاشتبكت فيها إنجلترا . وإذا  
أدت إلى انضمام روسيا إليها ( وهو ما أكده السفير ) فلن ترى النمسا محيصاً  
عن الاشتراك فيها لأنه مهما يكن من عدم ميلها إلى دخول حرب لا ناقة  
لها فيها ولا جمل فان الظروف لا بد أن تدفعها حتما إليها . واذ ذاك تتعقد  
الحالة ولا تصبح المسألة بعدئذ مسألة نضال بين فرنسا وألمانيا بل تصير حرباً  
عامة . ثم أضاف السير غراي إلى ما تقدم قوله : انه لا يعتقد أن الإمبراطور  
غليوم يريد الحرب . أما السفير الروسي فكان قد بعث قبل ذلك بأسبوعين

تقريراً الى حكومته يقول فيه انه « لا فائدة من إخفاء الحقيقة فان خطوة أخرى معناها نشوب الحرب بين ألمانيا وانجلترا من جراء النزاع الألماني الفرنسي وان كان لا علاقة بين الأمرين »

وقد أدت أزمة أغادير كما أدت أزمة ١٩٠٥ إلى توثيق عرى الصداقة بين انجلترا وفرنسا وامتدت الأخيرة من خطبة المستر لويد جورج وما أظهرته انجلترا من أنها لن تفي بما وعدت به في إتفاقية سنة ١٩٠٤ من تأييدها السياسي فحسب بل سوف يكون من نصيبها أيضاً ذلك التأييد العسكري الذي رمت اليه المحادثات الحربية والبحرية التي كانت دائرة بين البلدين منذ سنة ١٩٠٦. وفي يوم ٢٠ يولييه أي في اليوم السابق لخطبة المستر لويد جورج في المانشن هوس وبعد أن طلب كيدرلن الكونغو كلها عقد في وزارة الحربية الفرنسية اجتماع حضره الجنرال ولسن رئيس قسم العمليات الحربية في هيئة أركان حرب الجيش الانجليزي والجنرال ديبى رئيس أركان حرب الجيش الفرنسي لتقرير الشروط الجديدة التي يشترك بموجبها جيش بريطانيا في أعمال الجيوش الفرنسية في الشمال الشرقى فيما لو نشبت الحرب مع ألمانيا. وقد توخى البرتوكول المشتمل على مداولات هذا الاجتماع أن يذكر كالمعتاد أن هذه المحادثات الخالية من كل صبغة رسمية لا يمكن أن تكون مقيدة لأية من الحكومتين وان كل ما كان يرمى اليه منها هو « تعرف الإجراءات التمهيديّة التي لا غنى عن اتخاذها ». لكنه بعد مضي ستة أسابيع أبان الجنرال ديبى للروسين — كما لو كان الامر يقيناً لا يحتمل الشك — أن الجيش الفرنسي مستعد للقيام بالهجوم على ألمانيا بمساعدة الجيش الانجليزي على ميسرته .

أما الروسيا فانها لم تشأ في خلال أزمة أغادير أن تبالغ في تأييد حليفها فرنسا لأنها كانت قد حسنت علاقاتها مع ألمانيا بمحادثات بوتسدام ولما تكبد. وفي خلال المفاوضات الفرنسية الألمانية حول الكونغو والكامبيرون أفرغ ايزفولسكى كما يقول « قصارى جهده » لحمل الفرنسيين على الاعتدال



وحضهم على التساهل للامان في كثير من مطالبهم . ولم تكن روسيا اذ ذاك تريد أن تخرج الى حرب تدور حول مراكش وهو عين ما كان يحدو الفرنسيين من ناحية المشا كل البلقانية فانهم أيضاً كانوا يكرهون أن يدخلوا حرباً من جرائها . وقد كانت روسيا بحاجة الى تقوية جيشها وأسطولها قبل أن تخاطر في حرب أوربية . على أن نفس هذا التأييد الفاتر من كل من الجانبين للآخر حفز ايزفولسكى الى العمل على توثيق روابط المحالفة الفرنسية الروسية بعد سنة ١٩١١ . وقد بادر بوانكاريه وقد أصبح وزيراً للخارجية في أوائل سنة ١٩١٢ إلى مساعدته على هذا . وكان من تأثير أزمة أغادير وما ترتب عليها من ازدياد استمساك فرنسا بمراكش أن قررت ايطاليا أن الوقت قد حان للاستيلاء على طرابلس . وقد أضعف هذا تركيا إلى حد أن صربيا وبلغاريا عجلتا بالعمل على تكوين حلف بلقاني بمساعدة روسيا أدى إلى حروب البلقان . وهذه بدورها أساءت العلاقات بين صربيا والنمسا وساعدت على خلق سبب من أكبر أسباب الحرب العالمية .

### بعثة هولدين في سنة ١٩١٢

في سنة ١٩٠٨ تمكن الأميرال تربتس كما أسلفنا الكلام من حمل مجلس الريختاج على إقرار البرنامج البحري المتضمن إنشاء اربع قطع رئيسية في كل عام ابتداء من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٢ وقطعتين اثنتين سنوياً من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩١٧ وقد قلق الانجليز لهذا قلقاً شديداً على سلامتهم ، وأزعجهم تأثيره السيء في علاقاتهم بألمانيا فبدلوا المساعي لوقف الأبناء أو للوصول إلى تفاهم لكن هذه المساعي منيت بالفشل من جراء معارضة الإمبراطور الحاسمة التي كانت خاتمتها حديثاً دار بينه وبين السير تشارلس هاردنج في كرونبرج في اغسطس سنة ١٩٠٨ . وأخذت مخاوف الانجليز تتضاعف باطراد في خلال الأشهر التالية ،

فصورت لهم أوهامهم أن ألمانيا سوف تغزو بلادهم ، وزاد الطين بلة حادث  
جريدة الديلي تلغراف ذلك الحادث الأسيء : فقد كان الإمبراطور قد سمح  
لصديق انجليزى بأن يلخص حديثاً خاصاً نفي فيه الإمبراطور الفكرة القائلة  
بأنه عدو لانجلترا قائلاً : ان الانجليز مجانين مذعورون إذ يرتابون فى البحرية  
الألمانية التى لا يراد بها سوى حماية التجارة الألمانية لا غزو انجلترا . وهو  
صديق لانجلترا يعمل على ضبط عواطف الشعب الألمانى المعادية لها  
والدليل على موقفه الودى فى الماضى انه رفض الاشتراك مع روسيا  
وفرنسا فى الضغط على انجلترا لمصلحة البوير وانه أرسل على النقيض من  
ذلك إلى الملكة فيكتوريا خطة حرية لاستخدامها ضد البوير . وقد أرسل  
الإمبراطور مسودة هذا الملخص إلى ييلوف فى مصيفه على شواطئ بحر  
الشمال ، وهذا بعث بها دون أن يدرسها إلى وزارة الخارجية لبحثها والتعليق  
عليها . وهنا ظن أحد الموظفين ان ييلوف أقرها فسمح باخراجها ونشرت  
فى جريدة الديلي التلغراف فى ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٠٨ .

ولا تسل عن العاصفة التى أثارها هذا الحديث فى صحف البلدين ، مع أن  
الإمبراطور كان يرجو أن يودى الى إزالة مخاوف انجلترا ووساوسها وتحسين  
العلاقات بين البلدين . وقد كان كثير من حملات الصحف موجهاً الى شخصه  
إذ أبدى الانجليز شكهم فى إخلاصه وسخروا من قوله إن نصيحته ساعدت  
على كسب حرب البوير وغضبوا له ، ولاحظوا أن اعترافه بأن الشعور  
السائد فى ألمانيا معاد لانجلترا ينذر بالشر . أما فى ألمانيا فقد احتج الأحرار  
والاشتراكيون احتجاجاً شديداً على هذا المسلك الأخرق وأشاروا الى  
الايخطار التى ينطوى عليها حكمه الشخصى . وقدم ييلوف استقالته لكنه  
سحبها بعد أن تعهد الإمبراطور بأن لا يتحدث فى المستقبل فى السياسة دون  
استشارته . بيد أن الإمبراطور أحس ان مستشاره لم يدافع عنه أمام عاصفة  
المناقشة التى أثارته فى المسألة فى الريخستاج دفاعاً كافياً فلم يعد يحبو

يلوف بالرعاية والثقة اللتين كان يكتنهما له وقد انقبضت نفس مترنيخ سفير ألمانيا في إنجلترا لما وقع بين البلدين . فقد كان الرأي العام البريطاني يطالب الوزارة بأن يكون الأسطول البريطاني مضارعاً لأي أسطولين آخرين ، وجعل لورد روبرتس يطوف البلاد حاثاً مواطنيه على انشاء جيش عظيم ، واتباع نظام الخدمة العسكرية الاجبارية المعمول به في القارة الأوروبية ناعثاً ألمانيا بأنها العدو المستبد . ولما كان مترنيخ يعتقد أن السبب الجوهرى لكل هذا الانزعاج والهياج انما هو زيادة الأسطول الألماني تلك الزيادة السريعة فقد ارتأى أن من الصواب أن تخفض ألمانيا برنامجها من أربع قطع الى ثلاث سنوياً وأن تحاول التفاهم مع إنجلترا في الوقت نفسه

وكان يلوف من رأى السفير ولذا اسرع بعقد التسوية الخاصة بمراكش في سنة ١٩٠٩ وأمل ان يزول بها سبب من الاسباب السياسية الداعية الى ارتياب إنجلترا وبعث رسائل مترنيخ الى تربتس للتعليق عليها لكن الاميرال كان يخالف السفير في رأيه وتشخيصه للحالة الانجليزية ذلك التشخيص الحكيم وكان يستقى بعض معلوماته من الملحقين البحريين الألمان فأصر على ان سخط إنجلترا ليس منشؤه الأسطول الألماني بل انتشار التجارة والصناعة الألمانية فلا فائدة اذن من تخفيض البرنامج البحري بانشاء استحكومات على الشواطىء وتشديد المدفيعات والغواصات وهو ما لم تكن تعارض فيه إنجلترا بدلا من الاكثار من الدردنوطات وهو ما كان يرى مترنيخ أنه مصدر كل انفعال وانزعاج في لندن . وقد هدد تربتس أخيراً بالاستقالة اذا اعرض يلوف على رأيه فتراجع يلوف بعد أن قل عطف الامبراطور عليه عقب حادث الديلي تلغراف ، وعدل مؤقتاً عن اقتراح مترنيخ ثم ترك الفرصة التي أتاحت له بمناسبة زيارة الملك إدوارد السابع في فبراير سنة ١٩٠٩ تفلت من يده فلم يكثرث للورد كرو لما أن لمح الى مسألة

التنافس البحري . ولقد حدث ما تكهن به مترنيخ من استمرار هياج الانجليز ذلك الهياج الذي حمل المستر ما كنا وزير البحرية على اقتراح إنشاء ست مدرعات سنوياً في مقابل المدرعات الألمانية الأربع . لكن فريقاً من الوزراء كان لا يزال يرى أن إنشاء أربع مدرعات بريطانية سنوياً كاف لأن يكفل تفوق الأسطول البريطاني في أمان ، فلكى يتغلب ما كنا على اعتراضهم راح يبالغ في معدل السرعة التي تنشأ بها المدرعات الألمانية فزعم أن ألمانيا تنشئ أكثر من الرقم المحدد بجمع أدوات البناء سلفاً ولذا يرجح أن يكون لديها ١٣ دريدنوطا في سنة ١٩١١ بدلا من سنة ١٩١٤ وهو الميعاد المحدد في القانون البحري الألماني وبذا يكون لألمانيا في سنة ١٩١١ ، ١٣ دريدنوطا بينما لا يكون لدى انجلترا أكثر من ١٦ دريدنوطا وقد تكون النسبة بين الأسطولين أخطر من هذا في السنوات التالية .

ولقد ساعدت هذه البيانات على ازدياد قلق الجمهور الذي جأر بالمطالبة بإنشاء ثمانى قطع بدلا من ست . وأخيراً تقرر إنشاء ثمانى قطع أربع فوراً . أربع فيما بعد إذا استمرت ألمانيا تنشئ حسب برنامجها — وهو أمر كان له أسوء تأثير على العلاقات بين البلدين . وعلى أن المستر ما كنا اعترف فيما بعد بأن بياناته لم تكن صحيحة إلا أنها كانت قد فعلت فعلها في تسوية العلاقات الانجليزية الألمانية . ولما كانت انجلترا قد علقت انشاء القطع الأربع الأخرى على استمرار ألمانيا في البناء طبقاً لبرنامجها البحري فقد استصوب ييلوف عقد اجتماع خاص حضره تربتس وبتمان ومولتسك ومترنيخ الذى استدعى خصيصاً لهذا الغرض . لكن الشروط التي طالب بها تربتس والامبراطور كانت بحيث تبعد كل أمل في النجاح في فتح باب المفاوضات مع انجلترا . وبعد أسابيع ثلاثة خذل ييلوف في مجلس الريخستاج من جراء المشروع المالى فاستقال ؛ وقررت انجلترا بعد ذلك بقليل أن تنشئ البوارج الاحتياطية . لا شك أن الحكمة كانت في جانب مترنيخ وييلوف في هذا الخلاف

الداخلي الذي قام بينهما من ناحية وبين تربتس والامبراطور من ناحية أخرى . ومع أن ما ارتآه تربتس من أن الخصومة بين الانجليز والألمان إنما نشأت من المنافسة التجارية والصناعية صحيح في ذاته فإن الأصح منه ما اعتقده مترنيخ من أن المسألة البحرية هي السبب الجوهرى ؛ وأن الانجليز مصممون على أن يحتفظوا بتفوقهم البحرى مهما كلفهم ذلك ؛ لأن هذا التفوق حيوى لتجارتهم ولكيان امبراطوريتهم نفسه . ولقد كان مترنيخ محقاً حينما لاحظ « أن خدمات تربتس فى ترقية بحريتنا لا جدال فيها ولا سبيل إلى الحط من شأنها . لكن من الواضح أيضاً أنه ليس ضرورياً أن تكون المقدرة العسكرية والفنية والكفاية فى التنظيم مقترنة دائماً بالمقدرة على الحكم فى المسائل السياسية حكماً صحيحاً . فان رأى تربتس فى انجلترا يتضارب مع الحقائق الواقعة إلى حد أنه يلوح كأنما قد أغمض عينه عنها .

لقد كان بيتمان هولفيج الذى خلف ييلوف على منصب المستشار متفقاً مع مترنيخ فى وجوب التفاهم مع انجلترا على المسألة البحرية ؛ وكان يرى أن فى مكنة ألمانيا أن تتباطأ فى انشاء البوارج بحيث تنزل أقل من الأربع المقررة سنوياً على أن يقابل هذا بتساهل انجلترا فى بعض المسائل الاستعمارية وفى سكة بغداد الحديدية وربما أيضاً بالتعهد على أية صورة بالتزام الحياد . وعلى هذا الاعتبار بدأ المفاوضات فى أغسطس سنة ١٩٠٩ مع السفير البريطانى فى برلين السير ادوارد جوتش ولكن دون نتيجة ما . كذلك أخفقت كافة المحاولات التى حاولها خلال السنتين التاليتين فى هذا السبيل ؛ وأخيراً تولى الأمر فى نهاية سنة ١٩١١ وبعد أن خفت حدة أزمة أغادير بعض الشئ رجلان من رجال الأعمال هما الهربرت بالين فى ألمانيا والسير إرنست كاسل فى انجلترا . فالبرت بالين رئيس شركة بواخر هامبورغ — أمريكا كان يعتقد أن اسراع الألمان فى انشاء بحريتهم هو السبب الأكبر فى خصومة انجلترا وألمانيا وأنه قد يفضى يوماً الى حرب ، وكان يعتبر هذا التنافس

البحرى أشد خطر على سلم أوروبا من المحالفة الفرنسية الروسية؛ وكان صديقا حميا لتربتس وللإمبراطور كما كان أيضاً صديقاً لبيتان؛ وكان يعلم أن الحكومة الألمانية تنوى أن تعرض على مجلس الريخستاج قانوناً بحرياً جديداً فى ربيع سنة ١٩١٢؛ فأحب أن يصل مع انجلترا الى نوع من التفاهم قبل أن يتفاقم الشر بهذا القانون. وكان له صديق غنى وصيرفى من صيارف لندن ذوى النفوذ هو السير ارنست كاسل، وكانت ولادته بألمانيا التى هاجر منها فى حدائه واختص مصالحها وهى مسقط رأسه باهتمام لا يقل عن اهتمامه بمصالح البلد الذى استوطنه. وقد كان كاسل فى انجلترا كباكين فى ألمانيا يستمتع بمركز اجتماعى سياسى ذى نفوذ عظيم وان لم يشغل فى الحكومة منصباً ما وقد بات صديقاً حمياً للملك إدوارد السابع كصيرفى له وكستشار سياسى.

فمنذ يوليه سنة ١٩٠٩ لم ينقطع التشاور بين بالين وكاسل للبحث عن طريقة لاصلاح ذات البين بين ألمانيا وانجلترا. وذات يوم والمباحثات دائرة بين وزارتى خارجية لندن وبرلين فى شتاء سنة ١٩١١ - ١٩١٢ على بعض الشؤون الاستعمارية، وقد استولى القلق على الانجليز من الاشاعات المتواترة عن قرب اصدار قانون ألمانى بحرى جديد، قابل بالين كاسل الذى اتصل بالسير ادوارد غراى ومن ثم مهد الطريق للجنة هولدين. وفى ٢٩ يناير قدم كاسل الى برلين يحمل مذكرة أقرها السير غراى وونستون تشرشل ولويد جورج لتكون أساساً لفتح باب مفاوضات رسمية وكانت كما يلى:

أولاً — المسألة الجوهرية أن تسلم ألمانيا بأن لا غنى لبريطانيا العظمى عن التفوق البحرى، وبأن لا يزداد البرنامج البحرى الحاضر ولا النفقات البحرية بل يراعى البطء فى تنفيذه ويخفض إذا أمكن

ثانياً — ترغب انجلترا من كل قلبها فى أن لا تتعرض لتوسع ألمانيا الاستعمارية وهى اثباتاً لذلك مستعدة للبحث من الآن فى أية أمان قد تكون.

الألمانيا في هذا الصدد وانه ليسر انجلترا ان تعرف أية منطقة أو نقط خاصة  
يمكنها أن تساعد ألمانيا فيها .

ثالثاً — ترحب انجلترا بكل اقتراح يراد منه اعطاء تأكيدات متبادلة  
بامتناع كل من الفريقين عن الاشتراك في أى مشروع عدوانى أو الانضمام  
الى أى حلف موجه ضد الآخر .

فلما أطلع السير كاسل الهرتمان على هذه المذكرة رحب بها كتابة وأبدى  
موافقته على ما جاء فيها كل الموافقة لكنه لاحظ ان الاعتمادات البحرية  
الألمانية عن سنة ١٩١٢ قد تم وضعها ثم أضاف الى ما تقدم انه والامبراطور  
يسرهما ان يزور السير غراى برلين لان هذه الزيارة أضمن وسيلة للتقدم  
السريع بالمفاوضات . ثم بين للسير كاسل بمحل القانون البحرى الاضافى وهو  
يقضى بانشاء عمارة بحرية ثالثة جديدة تتركب من خمس قطع من السفن  
الاحتياطية الموجودة وثلاث سفن جديدة تنشأ فى خلال الست السنوات  
التالية ، فهذه السفن الرئيسية الثلاث هى كل الزيادة التى أضيفت إلى برنامج  
سنة ١٩٠٨ فبدلاً من انشاء سفينتين سنوياً فيما بين سنة ١٩١٢ وسنة ١٩١٧ كما  
نص برنامج سنة ١٩٠٨ فان الاقتراح الجديد يرمى الى انشاء ثلاث سفن الأولى  
فى سنة ١٩١٢ والثانية فى سنة ١٩١٤ والثالثة فى سنة ١٩١٦ .

ورجع السير كاسل بهذا ثم بعث يجيب عن السير غراى بأنه اذا سويت  
النفقات البحرية الألمانية بتخفيض سرعة البناء أو بأية وسيلة أخرى بحيث  
لا تضطر انجلترا الى زيادة نفقاتها البحرية زيادة خطيرة فان الحكومة  
البريطانية تكون مستعدة لفتح باب المفاوضات فى الحال مع العلم بأن مسألة  
النفقات البحرية ستكون موضع البحث وان الامل كبير بحلها ، فان صادف  
هذا رأى قبولا فهناك يذهب أحد الوزراء الانجليز الى برلين فأجاب  
بتمان بأنه مقبول بشرط أن تقدم انجلترا ضمانات كافية بتغيير سياستها  
العامة تغييراً ودياً ، ثم قال انه ينبغى ان تشمل الاتفاقية على بيان بان كلتا

الدولتين موافقتان على ألا تشتركا في خطط أو اتفاقات أو ارتباطات حربية موجهة ضد أية منهما

ولم يكن السير غراي نفسه ميالا الى قبول تلك الدعوة الودية الى الذهاب الى برلين خوفاً من اثاره وساوس فرنسا وخشية ان تكون المسألة مجرد مناورة يمكن لالمانيا ان تنكرها أو تسلم بها طبقاً لما يلائمها . وهو شخصياً لم يكن يؤمل ان تسفر الزيارة عن شيء يستحق الذكر . ولذا قرر ان لا يذهب هو وأن يذهب بدلاً منه لورد هولدين وزير الحربية على ان تكون الزيارة شخصية وغير رسمية حتى اذا لم توفق الى تحقيق غايتها لم تحدث ضجة ولم يقلق لها الرأي العام . وقد كتب السير غراي في سنة ١٩١٠ عند ما كان يتمان يسعى في الوصول الى تفاهم مع انجلترا الى السفير البريطاني في برلين يبلغه ان وقف النفقات البحرية من الجانبين أو تخفيفها هو المحك الوحيد الذي يمكن ان يحكم بمقتضاه إن كان يوجد أو لا يوجد سبيل للتفاهم ، وان اقتراحات يتمان لم تشر اشارة صريحة الى المسألة البحرية . فلما حدث ما اسلفنا سنة ١٩١٢ رأى ان الأمر آت من الامبراطور فخشي ان تلقى الحكومة الالمانية اللوم عليه إذا هو ذهب الى برلين ولم تسفر المفاوضات عن نتيجة . بيد ان غراي كان مصمماً قبل كل شيء على ان لا يمس الاتفاق الودي وخاصة بعد أن أخبره تشرشل بأن وزارة البحرية تنوى ان تسحب أسطول البحر الابيض المتوسط الى بحر الشمال ليكون بمثابة رد على العمارة الثالثة التي يريد تربتس انشاءها ومظهر لاعتماد انجلترا على الاسطول الفرنسي في البحر الابيض المتوسط .

وقد بادر السير غراي بابلاغ السفير الفرنسي خبر المحادثات المزمع اجراؤها تطميناً لفرنسا وأكد له انه لن يبرم مع المانيا شيئاً يكون من شأنه تقييد حريته . وقد كانت مهمة هولدين كما أبلغها للسفير الفرنسي أن يبحث في هل ألمانيا صادقة فيما عرضته من الاقتراحات أو غير صادقة ، وأن يحاول استقاء المعلومات عن خط بغداد الحديدى ، أما الدخول في مفاوضات



نُفَخَرج عن الموضوع فكل ما نرغب فيه هو أن نكسسه نيات الحكومة الألمانية ونسعلم عن خططها الخاصة بالبرنامج البحري . فكان موقف السير غراى هذا كفيلا بأن يقضى مقدماً على كل أمل فى نجاح اللجنة فى مهمتها .

وقد طرأ ظرفان كان من شأنهما أن يصعبا مهمة هذه اللجنة أيضاً وذلك أنه فى اليوم الذى وصل فيه هولدين الى برلين فى ٧ فبراير أعلن الامبراطور فى خطبته التى ألقاها بمناسبة افتتاح مجلس الريخستاج أنه ستقدم الى المجلس فى دور انعقاده مشروعات لزيادة الجيش والبحرية ، فكان من شأن هذا التصريح أن حمل ونستون تشرشل على القاء خطبة فى غلاسجو تنطوى على التحدى اذ قال « ان الاسطول البريطانى فى نظرنا ضرورة محتمة فى حين أن الاسطول الألماني يكاد يكون للامان من بعض الوجوه شيئاً كالياً . وسنظهر بالاجراءات التى سننخذها نحن أن بعض الدول البحرية الأخرى بدلا من ان تداهمننا بمضاعفة مجهوداتها ستظل وراءنا الى أبعد مما كانت . » وقد أساءت خطبته هذه المستر جون مورلى وبعض أعضاء الوزارة الذين كانوا أميل من غيرهم الى التمسك بأهداب السلام والذين كانوا يؤملون من صميم أفئدتهم أن يتم التفاهم مع ييتمان ، كما أثارت فى ألمانيا شيئاً من السخط . وبالرغم من هذين الظرفين السيئين كان استقبال هولدين فى برلين بالغاً منتهى الودحادياً الى شىء كثير من التفاؤل فى نفس اللورد وعند الامبراطور . وقد جرى أول حديث له مع ييتمان فى السفارة البريطانية فى ٨ فبراير فوقع من نفسه أن ييتمان يرغب مثله رغبة خالصة فى تجنب الحرب . وفى اليوم التالى تناول الغداء مع تربس والامبراطور فدارت بينهم مباحثة ودية طويلة نوه هولدين أثناءها بضرورة حيازة انجلترا لاسطول كبير يكفى لحماية تجارتها وحاجتها الحيوية من القوات والمواد الأولية . وأن لألمانيا مطلق الحرية فى انشاء السفن التى تريد . بيد أن انجلترا ستشئ سفينتين فى مقابل كل سفينة

تضيفها المانيا الى برنامجها . وبعد مناقشة طويلة في هذه النسبة ارتأى الامبراطور أن الأخلق أن يتجنب الكلام في الوقت الحاضر في برامج الانشاء وأن يجعل الاتفاق خاصاً بالمسألة السياسية المتعلقة بالسياسة العامة وشئون المستعمرات فاذا ما عقد هذا الاتفاق ونشر كلف الامبراطور ترتس أن يبلغ الريخستاج ان الحالة تغيرت تماماً بفضل هذا الاتفاق مع انجلترا وانه لذلك يمكن تأجيل انشاء السفن الثلاث المنصوص عنها في القانون لسنة ١٩١٢ و ١٩١٤ و ١٩١٦ الى ١٩١٣ و ١٩١٦ و ١٩١٩ . فوافق هولدين في كياسة على هذا الاقتراح واتفق على ان يحاول هو وبيتمان في اليوم التالي وضع صيغة لاتفاق سياسي . وبعد محادثة طويلة نهائية في يوم ١٠ فبراير سنة ١٩١٢ عرض بيتمان الصيغة الآتية لاتفاق سياسي وهي .

أولاً : تؤكد الدولتان الساميتان المتعاقدتان كل منهما للآخرى رغبتها في السلام والوثام .

ثانياً : لا تؤلف أية منهما اتحاداً أو تشترك في اتحاد يكون موجهاً ضد الاخرى وتعلن الدولتان صراحة انهما غير مرتبطتين باتحاد من هذا القبيل ثالثاً : اذا اشتبك اى من الطرفين المتعاقدين الساميين مع دولة او دول اخرى في حرب التزم الطرف السامى المتعاقد الآخر نحو الدولة المشتبكة بهذه الصورة الحياد المشرب بروح العطف على الاقل وافرغ قصاراه في حصر دائرة الحرب .

رابعاً : لا يسرى واجب الحياد الناشء عن المادة السابقة على الاتفاقات التي تكون الدولتان المتعاقدتان الساميتان قد عقدتاها بالفعل ما دام هذا الواجب يتنافى معها . وفيما عدا هذه الاتفاقات لا يجوز وفقاً لنص المادة الثانية عقد اتفاقات جديدة يستحيل معها على اى من الطرفين المتعاقدين التزام الحياد حيال الآخر .

وقد عارض هولدين في المادة الثالثة باعتبار أنها بعيدة المدى وأنها تمنع

انجلترا من المبادرة الى مساعدة فرنسا فيما لو هاجمتها ألمانيا وقصدت الى الاستيلاء على ثغور كدنكيرك وكاليه وبولوني . وهذا أمر لا يسع بريطانيا السكوت عليه لانه من الحيوى لها بصفة كونها جزيرة أن تبقى هذه الموانئ في يد فرنسا الصديقة . قال فلو فرض أن هاجمت إنجلترا دانماركا واستولت على محطة بحرية أفلا يكون لألمانيا الحرية في أن تفعل ما تشاء ؟ كذلك اذا انقضت ألمانيا على فرنسا بجيشها الهائل لن تستطيع إنجلترا أن ترتبط بالتزام الحياد . فضلا عن أن مثل هذه الصيغة قد تعوق إنجلترا عن القيام بما عليها من واجبات فرضتها المعاهدات القائمة نحو بلجيكا والبرتغال واليابان . ومن ثم اقترح هولدين تعديل المادتين الثانية والثالثة على النحو الآتي :

المادة الثانية - لا تهاجم أية من الدولتين أو تستعد لمهاجمة الدولة الأخرى ما دامت لم تسترهما، ولا تشترك في اتحاد أو مشروع ضد الدولة الأخرى يكون الغرض منه تحقيق غايات عدوانية، ولا تكون طرفا في أية خطة أو مشروع بحرى أو عسكري وحدها أو مع دولة أخرى متى كانت هذه الخطة أو هذا المشروع موجهاً الى هذه الغاية .

المادة الثالثة - اذا اشتبك أى من الطرفين الساميين المتعاقدين مع دولة أو دول أخرى في حرب لا يكون هو البادى بالعدوان فيها التزم الطرف السامى المتعاقد الآخر نحو الدولة المشتبكة بهذه الصورة الحياد المشرب بروح العطف على الأقل وأفرغ قصاراه في حصر دائرة الحرب .

ولشدة لطفه يتيان على الاتفاق جنح الى هذا الطعم دون أن يورط نفسه بتناوله ثم أخذت ألمانيا فيما بعد تدلل بحق بأن كلمتي « ما دامت لم تسترها » . « والبادى بالعدوان » . غامضتان أكثر مما ينبغى ومرتان عند التفسير إذ أنه من الصعب دائماً في المواقف المعقدة التي تؤدي الى الحرب أن يدل المرء على المعتدى الحقيقي . فجعل الحياد متوقفاً على مثل هذا الغموض والمرونة في التأويل يسلب الاتفاق كل مزاياه وفوائده . ولو قدر أن

اشتبكت ألمانيا في حرب مع روسيا وفرنسا فان حياد انجلترا يصبح متوقفاً على رأيها هي في هل كانت ألمانيا المثيرة للحرب أو لم تكن .

أما في صدد المستعمرات فلم تقم مصاعب تذكر في سبيل الاتفاق بين بيمان وهولدين ، وهو اتفاق لم يكن مع ذلك مقيداً لأحد الفريقين . فقد اقترح في تقسيم المستعمرات البرتغالية أن تأخذ ألمانيا انجولا ، وانجلترا نيمور ، واتفق على أنه في استطاعة ألمانيا أن تتباع الكونغو البلجيكية على أن تعطى انجلترا حق المرور لخط حديدى بين القاهرة والكاب . كذلك اتفق على أن تنزل انجلترا عن زنجبار وبمبا في مقابل عقد تسوية مرضية في صدد سكة بغداد الحديدية كأن تكون سيطرة انجلترا على القسم من بغداد الى البصرة على مقربة من الخليج الفارسى بنسبة ٥١ ٪ .

أما في صدد المناقشة البحرية فقد وافق هولدين على أنه لا بد من عرض القانون البحرى الجديد على مجلس الريخستاج بعد اذ أشار اليه الامبراطور علانية . لكنه أظهر شكه الكثير في أن ترضى الوزارة الانجليزية بهذا التأجيل الضئيل للأشياء البحرى وهو ما كان الامبراطور قد ذكره في اليوم السابق . وأبدى أن انجلترا قد تضطر الى اتخاذ اجراءات مضادة للاجراءات الألمانية فضلاً عن أن رأى العام الانجليزى قد لا يوافق على عقد اتفاقية سياسية بين البلدين في الوقت الذى يزيد فيه الفريقان نفقاتهما البحرية . وقد عاد هولدين الى لندن يحمل في جعبته مشروع القانون البحرى الألمانى المزمع عرضه على الريخستاج وكان قد سلمه الامبراطور اياه سراً قبل أن يطلع عليه المجلس أو الجمهور .

ولما كان مشروع القانون ضخماً يتطلب فهمه قسطاً من المعلومات الفنية فان هولدين لم يحاول درسه في برلين . لكنه لما عرضه على ونستون تشرشل وعلى امارة البحر ابتغاء فحصه تبين لفاحصيه أنه يقتضى من جانب انجلترا . وألمانيا على السواء نفقات بحرية باهظة . ومن ثم بعث الانجليز الى برلين

بمذكرة وجهوا فيها التفاتها لا الى القطع الثلاث المراد انشاؤها فحسب بل أيضاً الى الزيادة الكثيرة التي تتطلبها المشروع في الرجال وفي النفقات فيما يتعلق بتجهيز العمارة الثالثة الجديدة. وأبدوا أنه أصبح من المتعين على انجلترا أن تنشئ دريدوطين في مقابل كل دريدنوط تزيد ألمانيا على أسطولها... وهذه اجراءات من الجانبين لن يراها الرأي العام بما يتفق مع انشاء علاقات ودية. ولقد بعث مترنيخ تقريراً يقول فيه ان الاتفاقية السياسية توشك أن تتحطم على صخرة القانون البحري وأنه لانقاذ الاتفاقية يجب أن يضحى بالقانون أو يعدل تعديلاً كبيراً. وكان غراي قد صارحه قبل ذلك ببضعة أيام بأن من المستحيل عقد اتفاق سياسي والدولتان توشكان أن تزيدا نفقاتهما البحرية فان هذا ليكون في عين الجمهور من المتناقضات.

وقد تركت المذكرة الانجليزية أسوأ أثر في برلين اذ قضى السير غراي على كل أمل في الاتفاق وعدل عن الاساس الذي قبله هولدين قاعدة للمناقشة فبدلاً من الاتفاق على الحياد سمح لنفسه بالخوض في نقد القانون البحري ومناقشة التفاصيل مما لم يعرض له هولدين بحرف واحد - حتى في مسائل المستعمرات لاح أن غراي يسحب باليسرى ما سبق أن أعطاه باليمنى وأنه يقيم العراقيل. مثال ذلك أنه اكتشف فجأة أن هولنده حق الاولوية في شراء نيمور وأنه يصعب على انجلترا أن تتنازل عن زنجبار وبمبادون أن تأخذ عوضاً عنهما بعض الممتلكات الالمانية وأن التساهل الخاص بخط بغداد الحديدي تافه وغير مرض.

وقد تملك الامبراطور سورة الغضب للتحول الذي ظهر على موقف انجلترا اذ كان قد وافق على المضي في المفاوضات على الاساس الذي وضع مع هولدين وليس على الاساس الذي اقترحه غراي. وقد كتبت مذكرة بهذا المعنى لترسل الى مترنيخ لكن بيتمان حبسها بضعة أيام لانه كان برغم كل شيء يكافح وكيدرلن لارضاء غراي. وقد حاولا أن يحملا الامبراطور

وتربتس على العدول عن انشاء السفن الثلاث وتأخير نشر القانون البحرى مرة أخرى . لكن الامبراطور كان قد عيل صبره فأراد عرض القانون بعد اذ أشار اليه وبعده أن بات أسبوعان فى أيدي الانجليز . وأخيراً أبرق الامبراطور فى يوم ٥ مارس الى يتيان بأن المذكرة الخاصة بمتريخ يجب أن تسلم الى غراى فى صبيحة ٦ مارس ليتسنى عرض القانون البحرى على الريخستاج فى مساء اليوم نفسه . ثم اتبع طريقة غير مألوفة فأبرق بنفسه الى متريخ يقول انه يلوح أن انجلترا قد عدلت نهائياً عن الأساس الذى وضعه هولدين أما هو فتمسك به ، مصر على تنفيذ القانون البحرى فيما عدا تأجيل جزئى فى انشاء السفن الكبرى ، وأنه اذا سمحت انجلترا أسطول البحر المتوسط الى بحر الشمال كان عملها هذا بمثابة تهديد بالحرب وسوف يكون رد المانيا عليه زيادة أسطولها بل ربما أيضاً اعلان التعبئة .

هنا رفع يتيان استقالته لانه لا يتحمل تبعه سياسة كهنه ولا املاء الامبراطور سياسته على سفراء ألمانيا بدون الاستئناس برأى مستشاره . واذ ذاك بادر الامبراطور بالعودة الى برلين وأقع يتيان بالبقاء فى منصبه ووافق على تأجيل نشر القانون البحرى مدة أخرى ومواصلة المفاوضات مع انجلترا . لكن تربتس هدد بدوره بالاستقالة اذا عدل نهائياً عن القانون البحرى . وبعد مشادة عنيفة بين الوزيرين تغلب الاميرال على المستشار فتقرر أن لا يجرى تخفيض ما فى القانون فيما عدا التأجيل البسيط فى انشاء السفن الكبرى . لقد كانت المفاوضات مع انجلترا دائرة فى الوقت نفسه دون أن يكون ثمة أمل فى نجاحها فيما يتعلق بالتزام الحياد أو تحديد الانشاء البحرى ؛ ثم أهملت المفاوضات نهائياً فى يوم ٢٩ مارس عند ما أبلغ السير غراى متريخ أن الوزارة البريطانية قد رفضت بصفة نهائية الصيغة التى وضعها يتيان خاصة بالتزام الحياد . وقد عرض غراى بدلا منها صيغة أخرى ضيقة رفضتها ألمانيا باعتبارها غير مرضية ولا تتيح الضمان الكافى من عدم الاشتباك مع انجلترا .

وكان المستر تشرشل قد عرض الاعتمادات البحرية الجديدة على البرلمان في ١٨ مارس وكانت تقضى بإنشاء سفينتين في مقابل كل سفينة اضافية تنشأ ألمانيا وبالنفقات البحرية الجديدة التي توعده بأن تكون بمثابة رد على القانون البحري الألماني المنتظر . فقد تقرر أن يغادر أسطول الاطلنطيق جبل طارق الى المياه الانجليزية على ان يحل محله في جبل طارق اسطول البحر الابيض المتوسط الذي كانت قاعدته مالطه . وفي ١٤ ابريل عرض القانون البحري على الريخستاج فأقره المجلس المذكور كما هو في يوم ١٤ مايو . وهكذا فشلت لجنة هولدين لسبينين أولاً لان انجلترا أبت أن تعقد اتفاقاً سياسياً يقضى بحيادها وتقييد حريتها في مساعدة فرنسا وثانياً لأن ألمانيا أبت أن تخفض القانون البحري الاضافي تخفيضاً يرضى انجلترا . أما مسألة المستعمرات ومسألة سكة حديد بغداد فقد كاتتا وحدهما اللتين تيسر الوصول في شأنهما الى اتفاق كان على وشك أن يبرم قبيل إعلان الحرب العالمية . وبذا أدت بعثة هولدين كما أدت محادثات بوتسدام مع روسيا في سنة ١٩١٠ الى ازالة بعض أسباب النزاع لكنهما أخفقتا في تحقيق غرض من أغراضهما الاساسية وهو الوصول الى اتفاق كتابي يخفف من عزلة ألمانيا السياسية ويوهن عرى الوفاق الودي الثلاثي .

### توثيق عرى الوفاق الودي الثلاثي سنة ١٩١٢

كان إسقاط ألمانيا لديلكاسيه في سنة ١٩٠٥ وارسالها المدفعية باتر فجأة الى ثغر أغادير عملاً وحشياً في نظر الفرنسيين ومظهراً لما اعتاده الالمان من الضرب على المائدة الخضراء كلها أرادوا إحراز فوز سياسي . وقد أذعن الفرنسيون في كلتا المناسبتين خوفاً بما ظنوه تهديداً من ألمانيا بالحرب . وفي كلتا الحالتين ارغموا على عمل ما اعتبروه تساهلاً مذلاً لانهم لم يكونوا مستعدين لمقابلة التحدي بمثله . وهذه الاعمال من جانب ألمانيا كانذارها

الذى وجهته الى روسيا فى أزمة البوسنة وكمواقف الامبراطور المنطوية على المشاكسة أثارت فى فريق من السياسيين الفرنسيين روحا وطنية جديدة ، وأنعشت الرغبة فى الانتقام وفى استرداد الالزاس واللورين . وقد قوى هذه الروح الجديدة وزاد فى نفوس الفرنسيين التصميم والثقة بالنفس صداقتهم لانجلترا واعتقادهم المتزايد بان انجلترا لن تضع فقط اسطولها الى جانب فرنسا فى حالة نشوب حرب بينها وبين المانيا بل سوف ترسل اليها قوة تشد أزر جيشها وتعزز جناحه الايسر . ولما كان اكثر هؤلاء الزعماء الفرنسيين لا يشكون كثيراً فى أن المانيا سوف تحاول عدواناً جديداً فقد كان هذا مما يجعل الحرب فى نظرهم أمراً لا مفر منه ، ولذا ينبغى ان تستعد فرنسا لهذه الحرب وتزيد جيشها وتوسع بحريتها وتحكم صلاتها بحليفاتها على حدود المانيا الشرقية وبصديقتها عبر بحر المانش .

وقد كان هذا الشعور الوطنى مجسماً فى شخص المسيو بوانكاريه ولقيف من أصدقائه . وقد عمل بتصميمه وثباته ومقدرته على تقوية هذا الشعور ونشره اكثر مما عمل غيره . وكان من بين أسباب هذه التقوية سقوط وزارة المسيو كايو التى اتهمت بالاستخذاء والخنوع أمام المانيا فى أزمة أغادير وتأليف ما أسماه « الوزارة العظيمة » أو « الوزارة القومية » فى ١٣ يناير سنة ١٩١٢ برئاسة المسيو بوانكاريه الذى تقلد فيها ايضاً منصب وزارة الخارجية . والمسيو بوانكاريه من مواليد بارلى — دوك من أعمال اللورين ؛ كان فى سن العاشرة عندما اجتاحت المانيا بلاده فى سنة ١٨٧٠ وانتزعت أقليمه من حوض الوطن الفرنسى ؛ وهو ابن أحد علماء الفلك المبرزين وشقيق أحد الطبيعيين النابغين ويمت بالقراءة الى أحد الرياضيين الممتازين . أما بوانكاريه نفسه فسرعان ما أظهر مقدرة فى المحاماة أدخلته مجلس النواب فى سن باكرة هى الساعة والعشرين فالوزارة بعد ذلك بست سنوات كوزير للمعارف فى سنة ١٨٩٣ . وقد اختير فيما بعد وكيلاً لمجلس النواب



وعين مرتين وزيراً للهالية قبل أن يتولى رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية في سنة ١٩١٢ . ولم يظهر منذ عهد بسمارك رجل داني المسيو بوانكاريه في الكفاية والمقدرة فان طول عهده بالخدمة العامة وجلده وحيويته الخارقة للعادة وقدرته على تذكر التفاصيل ووضوح غاياته وعزيمته التي لا تعرف الكلل في تحقيق مراميه — كل هذه الصفات جعلته علماً بين الساسة العصريين .

وإذا أضفت الى هذه الصفات مقدرته الخطائية ومرانه في الحقوق أدركت السهولة التي كان ينتصر بها على خصومه في مجلس النواب ويخضع بها زملاءه ومرؤوسيه في مجلس الوزراء . وقد لا يستحسن المرء دائماً مراميه لكن المهارة والمقدرة اللتين كان يظهرهما في تحقيقها خليقتان بالاعجاب . فقد كان يعلم بالدقة ما يريد ويسعى اليه رأساً في عزم وتصميم .

هذا هو الرجل الذي أدار في الغالب دفة السياسة الفرنسية الخارجية وسيطر عليها من سنة ١٩١٢ الى سنة ١٩١٤ ونعتقد انه كان ذا نفوذ كبير في توجيه تلك السياسة وجهة عدوانية خطيرة وهي التي لم تكن تعبر اذ ذاك عن رغبات الاغلبية العظمى للشعب الفرنسي المحب من قلبه السلام ولم تكن تلك الاغلبية لتقرها لو أنها ادركتها وفطنت الى الكارثة التي كانت تلك السياسة تفضي اليها .

اما الرجل الذي عاون بوانكاريه اكبر معاونة في تقوية روابط الوفاق الودي الثلاثي فهو ايزفولسكي سفير روسيا في باريس ، وقد ظهر الآن ان ايزفولسكي كان مغروراً مخدوعاً في نفسه ميالاً الى الدسائس لا يوثق به دائماً . ومن ثم كان من المحتم ان لا تؤخذ اقواله قضية مسلبة . ولقد كان من اول ما عني به بوانكاريه بعد تشكيله الوزارة القومية تدعيم العلاقات الوثيقة بانجلترا ، إذ كان على شيء من القلق من جراء بعثة هولدين ومن الخوف من امكان وصولها الى عقد اتفاق مع المانيا على رغم تأكيدات السير غراي . ولذا رحب بالخطوة الغريبة التي خطاها السير فرنسيس رتي

السفير الانجليزي في باريس لما خشى ان يتراجع السير غراى تحت تأثير زملاء له في الوزارة امثال لورد لورييرن والسير هاركورت وغيرهما ممن كانوا يميلون الى التفاهم مع المانيا، وان يقيم هؤلاء الدنيا ويقعدوها اذا هم علموا بالمحادثات العسكرية والبحرية التي كانت دائرة بين انجلترا وفرنسا من سنوات دون ان يعرفوا عنها شيئاً ، فاقترح سرأ على بوانكاريه وبصفة غير رسمية ان يلفت نظر السير غراى بطريقة حازمة الى ما يترتب من الاخطار على عقد اتفاقية حياد مع المانيا . فبادر بوانكاريه الى العمل بهذه النصيحة دون ان يبوح بمصدرها وابرق الى كامبون في لندن برسالة حازمة بهذا المعنى . وقدم كامبون زبدتها الى غراى في ٢٩ مارس في نفس اليوم الذي قررت فيه الوزارة البريطانية رفض صيغة بيتمان الخاصة بالحياد فقضت على الآمال التي كانت معقودة ببعثة هولدين . ولم يعرف على التحقيق أكان تسليم مذكرة بوانكاريه قبل اجتماع مجلس الوزراء البريطانى أم بعده وهل كان لها تأثير حاسم في عمل انجلترا أو لم يكن . وقد اغفل غراى ذكر شيء في مذكراته عن هذا التدخل من جانب بوانكاريه ، ولا يزال يتوقف جلاء هذه النقطة وغيرها على نشر المحفوظات الانجليزية بأكملها .

على ان بعثة هولدين حفزت بوانكاريه الى السعى في الحصول من انجلترا على تعهد كتابي ، فقد كان اقتراح المستر تشرشل بسحب اسطول البحر الابيض المتوسط وحشده ضد المانيا في بحر الشمال موضع مناقشة حامية في الصحف الانجليزية والفرنسية أدت الى أن حضرت صحف انجليزية كثيرة على ان يحول الاتفاق الودى الفرنسى الانجليزي الى مخالفة دفاعية حقيقية معينة . وكان هذا ايضاً ما شعر المسيو بوانكاريه بوجوده فكلف به بول كامبون ففتح السير ارثر نيكولسن وكيل الخارجية بأن الضرورة تقضى بتوثيق عرى الوفاق الودى باتفاق كتابي . وكان السير نيكولسن نفسه من رأى السفير ، لكن السير غراى بعد الاتقادات الشديدة التي

وجهت اليه في البرلمان لانسياقه مع تيار الاستعمار الفرنسي في مرا كس والروسي في فارس لم يشأ أن يخطو هذه الخطوة دون علم الوزارة بأسرها . ولما كان كثير من زملائه لا يعرفون شيئاً عن المحادثات العسكرية التي كانت دائرة من سنة ١٩٠٦ فقد أغفل اقتراح كامبون إذ ذاك . على أن بوانكاريه قوى الوفاق الودي الثلاثي ومركز فرنسا البحري في البحر الأبيض المتوسط بأن عقد في تلك الأثناء اتفاقاً بحرياً مع روسيا .

وفي مايو سنة ١٩١٢ زار المستر تشرشل مالطه بصحبة المستر اسكويث لمباحثة لورد كتشنر في صدد الحالة في مصر وهو وقف بريطانيا في البحر الأبيض المتوسط . فلما عاد أعلن في البرلمان في ٢٢ يولييه خطة الأيرالية القاضية بسحب أسطول البحر الأبيض المتوسط وحشده في بحر الشمال . وفي الوقت نفسه اقترح على الملحق الحربي الفرنسي مشروعاً للتعاون بين الأسطولين . لكن فرنسا ترددت في قبوله لأن ديباجته الموضوعية في لهجة تدل على الاحتراس نصت على ألا تعتبر خطة التعاون مقيدة لحرية أحد الفريقين ، وهذا الاحتياط مجرد المشروع من فوائده في نظر الفرنسيين .

وبينما كانت هذه المحادثات دائرة وقيل البت فيها برأى قاطع أعلن من جراء تسرع أحد مرؤوسى ديلكاسيه وتهاونه وقبل أن يؤون أوان ذلك أن أسطول برست سينتقل إلى البحر الأبيض المتوسط . فأثار هذا النبأ كما يقول المسيو بوانكاريه ضجة شديدة وعدته الصحف دليلاً على أن الاتفاق البحري قد تم بين فرنسا وانجلترا . وقد جاء هذا الخبر كحافز جديد للباحثات بين الحكومتين إذ عاد المسيو بوانكاريه فكلف المسيو كامبون بأن يطلب من غراى اتفاقاً كتابياً وافق على أن يحرره أخيراً . لكنه قبل أن يخطو هذه الخطوة الهامة رأى بحق أن يطلع عليها الوزارة بأسرها لتقرها وهكذا أبلغها نبأ المحادثات الانجليزية الفرنسية التي كانت دائرة من سنة ١٩٠٦ وأصر على ألا يكون الاتفاق الكتابي في صورة وثيقة سياسية رسمية بل أن يكون

على شكل مكاتبة شخصية بينه وبين المسيو كامبون . وبذا سلم المسيو كامبون في ٢٢ نوفمبر كتاباً صادقت عليه الوزارة وتلقى منه في اليوم نفسه كتاباً آخر يمثله . وهذا ما جاء بكتاب غراى الذى توخى فيه الاحتراس :  
وزارة الخارجية .

في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٢ .

عزيزى السفير .

في السنوات الأخيرة كان خبراء بحريون وعسكريون من الفرنسيين والانجليز يتشاورون حيناً بعد حين . وقد كان مفهوماً دائماً أن مثل هذا التشاور لا يقيد حرية أية من الحكومتين في أن تقرر فيما بعد ما إذا كانت تساعد أو لا تساعد الحكومة الأخرى بالقوة المسلحة . ونحن متفقون على أن التشاور بين الخبراء ليس ولا ينبغى أن يعتبر تعهداً يلزم أية من الحكومتين بالعمل في ظرف طارىء لم ينشأ وقد لا ينشأ أبداً . مثال ذلك أن ترتيب الأسطولين الفرنسى والبريطانى ليس قائماً في الوقت الحاضر على ارتباط بالتعاون في الحرب . على أنك ألمعت إلى أنه إذا كان لدى أية من الحكومتين سبب خطير يحملها على أن تتوقع من جانب دولة ثالثة اعتداء لم تستر هي اليه فقد يصبح من الضروري أن تعلم هل يسعها في هذه الحالة أن تعتمد على مساعدة الحكومة الأخرى بالقوة المسلحة .

وإني موافق على أنه إذا كان لدى أية من الحكومتين سبب خطير يحملها على أن تتوقع من جانب دولة ثالثة اعتداء لم تستر اليه ، أو شيئاً يهدد السلام العام وجب على الفور أن تبحث مع الأخرى في هل يجب أن تعمل كلتا الحكومتين معاً على منع الاعتداء والمحافظة على السلام ، فإذا كان هذا هكذا ، بحث في الاجراءات التي تتخذ معاً . فإذا كانت هذه الاجراءات تتطلب العمل نظر في الحال في خطط هيئتي أركان الحرب العامتين وعندئذ تقرر الحكومتان ما ينبغى أن يتخذ في شأن تنفيذها ؟ . غراى

لقد حدد هذان الكتابان اللذان تبادلها غراى وكامبون علاقات  
الوزارتين الفرنسية والبريطانية ، ما تعلق الأمر ببيانات مكتوبة ، وظل  
شأنهما كذلك إلى وقت نشوب الحرب . وقد لبث السير إدوارد غراى يتوهم  
أن « يديه طليقتان » في حين كانت المحادثات العسكرية كما أبان المستر كامبل  
بانرمان والمستر أسكويث خطرة بما حدث به الفرنسيين من تشجيع ، وفي  
حين كان الترتيب الجديد الخاص بالأسطولين البريطانى والفرنسى والذى  
تم فى أواخر سنة ١٩١٢ قد وثق الروابط بين انجلترا وفرنسا أكثر مما كانت  
كما أنذر ونستون تشرشل . فقد فرض هذا الترتيب على انجلترا واجبا أدبيا  
لا مفر هو حماية شاطئ فرنسا إذا نشبت حرب بينها وبين ألمانيا — أى أن  
تشارك فى هذه الحرب إلى جانب فرنسا كائنة ما كانت كيفية نشوبها . . .  
وقد كانت السلطات العسكرية الفرنسية بوضعها الخطة المرقومة « بالثامنة  
عشرة » ( وهى الخطة الحربية التى اتبعها الفرنسيون فى سنة ١٩١٤ ولكن  
فى صورة معدلة ) تشعر بأنها لا يسعها أن تعتمد وملؤها الثقة على تعاون  
الجيش الانجليزى معها ، لكنها لم تكن تشك مطلقاً فى أن لها أن تعتمد على  
البحرية البريطانية . « فى استطاعتنا فى البحر أن نعتد دون أية مخاطرة على  
تأييد الأسطول البريطانى ومساعدته الفعالة . أما فى البر فالتفاهم القائم بين  
هئتي أركان حرب البلدين ينص على استخدام جيش انجلترا المؤلف من  
١٢٠,٠٠٠ رجل على جناحنا الأيسر . [ بيد أن هذه المساعدة لا يزال  
مشكوكا فيها ] فلنسلك إذن مسلكا حكيما بأن لا نجعل فى حسابنا هذه القوى  
الانجليزية حين نضع خطة القتال ١ » .

على أنه لم يكن معنى هذا ان الجنرال جوفر لم يتوقع مساعدة عسكرية  
من جانب الانجليز وانما كان معناه أنه ينبغى ألا توضع خطة التعبئة الفرنسية  
بحيث تتوقف كل التوقف على معاونة الانجليز العسكرية . فأن التفاصيل الأخرى

الواردة في « الخطة الثامنة عشرة » تدل لاعلى أن الحملة البريطانية كانت تتوقع فقط بل أيضاً على أنه قد نص بالذات على كيفية نقلها وحشدتها على حدود البلجيك .

واعتقاد الفرنسيين بأنه يسعهم أن يعتمدوا على البحرية البريطانية ذو مغزى من الوجهة السياسية لأن هذا سوف يجر الى اشتراك بريطانيا في الحرب مع كل ما يترتب على هذا الاشتراك من الفوائد لفرنسا والروسيا من جراء تفوق إنجلترا البحري العظيم وامكانها بهذا التفوق أن تحاصر ألمانيا وتقطع عنها القوات والمهمات الحربية ، فضلاً عن الأثر الأدبي العظيم الذي يكون لاشتراك الامبراطورية البريطانية بالفعل في صف المحالفة الفرنسية الروسية .

هذه الترتيبات البحرية بين إنجلترا وفرنسا كانت تتصل اتصالاً وثيقاً بالاتفاقية البحرية المعقودة بين فرنسا والروسيا . فقد رغبت روسيا في أن لا ينازعها أحد السيطرة البحرية على البحر الأسود وكانت تعتقد أن حليفها فرنسا تستطيع وينبغي أن تعين الأسطول الروسي على الاحتفاظ بتفوقه في البحر الأسود بمنع قوى النمسا أو إيطاليا البحرية من اجتياز مضيق الدردنيل والبوسفور . فاذا وقعت حرب أوربية فان هذا خليف أن يؤمن الجناح الأيسر للجيش الروسي ، وهذا بدوره سوف يكون في مصلحة الوفاق الثلاثي في ميادين الحرب الأخرى . كذلك كانت روسيا ترغب في أن تنقل جانباً من أسطول البلطيق لتكبير أسطولها في البحر الأسود ، وليكون لها إن أمكن قاعدة بحرية في البحر الأبيض المتوسط . فهذه الاعتبارات وغيرها هي التي جعلت الروسيين يرغبون في أن تربطهم بفرنسا اتفاقية بحرية وثيقة . أما الفرنسيون فرحبوا من جانبهم بذلك وأجابوا الروسيين ما أمكن الى كل رغباتهم ليقوى بذلك التضامن في العمل بين البلدين .

ولما زار بوانكاريه روسيا في أغسطس ١٩١٢ كان من بين ما تناوله

حديثه مع سazonوف من الموضوعات الهامة تعاون القوى البحرية لدول  
الوفاق الثلاثي تعارناً وثيقاً . وقد روى الأخير أن بوانكاريه أسر اليه  
أنه مع عدم وجود معاهدة مكتوبة بين فرنسا وانجلترا فان هيئات أركان  
الحرب العسكرية والبحرية في البلدين على اتصال وثيق، وأن تبادل الآراء بين  
الفريقين بصفة دائمة قد أسفر عن عقد اتفاق شفوي بين الحكومتين الفرنسية  
والانجليزية أعلنت بموجبه انجلترا أنها مستعدة لمساعدة فرنسا بقواها  
العسكرية والبحرية اذا اعتدت عليها ألمانيا . وقد رجا سazonوف أن يكتم  
هذه المعلومات كل الكتمان ، وأن لا يتيح للانجليز أنفسهم سبباً لأن يشتبهوا  
فيما أبلغه إياه . ثم حض سazonوف أيضاً على أن ينتهز فرصة زيارته المقبلة  
لانجلترا ليبحث في عقد اتفاق انجليزي روسي بحري يكمل التعاون البحري  
بين دول الوفاق الثلاث فيما لو وقعت حرب مع ألمانيا .

وقد عمل سazonوف برأى بوانكاريه فأطلع غراي أثناء زيارته لبالمورال  
في شهر سبتمبر على زبدة الاتفاقية البحرية الجديدة المعقودة بين روسيا  
وفرنسا قائلاً إن الفرنسيين سيجتهدون في تأمين المصالح الروسية في الميدان  
الجنوبي بمنع الأسطول النمساوي من الدخول الى البحر الأسود . وعندئذ  
سأل أتودي انجلترا نفس هذه الخدمة لروسيا في الشمال بصد الأسطول  
الألماني عن بحر البلطيق . ويقول سazonوف في تقريره الى القيصر أن غراي  
صرح له بأنه اذا نشأت الظروف المشار اليها فان انجلترا ستبذل كل جهد  
لتوجيه أقصى ضربة الى قوة ألمانيا البحرية . قال ، وقد أثبت لي غراي من تلقاء  
نفسه ما كنت قد سمعته من بوانكاريه من أن هنالك اتفاقاً بين فرنسا وبريطانيا  
العظمى ارتبطت بموجبه بريطانيا العظمى بأن تساعد فرنسا في حالة وقوع  
حرب مع ألمانيا لا في البحر فقط بل في البر أيضاً بانزال جنود في القارة  
وقد أشار الملك في أحد أحاديثه معي الى هذه المسألة عينا وتكلم عنها  
بأقوى مما تكلم وزيره . ولما ذكرت له أن ألمانيا تحاول أن تضع قواها

البحرية في مستوى قوى بريطانيا العظمى صاح جلالته قائلاً أن أية حرب سيكون لها نتائج محفوفة بالنكبات لا للبحرية الألمانية فقط بل لتجارة ألمانيا فيما وراء البحار أيضاً قال: « وسنغرق كل سفينة تجارية ألمانية تقع في قبضتنا ». ويلوح لي أن هذه العبارات لا تعبر عن شعور جلالته الشخصي فحسب بل تعبر أيضاً عن الشعور العام السائد في بريطانيا العظمى نحو ألمانيا .

وليس يعلم بالضبط ما إذا كان سازونوف قد روى حديث بوانكاريه وغراي على حقيقته فإن هذه مسألة تكتنفها الشكوك . لكن كونه قد أبلغ القيصر مثل هذه الأقوال يدل على مبلغ تشجع الفرنسيين والروسين — وهؤلاء بصفة خاصة — بوجود « محادثات » عسكرية وبحرية بين إنجلترا وفرنسا وميلهم الى تفسيرها بأنها وعد من الانجليز بالمساعدة فيما لو نشبت حرب أوربية عامة . وقد كان هذا الاتفاق البحري سبباً لتصريحات من جانب دول الوفاق انطوت على المراوغة وزادت في اشتباه ألمانيا في نياتهم العدوانية . فقد تسرب نبأ هذا الاتفاق البحري بين فرنسا والروسيا من وزارة الخارجية الفرنسية أو الروسية فسرعان ما أشارت الصحف الفرنسية الى وجوده وهذا أفضى الى تحريات من جانب ألمانيا فنفاه كوكوتسيف في سان بطرسبورغ دون أن يؤكد نفيه بتصريح علني ، وأجاب غيره من الموظفين الروسين والفرنسيين اجابات تنطوي على الروغان مؤداها أنه لم يوقع اتفاق وإنما هناك مشاورات بين هيئات أركان الحرب العسكرية والبحرية في البلدين لأن فرنسا والروسيا حليفتان . وبالمثل ما فعله مستر اسكويث والسير ادوارد غراي بعد تبادل الأخير الكتب مع كامبون فقد ظلا ينفيان في البرلمان بصفة جدية أن هنالك أية اتفاقات سرية تلزم إنجلترا بالاشتراك في حرب تقع في القارة وإن كان هذا — كما رأينا — هو ما كان الفرنسيون والروسيون يعولون عليه . فلما توصلت الحكومة الألمانية بصفة سرية في ربيع سنة ١٩١٤ إلى العلم بكتابي غراي وكامبون أحدثت كافة هذه التكذيبات قلقاً



في ألمانيا . وهذا عين ما وقع لما دارت المفاوضات لعقد اتفاقية بحرية بين انجلترا والروسيا قبل نشوب الحرب .

لقد كان كتابا غراي وكامبون بعد ذلك التأييد السياسى المتواصل الذى لقيه فرنسا من انجلترا فى خلال الأزمة المراكشية من مبدئها إلى منتهاها بمثابة أساس مرضى جداً للثقة المتبادلة بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية . وقد ازدادت هذه الثقة وذلك الوثام بعوامل كثيرة : بالارتياح المشترك فى ألمانيا؛ بالعلاقات الشخصية الودية بين السير ادوارد غراي وبول كامبون؛ بالحقيقة الواقعة فى أنه لم يكن لانجلترا أغراض عدوانية تتعارض مع مصالح الفرنسيين ، وبالغناية التى كان المسيو بوانكاريه يبذلها فى سعيه الى تعرف رغبات السير ادوارد غراي والتوفيق بينها وبين السياسة الفرنسية ما أمكن . وقد كان بين فرنسا وانجلترا فى الواقع من الوثام والثقة المتبادلة مع كونهما «أصدقاء» فقط أكثر مما كان بين فرنسا والروسيا الحليفين . فأن من يدقق فى فحص مكاتبات ايزفولسكى وتعرف خلقه وأساليبه وينعم النظر فى مذكرات المسيو بوانكاريه ير أنه لم تكن بين الحليفين ذلك الاتحاد التام الذى طالما افترض وجوده بينهما .

وقد أسلفنا الإشارة الى أن المحالفة الفرنسية الروسية كانت فى الأصل دفاعية من حيث معناها وأغراضها . لكنه فى سنة ١٩١٢ وفى عهد رئاسة بوانكاريه للوزارة بدأت صبغة هذا التحالف تتغير فجعلت فرنسا تعضد خطط روسيا العدوانية فى البلقان بأكثر مما كانت تفعل وطمأنت روسيا بأنها ستتقدم الى معوتها عسكرياً إذا جرت هذه الخطط الروسية الى حرب مع النمسا وألمانيا . ومن بشائر هذا التغيير وأسبابه ما وقع من الدسائس ضد المسيو جورج لويس .

فجورج لويس السياسى المحنك كان يشغل منصب المدير السياسى فى وزارة الخارجية الفرنسية من سنة ١٩٠٤ إلى ١٩٠٩ ثم عين سفيراً لفرنسا لدى

الروسيا حيث ظل يشغل هذا المنصب إلى أن استدعى في فبراير سنة ١٩١٣. وقد كان يستعمل نفوذه في قصر التحالف الفرنسي الروسي على صبغته الدفاعية الأصلية. فكان يجذب السياسة الانجليزية الفرنسية القاضية بالمحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية على نقيض ما كانت تدبره روسيا. وكان يخشى أن تجر مطامع الروسية في البلقان فرنسا إلى حرب، ويرتاب في أغراض إيزفولسكي ودسائسه. ففي أواخر سنة ١٩١١ عند ما كان منتدباً للعمل في منصب المدير السياسي الخالي في باريس ناهض مساعي إيزفولسكي في «تقييد» فرنسا باتفاق كتابي لتأييد خطة الغرض منها فتح البواغيز للسفن الحربية الروسية. وبذا تعرض لاستياء إيزفولسكي وسازونوف، هذا إلى أنهما شكوا أيضاً من أنه وهو سفير لم يبلغ باريس آراء وزارة الخارجية الروسية بالدقة. فاذا كان هذا صحيحاً فاللوم لا يقع فيه على السفير وحده فانه أيضاً يرجع إلى عدم صراحة سازونوف في إبداء آرائه وإلى أنه كان يغير آراءه بغته. وقد كان سازونوف في مناسبات كثيرة منها مفاوضات بوتسدام يتخذ إجراءات هامة أو يتشاور مع ألمانيا دون أن يحيط جورج لويس بهذا مقدماً. فعدم الاكتراث لتضامن الدولتين بهذه الصورة كان يحق بوانكاريه كثيراً، فقد كان مرماه المهم أن يؤلف الوفاق الثلاثي جبهة سياسية متماسكة ضد التحالف الثلاثي.

كذلك كان المسيو سازونوف يحمل لجورج لويس ضغنا شخصياً وكان منشأ هذا الضغن أمراً غريباً يكاد لا ينتظر من حليفتين. وذلك أن جواسيس سازونوف سعوا حتى اهتمدوا إلى حل رموز الشفرة السياسية الفرنسية فصاروا يتجسسون على ما يتبادله جورج لويس وحكومته من البرقيات. وقد اشتبه جورج لويس في ذلك وأخطر بوانكاريه مراراً بأنه ينبغي أن تبدل الشفرة في مدد أقصر من المدد السابقة. وفي ابريل سنة ١٩١٢ ظن سازونوف أنه اكتشف في إحدى برقيات جورج لويس التي فكت رموزها

أن لويس يتهمه بأنه يتلصق فيما يتعلق بقرض صيني . وعندئذ كلف ايزفولسكى بأن يسعى في استدعاء جورج لويس وابتعث غيره سفيراً لفرنسا في بطرسبورغ . فتولى ايزفولسكى هذه المهمة على الرحب والسعة مع كونها مهمة دقيقة جداً ومربكة . وأجابه بوانكاريه في الحال إلى طلبه ، فكلف في ٨ مايو ١٩١٢ المسيو باليوج المدير السياسى الجديد بأن يبرق إلى جورج لويس : « إن رئيس المجلس قد أخطر بمزيد الأسف والدهشة بأن الحكومة الروسية ترغب في أن ترى فرنسا ممثلة بسفير يظهر في مهامه السياسية وعلاقاته الاجتماعية نشاطاً أكثر ... »

والمسائل السياسية التي تبحث في الوقت الحاضر بين باريس وسان بطرسبورغ من الخطورة بحيث لا ينبغي أن تشل جهودنا بالحقيقة الواقعة في أن المسيو سazonوف يصرح بأنه لا يشعر بأنه على وئام معكم ... لذلك يناشد المسيو بوانكاريه ووطنيتكم بالاستقالة من منصب السفارة مع اتوائه أن يجد لكم مركزاً آخر بأقرب فرصة ممكنة . وإني مضطر إلى التسليم وإياه بالضرورة القاهرة القاضية باختيار من يخلفكم . »

فلما تسلم جورج لويس هذه البرقية ذهل . ثم لما اشتبه في أن سazonوف وإيزفولسكى يدسان له وأكد له كوكوتسيف رئيس مجلس الوزراء الروسى أن لا علم للحكومة الروسية بطلب استدعائه أبرق إلى بوانكاريه يرجوه إرجاء قراره وعجل بالسفر إلى باريس ليعرض شبهه على بوانكاريه بنفسه . وقد عارض المسيو ليون بورجوا - وكان من أعظم أعضاء الوزارة نفوذاً - في إجابة ايزفولسكى إلى طلبه إقالة السفير وانضم اليه في هذه المعارضة أصدقاء آخرون . وفي تلك الأثناء تسرب شيء من الموضوع إلى الخارج فهاجت عدة صحف على ايزفولسكى وأنحت باللائحة على تدخله في شئون فرنسا بلا مبرر . وأوشك الحادث أن يحول فضيحة علنية تكدر العلاقات بين فرنسا والروسيا ، فرأى بوانكاريه أن الأحكم أن يصدر تكديماً قاطعاً نفى

فيه أنه قدم إليه أي طلب باستدعاء جورج لويس وسمح للسفير بالعودة إلى منصبه إلى أن تهدأ تلك العاصفة وتعرض مناسبة أكثر ملاءمة لنقله .

فهذا الحادث الذي وقع لجورج لويس مهم في أنه زاد ارتياب بوانكاريه في ايزفولسكي وجعله يسعى إلى أن تكون صلاته بسازونوف أوثق بما كانت كما يتسنى له الأشراف أكثر مما كان يفعل على خطط حليفة فرنسا . فزار روسيا في أغسطس سنة ١٩١٢ ويوليه ١٩١٤ ، وجعل يردد أن فرنسا مستعدة لمساعدة روسيا في حالة الحرب ، ويناصر روسيا في خططها البلقانية أكثر مما كان يفعل ، ويدبر لها القروض في فرنسا لتستعد عسكرياً ضد ألمانيا ، ويزيد تسليحات فرنسا نفسها ، هذا إلى نقله جورج لويس نهائياً .

وقد فعل بوانكاريه بزيارته للروسيا في أغسطس ١٩١٢ الكثير لتقوية الروابط بين الحليفتين فسعى إلى إزالة الأثر الذي خلفته مقابلة القيصر للأمبراطور في ميناء البلطيق وإلى التأكيد من أن روسيا لم تعقد مع ألمانيا اتفاقات أخرى على انفراد من قبيل اتفاقات بوتسدام . كذلك رغب في إزالة الأثر الذي ترتب على حادث جورج لويس وتباحث مع سازونوف وكوكوتسيف والقيصر في كل الشؤون المهمة التي تشترك فيها مصالح فرنسا والروسيا . كآسيا الصغرى والقروض الصينية والحرب الطرابلسية والاتفاقية البحرية الأخيرة والأمل في تعاون الانجليز والاستعدادات التي أجرتها هيئتنا أركان الحرب في فرنسا والروسيا للتعاون العسكري فيما لو نشبت حرب مع ألمانيا . وقد حض روسيا بصفة خاصة على تنشيط خطوطها الحديدية المؤدية إلى الغرب والتي قد تستخدم لأغراض حرية بقصد تسهيل حشد القوى الروسية ضد ألمانيا على عجل . وقد كان الوثام يرفرف على هذه المسائل كلها . أما المسألة التي تعد أهم المسائل جميعاً فقد وقع فيها بوانكاريه على دليل مزعج آخر على عدم صراحة سازونوف : فانه لم يكن أطلعه على شروط العصبة البلقانية السرية التي وضعت في الشتاء الماضي بمعونة روسيا . وكانت هذه الشروط قد أمضيت

في ١٣ مارس ١٩١٢ دون أن يشير سازنوف إلى محتوياتها وإلى الحقيقة الواقعة في أنه كان ينتظر أن تفضي هذه العصبة إلى حرب في البلقان . فلما تلا إذ ذاك شروط هذا الحلف البلقاني لضيفه الفرنسي فطن بوانكاريه إلى طبيعتها الخطرة وقال له : « هذه أداة حرب » ثم احتج بحق لدى سازنوف على أنه أبقاه هذا الزمن الطويل دون علم بمسألة قد تجر روسيا فرنسا إلى حرب . ثم حض على أنه ينبغي لكل فريق أن يحيط الآخر علماً تاماً بنياته . وقد عرف المحالفة بصورتها الدفاعية الأصلية لكنه أضاف في الحال إلى ذلك عبارات شجعت سازونوف على الاعتقاد بأن روسيا تستطيع أن تعتمد على فرنسا إذا نشأت أزمة .

فقد روى سازونوف للقيصر فيما رفع إليه ، ما يلي :

« بعد أن أكدنا نيتنا المتبادلة وهي مراقبة حوادث البلقان بعين يقظة وتبادل الأنباء والآراء في هذا الموضوع على الدوام . اتفقنا من جديد مع المسيو بوانكاريه على أن نقوم بعمل مشترك لمنع بالوسائل الدبلوماسية وحسبما تقتضيه الظروف أن تتفاقم الحالة فيما لو نشأ أي تعقيد .

« والمسيو بوانكاريه يرى من واجبه أن ينوه بأن الرأي العام في فرنسا لن يسمح لحكومة الجمهورية بأن تقرر القيام بعمل عسكري من جراء مسائل بلقانية محضة ما دامت ألمانيا لم تشترك فيها ولم تثر من تلقاء نفسها حالة تقتضي تطبيق حالة التحالف . لكنه إذا وقع هذا ففى وسعنا بالتأكيد أن نعتد على فرنسا وأن ننتظر منها القيام بكامل واجباتها حيالنا بكل دقة .

« وقد صرحت من جانبي للوزير الفرنسي بأننا أيضاً وان كنا على استعداد على الدوام للوقوف إلى جانب فرنسا في الحالات المعينة في محالفتنا إلا أننا لا يسعنا أن نبرر للرأي العام الروسي القيام بدور فعلي في أعمال عسكرية تثيرها مسائل استعمارية خارج أوروبا مادامت مصالح فرنسا الحيوية في أوروبا لم تمس .. وأنى مسرور جداً بأنه أتيح لي التعرف إلى المسيو بوانكاريه والاتصال به شخصياً

ويزيد في سرورى أن تبادلى الرأى وإياه قد أوقع فى نفسى أن الروسيا تجدد فى شخصه صديقاً صدوقاً أميناً وهبه الله مقدره سياسية خارقة للعادة وعزيمة قوية لا تفل . وحبذا لو أنه حين تتخرج الحالة الدولية يكون على رأس حليفتنا رجل أن لم يكن بوانكاريه نفسه فعلى الأقل شخصية لها تصميمه ، طليقة كرئيس الوزارة الفرنسية الحالى من كل تهيب للسثولية .

وقد حاول المسيو بوانكاريه مع الدول الأخرى أن يحول دون اشعال الدول البلقانية نار الحرب بالفعل لما أن جوبه بالأمر الواقع فيما يتعلق بالعصبة البلقانية والأخطار المحتمل أن تنجم عنها . لكن مساعيه هذه جاءت متأخرة فوقعت الحرب . ولما دارت رحى الحرب وأحرز الحلفاء البلقانيون انتصاراتهم العظيمة حور بوانكاريه السياسة الفرنسية أو على الأصح غير ابجائها . وهذا التغيير لم يكن بمقدار ما أ كده الكثيرون من الناقدين ولا من الكبر بالمبلغ الذى صوره به إيزفولسكى فى رسائله إلى سان بطرسبورغ . فقد وجد بوانكاريه أن أغراض سازونوف لم تكن دائماً واضحة ولا من السهل التعويل عليها فلم يكن سازونوف يبادل الرأى دائماً أو يتفاهم مع فرنسا مقدما . وكان فى إجاباته على الاقتراحات الفرنسية بماطلا مراوغا . ففى بدء الحرب ( البلقانية ) ابتهج مع دعاة الجامعة السلافية للفوز العسكرى المدهش الذى أحرزته الدول البلقانية ضد تركيا ، لكنه لما تم لتلك الدول النصر الساحق فى كركليس ولولى برجاس وزحفت جنود فرديناند خفافا صوب الآستانة فترت حماسته وتولاه شىء من الضيق ، إذ احتلال البلغارين للعاصمة التركية مما يهدد بافساد خطة الروسيا ويخيب آمالها التاريخية فى تلك البقعة . وحتى لو رفضت الدول التى تملك هناك مصالح سياسية ومالية السماح للبلغاريين بالاستيلاء على المدينة فقد تنهز هذه الفرصة لتنفيذ فكرة السير إدوارد غراى وهى جعل البواغيز دولية . ولذا بينما كانت معركة لولى برجاس لا تزال دائرة حض سازونوف البلغارين على « الأخذ بأسباب الحكمة

والوقوف في الوقت المناسب « محاولاً أن يرشيمهم في مقابل إصغائهم لصوت العقل بالوعدتاً بيدهم سياسياً في المستقبل . وفي الوقت نفسه أبلغ فرنسا وانجلترا أنه ليرحب كثيراً بالسعى لدى صوفيا وبلغراد في سبيل التوسط لكبح السلافين المظفرين في الحرب التي ساعدت روسيا على نشوبها باشتراكها في تأليف العصبة البلقانية . وبعد أيام ثلاثة وبالرغم من أن بوانكاريه كان قد بدء السعى في الوجهة التي رغبها روسيا قدم سازونوف إلى الدول جميعاً دون سابق إخطار أو تشاور برنامجاً كاملاً للتدخل السريع يقضى بأبقاء السلطان في الآستانة في منطقة دفاعية تشمل على طراقيه وأدرنه وإنشاء دولة مستقلة استقلالاً ذاتياً في ألبانيا وتعويض رومانيا من وقفها على الحياد وإعطاء منفذ لصرية على بحر الأدرياتيك وجعل المرور حراً للبضائع النمسية في الأرض الصرية الجديدة .

وقد كان هذا البرنامج فيما عدا النقطة الخاصة بالمنفذ الصربي بمثابة طائفة من التساهلات للتحالف الثلاثي . هذا إلى أن سازونوف أرسل إلى بوانكاريه قبل أن يفيق من دهشته لهذه التساهلات المقترحة نبأ مذهلاً آخر هو أن أسطول البحر الأسود الروسي بأكمله « سيظهر أمام العاصمة التركية » إذا احتل البلغاريون الآستانة . وكانت خطة الأيرالية الروسية تقضى عدا ذلك بأنه : « سيكون من الضروري بطبيعة الحال لحماية سفارتنا ومصالحنا على العموم أن تنزل الجنود إلى البر . ومن المرغوب فيه إرسال بعض الفرق مع المدافع الرشاشة حتى لا يلم الضعف بالقوة البحرية . . . ولن يوسع نطاق احتلال البوسفور كثيراً لكنه بالاحتلال يصبح من السهل البقاء هناك إلى ما شاء الله . وإذا ما أصبح البوسفور بأيدينا أمكن تسوية مشكلة البواغيز المتعبة نصف تسوية . فإذا لم تعرض فرصة صالحة لمثل هذا الزحف فيجب خلقها بصورة مفتعلة ، لأنه إذا كان من المحال الاستيلاء على كافة البواغيز فلا أقل من أن تتطلع إلى الفائدة السياسية الهائلة التي للبوسفور . »

مع ذلك عادت الطمأنينة إلى الرأي العام الفرنسي بالانتصارات البلقانية وجعل يبدى اهتماما جديداً بخطط روسيا في البلقان . فأعلن بوانكاريه ولاء فرنسا لروسيا مما أثار حماساً شديداً . وبعث ايزفولسكى يقول في تقرير له « لا ينجح شيء كالنجاح فانه ليلاحظ هنا تحت تأثير الحوادث الأخيرة تبدل ظاهر في الشعور لمصلحة الدول البلقانية ووجهة النظر الروسية . » وأضاف إلى ذلك قوله إنه سيعمل كل ما في وسعه لتقوية هذا الموقف الجديد وخاصة بالتأثير على الصحافة . لكنه بحاجة إلى أن يكون تحت تصرفه أكثر من المال المخصص لهذا الغرض . فلما قدمت روسيا برنامجها للدول للتدخل على مقتضاه لم يتحمس له بوانكاريه لأنه يسبب خصومة بلغاريا وصربيا ولأن بوانكاريه كان قد أثر فيه ما أفادت القضية السلافية والوفاق الثلاثي من قيمة ونفوذ جديد في التوازن الدولي بهذه الانتصارات البلقانية . كذلك كان يشتهه في أن النمسا تظاهرها ألمانيا قد تستفيد من الحالة فتحاول التوسع في ممتلكاتها . وهذا ما كان مصمما على منعه لا لمصلحة روسيا وصربيا فقط بل لمصلحة فرنسا واحتفاظا بهيبة الوفاق الثلاثي . وقد كان اهتمامه بما يمكن أن تفعله النمسا أكبر من اهتمامه بقلق سازونوف على الآستانة . وقد كتب ايزفولسكى في تقرير بتاريخ ٧ نوفمبر يقول : « يلوح الآن أن الحكومة الفرنسية تسلم بأن استيلاء النمسا على شيء من الأراضي في البلقان مما يؤثر في التوازن الأوربي العام وفي مصالح فرنسا الخاصة أيضاً . . . وبوانكاريه يفتن كل الفطنة إلى أن فرنسا قد تجر بهذا إلى عمل حربي . وهو يعرض هذه المسألة علينا في الآونة الراهنة لتنظر فيها لكن باليلوج في حديث له معي سلم صراحة بأن الاتفاق المقترح قد يفضي إلى اتخاذ خطوة فعلية » .

وسرعان ما أصبح احتلال صربيا لشمال ألبانيا ورغبتها في أن يكون لها ميناء على بحر الأدرياتيك مسألة حادة في صورة خطرة . فقد هددت النمسا باستخدام القوة إذا لم يمنع ذلك وفي هذا كانت تؤيدها حليفاتها .



وحبذ سازونوف طلب صربيا بطبيعة الحال ولكن لا الى الحد الذي يدفعه الى الحرب ومن ثم كان ميالا سراً الى البحث عن مقترح يوفق بين المطالب المختلفة كأن يعطى صربيا خطاً حديدياً يوصلها الى الأدرياتيك لاجزاء من ألبانيا الشمالية وهو ما كانت تعارض فيه النمسا وإيطاليا بصفة خاصة . ولما استفسر عما يكون موقف فرنسا إذا لم يمكن تجنب تدخل النمسا بالفعل أجابه بوانكاريه على قول إيزفولسكى .

« ان على روسيا أن تبدأ باتخاذ المسلك الذي تراه في مسألة تهمها أكثر مما تهم غيرها وعلى فرنسا أن تعيرها أعظم تأييد فعال . . فاذا دخلت روسيا في حرب دخلت معها فرنسا لأننا نعلم جميعاً أن ألمانيا ستقف من وراء النمسا في هذه المسألة » .

فهذا القول المعزى الى المسيو بوانكاريه كان موضع انتقاده الشديد في مذكراته إذ وصمه بأنه خطأ . فقد كان في الواقع يصر على ألا يبذل وعوداً قبلها يتقدم سازونوف ويفصح عما يريد . إذ ذاك يسع فرنسا أن تصرح برأيها . فأما عن الحرب فانه عرف ثانية ما يفرضه التحالف من واجبات بنفس العبارات التي فاه بها لسازونوف في أغسطس : وهي أن فرنسا تدخل الحرب إذا نشأت حالة التحالف المنصوص عنها في المحالفة وبعبارة أخرى « إذا هوجمت روسيا من ألمانيا او من النمسا تؤيدها ألمانيا » فالى أن يقع هذا سيحتفظ بحريته في العمل . وقد عني بعد ذلك بيومين بان يحذر جورج لويس من تأويلات ايزفولسكى الخاطئة وطلب اليه أن يصحح أى اعتقاد خطأ قد يترتب عليها . على أن روسيا لم تكن في سنة ١٩١٢ مستعدة للحرب ولم ترد الحرب أية من الدول العظمى . وقد عرضت المسألة الصربية على مؤتمر السفراء في لندن لتسويتها .

لقد كان وجود شخص دساس طماع لا يركن إلى قوله دائماً كأيزفولسكى

في منصب السفارة الروسية في باريس أدعى الى أن يكون لفرنسا في سان بطرسبورغ رجل له مثل آراء جورج لويس الذي كان على حذر مما تنطوي عليه مطامع روسيا في البواغيز من خطر. لكنه في ١٧ فبراير ١٩١٣ أخطر جورج لويس بغته بأقالته نهائياً من منصبه وتعيين المسيو ديلكاسيه خلفاً له. وكان بوانكاريه قد أصبح رئيساً للجمهورية ولما يكذ فأضحى من الممكن أن تلقى تبعة التبديل في السفارة الفرنسية في سان بطرسبورغ من الوجة الفنية على عاتق وزارة بريان التي خلف فيها المسيو جونار بوانكاريه على وزارة الخارجية. وهكذا قضى على حياة جورج لويس السياسية بعد إذ « أغتيل سياسياً » كما وصف إقالته أصدقاؤه. فلم يقلد منصباً جديداً ومات في سنة ١٩١٧ والحرب التي سعى إلى دفعها دائرة. وكون ديلكاسيه ثم باليلوج قد خلفاه في منصبه — وكلاهما كان يجذب كل التحيز توثيق روابط المحالفة بتأييد روسيا تأييداً قوياً — يفسر الوثام الذي نشأ بين وزارتي باريس وسان بطرسبورغ. على أنه إذا كان هذا قد وثق وصلات الوفاق الثلاثي فقد شجع أيضاً سازونوف على تأييد صربيا ودفعه إلى موقف الصلابة الذي وقفه من النمسا وألمانيا والذي كان من أهم الأسباب في نشوب الحرب سنة ١٩١٤.

## تجدد المحالفة الثلاثية وأخذها بأسباب الضعف

كان بسمرك يعد المحالفة النمسوية الألمانية المعقودة في ١٨٧٩ دفاعية محضة فكان يرفض السماح بعقد اتفاقات بين هيئتي أركان الحرب الألمانية والنمسوية خشية أن تعتاق حرية السلطات المدنية في العمل السياسي. ولذا ابنت هذه المحالفة كالمحالفة الثلاثية طويلاً دون أن يلحق بها اتفاق عسكري معين يبين عدد الجنود الذي يتحتم على كل حليف تقديمه في حالة الحرب كما هي الحال في الاتفاقية العسكرية المعقودة بين فرنسا وروسيا في ١٨٩٤.

لا ولا كانت هناك سنوات طويلة أية اجتماعات دورية منظمة بين هيئات أركان حرب دول المحالفة الثلاثية ومحاضر تحريوية تعين بالتفصيل كيفية تعاون جيوشهن كما كانت الحال فى الاجتماعات السنوية التى ظلت هيئتا أركان الحرب الفرنسية والروسية تعقدانها من سنة ١٩٠٠ فصاعداً . لكنه فى يناير ١٩٠٩ عندما أخذت أزمة البوسنة تزعج الخواطر جعل مولتكة وكونراد رئيسا هيئتى أركان الحرب فى ألمانيا والنمسا يتراسلان فى شأن التعاون العسكرى بينهما . وكانت هذه المراسلة تجرى بعلم السلطات المدنية وموافقها فى كلا البلدين واستمرت قائمة فى صورة متقطعة فى خلال السنوات التالية . وقد كانت تعزها مقابلات شخصية بين الجنرالين فى غضون زيارتهما أثناء المناورات العسكرية وفى مناسبات أخرى . وقد رأى كاتب نمسوى فى هذا التراسل « اتفاقية عسكرية » حولت المحالفة النمسوية الألمانية من صبغتها الدفاعية الأصلية إلى اتفاق هجوى . بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك فيعتبر هذا التراسل « مفتاح » مسألة تبعة الحرب بحذافيرها . لكن مولتكة أو كونراد أو أحداً من ولاة الأمور لم يشرأبداً إلى هذا التبادل للرأى باعتباره « اتفاقية عسكرية » فقد كان على النقيض من ذلك بمثابة بحث عام فى الحالة السياسية وتبادل للمعلومات فيما يتعلق بالخطة الحربية التى كانت كل هيئة تنتوى أن تضعها للقتال إذا قدر وأعلنت السلطات المدنية حرباً . فكان كونراد يجتهد فى اقناع مولتكة بأن يجعل خطة التعبئة الألمانية تنص على تسيير أكبر عدد ممكن من الجنود ضد روسيا ليخف عدد الجنود التى يمكن للقيصر أن يوجهها ضد النمسا . يقابل ذلك أن مولتكة كان يريد أن يرسم كونراد خطته بحيث تستخدم فى صربيا عدداً قليلاً من الجنود وتوجه أكبر عدد ممكن إلى غاليسيا ضد روسيا ، كما يخف الضغط على حدود ألمانيا الشرقية بينما يكون معظم القوى الألمانية موجهاً ضد فرنسا . فهذه التداير بين الاثنين لم يكن لها تلك الصفة التحديدية الإلزامية التى كانت لتداير هيئتى أركان حرب فرنسا

والروسيا . ومع أن بعض خطابات مولتكة وكونراد قد اطلعت عليها السلطات المدنية فأنها لم تعدل شروط التحالف بصفة قانونية فقد بقيت هذه الشروط محددة كتابة وبقي تفسيرها وتطبيقها من شأن السلطات المدنية لا العسكرية . على أنه مما لا شك في صحته أن هذه المراسلات بين مولتكة وكونراد ساعدت على الاعتقاد في فيينا بأنه اذا هاجمت النمسا صربيا فلها أن تنتظر من ألمانيا التهديد بالتعبئة ابتغاء خديعة الروسية وغل يدها عن العمل أو أن تعتمد على تأييد ألمانيا اذا أعلنت روسيا الحرب . فهي بهذه المثابة قد خلعت على التحالف بين الدولتين صبغة أميل الى أن تكون هجومية . ونتيجة أخرى لهذا التراسل ان مولتكة وكونراد وضعوا خطتي تعبئة تتوقف كل منهما على الأخرى اذا أريد لهما النجاح ، وهذا كما هي الحال في كل الحالات المماثلة كان يمكن السلطات العسكرية وقت نشوء أزمة من الأزمات من الضغط على السلطات المدنية لمصلحة الحرب . وسنبحث في الجزء الثاني في مبلغ هذه الحالة ومداهما بالفعل في يوليه سنة ١٩١٤ . فقد كانت صداقة مولتكة وكونراد الشخصية وثقتهم المتبادلة عاملا في السنوات التي سبقت الأزمة النهائية من العوامل التي وثقت الروابط بين هاتين الحليفتين .

أما إيطاليا فكانت عنصر الضعف في المحالفة الثلاثية فمذ مؤتمر الجزيرة وألمانيا تشك في ولائها . وقد كان كونراد مقتنعا لا بعدم ولائها الراجح لواجباتها التي تفرضها المعاهدة فحسب بل أيضا بعدائها الايجابي حتى أنه كان يذكرها باعتبار انها « خصم النمسا الأول » . فوضع خططا للتعبئة ضدها بل أراد أن يدخل معها في « حرب مانعة » هذا الى ان محاربة إيطاليا لتركيا سعيًا وراء امتلاك طرابلس كان مما أساء حليفتها أيضا لأنه قد أربكهما أن تعتدى حليفتها الأسمية على الأتراك وهم من كاتنا تسعيان الى الاستفادة من صداقتهم وحسن ارادتهم . نعم ان حوادث هذه الحرب وقيام إيطاليا دولة بحرية في البحر الأبيض المتوسط قد أدى كله الى فتور أكيد في علاقاتها بفرنسا لكن

هذه العلاقات تحسنت ثانية في ١٩١٢ حتى كان من رأى بوانكاريه وسازونوف كليهما أنه خير لهما أن تبقى إيطاليا «عالة» على المحالفة الثلاثية لأنها بهذه الصورة تنفع فرنسا وروسيا.

ومع أن المحالفة الثلاثية كان يسرى مفعولها الى سنة ١٩١٤ فإن البحث في مسألة تجديدها بدأ في صيف ١٩١١ وقد رحبت إيطاليا بهذا التجديد المبكر كوسيلة لمصالحة حليفيتها قبيل مغامرتها الطرابلية. ورحبت به ألمانيا لأنها كانت دائماً ترحب بكل ما من شأنه أن يحسن علاقات حليفيتها إحداهما بالأخرى كما توازن بهما قوة الوفاق الثلاثي وتضامنه اللذين كانا في إزدياد. ولم يكن ايرتال معارضاً فيه بادية الرأي بيد أن كونراد والضباط العسكريين كانوا مغضبين من اهانات إيطاليا وخياناتها الى حد أنهم لم يروا فائدة ما في السعي حتى الى ابقائها حليفة بالأسم. على أن ايرتال — وكان فرانسو جوزيف في صفه — أمكنه أن يقبل كونراد لأن هذا الأخير كان يحض على محاربة إيطاليا ومصادقة روسيا. وجاءت الحرب الطرابلية فأخرت المفاوضات لتجديد المحالفة الثلاثية ثم جددت أخيراً في ٥ ديسمبر ١٩١٢ دون تعديل ما ومدت ست سنوات من ٨ يولييه ١٩١٤. وبعد مضي أسبوعين أخطرت إيطاليا ألمانيا بأن الصراحة تضطرها بالنظر الى الاحوال السياسية الراهنة الى القول بأنه لن يكون في استطاعتها البر بتعهداتها الذي قطعته في سنة ١٨٨٨ بأرسال جنود تعاون الجيش الألماني على الرين.

## تأثير الحروب البلقانية

إن نشوب الحرب البلقانية وما تلاه من تضارب المصالح بين الدول جميعاً عظامها وصغراها أثر في نظام التحالف من عدة وجوه، فقد زاد الانقسام الداخلي في قلب المحالفة الثلاثية والوفاق الثلاثي. ونظرة فاحصة فيما كان يتبادله

أعضاء كل فريق من البرقيات في كل يوم بل في كل ساعة اثناء تعاقب الأزمات والتغييرات على البلقان في غضون سنتي ١٩١٢ و ١٩١٣ ترى على سبيل المثال ان ألمانيا كانت تتألم وتمضها على الدوام تلك الخطط الدالة على الأناية والأعمال البادية التسرع من جانب حليفتها النموية . كان يهيجها أن خطط النمسا كانت تتعارض أحيانا مع آرائها هي في شئون البلقان وتهدد أحيانا سلام أوروبا . ومثل هذا التصادم في المصالح كان قائما أيضا بين فرنسا وحليفتها ولعله من الأمثلة الشائعة على هذا الخلاف داخل كل فريق تلك الدسائس التي حيكّت بمناسبة التصرف في قوله عند ختام حروب البلقان . فقد أرادت النمسا والروسيا أن تعطيا قوله للبلغاريين فبدلا من أن توافقهما حليفتاهما ألمانيا وفرنسا كاتتا تريان أن يحتفظ بها اليونانيون فاحتفظوا بها .

على انه قد نفع في موازنة هذا الخلاف الداخلي شعور كل فريق بانه يجب أن يفعل كل شيء ممكن ابقاء على الاتحاد والتضامن بين أعضائه . وقد كانت النمسا في الغالب غرما على ألمانيا أكثر مما كانت غنما لها ، وكذلك كانت حال الروسيا مع فرنسا . وكان يقع أحيانا ان يوفق العضو ذو الكلمة في استخدام نفوذه مع حليفه لجملة على الاعتدال والمحافظة على السلام كما حدث حين لم تصادق ألمانيا على ما كانت تنويه النمسا من التدخل ضد صربيا في يولييه ١٩١٣ وحين امتنعت فرنسا عن الموافقة على ما اقترحه سازونوف من اجراءات للضغط على تركيا فيما يتعلق بمسألة ليمان فون ساندرس .

وقد احتوت الوثائق الألمانية المنشورة حديثا كما احتوت مذكرات كونراد أمثلة كثيرة على تشجيع ألمانيا للنمسا على اتخاذ اجراءات ضد صربيا لوضع حد لخطر صربيا الكبرى اعتقادا منها بأن هذا الخطر يهدد كيان المملكة الثنائية ويهدد حليفة ألمانيا الوحيدة الباقية تبعا لذلك وهي من تعتمد عليها . كذلك توجد حالات تعادل هذه أو تفوقها كان فيها الموظفون الألمان وخاصة الأباطور يحضون النمسا على أن تتفق مع صربيا على أية صورة

ويحذرونها من استخدام القوة معها . و نعتقد على وجه العموم اننا على حق  
إذ نقول ان نفوذ ألمانيا كان يستخدم الى ما قبل جادث الاغتيال الذى وقع  
فى سيرا جيفو فى سبيل الاعتدال والسلام أكثر ما كان يستخدم فى  
عكس ذلك .

من الصعب أن نحكم على مبلغ ما كانت فرنسا تبذله للروسيا بهذه الطريقة  
من التشجيع الخطر أو تنصح لها به من التزام جادة الاعتدال . فأن الأدلة التى  
تتيحها مراسلات سازونوف مع ايزفولسكى وبنكندورف وتقريره التى كان  
يرفعها الى القيصر وغير ذلك من المعلومات الروسية تتنافر غالباً من ناحية  
أخرى مع مذكرات بونكاريه والكتاب الفرنسى الأصفر الصادر عن شئون  
البلقان . بيد أنه يجب ان نذكر هنا ان هذا الكتاب الأصفر ناقص جداً وان  
الوثائق التى وردت فيه اختيرت كما هو ظاهر بقصد أن تكون بمثابة تأييد  
للرأى القائل بأن سياسة المسيو بوانكاريه كانت دائماً فى مصلحة السلام  
الأوروبى . وليس من الميسور الأهتمام الى جواب مرض كل الرضا عن هذه  
المسألة مالم ينشر الفرنسيون كامل الوثائق المتعلقة بما قبل الحرب أسوة بما  
فعلته ألمانيا وما انجلترا بسبيل ان تفعله .

ومن الآثار التى ترتبت على الحروب البلقانية وكان لها أكبر الشأن فى  
سلام أوروبا وفى تجسيم المعارضة بين المحالفة الثلاثية والوفاق الثلاثى — اشتداد  
الحركة العامة التى رمت إلى الاستزادة من التسليح من جانب كل الدول  
الأوربية . وقد أسلفنا بيان الخصومة التى نشأت بين انجلترا وألمانيا من جراء  
الاسراع فى بناء الدردنوطات واخفاق بعثة هولدين . فان ألمانيا فى نفس  
الوقت الذى أجازت فيه القانون البحرى الخاص بسنة ١٩١٢ زادت جيشها  
زيادة كبرى . وفى سنة ١٩١٣ نص قانون جديد للجيش على زيادة أكبر من  
هذه للسنوات المقبلة . وقبل أن تعلم فرنسا بهذا القانون الألمانى الخاص  
بسنة ١٩١٣ كان بوانكاريه وفئة قليلة معه قد قرروا تقديم مشروع قانون

يزيد قوة الجيش الفرنسي زيادة عظيمة . ولما كانوا يعتقدون أن الحرب آتية لا محالة إن عاجلاً وإن آجلاً فقد أقنعوا مجلس النواب الفرنسي فأجاز القانون الذي يمد الخدمة العسكرية من سنتين إلى ثلاث سنوات وجعل نهاية سن الخدمة في الاحتياطي الثامنة والأربعين بدلاً من الخامسة والأربعين . وبذا يصبح لفرنسا في سنة ١٩١٤ جيش أكبر بقليل من الجيش الذي يكون لألمانيا في الأسابيع الأولى لنشوب حرب من الحروب . وهذا ما قدره خير من أقدر الخبراء الفرنسيين هو الكولونل بوات الذي كان يتولى إدارة قسم من أقسام هيئة أركان الحرب الفرنسية . فالفكرة القائلة بأن ألمانيا كانت عند غزوها لبلجيكا وفرنسا في سنة ١٩١٤ متفوقة في العدد بشكل هائل قول لا صحة له .

كذلك كانت روسيا تبذل مجهودات شديدة لتنظيم عدد أكبر من بين سكانها العديدين وتدريبهم . أما الزيادة في النمسا وإيطاليا فكانت بالنسبة لما تقدم طفيفة . وإنى أتخشى هنا أن أعطى أرقاماً لما كان عليه حجم الجيوش بالنسبة لبعضها البعض ومبلغ نفقاتها العسكرية لأن مثل هذه الأرقام خليقة أن تضلل تضليلاً كبيراً . ومقارنة النفقات البحرية في إنجلترا وألمانيا بالأرقام لا أهمية لها ما لم يجعل في حساب المرء رخص تكاليف الانشاء في ألمانيا عنها في إنجلترا ونظام الخدمة الاجبارية بدلاً من نظام التطوع . كذلك لا يدل على أحجام الجيوش وقواها عدد جنودها وحده بل هذه القوة تتوقف إلى حد كبير على كفاية جهازها وسرعة تعبئتها وشئون فنية أخرى تحتاج إلى تعليق طويل إذا ما استند في المقارنة إلى قواعد عادلة موثوق بها . وقد أثارت هذه التسليحات التي كان يستعد بها في ربيع سنة ١٩١٤ قلقاً وارتياباً متزايدين في كل من المحالفة الثلاثية والوفاق الثلاثي . فالمفكرون ممن راقبوا هذه الحالة انزعجوا بها لكن شيئاً يذكر لم يفعل لتلافيها . وقد ذهب الكولونل هوس إلى أوروبا وهو يأمل أن يقوم بشيء من أجلها فكتب إلى الرئيس ولسون



قبل مقتل الغراندوق النمسوى بشهر يقول :

« ان الحالة غير اعتيادية . فالعسكرية جنت جنوناً . فاذا لم يستطع أحد باسمكم أن يحمل الناس على غير ما يفهمون فلا بد من وقوع كارثة مرعبة يوماً من الأيام . وليس في أوروبا من يسعه ذلك ، فالبغضاء والتحاسد هنا أكثر مما يجب ، وحسب فرنسا والروسيا أن تواقفهما انجلترا فتتقضا على ألمانيا والنمسا . فاذا أصرت ألمانيا على أن تمضى فى تضخيم بحريتها فسوف لا يكون لانجلترا خيار . فخير ما يضمن السلام إذن هو أن تتفاهم انجلترا وألمانيا على التسليحات البحرية ومع ذلك فان تقرب هاتين الدولتين أكثر مما ينبغى خلىق أن يضرنا بعض الضرر .

وبينا كانت أوروبا منقسمة هذا الانقسام إلى فريقين متعارضين نشأ خطر

جديد من مقتل الغراندوق النمسوى ومن تجدد مشاكل البلقان .

## الفصل الخامس

مشاكل البلقان من ١٩٠٧ الى ١٩١٤

كانت الحالة في البلقان عاملا من أهم العوامل في إحداث الحرب العالمية فقد زادت الخصومة بين المحالفة الثلاثية، والوفاق الثلاثي وبعثت على زيادة عامة في التسليح، وأفضت إلى اغتيال الغراندوق النمساوي وما أعقب هذا الاغتيال من نتائج وخيمة. وهي مسألة قديمة معقدة كدرت سلم أوروبا قرناً ونصف قرن من الزمان. ولن نحاول هنا أن نتعقب تطورها فقد عالجها كثير من الكتاب معالجة تدل على الاقتدار. أما الحالة البلقانية فقد نشأت من عوامل كثيرة. ذلك أن إطراد تفكك الإمبراطورية العثمانية لأسباب خارجية وداخلية على السواء كان يثير في الشرق الأدنى اضطراباً متواصلاً، وقد زادت روسيا هذا الاضطراب بما كان يحدوها من رغبة ملحة في بسط نفوذها على شبه جزيرة البلقان، ومن طموح إلى تحقيق حلم طال عليه الأمد بلا تحقيق وهو الهيمنة على البواغيز المؤدية إلى البحر الأبيض المتوسط. وآل هابسبورغ الذين ظلوا يقيمون عبر الدانوب طوال قرون كانوا يسعون إلى الاحتفاظ بسلطتهم على أقوام من رعاياهم يلتهب الكثيرون منهم غيرة وطنية وتلح عليهم الرغبة في تحطيم القيد والاتحاد مع أخوة لهم يعيشون في دول مستقلة على حدود النمسا والمجر. وكانت أطماع صربيا وبلغاريا ورومانيا واليونان في توسيع نطاق أراضيهم كما تشمل كل الأقوام المنتسبة اليهم تدفعهم إلى نزاع دائم مع تركيا أو النمسا والمجر أو بين بعضهم وبعض. وقد تفاقمت الخصومة بين النمسا والمجر وصربيا لما أن ضمت الأولى البوسنة والهرسك

اليها . كذلك كان خلق ألبانيا والدعاية الصربية في سبيل الوحدة القومية على حساب النمسا من الأسباب التي اشتدت معها هذه الخصومة . ولكي تفهم كيف كان منشأ الحرب العالمية في هذه الزاوية من أوروبا نرى من المناسب أن نستعرض بعض المشاكل البلقانية فيما بين سنة ١٩٠٨ و ١٩١٤ .

## مبدأ الخصومة بين النمسا و صربيا

يجب الشعراء والمؤرخون الصربون الوطنيون أن يذكروا شعبهم بأيام البطولة التي امتاز بها عهد اسطفان دوشان في القرن الرابع عشر يوم كانت الامبراطورية الصربية المتشعبة لكنيسة اليونان الأرثوذكس ممتدة من الدانوب الى قرابة خليج كورنث ومن بحرا يجه إلى الأدریاتيك . فمن عهد هذه الأيام السحيقة إلى ما قبل الحرب العالمية يضع عشرات من السنين حيث بدأ الوطنيون الصربون يملحون بمد حدودهم من جديد كما تشمل « صربيا القديمة » بل أكثر من عهد تلك الأيام الى ذلك الحين كان الشعب الصربي يلتقي جم الاضطهاد ويعاني الصعاب . ففى أول مامنى بالأتراك ، ففى سنة ١٣٨٩ وفي فيدوف وان اكنسح السيل التركي جيشاً من الصرب والألبانيين والكروات وسحقه في كوسوفو سحقا . لكنه نهض في ميدان القتال بطل صربي نفذ الى خيمة السلطان المظفر حيث ذبحه وقضى في شخصه على مضطهد الشعوب السلافية البغيض . وبذا أصبحت ذكرى كوسوفو في التقويم الصربي يوماً عظيماً وأصبح فيدوف وان يوم حسرة على الهزيمة القومية في سنة ١٣٨٩ وابتهاج بقتل المضطهد الأجنبي . وهكذا ظل معظم الشعب الصربي أربعة قرون منذ كوسوفو يعيش في ظل الحكم التركي ويعانيه . واستبدل في تلك الأثناء بعض الصرب الإسلام بالعقيدة اليونانية الأرثوذكسية وخاصة في البوسنة ، وبقوا مسلمين من ذلك الحين .

ولقد كانت النمسا أول من جاء الصريين بشيء من الفرج وجعل السيل التركي ينحسر بعد اندفاق . فقد استعاد البرنس أوجين بجيشه الهابسبورغي بلغراد في سنة ١٧١٧ وساعد على إثارة الشوق في قلوب الصريين الى التحرر من سوء الحكم التركي . فلما اضطرت جنود هابسبورغ الى التقهقر بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ فر كثير من الفلاحين الصريين في أعقاب الجنود هربا من استعباد السلطان واه توطنوا شمالي الدانوب في نهاية الحدود الهابسبورغية من ناحية الجنوب . هناك عاشوا واستولدوا وانضم اليهم غيرهم من اللاجئين من جنوب الدانوب . وقد عومل هؤلاء المستوطنون الصريون من حكاهمهم الجديدين معاملة حسنة في مبدأ الأمر وقدرهم هؤلاء كجنود بواسل يحمون البلاد من الأتراك . لكنه في نصف القرن الثامن عشر الأخير جعلت الدعاية الرومانية الكاثوليكية والاضطهاد الاقتصادي عيش المستوطنين الصريين مريراً الى حد أن الكثيرين منهم آثروا الفرار آيين إلى إخوانهم في الجنوب . فبين الاستغلال المجرى وسوء الحكم التركي كان هذا الأخير أهون الشرين . ومن ثم بدأت بين الفريقين خصومة ظلت تتزايد على مر الأيام ثم تفاقمت في سنة ١٨٦٧ عند ما سحب الأمبراطور فرانسوا جوزيف الامتيازات الخاصة التي كان صربيو « الحدود العسكرية » يستمتعون بها من قديم . ومع ذلك فان العداوة المشتركة للأتراك ساعدت على العموم على الاحتفاظ بصداقة سياسية بين السلطات المالكة في فينا وبلغراد .

نعم أن النمسا « احتلت » في سنة ١٨٧٨ إقليمى البوسنه والهرسك وكان الكثيرون من سكانها من الفلاحين الذين يجرى في عروقهم الدم الصربي ولذا كانت تشتهر بملكه صربيا الجديدة - إلا أن هذا الحادث أساغه الصريون لأن النمسا حصلت لصربيا في مؤتمر برلين على إقليمى بيروت ونيش وهما ما كانت روسيا خليقة أن تحبوا بهما ربيتها بلغاريا لو استطاعت . ثم جاءت المعاهدة السرية النمساوية الصربية المعقودة في سنة ١٨٨١ فضمنت الصداقة

السياسية بين الحكومتين النمساوية والصربية . وكانت المعاهدة لعشر سنوات تعهدت الدولتان أن تسلك كل منهما في خلالها سياسة ودية حيال الأخرى وأن لا تسمح في بلادها بأية دسائس ضد الأخرى . وهكذا ظلت السياسة الصربية على العموم موالية للنمسا على الرغم من الدسائس الروسية حتى وقعت اغتياالات سنة ١٩٠٣ الخطيرة .

ذلك أنه منذ اغتيل الزعيم الصربي قره جورج في سنة ١٨١٧ لمصلحة منافسه ميلوش أو برينوقتش باتت البلاد الصربية الأسيفة نهبه لحزازات الأسرتين المتنافستين ومسرحا لطائفة من ثورات القصر ومن التغييرات العنيفة في الأسرة المالكة . ففي سنة ١٩٠٣ بلغت هذه الحوادث منتهاها إذ دخل القصر الملكي في بلغراد عصابة من المتآمرين معظمهم من ضباط الجيش الصربي في ليل ١١ يونيه وجروا الملك اسكندر أو برينوقتش وزوجته المكروهة من مخبئها وقتلوهما شر قتلة . وعلى أن بطرس قره جورجفتش حفيد الرجل الذي قتل قبل ذلك بنحو قرن من الزمان لم يكن له ضلع مباشر في المؤامرة فإنه استفاد منها وارتقى العرش باسم بطرس الأول . فهذه الجريمة الشنيعة والرضا الذي شمل المسئولين عنها أساء الى رؤوس أوروبا المتوجة وجرح شعورها بالاستقامة فسحب معظم أصحاب التيجان ممثلهم من بلغراد دلالة على استهجانهم وظلت بريطانيا العظمى لا تجدد علاقاتها السياسية بصربيا ثلاث سنوات .

على أن الحكم الجديد أنعش الحياة الصربية انعاشاً بيناً على الرغم من عبوس أوروبا له باديء الرأي . فقد سادت فيها روح أكثر انطواء على الحرية والديمقراطية وتنشأت في البلاد حركة وطنية قوية تمثلت في نشاط اقتصادي جديد وفي الصحف والأدب وفي انتشار فكرة « صربيا الكبرى » . وكان بطرس الأكبر محبوباً شخصياً ، متفانياً في مصلحة بلاده ، مشهوراً بولائه وبساطته وهي الصفات التي يتحلى بها الجندي . تزوج من الأميرة زوركا ابنة نيقولا أمير

الجبل الأسود فكان هذا الزواج بادرة توثق العلاقات بين الدولتين السلافيتين ، وقضى الكثير من سنى نفيه فى الروسيا ، وخدم أخوه البرنس أرسين ضابطا فى الحرس الروسى ، وتزوجت اختها زوجته من غراندوقين روسيين ، فكان كل هذا دليلا على أن صربيا ستميل بسببها نحو الروسيا بارتقاء بطرس الأول عرشها فى سنة ١٩٠٣ . وقد كان وعجل بهذا الميل مالمقيه من التشجيع من عناصر الجامعة السلافية فى الروسيا وما سلكته النمسا والمجر من مسلك مثير .

وسرعان ما استبان الوزراء النمسيون فى شىء من القلق هذا النمو فى الروح القومية الصربية وفى الشعور بالميل نحو الروسيين . فاذا لم يصد هذا هدد سلامة أراضى هابسبورغ لأن معناه أن مملكة صربيا ستكون بمثابة مغناطيس خطر يجذب رعايا النمسا إلى حيث يؤلفون « صربيا الكبرى » فاذا تفككت الإمبراطورية التركية التى نخرها السوس أو جرت أزمة من الأزمات إلى نشوب الفتن القومية فى النمسا والمجر — كأن يموت الإمبراطور فرنسوا جوزيف — أو أعلنت حرب فى البلقان أو فى أوروبا فسوف ينتظر من صربيا أن تحاول ضم أراض تقطنها كثرة من الصربيين . واذا فازت صربيا بالبوسنة فسوف تكون الخطوة التالية أن تشرع فى توحيد الكروات والدلماسيين والسلوفانيين والصرب القاطنين فى « بنات » جنوبى المجر ، ومن شأن هذا أن يشجع القوميات الأخرى التى يحكمها آل هابسبورغ — كالرومانيين والتشك والسلوفاك — على الخروج عليهم ، ومعنى هذا انتهاء النمسا . من أجل هذا الخطر الذى كان يهدد المملكة الثنائية من ناحية القوميات المحكومة بها جعل الموظفون النمسيون يتخذون الاجراءات لخنق هذه الحركة النامية فى صربيا والتى ترمى إلى التحرر سياسياً واقتصادياً من نفوذ هابسبورغ . ولما كانت صربيا محرومة من منفذ مباشر إلى البحر فقد كانت خاضعة فى الواقع للنمسا والمجر كسوق لمحصولاتها الزراعية . فلكى تقوى

صربيا نفسها شرعت تفاوض بلغاريا في سنة ١٩٠٥ في اتحاد جمركي لكن النمسا تدخلت . وفي سنة ١٩٠٦ لما انتهت المعاهدة الجمركية بين النمسا و صربيا كان الشعور في كلا البلدين من الهياج بحيث لم تتجدد المعاهدة . ومن ثم نشبت حرب جمركية لكنه بدلا من أن تفوز النمسا بسحق صربيا من الوجة الاقتصادية حملتها على أن تبحث لها عن أسواق أخرى وخاصة في المانيا وجعلت الصريين ينشئون في بلادهم مختلف الصناعات . وهكذا انقلبت محاولة النمسا في إرهاب صربيا من الوجة الاقتصادية حرباً عليها فبدلا من أن ترغمها على الميل بسياستها إليها نفرتها منها ، ودفعت بوزراء بطرس الأول أكثر مما اندفعوا إلى أحضان الروسيا بعد أن أوغرت صدورهم من ناحيتها ثم جعلتهم يزدادون إدراكا لحاجة بلادهم إلى منفذ اقتصادي مباشر إلى البحر كخط حديدي يصل بين صربيا وبين ميناء على الادرياتيك في البانيا أو في الجبل الأسود أو على بحر ايجه في سلانيك .

## روسيا والبواغيز

في غضون القرن التاسع عشر وخاصة عقب حوادث ١٨٧٨ جعلت الروسيا تنظر إلى إقفال السلطان للدردنيل في وجه السفن الحربية الأجنبية كوسيلة قيمة لحماية الروسيا وعتادها . وقد ظل هذا الاعتبار إلى وقت نشوب الحرب العالمية قاعدة من قواعد السياسة الروسية فكانت الروسيا تصدف عن كل ما من شأنه إدخال أي تعديل على المعاهدات التي تحرم على سفن الدول العظمى الأخرى الدخول إلى البحر الأسود .

لكن المعاهدات التي كانت تحظر على السفن الحربية الروسية المرور من مضيق البوسفور والدردنيل كانت في رأي الروسيا مسألة أخرى وقيوداً مذلة لا تتفق وهيبة الروسيا كدولة عظمى ، وكانت في نظرها منافية لما كانت

تتطلع إليه منذ عهد بطرس الأكبر من الهيمنة على منفذ حر إلى البحر الأبيض المتوسط ، وعقبة خطيرة إيجابية تغل يدها إذا هي اشتبكت في حرب كما وقع لها في الحرب اليابانية الروسية إذ منعت من التصرف في أسطول البحر الأسود في حيثما كان أفيد لها وأجدى عليها . هذا إلى أن هذه المعاهدات والقيود كانت تحول في حالة الاشتباك في حرب مع تركيا دون تكبير الأسطول الروسي المرابط في البحر الأسود وتمنع من الانشاء البحري على شواطئ روسيا الجنوبية . أما زيادة هذا الانشاء في بحر البلطيق أو تكبير الأسطول بشراء سفن حربية من إنجلترا فأمراً كان يتعذر عليها كما لاحظ القيصر في كثير من الأسف في يناير ١٩١٤ .

وهكذا أصبح فتح البواغيز للسفن الحربية الروسية غرضاً من أهم الأغراض التي سعى إليها الوزراء الروس في عشرات السنوات التي سبقت الحرب العظمى مباشرة . بيد أن رغبة الوزراء الروس على شدتها لم تدفعهم إلى حد أن يدبروا الاستيلاء في هذا السبيل على الآستانة فقد كانوا يميلون إلى التسليم بوجوب بقاء هذه المدينة في يد السلطان ما دام للأمبراطورية العثمانية وجود ، فان محاولة الاستيلاء عليها خليقة أن تصطدم بمعارضة من الدول العظمى لا تقوى عليها فضلاً عن معارضة بلغاريا واليونان . هذا إلى أنه يجب أن لا يسمح بوقوع الآستانة تحت سيطرة أية دولة أخرى سواء أكانت هذه الدولة بلغاريا في خلال حروب البلقان أو ألمانيا يوم عين الجنرال ليمان فون ساندرس قائداً للفيلق التركي في عاصمة السلطان كما سنيته لك فيما بعد .

ومع ذلك فان بعض الوزراء الروسين من ذوى الأطماع سرعان ما حملتهم المناسبات والظروف على التفكير سراً في مشروع يقضى بأن تنزل بغته وفي زمن السلم قوة تغتصب مرتفعات البوسفور المجاورة للآستانة . وكانت إحدى هذه المناسبات في شتاء سنة ١٨٩٦—١٨٩٧ إذ ظن المسيو نيليدوف سفير



الروسيا في الآستانة أن مذابح الأرمن المرعبة أثارت مشاعر أوروبا على السلطان ونفرتها منه ومن الفوضى السائدة في عاصمة ملكه، وهي فوضى كانت تلوح مؤاتية للروسيا إذ تتيح له فرصة حسنة للقيام بعمل جرىء تغتصب به مرتفعات البوسفور المطلّة على الآستانة . ففي النصف الأخير من سنة ١٨٩٦ قدم نيليدوف إلى سان بطرسبورغ لعرض خطته هذه فصادق عليها نيقولا الثاني ولو أنها كانت تهدد بأثارة حرب أوربية عامة وأقرها وزيراً البحرية والبحرية ورئيس مجلس الوزراء . لكنه لما عرضت هذه الخطة على السلطات العسكرية والبحرية لدرسها تبين لهم أنه ليكون من المحال—حتى لو استعابوا بالكتمان الشديد— أن يحشدوا ويسيروا عدداً كبيراً من الجنود دون أن يلفتوا الأنظار في إنجلترا ويتعرضوا لمعارضتها . وهكذا عدل القيصر عن هذه الخطة في النهاية بخاصة بعد أن عارض فيها بعض ذوى النفوذ لأسباب اقتصادية وسياسية وأدبية .

## إرجاء المشكلة البلقانية بين ١٨٩٧ و ١٩٠٧

وزار الأمبراطور فرنسوا جوزيف القيصر نيقولا الثاني في سان بطرسبورغ عقيب العدول عن مشروع نيليدوف فجرت بين العاهلين أحاديث ودية أسفرت عن اتفاق ذي شأن بين النمسا والروسيا على مسائل البلقان . وكانت الروسية في ذلك الحين قد نشطت الى الاهتمام بسياسة التوغل الاقتصادي والسياسي في الشرق الاقصى فكانت تحب أن تعنى من تعقيدات يمكن أن تحدث في البلقان وهكذا تبادل وزيراً الخارجية النمساوية والروسية في ربيع سنة ١٨٩٧ عقب زيارة فرنسوا جوزيف مذكرات حية تحتفظ بالحالة الراهنة في البلقان وتؤكد نيات الطرفين في السير على « سياسة يحدوها الوئام التام » فاحتفظت النمسا بحقوقها في البوسنة والهرسك وأبدت رغبتها

في إنشاء دولة مستقلة في البانيا واتفق على ألا تعدل حالة الأستانة والبواغيز في أي تدبير تعقده روسيا والنمسا على انفراد . وقد قيل إن هذا الاتفاق وضع المشكلة البلقانية « في الثلجة » وأرجأ متاعبها إلى المستقبل وبذا زال التوتر الذي كان يلابس أغراض روسيا والنمسا المتنافستين بعض الشيء وظل في الواقع كذلك عشر سنوات .

على أنه إذا كان القيصر ووزراؤه قد تحدثوا عن « بورت أرثر » فقد كانوا يفكرون في نفس الوقت في الأستانة . فلقد تحدث مورافيف وزير الخارجية الروسية في سنة ١٨٩٩ إلى السفير الألماني وقد أقلقه ازدياد النشاط الألماني في تركيا بسرعة وأزعجه ما يمكن أن يكون لهذا من الأثر الطيب في صحة « الرجل المريض » فذكر له في خشونة « حق روسيا وحدها في الأستانة » وزاد على ذلك قوله : « إن حكومة القيصر يجب أن تسهر الآن على ألا يكون لدولة أخرى سيطرة على البوسفور . » وعندئذ حاول أن يخدع ألمانيا بحملها على إمضاء اتفاق كتابي يضمن البوسفور لروسيا ويهدد بأن يتفاهم مع إنجلترا فلم تحفل به ألمانيا .

وفي سنة ١٩٠٠ وضع مورافيف مذكرة سرية مسهبة لتبحثها السلطات العسكرية والبحرية، وفيها يحض على الاستعداد للاستيلاء على شواطئ البوسفور في أية لحظة وعلى العمل على منع السلطان من القيام بأي شيء يمكن أن يقوى مركزه في البواغيز .

وفي ربيع سنة ١٩٠٤ جعل ايزفولسكي الذي كان قد نقل من طوكيو إلى كوبنهاجن ، يفكر في أحداث تغيير كبير في السياسة الروسية بالعمل على فض النزاع القائم من قديم بين روسيا وإنجلترا على المسائل الآسيوية وعقد اتفاق ودي معها يمكن روسيا من فتح البواغيز بسفنها الحربية . وكانت أحاديثه مع الملك إدوارد السابع الذي صرح له في أحدها بأن إقفال البواغيز



الأمبراطور فرانسوا جوزيف ثم جرى له حديث طويل مع ايرتال . فاسر اليه على سبيل التلييح انه ينوى أن يحل مسألة البواغيز على الصورة التي تريدها الروسية ، وهذا حقيقي ، وأكد له بصفة خاصة انه لم تتحدث في هذا الشأن الى الانجليز، وهذا غير حقيقي .

فشكر له ايرتال هذه الثقة لكنه اتبع نصيحة بسمرك فيما مضى من الزمان وكانت تقضى بالتحفظ مع الروسية حتى تظهر يدها وتفصح عن نياتها فسوف معه ولم يتورط في الجواب . وكان كل ما أبداه ان مسألة البوغاز مشكلة عسيرة وأنه اذا فتح بابها تعين علي النمسا أن تحدد موقفها ثم قال .

« واني أرجوك أن تحيطني علما بالمسألة قبل أن يؤون الأوان لتنفيذ خطط الروسية بوقت كاف وهو عين ما أشعر به من فرض علي أن أبلغ الحكومة الروسية إياه اذا اتت النمسا والمجر يوما أن تضم البوسنة والهرسك » .

ففي فينا إذن وبهذا الحديث الذي دار في سبتمبر ١٩٠٧ بين ايزفولسكى وايرتال كانت دلائل المساومة التي جرت بين الاثنين في بوخلاو بعد ذلك بسنه . والظاهر ان ايزفولسكى لم يشرع مباشرة في خطته ولا يبعد أن يكون ذلك لما أبدى ايرتال من تحفظ ولما كان يعرفه عن موقف انجلترا في هذا الصدد . لكنه بعد هذا بيضعة أشهر وبعد أن ألقى ايرتال « قبلة تحت قدميه » بأعلانه رغبة النمسا في مد سكة حديدية من سيرا جيفو الى سيتروفتنا لتتصل بسكك مقدونيا واليونان الحديدية عاودته فكرة نيليدوف في الالتجاء في تحقيق رسالة روسيا التاريخية الى القوة لا الى السياسة . فعقد مجلس الوزراء الروسي جلسة سرية في ٣ فبراير ١٩٠٨ أشار فيها ايزفولسكى الى ان روسيا « سوف تخاطر بكل ما جنته من ثمرة مجهوداتها الطويلة التي استغرقت قرونا وتصبح دولة من الدرجة الثانية فلا تعود تقوم بدورها كدولة عظمى » اذا هي مضت في سياستها السلبية الدفاعية التي اختطتها في سنة ١٨٩٧ وهي إهمال

المسألة البلقانية مؤقتا . فقلت ذلك مناقشة أجملها ستولين رئيس الوزارة بقوله انه يجب ان لا يعول ايزفولسكى على تأييد المجلس لسياسة عدوانية تنطوي على المغامرة ..

وإذ عجز ايزفولسكى عن الفوز بتأييد اجماعى لسياسته القاضية باتخاذ اجراءات عسكرية حول وجهه شطر ايرتال والنمسا ليحقق بالوسائل السياسية جانبا متواضعا من رسالة روسيا التاريخية وهو فتح البواغيز للسفن الحربية الروسية في المستقبل .

وقد كان ايرتال من جانبه يفكر سرا من أشهر في مناسبة تحول احتلال البوسنة والهرسك الى تملك تام نظرا للصعاب الادارية وتزايد الخطر من دعاية « صربيا الكبرى » .. فإنه على الرغم من كثرة ما أداه رجال هابسبورغ اثناء الاحتلال في سبيل تحسين الأحوال المادية في البوسنة والهرسك بانشاء الطرق والمدارس وتقرير النظام كانت ادارتهم محلا للانتقاد الحق في كثير من الشؤون . فلما نشبت الثورة التركية ازدادت الأخطار الادارية والثورية وخشيت النمسا ان يطالب رجال تركيا الفتاة — وكانوا قد دعوا الى انعقاد برلمان ديموقراطى للدولة العلية بأسرها — بأن تمثل البوسنة في هذا البرلمان فأمل ايرتال ان يضع بضم البوسنة والهرسك دفعة واحدة حدا لآى شك فى ان هذين الأقليمين سيصبحان ملكا للنمسا والمجر .

قشورة تركيا الفجائية فى سنة ١٩٠٨ وما كان يخشى أن يترتب عليها من احتمالات لاسبيل الى التأكد منها لاح لكل من ايزفولسكى وايرتال مؤاتيا لمساومة مفيدة للجانبين على حساب تركيا . فقد يصبح فى مكنة روسيا تسوية « مسألة البواغيز » بالحصول على حق مرور السفن الحربية الروسية من البوسفور والدردنيل ، ويصير فى استطاعة النمسا تقوية مركزها فى البوسنة والهرسك بتحويل الاحتلال الذى استتمعت به ثلاثين سنة الى ضم مباشر . هذا هو جوهر المذكرة التى بعث بها ايزفولسكى الى ايرتال فى ٢ يولية ١٩٠٨

فما يتصل بالمفاوضات المتعلقة بمشروعى سكتى السنجق والدانوب أدرياتيك الحديديتين . وقد اغتبط ايرتال بمقترح ايزفولسكى الذى كان يوافق خطته هو كل الموافقة . ولكى يبرر تفاصيل هذه المساومة دعا وزير خارجية روسيا الى الاجتماع به فى قصر الكونت برشتولد فى بوخلاو من أعمال موارفيا .

ولما كان حديث ايزفولسكى وايرتال فى بوخلاو فى ١٥ سبتمبر ١٩٠٨ لم يشهده غيرهما ولم تدون به اتفاقات معينة فقد تناقضت الأقوال فى شأنه بعد وقوعه ببضعة أسابيع لما لم تسفر المساومة عما كان يتوقع منها . وقد أعلن ايزفولسكى أن ايرتال غشه وأساء تأويل كلامه . لكن الوقائع استطاع سردها بدقة عظيمة مما أفضى به كل وزير الى فريق ثالث . فقد وافق ايزفولسكى على أن تضم النمسا البوسنة والهرسك ووافق ايرتال على فتح البواغيز للسفن الحربية الروسية . كذلك وعد ايرتال بالعدول عن مشروع سكة السنجق الحديدية وعن كل نية لمد نفوذ النمسا صوب سالونيك وأن يسحب الحاميات النمسوية العسكرية من سنجق نوفي بازار . ولما كانت هذه التغييرات تعدل شروطا مهمة فى معاهدة برلين فقد رأى ايزفولسكى أن يبرمها مؤتمر من الدول التى وقعت على المعاهدة . والظاهر أن ايرتال لم يعارض فى هذا إذ ذاك . وقد تناول البحث نقطا أقل من هذه أهمية واتفق عليها وهى إلغاء حقوق النمسا على شاطئ الجبل الأسود وضم كريت لليونان والموافقة على استقلال بلغاريا اذا ما قرر الأمير فرديناند نهائياً أن ينادى بنفسه ملكاً . والموضوع الهام الوحيد الذى لم يعين والذى نشأ عنه خلاف حاد لا آخر له هو التاريخ الذى كان ينبغى أن تحدث فيه هذه التغييرات وتعلن . والظاهر أن ايزفولسكى كان يعتقد أن هذه المساومة ستصادفها بعض المصاعب الجدية ولم يكن يتوقع أن يقدم ايرتال على اجراءات معينة قبل أن تثبت خلاصة ومحادثات بوخلاو على الورق .

ولا يبعد أن يرتال لم يكن قد صمم في بوخلاو على ما فعل . لكنه في ٢٦ سبتمبر صحت عزمته فيما يلوح على أن يعجل بالعمل إذ بعث الى ييلوف بكتاب مستفيض يبلغه فيه ما تم عليه الاتفاق في بوخلاو ويسوغ ما قام به لكن دون أن يعين أى موعد للضم . وفي ٢٩ سبتمبر أرسلت الى سفراء النمسا في الخارج خطابات شخصية من فرنسوا جوزيف لتقدم في ٥ أكتوبر الى رؤساء الدول الكبرى . وفي هذه الخطابات أنه سيعلن ضم البوسنة والهرسك في ٧ أكتوبر .

في تلك الأثناء كان ايزفولسكى يطوف في أوروبا على مهله ليجس نبض الدول في مساومة بوخلاو وليحصل على موافقتهم عليها غير حاسب حسابا لأمكان تعجيل يرتال بمواجهته بأمر واقع . ففي ٢٦ سبتمبر قابل وزير خارجية ألمانيا الهرشون وأكد له المتاعب التي ينتظر أن تثيرها صربيا مرتثا أن من الضروري أن يقر مؤتمر أوربي هذه الاتفاقات الجديدة . فأصغى إليه شون ثم أبدى أن ألمانيا تتوقع بعض الخدمات في مقابل الموافقة على فتح البواغيز . وفي ٢٩ سبتمبر و ٣٠ منه أفضى ايزفولسكى في ديزيو الى تيتونى بسر المسألة وكان هذا أول ما اتصل به بصفة معينة عن موضوع التغييرات المقبلة فتألم الوزير الإيطالى وبعث رأسا الى فينا يناشدها تأجيل الضم فلم يلق أذنا صاغية ، ودهمه مجرى الحوادث . ومع أن تيتونى كان ساخطا على خطط يرتال في البلقان ناقما عليه صمته في صدها ، فإنه كان راغبا في ارضاء مطامع ايزفولسكى في مسألة البواغيز مقابل تسامح روسيا مع إيطاليا في شأن الاستيلاء في المستقبل على طرابلس . وقد نوه في البلاغ الذى وزع على الصحف عن حديث ديزيو وفي الخطبة التي ألقاها في البرلمان في ٤ ديسمبر ١٩٠٨ باتفاق روسيا وإيطاليا التام في الرأى . الأمر الذى أثبت كتابة بعد ذلك بثلاثة عشر شهرا في اتفاق راكونيجي المعقود في أكتوبر ١٩٠٩ .

وينا كان ايزفولسكى مستقلا القطار إلى باريس اشترى في مو صحيفة لم يكد يطلع عليها حتى أزججه ما ورد فيها من الدلائل على أن ايرتال والبرنس فرديناند امير بلغاريا على وشك أن ينفذا جزءاً من الخطط التي بحث فيها في بوخلاو، وقد أكد هذا النبأ خطاب تسلبه من ايرتال على أثر وصوله إلى باريس

### الازمة البوسنوية في ١٩٠٨-١٩٠٩

فأما في صربيا فقد أثارت هذه الأنباء سخطاً وانفعالا عظيمين، وأنشأت الصحف تصدر الملاحق منحية باللائمة الشديدة على هذا الخرق لمعاهدة برلين، مطالبة بالاستعداد للجهاد ضد النمسا فأما حياة أو موت واقترض بعض الوزراء الصربيين أن الحرب واقعة لا محالة ودعى مجلس النواب إلى الانعقاد على عجل، وأجاز المجلس اعتمادات للحرب وأعدت معدات التعبئة، وشككت عصابات مسلحة وعصابات الكوميتيجي المشهورة، وأسس بعض كبار المواطنين جمعية نارودنا أودبرانا (الدفاع الوطني) لمنع ضم البوسنة والهرسك إلى النمسا، وبادر الأمير جورج قره جور جفتش بالتوجه إلى روسيا ليناشد القيصر المعونة، وتبعه باشتش على عجل، وذهب رئيس الوزارة الصربية ووزير خارجيتها يطوفان بعواصم أوروبا استمدادا للمساعدة على منع ايرتال من الاستيلاء على هذين الاقليمين وهما اللذان كانا يعتبران قلب المملكة السلافية الجنوبية التي يطمح إلى إنشائها في المستقبل.

لكنه فيما كان الوزيران الصربيان يرفعان عقيرتهما بالاحتجاج في نفس على خرق معاهدة برلين بهذا الشكل السيء كانا في نفس آخر يقترحان منح « الاستقلال الذاتي » للبوسنة والهرسك ويطلبان « تعويضاً أرضياً » لمملكتهما. فكانا يحضنان على تقسيم السنجق بين صربيا والجبل الأسود



إذ يصل هذا ما بين البلدين السلافيين بحدود مشتركة ويقوم حاجزاً في وجه النمسا يحول دون توغلها جنوباً إلى أبعد من ذلك . وكان هذا جزءاً من المنطقة التي يراد أن تمتد فيها سكة حديد الدانوب والادرياتيكت لتحصل صربيا على منفذ مباشر على الادرياتيكت وتقطع بهذا الخط الحديدى الذى يريد ايرتال مده إلى سالونيك فماذا عسى أن تفعل الدول بصربيا ؟ وخاصة ماذا تنوى روسيا عمله وهى حامية السلاف ؟

لقد كان ايزفولسكى إذ ذاك فى مأزق . كان يخشى أن يكون ايرتال على وشك أن يفوز بمزايا نصف مساومة بوخلاق قبل أن يحصل هو على موافقة فرنسا وانجلترا على النصف الخاص بروسيا . ولذا لم يشأ أن يثير الصربون الاضطراب قبل أن يفوز بالبواغيز فطلب إليهم أن يلتزموا الهدوء فى الآونة الراهنة وأن ينتظروا مؤتمراً تعقده الدول .

لكن ايزفولسكى سرعان ما استبان أنه لا يجد فى باريس عوناً على مشروع فتح الدردنيل . وعندما عبر المانش إلى انجلترا لا تزال معارضة على الرغم مما كان يتوقعه من اتفاق ١٩٠٧ الودى من توثق العلاقات وزاد همه أن السير ادوارد غراى أخبره فى كياسة أن طلب فتح الدردنيل « عدل ومعقول » ولا يعارضه « مبدئياً » على أن يكون هذا الفتح « على قدم المساواة التامة للجميع » وفى جملتهم انجلترا . أما مشروع ايزفولسكى القاضى بطلب فتح البواغيز للسفن الروسية الحربية وحدها دون سفن الدول العظمى الأخرى فكان يعارضه غراى كل المعارضة . وقد حاول ايزفولسكى عبثاً أن يخيف غراى لجملة على قبول اقتراحه بالتلبيح إليه بأن الرفض قد يودى إلى فهم عرى الوفاق الودى فقال : « ان الآونة الراهنة آونة عصية فهى إما أن توطد العلاقات الطيبة بين انجلترا وروسيا وتقويها وإما أن تقلبها رأساً على عقب . ومركزه هو فى خطر فهو مرتبط كل الارتباط بسياسة حسن التفاهم مع انجلترا — تلك السياسة التى دافع عنها ضد كل معارضة . »

وجعل ايزفولسكى إذ ذاك يفقد كل أمل في الوصول الى فتح البواغيز  
للسفن الروسية الحربية برغم كل شيء . فأذا كان لم يستطع ضمان نصيبه في  
في مساومة بوخلاو فلعله لا يزال من الممكن هزيمة ايرتال بالأصرار على أن  
تعرض مسألة الضم على مؤتمر من الدول الموقعة فاذا لم ينجح في هذا فسوف  
يكون فشله هزيمة سياسية مذلة وضياع هيئته الشخصية في صورة مؤلمة . ولقد  
جعل أنصار الجامعة السلافية ينتقدونه في روسيا في حنق ومرارة لأن ايرتال  
خدعه بسماحه للبرنس فرديناند بتأكيد استقلاله بنفسه بدلا من تقبله من يد  
القيصر ، وخاصة بتضحيته بسلافي البوسنة الارثوذكس على مذبح سيادة  
هابسبورغ الرومانية . حتى أن أحد سفرائه لم يتردد في استنكار حماقة رئيسه  
إذ أثار مسألة البواغيز وذهب يتسكع في أوروبا بعد مساومة بوخلاو بدلا  
من أن يعود الى روسيا . واذن فهذه المسألة يصح أن تسقط ايزفولسكى  
من منصبه .

لذا أخذ ايزفولسكى نظرا لضعف مركزه في بلاده وفشله في باريس  
ولندن يزعم للصريين انه لم يصادق أبدا على ضم النمسا للبوسنة ، وانه حين  
كان في لندن « لم يخف غيظه من النمسا واحتج بشدة على التأكيد بأنه وافق  
على الضم » . وصرح بأنه سيفعل كل شيء لحماية المصالح الصربية والحصول  
على تعويض مما أصابها . ووقف بيرلين في طريقه الى بلاده عائدا من باريس  
ولندن فجعل يستنكر عمل النمسا في أشد من لهجته السابقة « وأنحى باللائمة على  
النمسا والمجر التي فقدت - في رأيه - ثقة روسيا والدول الغربية وأعرب  
عن اعتقاده وأمله في الانتقام منها في أبشع صورة جزاء ما اقترفته ، لكنه  
وجد في برلين أن ألمانيا تؤيد حليفها النمسية تأييدا قويا في رفضها عرض  
مسألة الضم على مؤتمر مالم يتفق مقدما على قراراته وفي جملتها الاعتراف  
بالضم . فأزاء هذه المعارضة بات يخشى أن لا يستطيع هزيمة النمسا دون  
تعريض سلام أوروبا للخطر ، وهو ما كانت روسيا فيما يعلم غير مستعدة له

بتاتا . ولذا نصح للصريين بتجنب الحرب في الآونة الراهنة لكنه أسر اليهم انه حتى لو سمح للضم بأن يتقرر فلن تكون هذه بالتسوية النهائية .

في تلك الاثناء كان الهياج في صربيا وبين السلافين في البوسنة وكرواتيا يزداد فتعددت مظاهر التحدى لآل هابسبورغ وضاعفت النمسا من جانبها اجراءات القمع وجعلت تقبض جملة على المهيجين ومن تشبهه في انهم خونة . وتفاقت الحال في ديسمبر ١٩٠٨ في البوسنة وصربيا وباتت تهدد النمسا الى درجة أنه سمح لكونراد رئيس هيئة أركان الحرب بنوع غير ظاهر من التعبئة سيرت على مقتضاه الجنود النمسيون الى الحدود الصربية دون أن تتعطل المواصلات المعتادة في وقت السلم على السكك الحديدية . وقد هددت هذه الحالة بحرب محلية يسهل فيما بعد أن تقلب الى حرب أوربية عامة . بيد أن روسيا رغبت في تجنب الحرب إذ ذاك لأنها لم تكن مستعدة لمثل هذه الحرب بتاتا ولم تكن لتستطيع مد يد المعونة الحربية الى صربيا . هذا الى أنها لم تكن تعتمد على حليفتها فرنسا لرغبة هذه عن الانسياق الى حرب مع ألمانيا على نزاع بلقاني . ولذا اضطرت روسيا الى المضي في النصح للصريين بالرضوخ في الوقت الحاضر والثقة بالمستقبل .

وفيما كانت الحالة على الحدود الصربية تستفحل والدول ، برغم نشاطها الى تبادل الرسائل ، لا تصل الى حل تقدمت ألمانيا في آخر الأمر باقتراح للحفاظ على سلام أوروبا يساعد ايزفولسكى على التخلص من ورطته ويرضى النمسا في الوقت نفسه .

## حل ألمانيا لللازمة

لقد طالما قيل ان ألمانيا حرصت ايرتال على ضم البوسنة والهرسك خدمة لمصالحها في خط بغداد الحديدى ومرافقها الاستعمارية . لكن قولا كهذا

لا أثر له من الصحة . فأن ألمانيا كما هو الواقع لم تخطر لها حليفتها في حينه وفي صورة جليلة بما كانت تتبويه مما أدى الى أنها لم تجد فرصة للتدخل وكبح حليفتها الا بعد فوات الأوان .

فأنه لما كتب ايرتال الى ييلوف في ٢٦ سبتمبر عن مساومة بوخلاو كان ولاية الأمور الألمان مشتتين هنا وهناك في مصايفهم المختلفة . فكان ييلوف في فيللاه على ساحل بحر الشمال وشون وزير الخارجية في التيرول البقارى والامبراطور في بروسيا الشرقية فكتاب ايرتال المؤرخ في ٢٦ سبتمبر ظل يتجول من نوردرنى الى رومنتن ويضيع الوقت في تجواله حتى إذا بلغ الأمبراطور وعلم منه ما تتبويه النمسا كان يوم الضم نفسه قد حل . وقد حنق لهذا الكتاب حنقا شديدا ولم يكن حنقه على أنه أبقى هذا الزمن الطويل على جهل بالموضوع فحسب بل كان أيضاً على عمل النمسا نفسه ، فقد عده عدوانا على تركيا ليس ما يبرره ، فضلا عن اضراره بنفوذ ألمانيا ضررا بليغا وتهديده لسكة بغداد الحديدية وإثارته الريبة في انجلترا نحو دولتي الوسط ، وقد كان الأمبراطور يخشى أن يكون عمل النمسا بداية تقسيم تركيا وأن يفضى الى حرب أوربية فقال « إنه لو أعلن السلطان الحرب في ضيقه ورفع في الآستانه علم الجهاد الاخضر لما لمته ، » والنمسا بسياسة كهذه تدفعنا الى معارضة روسيا معارضة تنطوى على الاخطار ، هذا الى خشيته أن يعتقد الجميع أن الضم كان بموافقة إذا هو لم يقف في وجهه . وقد كان من رأى البارون مارشال سفيره في الآستانه استنكاره حتى ولو أدى هذا الاستنكار الى هدم التحالف مع النمسا .

على ان ييلوف كان يختلف مع مولاه فكان يعتقد أن من واجب ألمانيا تأييد النمسا في البلقان حتى لا تضعف المحالفة الثلاثية وكان يرى أن على ألمانيا أن تأخذ بيد النمسا في الاجراء الذى اتخذته . واذا كان من حق ألمانيا أن تغضب منها لأنها لم تستشرها من قبل فليس بنافع شيئا أن تحتج الآن . وأخيراً

أخذ الإمبراطور برأى ييلوف ، وأبلغ هذا فينا على الأثر قوله : « ان لحليفتنا أن تعتمد علينا اذا حدثت متاعب أو تعقدت الحالة وان على النمسا أن تقرر ما يجب عمله في المسألة الصربية »

ودخل ايرتال في مفاوضات مع رجال تركيا الفتاة سعياً وراء إرضائهم بعد أن أعلن ضم البوسنة والهرسك وكانوا كالصربيين قد رفعوا عقيرتهم بالاحتجاج بادی الرأي على خرق معاهدة برلين وحشدوا الجيوش وشرعوا في مقاطعة البضائع النمسية، لكنهم ما علموا أن اقتنعوا بأنه مامن دولة أوربية ستعتمد بالفعل إلى الأخذ بيدهم والانتصار بالسلاح لهم ، فقررروا آخر الأمر في ٢٦ فبراير ١٩٠٩ بعد الذي شهدوه من مظاهرة ألمانيا القوية للنمسا أن يقبلوا ما عرضه النمسيون في مقابل « فقدان بعض أملاك التاج » وهو مليونان ونصف مليون من الجنهيات التركية تكون بمثابة عوض من التنزل عن السيادة الاسمية على الاقليمين المضمومين .

يبد أن قبول تركيا للأمر الواقع لم يسو المسألة بل زاد في مرارة الصربيين وامتعاضهم . وأبرقت الدول العظمى في غضون الأسابيع التي تلت اتفاق النمسا مع تركيا أخذاً ورداً تحاول التوفيق بين وعد ايزفولسكى للصربيين بوجوب عقد مؤتمر ورفض ايرتال المتواصل عرض مسألة الضم على مؤتمر سعياً وراء تعديله . وأخيراً بعد أن لم تصل الدول الى حل تقدمت ألمانيا باقتراح انفرجت به الحالة بعد ضيقها فقد اقترحت على روسيا في ١٤ مارس بصفة سرية أن تتوسط بينها وبين النمسا . وذلك أن تطلب ألمانيا الى النمسا دعوة الدول الى التصديق رسمياً على الاتفاق النمسي التركي بتبادل مذكرات لهذا الغرض تنطوي على الغاء المادة ٢٥ من معاهدة برلين على شريطة ان تتعهد روسيا مقدماً بالتصديق كذلك اذا مادعتها النمسا الى هذا الأمر

وكان لهذا الاقتراح ثلاث فوائد : حصول النمسا على اعتراف الدول بالتغير الطارىء على مركز البوسنة والهرسك وتجريد صربيا من كل حجة

قانونية وأمل في قلب هذا الأمر الواقع وأخيراً ارضاء « الوفاق الثلاثي »  
باجابته الى ما يطلب من وجوب اعتراف كافة الدول الموقعة على معاهدة من  
المعاهدات رسمياً بكل تغيير يطرأ عليها ليصبح شرعياً . وقد قدر ايزفولسكى  
هذا الاقتراح ومال الى الأخذ به لكنه كان لا يزال متردداً في اعطاء جوابه  
النهائي لأنه كان لا يزال يأمل عقد المؤتمر وتجنب هزيمة سياسية أخرى .  
وكان ميله الى قبول المقترح الألماني يرجع من أن مجلس الوزراء الروسي كان  
قد قرر في ١٧ مارس أن روسيا غير مستعدة مطلقاً لمساعدة صربيا بقوة  
السلاح ، كما يرجع الى ما لمح به ايرتال من أن النمسا قد تنشر الوثائق الخاصة  
بمساومة بوخلاو فتثبت بذلك أن ما كان ايزفولسكى يذيعه في كل مكان عن  
أصل المسألة البوسنوية لم يكن صحيحاً . وقد رجا ايزفولسكى ييلوف على أثر  
هذا التلبيح أن يصرف ايرتال عن مثل هذا النشر وقامت ألمانيا بما طلب  
منها مبدية للنمسا أنه خير لها أن تحتفظ بهذه « الورقة الراجعة » ما أمكن .  
وأبدى ايرتال ارتياحه الى قبول اقتراح ألمانيا على شريطة أن تصرح صربيا  
رسمياً بأن ضم البوسنة لم يخرق ما لها من الحقوق وتتعهد بالعدول في المستقبل  
عن موقف المعارضة والاحتجاج

في تلك الأثناء كانت النمسا تجيش بخلاف داخل فقريق يرى السلم مع  
صربيا وآخر يرى محاربتها . فقد عاد كونراد رئيس هيئة أركان الحرب يحض  
على أن تنتهز مملكة هابسبورغ هذه اللحظة المؤاتية لحرب « لا مفر منها »  
مع صربيا « لأن هذا الثعبان الصغير الخطر » يجب أن يسحق في « حرب مانعة »  
كما يصبح في المستقبل عاجزاً عن الضرر . وكانت حجته في ذلك أن روسيا  
وايطاليا ليستا مستعدتين للحرب استعداداً كافياً وأن رومانيا لا تزال موالية  
وتركيا راضية . وفرنسا وانجلترا قد لا يعدو الأمر معهما الاستنكار دون  
التدخل . كان يرى أن هذه الفرصة لن تعود وأن الأخلق أن تنتهز لمناقشة  
صربيا الحساب ودفع خطر « صربيا الكبرى » إذ المنتظر أن يتم تنظيم

الروسيا وإيطاليا في المستقبل من جديد وتزداد جيوشهما . فاذا لم تنشب الحرب الآن ونشبت بعدئذ أصبح على النمسا أن تحارب في ثلاثة ميادين . لكن إيرتال والإمبراطور فرنسوا جوزيف كانا من الجهة الأخرى ميالين للسلام وان كان ييلوف قد خشى أن يلينا يوماً لضغط كونراد . وقد حدث بالفعل في ١٥ مارس أن نصح إيرتال لفرنسوا جوزيف بالموافقة على دعوة جنود أخرى وتوجيهها سراً إلى الحدود الصربية . ولذا كانت الحالة عصبية . وقد كان ييلوف يعتقد أن من الضروري للحيلولة دون وقوع الحرب بين النمسا وصربيا أن يضغط باقتراحه الخاص بالتوسط ويحصل على رد نهائي من إيزفولسكي . ولذا أرسل في يوم ٢١ مارس تعليمات بهذا المعنى إلى السفير الألماني في سان بطرسبورغ وقد جاء فيها :

« قل للمسيو إيزفولسكي أننا علمنا مع الارتياح بتسليمه بالروح الودية التي أملت اقتراحنا وأنه يميل إلى الأخذ به . . . . . وانا ننتظر أن يجيبنا بنعم أولاً . ولذا سنعتبر كل رد مشروط أو غامض أو ينطوي على الروغان بمثابة رفض وعندئذ ننسحب وندع الأمور تجري في أعنتها ، فتقع مسؤولية الحوادث المقبلة على عاتق إيزفولسكي وحده بعد أن نكون قد بذلنا جهوداً صادقاً لنساعده على جلاء الحالة بطريقة يسعه قبولها . »

بهذا فهم إيزفولسكي انه « مخير بين أمرين » إما تسوية مسألة الضم عاجلاً بتبادل المذكرات واما أن تغزي صربيا . وقد استشار القيصر وفي اليوم التالي أعطى رده رسمياً بالإيجاب المطلوب . وكان القيصر قد ابرق إلى الإمبراطور يقول إنه معتبط كل الاغتياب بأن اقتراح المانيا قد جعل التسوية السلمية ممكنة . هذه هي الحوادث التي سرعان ما شوهت فانقلبت أسطورة تزعم ان المانيا هددت روسيا بالقوة واذلتها بانذار نهائي . وقد استغلت الصحف الروسية هذه الأسطورة واذاعها في انجلترا السير ارثر نيكولسن واستخدمها إيزفولسكي وسيلة لتليس العذر لنفسه حيال منتقديه في روسيا ، مع ان السير

ادوارد غراي كان قد تقدم في تلك الأثناء بصيغة للتوسط تماثل صيغة المانيا  
نخاطب النمسا بلغة تكاد ان تكون اللغة التي خاطب بها ييلوف الروسية قائلًا:  
« فاذا اخفق هذا فسينسحب ويدع الأمور تجري مجراها . »

وبعد ان قبلت روسيا مقترح المانيا حذت انجلترا وفرنسا وايطاليا  
حذوها على الأثر . وتبادلت الدول المذكرات بناء على دعوة النمسا وصدقت  
مؤخراً على ما صدر من جانب ايرتال وحده إذ ألغى مادة خطيرة في  
معاهدة اوربية .

على انه قبل ان يصل الى فينا نبأ تسليم روسيا او على الرغم من هذا  
النبأ كان حزب الحرب قد اصبحت له اليد العليا فقرر مجلس الوزراء في ٢٩  
مارس « التعبئة الصفراء » او التعبئة حرف « ب » ( بلقان ) . وكان هذا  
يستلزم التعبئة الكاملة لخمسة فيالق من خمسة عشر فيلقاً كانت وقتذاك تؤلف  
الجيش النمساوي المجري . وقد غادر كونراد مجلس الوزراء وهو مقتنع بأن  
ما طالما حض عليه من مناقشة صربيا الحساب على وشك ان يقع اخيراً .

لكن صربيا عبات أخيراً بتحذير روسيا إياها من الدخول في حرب  
في الوقت الحاضر ونصحها لها بأن تثق بالمستقبل . فقررت في آخر لحظة أن  
ترضخ لمشورة الدول وأعلنت في ٣١ مارس ١٩٠٩ في فينا رسمياً ذلك  
التصريح الذي كان قد اتفق عليه ايرتال مع سفير انجلترا في فينا \* فسرحت  
الجيش الصربية والنمساوية في خلال بضعة الأسابيع التالية وانفجرت بذلك  
أزمة الضم . لكننا سنرى فيما بعد كيف أن الصربيين بتشجيع روسيا لم  
يوفوا بتعهداتهم التي أرغموا على قطعها وكيف أن كونراد شكاً فيما بعد مراراً  
وتكراراً من أن المانيا منعت النمسا في سنة ١٩٠٩ من التخلص من الخطر  
الصربي بالطريقة الوحيدة المرضية دواما وهي استعمال القوة .



## عواقب الازمة البوسنويه

لقد عاجلنا في شيء من التفصيل هذه الحوادث لأن الآثار التي ترتبت على أزمة الضم ظلت محسوسة أمداً طويلاً ويمكن أن تعد من الأسباب التي أحدثت الحرب سنة ١٩١٤. نعم أن ايرتال أحرز فيما لاح سنة ١٩٠٩ نصراً سياسياً كان للنمسا باهراً بقدر ما كان مذلاً للروسيا وصرية ، لكنه كان من تلك الانتصارات التي يدفع ثمنها غالباً والتي تبدو في حينها باهرة فأذا نظر إليها عن بعد ألفت تنطوي على الاخفاق والفشل أكثر مما تنطوي على النجاح . فقد جعل ايرتال أوروبا ترتاب في أساليب السياسة النمسية ولا تطمئن إليها وعاد هو باللوم من جراء خرقه معاهدة خطيرة دون مسوغ . وقد انتزع من صرية تصريحاً مذلاً أمل أن يضع حداً لدعاية « صرية الكبرى » لكن مثل هذا الاذلال تصيب به أمة أخرى لا نخاله دالاً على المهارة السياسية ولا تتصوره ناجحاً حقيقة في تحقيق الغرض المرجو منه . فانه على النقيض من ذلك يترك عادة مرارة لاذعة في النفس ويبعث في الغالب على حدوث المتاعب في المستقبل . وقد كان فان صرية لم تحفل بما وعدت به من العيش مع النمسا كما يعيش الجار مع الجار بل سمحت بأن تصبح أرضها أتونا تنبعث منه حملات التهيب الضار ويتطير الشرر إلى قلوب الرعايا البوسنويين والسلافيين في مملكة هابسبورغ فيشجع فيها الخيانة وعدم الولاء .

كذلك باءت ألمانيا بشيء من الريبة واللوم اللذين أصابا حليفها . ومع أنه لم يكن لألمانيا في الواقع سابق علم بين باجراء ايرتال المتعلق بالضم ، ولا هي شجعتة على اتخاذه فإن الدول وكثيرين من المؤرخين لم يقتنعوا كثيراً بتأكيدات ألمانيا إذ ذاك وبعد ذلك وإبانتها للحقائق . وكان طبعياً أن يشتبهوا من الصورة القوية التي أيدت بهابرلين فينا في خلال الأزمة كلها في أن ألمانيا متواطئة مع النمسا منذ البداية وموافقة على عملها كل الموافقة ، حتى كان من

جراء ذلك أن فسر مسعى ألمانيا في الوصول إلى حل يقر الأمر الواقع الذي أحدثته النمسا ويتيح في الوقت نفسه لايذفولسكى خط الرجعة عن موقف كان الروسيون يدركون أكثر منه أنه لا قبل بالثبات فيه - نقول كان من جراء ذلك أن فسر مسعى ألمانيا في الوصول إلى هذا الحل بأنه « تهديد باستعمال القوة » و « انداز نهائى » . ومن سوء حظ ألمانيا أن يتعزز هذا الشعور بتلك الخطبة المنطوية على المباهاة وعدم الكياسة التي القاها غليوم حينما زار فينا في سنة ١٩١٠ و أعلن فيها للعالم انه وقف إلى جانب حليفته « ودرعه يلعب على صدره » .

اما تأثير هذا الحادث بمخذافيه على الشريك الثالث في المحالفة الثلاثية فكان وخيم العاقبة من كل وجه بالنسبة لدولتي الوسط . فأن ايطاليا لم تستشرها حليفاتها مقدما في كل شيء ولم تمكن من القيام بأى دور ذى شأن في حل الأزمة فكان من جراء ذلك ان جرحت عزتها وأن باتت مطامعها مهددة بازدياد نفوذ النمسا في شبه جزيرة البلقان . هذا إلى ان مرأى الجنود النمسوية تتسلط على الحدود ومشاهدة التحصينات في بولا وعزم النمسا على انشاء الدردنوطات وشعور الايطاليين تبعاً لذلك بأنهم دون النمسا من حيث القوة العسكرية والبحرية كان يثير في قلوبهم حقدهم الخفى على النمسويين . وقد جاءت خطط ايرتال العدوانية فهددت ما جرت به التقاليد من سيادة البندقية على الأدرياتيك . زد على ذلك ما كان قائماً بين البلدين من المنازعات القومية وان النمسا كانت الدولة الوحيدة التي لم ترد على الدعوة إلى المعرض الدولى الذى كان يراد إقامته في سنة ١٩١١ . وهذا خلا الذكريات الأليمة التي أثارها احتفالات العيد الخمسينى لحروب سنة ١٨٥٩ . وقد اعرب فورتيس رئيس الوزارة السابق عن هذا الشعور بالمرارة في خطبة حارة قوبلت بالتصفيق الشديد إذ قال : « ان هنالك دولة واحدة فقط ترى ايطاليا أن الاشتباك معها في حرب ليس يبعيد . وهذه الدولة هي حليفها بكل اسف

فعلى الحكومة ان تدعو الأمة إلى توضيحات جديدة للتوفيق بين قوانا العسكرية ومقتضيات الحال . « وازدادت شكوك إيطاليا فى قيمة المحالفة الثلاثية لها وكانت بعد تلك الحوادث يضعه اشهر على تمام الاستعداد للتوقيع على اتفاق را كونيجه السرى مع روسيا . وكان الغرض من هذا الاتفاق ان تتعاون روسيا وإيطاليا سياسياً فى الشرق الأدنى فضلاً عن انه كان بمثابة شاخص جديد فى طريق انتقال ايطاليامن المحالفة الثلاثية إلى الوفاق الثلاثى . على ان ابلغ ما ترتب على ازمة البوسنة من الآثار واطرها شأناً هو ما حدث فى روسيا . فقد هاجت صحف الجامعة السلافية وماجت فى حملة طويلة عنيفة ضد المانيا كان قوامها أن الحرب بين الكتلة السلافية والكتلة التوتونية « واقعة لا محالة » وانه يجب أن تبادر روسيا الى الاستعداد لها . وفى الواقع لقد شرعت روسيا بعد ذلك بقليل فى تنظيم جيشها وبحريتها من جديد وزيادتها زيادة كبرى ظلت تتواصل إلى سنة ١٩١٤ . وقد كانت هذه الهزيمة السياسية التى جرها ايزفولسكى بيده ألم شىء جره فى حياته على نفسه ، فأثرت فى مسلكه بقية أيامه وملاأته رغبة فى الانتقام واسترداد هيئته الشخصية المفقودة . وقد كانت عاصفة الانتقادات التى وجهتها اليه عناصر الجامعة السلافية فى روسيا سبباً من الأسباب التى أرغمته على التخلي عن منصب وزير الخارجية فى سبتمبر ١٩١٠ وتولى منصب السفارة الروسية فى باريس فهناك بات فى موقف يسمح له بوقف نشاطه الذى لا يقر ودسائسه المنطوية على المكر على توثيق الروابط بين روسيا وفرنسا وانجلترا . فقد أدرك الآن أن تأييدها وزيادة التسلح هما وحدهما اللذان يمكنانه من التفادى من مثل هذه الهزيمة السياسية ، أو إذا لزم الأمر ، من المخاطرة فى حرب . وفى الوسع تعقب مجهوداته التى بذلها فى سبيل تحقيق هذه الأغراض بالتفصيل فى الوثائق المنشورة حديثاً ، وهى مجهودات ألمعنا اليها فى الفصل السابق موجزين .

أما فيما يتعلق بالصربيين فقد ظل ايزفولسكى يشجعهم سرأً ويحضهم على

الاستعداد لمستقبل أسعد من حاضرهم يسعهم فيه أن يعولوا على روسيا في تحقيق أطماعهم في انشاء دولة يوجوسلافيا . وفي الواقع ان ايزفولسكى لم يقبل ضم البوسنه والهرسك على أنه تسوية نهائية بل كان يعتبر هذا الأمر ويشجع الصربين على اعتباره « الزاس لورين صربية » فلكى يتحرر هذان الاقليان يجب أن يواصل الصربون جمعاً — في صربيا وفي النمسا والمجر على السواء — استعداداتهم السرية . وهذه هي الخطة التي كانت تحدد مفاوضاته السرية مع ايطاليا وبلغاريا في اكتوبر وديسمبر ١٩٠٩ والتي أدت به في النهاية الى تأليف العصبة البلقانية في ١٩١٢ . وقد كانت كل هذه النيات تنطوي على إمكان حدوث تغييرات في البلقان قد تفضى في الختام الى تغلب الكتلة السلافية على الكتلة الجرمانية وهو ما أكد القيصر ووزراؤه للصربين أنه « واقع لا محالة » . وهذه التأكيدات المشجعة من جانب روسيا على تحقيق أطماع صربيا في التوسع وانشاء دولة « صربيا الكبرى » تفسر بعض الشيء عدم وفاء صربيا بالتعهدات التي قطعتها للنمسا في ختام الأزمة البوسنوية . أما كون صربيا لم تكن تنوى بصفة جدية منذ البداية أن توفى بعهودها الجديدة بل كانت تنوى أن تنقل فقط القاعدة التي تقوم عليها حملتها السرية ضد النمسا وتبدل أسلوبها فظاهر من الوثيقة الكاشفة التالية التي وضعت بعد بضعة أيام فقط من قطع العهود التي اعلنت رسمياً في ٣١ مارس . وهي :

تعليمات من الحكومة الملكية الصربية بتاريخ ١٧ ابريل ١٩٠٩ الى وزير صربيا المفوض في فينا في شأن مواصلة الدعاية لصربيا الكبرى في النمسا والمجر .

ان الحكومة الملكية الصربية التي تتناول سياستها الخارجية مصالح كافة الكتلة الصربية والتي تثق بتأييد انجلترا وفرنسا وروسيا قد صحت عزيمتها على أن تترقب اللحظة التي يسع فيها صربيا المضي وكلها أمل في النجاح في تحقيق مصالحها الفرعية في البلقان وفي الجنوب السلافي بأسره . فألى أن تحين هذه اللحظة ترغب الحكومة الملكية في الاحتفاظ مع فينا بالعلاقات التي تقتضيها المعاملات فقط والتي يراعى كل المراعاة أن لا يكون عليها مأخذ وذلك دون أن يكون هنالك اتفاق سياسى من أى نوع . ولهذا السبب لن تتخذ الحكومة أى اجراء في سبيل التشجيع

على تجديد الاتفاق التجاري مع المملكة ( الثنائية ) ولهذا السبب أيضا يجب أن تقيم أعمالها القومية في الاراضي التابعة لتاج هابسبورغ على قواعد جديدة .

[ويلى ذلك اخطار لموظفي المفوضية والقنصليات الصربية في النمسا والمجر بالكف منذ الآن عن كل اشتراك فعلي وشخصي في دعاية صربية قوية وأن يطمسوا كل أثر لمثل هذه الاعمال من جانب وزارة الخارجية الصربية بحيث تنقطع المسكاتبات التي كانت دائرة الى الآن مع الصنائع السياسيين في النمسا والمجر . وان تزود المفوضية والقنصليات الصربية بعد ٢٨ ابريل بالاموال التي كانت تزود بها لهذه الاغراض عدا ٢٥٠,٠٠٠ دينار تخصص لقضية خيـانة « أجرام » و ٤٠٠٠ دينار للتأثير في الصحف النمسوية والمجرية . ولن تحتاج المفوضية الصربية في فينا بعد الآن الى اعتماد مالي للحصول على معلومات عسكرية لان المبالغ اللازمة ستوضع من الآن تحت تصرف وزارة الحربية الصربية وصنائعها . ثم تأخذ التعليمات في سرد القواعد السرية الجديدة التي يجب أن تقوم عليها دعاية « صربيا الكبرى » منذ الآن ] .

فلكي تبقى السياسة الخارجية للحكومة الملكية وهي السياسة التي تتناول الكتلة الصربية بأسرها سليمة برغم المدول الآنف الذكر عن كل عمل مباشر في النمسا والمجر قد باتت الحكومة الملكية تبث دعايتها القومية في الجنوب السلافي تحت ستار الدعاية القومية المتعلقة بالجامعة السلافية وسيتخذ تنظيمها صورته النهائية في روسيا الشقيقة في أول يوليه من هذه السنة . فبواسطة التعضيد الذي من هذا القبيل سنضمن تأييد حكومة الأمبراطورية الروسية القومية لمانينا في المسائل الحاسمة . وسيزود هذا التنظيم بوسائل عظيمة وينشأ مركز جديد ( للتبليغ ) في مملكة التشك الشقيقة يلنف حوله كل الذين يرغبون في السعي أو الذين يجب أن يسعوا الى خلاص شخصيتهم القومية بتغلب فكرة الجامعة السلافية . وكما لاح من الضروري القيام بدعاية ثورية سيعنى بها من الآن فصاعدا من جانب سان بطرسبورغ ومن براغ الذهبية . وسنشجع أيضا هذه الحركة بصلات سيكون من شأن هيئة أركان الحرب في المستقبل الاحتفاظ بها .

والذي يدل أيضا على أن صربيا كانت تعتمد وملؤها الثقة على مساعدة

الروسيا لها في اغتصاب البوسنه والهرسك في المستقبل بالقوة منشور سرى صادر من اللجنة التنفيذية لمؤتمر الجامعة السلافية عقد في سان بطرسبورغ بعد ذلك بيضعة أسابيع . والمنشور موجه إلى الجمعيات السلافية في البلقان واليك خلاصته : إن الروسيا على وشك أن تعيد تنظيم جيشها وتصلح إدارتها الداخلية فالى أن يتم هذا التثبيت المزدوج يجب على الشعوب السلافية أن تتعلق بالصبر ولا تكف عن الثقة بالروسيا . وقد أمكن المندوبين الصربيين في المؤتمر السلافي في بطرسبورغ وموسكو أن يقتنعوا على المكان بأن كافة طبقات المجتمع الروسي تحذوهم الرغبة في أن يصبح في مكنة الروسيا أن تتولى

رسالتها بهمة بصفة كونها حامية العالم السلافي . وعلى صربيا والجبل الأسود أن تكونا على تمام الأبهة لأكمال وحدتهما باحتلال نو في بازار وغزو البوسنة والهرسك ، ويجب أن تكون بلغاريا مستعدة للاستيلاء على الأراضى التى وعدت بها فى معاهدة سانستيفانو وأن تتسع حتى تصل الى أبواب الآستانة . فحكم رجال تركيا الفتاة لا يمكن أن يدوم طويلا وتصفية تركيا أقرب مما يمكن أن يظن . إذ ذاك تحقق الروسيا متحدة مع الشعوب السلافية الأخرى المثل السلافية العليا وتحول دون استغلال النمسا وألمانيا لتركيا لمنفعتهما الخاصة . فعلى كافة الشعوب السلافية أن تتحد فى تلك الأثناء ويشد بعضها بعضاً . وعليها أن تعمل بصفة خاصة على زيادة قواها الاقتصادية . يجب عليها أن تغلق أبواب أراضيا فى وجه التجارة والصناعة الألمانية بمقاطعتها . فأما المال الذى يعوز سلافي البلقان للقيام باستعداداتهم العسكرية فستقدمه الروسيا رأساً أو تحصل عليه بمساعدة فرنسا وانجلترا . ولا شك أنه لن تمر سنتان أو ثلاث على الأكثر حتى يحين الوقت الذى يوجه فيه العالم السلافي بزعامة الروسيا ضربته الهائلة . »

فهذا التشجيع الذى كانت صربيا تلقاه سرأ من جانب الحكومة الروسية وجهرأ من الصحف المنتمية الى الجامعة السلافية هو الذى ساعد على إثارة الحملة القومية العنيفة بين الصربيين فى كل من صربيا والبوسنة وبين الكرواتيين وهو الذى ساعد فوق ذلك على اضطراب أذهان الشباب الموالين لصربيا واختلال عقولهم غير المتزنة فذهبوا يشرعون فى سلسلة اغتياالات ضد الموظفين النمساويين كانت خاتمها تلك الحادثة المحزنة التى اغتيل فيها الغراندوق النمساوى فى سيرا جيفو وأفضت مباشرة الى الحرب العالمية . وقد كان الوزراء النمساويون عالمين نوعاً ما بهذا التشجيع يشتهون فى أن الروسيا أحق من صربيا بأن تكون أصل الخصومة بين صربيا والنمسا . . وهى خصومة ظلت من حيث شدتها كما كانت من قبل تقريباً . فبينما كانت « نارودنا او دبرانا » ثم

« اليد السوداء » بعدها تقومان بأهاجة الصريين سراً وإثارة هذا العمل الضار كانت السلطات النمسية لا تتي عن نكأ الجرح وإثارة بغضاء الصريين بالقبض جملة على من تشبه في أنهم من المهيجين في النمسا والمجر .

ولقد مضت السنوات الثلاث الواقعة بين ١٩٠٩ و ١٩١٢ — بين نهاية الأزمة البوسنية وتأليف العصبة البلقانية — دون أن تتخللها منازعات حادة حول مشاكل البلقان ( اللهم الا ما وقع من تأثير الحرب الطرابلسية ضد تركيا ) . وفي خلال هذه السنوات الثلاث كانت النمسا مشغولة بثبيت مركزها في الاقليمين اللذين ضمتها حديثاً فهجرت مشروعها الخاص بمد سككها الحديدية من البوسنة فوادي القاردار جنوباً نحو سالونيك وسحبت حامياتها العسكرية من سنجق نوفي بازار إجابة لرغبات صربيا والجبل الأسود ( والروسيا وايطاليا أيضاً ) .

وفي ألمانيا استقال ييلوف من منصب المستشار في شهر يولييه ١٩٠٩ لأسباب أسلفنا بيانها وخلفه ييتمان هولفيج صديق غليوم الثاني منذ كان يطلب معه العلم في جامعة بون . وكان المستشار الجديد عديم الخبرة بالشئون السياسية تعوزه أسمى صفات رجال الدولة ولم يكن له زرابة اللسان ومهارة الكلام اللذان كان ييلوف يستر بهما غلطاته حين تفلت منه الفرص ويصور بهما حالة ألمانيا في أزهى من صورتها الحقيقية . بيد أنه كانت لبيتمان فطنة عرف بها أهل بلده ، وشعور عال بالشرف والاستقامة ، ورغبة خالصة في المحافظة على سلام أوروبا .

وقد كانت ألمانيا منذ أزمة البوسنة الى أزمة يولييه ١٩١٤ تستخدم نفوذها في كبح النمسا مع التأكيد لها بأنها مستعدة للقيام بواجباتها نحوها كحليفة وتضغط عليها بخاصة في الحروب البلقانية لمصلحة السلام في أوروبا . حتى لقد كان رئيس هيئة أركان الحرب النمسية يتضايق كثيراً من عدم تأييد براين لبلاده في الشؤون البلقانية ، وحتى باتت الحليفتان أكثر انقساماً مما كان يظن على

وجه عام بدلا من أن يسود حسن التفاهم بين رئيسي هيتلي أركان حرب الجيشين الألماني والنموسى . وقد كان يتمان يشعر فى بعض المناسبات بأن من الضرورى أن يحدد عهداً سبق أن قطعها بتأييد خطط كانت النمسا تراها جوهرية لمصالحها الحيوية فى البلقان . لأنه لو فعل غير هذا لتعرض لاستياء البالبلاتس ولأضعف المحالفة التى كانت لا تزال حجر الزاوية فى سياسة ألمانيا الخارجية إضعافاً شديداً . لكنه كان كثيراً ما يرسل الى السفير الألماني فى فينا تعليماته بمنع النمسا من اتخاذ أى اجراء ضد صربيا أو الاقدام على مخاصمة روسيا والحيولة بينها وبين أعمال أخرى تدل على عدم الا لترات . وقد كانت النمسا تبعاً أحياناً بهذه النصائح ولا تكترث لها أحياناً أخرى . بيد أن إظهار ألمانيا بمظهر من كانت له السيطرة التامة على حليفته كما فعل كثير من الكتاب لا ينطوى على شىء من الواقع بتاتاً فان ألمانيا لم تأخذ تدريجاً فى أن يكون لها السيطرة التامة على مصير حليفها الا بعد أن بدأت الحرب بالفعل وبدا على النمسا هذا الضعف العسكرى وما صحبه من عجز .

## مساومة را كونيغى فى اكتوبر ١٩٠٩

بينما كانت ألمانيا تعمل هكذا على كبح جماح النمسا وتخفيف حالة التوتر فى البلقان كانت روسيا تستعد فعلا للحرب « التى لا مفر منها » بين الكتلة السلافية والكتلة الجرمانية لتؤدى أخيراً رسالة روسيا التاريخية فى صدد الآستانة والبواغيز وتحقق بذلك أطماع صربيا فى التوسع على حساب النمسا . وقد كان ايزفولسكى يضع هذا الغرض نصب عينيه لما أن رتب أن يزور القيصر الملك فيكتور عمانوئيل فى قصر را كونيغى جنوبى تورينو فى أكتوبر ١٩٠٩ . وقد عقد هنا اتفاق سرى بين روسيا وايطاليا ووقعه ايزفولسكى وتيتونى وكان يتضمن الرغبة المألوفة فى المحافظة على الحالة الراهنة فى البلقان لكنه انتقل منها الى النص على أنه اذا ثبت استحالة هذا وهو ما تتوقعه



الدولتان فسيوافقان على تأييد مبدأ القومية في تطور الدول البلقانية . وقد كان أهم نصوص هذا الاتفاق ما جاء في المادتين الرابعة والخامسة :

٤ - إذا رغبت روسيا وإيطاليا في عقد اتفاقات تتعلق بالشرق الأوربي مع دولة ثالثة غير ما هو قائم في الوقت الحاضر فسيفعل كل منهما ذلك فقط بالاتفاق مع الأخرى .

٥ - تشهد إيطاليا وروسيا بأن تنظر بعين العطف ، الأولى إلى مصالح روسيا في مسألة البواغير والثانية إلى المصالح الإيطالية في طرابلس وبرقة . ويلوح أن ايزفولسكى لم يعلم سفيرى روسيا في باريس ولندن في الحال بما تدل عليه هاتان المادتان بالضبط ولم يخبر بهما حتى بوانكاريه إلا بعد نشوب الحرب البلقانية بعد ثلاث سنوات . كذلك كان المسيو تيتونى حريصاً على كتمان خبر هذا الاتفاق حتى لا يتسرب منه شيء إلى ألمانيا أو النمسا مع أنهما كانتا حليفتيه . وقد كان في نفس الوقت الذى وعد فيه روسيا بالألا يعقد اتفاقات في شأن البلقان دون اشتراكها يفاوض النمسا مدفوعاً بخداعه المعهود في نفس هذا الموضوع . ويقترح عليها عقد « اتفاق يقضى بالألا تعقد أية من الدولتين اتفاقاً مع دولة ثالثة في شأن البلقان دون علم الأخرى » وكان تيتونى قبل اجتماع را كونيغى بأسبوع يرغب في أن يضيف زيادة في التعيين « أن تتفق إيطاليا والنمسا على ألا تعقدا اتفاقات مع روسيا دون اشتراك كل منهما . ثم وقع اتفاق را كونيغى وبعد بضعة ايام وقعت إيطاليا اتفاقاً مع النمسا من وراء روسيا ودون أن تراعى البتة ما وعدت به في را كونيغى . فالى مثل هذا الغش نحو روسيا والنمسا على السواء كانت المطامع الإيطالية في البلقان وأراضى أفريقيا تدفع بالسنيور تيتونى والحكومة الإيطالية ! .

مع هذا الكتمان الشديد الذى كان ايزفولسكى وتيتونى يحيطان به اتفاهما انتشرت الاشاعات حوله ولا يسته الشبه . فهلت دول الوفاق لمقابلة

راكونيجى وانزعجت المانيا والنمسا وتركيا . لكنه أكد هن تأكيداً خطيراً كاذباً معاً انه لم يتفق على شيء سوى ابداء الرغبة المشكورة من جانب ايطاليا والروسيا فى المحافظة على الحالة الراهنة فى البلقان وفى السماح للدول البلقانية بأن تتطور التطور العادى السلمى .

وقد ساعد اتفاق راكونيجى على جذب ايطاليا من محيط المحالفة الثلاثية الى دائرة الوفاق الثلاثى أو على الأقل على وقوفها على الحياد ببقائها « عالة » على المحالفة الثلاثية ، وقامت مع سياسة راكونيجى محاولات من جانب ايزفولسكى فى أواخر سنة ١٩٠٩ لتقريب صربيا من بلغاريا لمصلحة الكتلة السلافية لكن منافسات البلقان وما كان يخالج كل فريق من الشكوك كانت أقوى من أن تتكلم معها هذه الجهود بالنجاح فوقفت المفاوضات .

ولم يكن مع ذلك معنى اتفاق راكونيجى ومفاوضات بلغاريا و صربيا أن الروسية كانت تبيت أية نية لحرب عاجلة تحل بها مشاكل البلقان بل كانت هذه الأمور بمثابة « الاستعداد للمستقبل » وهو ما كان الخطة التى جرت عليها الروسية إذ ذاك ريثما يتم لها تنظيم جيشها وبحريتها من جديد وتكون قد نجحت فى الحصول من فرنسا وانجلترا على تأكيدات أوضح تتأيد بها مطامعها فى البلقان .

ويقص المسيو نيكليودوف انه لما حظى فى سنة ١٩١١ بمقابلة القيصر قبل أن يتولى منصبه فى صوفيا « قال لى نيقولا الثانى ، بعد ان تعمد الاستراحة فترة تقدم بعدها نحوى وحدجنى بنظرة فاحصة : اصنع الى يا نيكليودوف . لا يغيب عن بالك لحظة اننا لا نستطيع الدخول فى حرب فأنى لا أرغب فيها وسأعمل كل ما فى وسعى ليتمتع شعبى بمزايا السلام . ففى هذه اللحظة على الأخص يجب أن يتجنب كل شيء يمكن أن يودى الى الحرب . فأن من المحال علينا ان نواجه حرباً قبل خمس أو ست سنوات وفى الواقع قبل سنة ١٩١٧ ... ومع ذلك فإذا تعرضت أهم مصالح الروسية وتعرض شرفها للخطر فقد نرد

على التحدى فى سنة ١٩١٥ اذا لزم الأمر لا قبل ذلك كائنه ما كانت الظروف أو الحججه التي يتدرع بها .

« فلو أن هذه الملاحظه » — كما يبدى المستر لويس ديكنسن بحق — « صدرت من الأمبراطور بدلا من أن تصدر من القيصر لعددها كافة مؤرخينا برهانا جليا على ذنب ألمانيا وألمانيا وحدها . لكنى لا أسوقها دليلا على الذنب ولا على ذنب روسيا وحدها بل أسوقها كدلالة أخرى على الحاله الفكرية التي كانت تسود الوزراء والأمرء جميعا » الحرب آتية . نحن لا نريدها لكن يجب أن نكون مستعدين واذا اتت . . . ! »

## مسعى ايزفولسكى لفتح الدردنيل فى ١٩١١

لقد حاول ايزفولسكى مرتين أن يحقق مطمعه فى فتح الدردنيل للسفن الحربية الروسية فأب فى كليهما بالفشل ومنى بالأخفاق وكانت الأولى فى خلال المفاوضات لعقد الاتفاقية الانجليزية الروسية سنة ١٩٠٧ والثانية اثناء مساومة بوخلاوس سنة ١٩٠٨ . ويرجع فشله فى كلتا المحاولتين الى معارضة السير ادوارد غراى وعدم تأييد الفرنسيين إياه . لكنه فى اواخر سنة ١٩١١ اعتقد ايزفولسكى أن الحاله فى أوروبا تدعوه الى بذل مجهود يكون أكثر حظا فى النجاح : فالفرنسيون يزحفون على فاس وأزمة اغادير التي نجمت عن هذا وثقت الروابط بين دول الوفاق وأكدت الأواصر على الأخص بين فرنسا وانجلترا ؛ ثم ان ألمانيا التي استثارت انجلترا الى ما يقرب من الحرب دفاعا عن فرنسا والاتفاقية المراكشيه أرغمت على قبول تسوية توشك أن توقع نزلت فيها عن كل مطلب فى مراكش فى مقابل قطع من الكونغو الفرنسية ; والروسيا لم تبذل لفرنسا فى التأييد السياسى الفعلى الفعال ما بذله لها السير إدوارد غراى والمستر لويد جورج فان ايزفولسكى على النقيض من ذلك كان يعمل « بكل قواه » لحمل فرنسا على الاعتدال ويحضها على قبول كثير

من المطالب الألمانية وكثيرا ما أبدى المسيو نيراتوف الذى تولى أعمال وزارة الخارجية الروسية اثناء مرض سazonوف الطويل « ان رأى العام الروسى لا يفهم ان تقع حرب ( بين فرنسا ومانيا ) على مسائل المستعمرات » وبالمثل موقف القيصر فإنه حتى لما ابان له المسيو جورج لويس سفير فرنسا فى سان بطرسبورغ ان لشمال افريقيا من « الأهمية الحيوية » لفرنسا ما للقوقاز من الأهمية للروسيا اجابه يقول الثانى « ضعوا نصب اعينكم ان تتجنبوا القتال فاتم تعلمون ان استعداداتنا لم تتم . » ومع هذا كله وبالرغم من قلة الاكتراث البادية فيه لمصالح فرنسا الحيوية فأن ايزفولسكى كان يباهى بأنه يستطيع ان يحصل من الفرنسيين على وعد بتأييده فى مسألة البواغيز فى مقابل موافقته بلا اعتراض على التسوية الفرنسية الألمانية الخاصة بمراكش فلما علم من تيتونى فى سبتمبر ١٩١١ أن إيطاليا على وشك أن تغتصب طرابلس بعد أن حركها إعلان الحماية على مراكش ورغبة منها فى الاستفادة من مختلف العهود السرية التى قطعها لها الدول ، اعتقد ان الفرصة قد سنحت « لقبض » نصيبه فى مساومة راكونيجى .

لقد كان طرح مسألة البواغيز فى سنة ١٩١١ يفسر عادة بأنه عمل لم يؤذن خاريفوف سفير روسيا فى الآستانة فى القيام به وانه كما قال جوتش كان بمثابة جس نبض لتعرف موضع هبوب الريح فى هذا الموضوع . وبما ساعد على اكساب هذا القول شيئا من الوجاهة أن وزارة الخارجية الروسية بادرت الى التنصل من عمل سفيرها . بيد أن حقيقة الأمر كله عند ايزفولسكى ، فهو الأصل والمحرك وخاريفوف أدواته ، فلها عجزت الأداة استدعاه . وهذا هو رأى الذى يبدو من الوثائق الحديثة التى نشرت عن هذا الحادث الممتع فأن ايزفولسكى لم يكذب يعلم بما تنتويه إيطاليا حتى كتب إلى نيراتوف فى ٢٦ سبتمبر يذكره باتفاق راكونيجى السرى ويبدى له اغتباطه مما سوف تحدثه إيطاليا لألمانيا والمخالفة الثلاثية من الارتباك ويحض على أن الفرصة

قد سنحت « لجنى أعظم منفعة ممكنة لمصالحنا من الحوادث المقبلة » فالآن اوان إرغام رجال تركيا الفتاة على تسوية مسائل كالتى تتعلق بالسكك الحديدية فى آسيا الصغرى والحدود التركية الايرانية ومسألة البواغيز قبل كل شىء بعد إذ أوهنت تركيا حربها مع إيطاليا .

وقابل إيزفولسكى تيتونى فى باريس من فوره ليدكره « بالشروط التى تعهدنا على مقتضاها بالاعتراف بحرية إيطاليا فى العمل فى طرابلس » وليرجوه فى أن « تعطينا إيطاليا فى الوقت الذى تأخذ فيه فى تنفيذ برنامجها فى طرابلس تأكيدات فى مقابل ذلك بالأ تنسى فى المستقبل القيام بارتباطاتها التى تعهدت بها حيال حقوقنا فى البواغيز التركية » فأجابه تيتونى بالإيجاب ووعده بأن يقدم له تأكيدات كتابية دقيقة . وكتب إيزفولسكى إلى نيراتوف يطلب تحريك مسألة البواغيز ثم قصد على الأثر إلى أسرته فى بفاريا ليقضى معها عطلته .

فلما تلقى نيراتوف فكرة إيزفولسكى اقرها فى الحال وارسل إلى خاريكوف فى الآستانة يكلفه بأن يستفيد من ظروف الحرب الطرابلسية وينتجز فرصة المفاوضات الدائرة بين فرنسا والمانيا حول مرا كس وضعف الصدر الأعظم الجديد لفتح باب المحادثات فى موضوع سكك الاناضول الحديدية وفى مسألة البواغيز ايضاً إذا رأى ذلك من الحكمة على القاعدة التالية :

« تنعهد الحكومة الامبراطورية بئذل تأييدها الفعال للحكومة العثمانية للحفاظ على النظام الراهن لبوغازى البوسفور والدردينيل والأراضى المجاورة . ولتسهيل تنفيذ ذلك تنعهد حكومة الدولة العثمانية من جانبها بالأ تعارض فى مرور السفن الحربية الروسية من البواغيز على شريطة ان لا تقف هذه السفن فى مياه البواغيز إلا باتفاق . »

وابلغ خاريكوف ايضاً الخطة التى يتبعها فى ذلك وهى الحصول اولاً على موافقة تركيا والاحتفاظ بحق ابداء إيضاحات للدول فى شأن هذا التعديل

لمعاهدات دولية وبذا توجه خاريفوف الى مقابلة سعيد باشا الصدر الاعظم  
وباحثه في الموضوعات التي ارتأها نيراتوف ثم سلبه كتاباً يتضمن الاقتراح  
القاضي بفتح البواغيز وتسوية شئون اخرى، وطلب الرد عليه في خلال اسبوع.  
اما سعيد باشا فلم يرقه الاقتراح بتاتا ورأى بطبيعة الحال انه يضع  
الاستانة تحت رحمة اسطول روسي فضلاً عن ان المادة التي تتناول تأييد  
الروسيا فيما يتعلق بالبواغيز والارض المجاورة لم تقع في نفسه موقفاً طيباً  
لانها كانت تهدد بانزال تركيا منزلة الدولة التابعة لقيصر روسيا في الوقت  
الذي تشتبك فيه في حرب مع إيطاليا لا تدري ما تصنع فيها. ولذا لجأ الصدر  
الاعظم إلى التسوية المألوف عند الأتراك كلها تعلق الأمر بمطالب غير مقبولة  
ولبت عدة أسايح يروغ من اعطاء جواب معين زاعماً لخاريفوف أن الذي  
اخره هو اضطراره إلى مشاورة وزرائه

وافضى المسيو خاريفوف باقتراحه الى السفير الفرنسي في الاستانة أيضاً  
فأبدى المسيو بومبار أن الفرصة سانحة له لكنه كان فطيناً حين ارتأى وجوب  
الحصول على موافقة انجلترا؛ ثم أبرق بالأمر الى باريس. بيد أن الحكومة  
الفرنسية انزعجت لهذا الخبر انزعاجاً كبيراً وبعثت في الحال الى سان  
بترسبورغ تستفسر عن معنى ما أسره خاريفوف الى بومبار .

إذ ذاك ألقى نيراتوف وايزفولسكي نفسيهما أمام مهمة دقيقة جداً وهي  
الحصول على موافقة الدول على هذا التعديل لمعاهدات دولية تتعلق بالبواغيز  
فأما إيطاليا والمانيا فقد وافقتا بسهولة إذ كانت إيطاليا في حاجة إلى مساعدة  
الروسيا سياسياً للضغط على تركيا وحملها على التخلي عن طرابلس؛ فأعطى  
تيتوني ايزفولسكي في الحال وعداً كتابياً معيناً املاه عليه ايزفولسكي  
وضمن به موافقة الحكومة الإيطالية. وابدت المانيا أيضاً موافقتها التامة إذ  
ادرك بيتمان هولفيج وكيدرلن وزير خارجيته بفطنتهما ان انجلترا ستعارض  
على كل حال وانه لذلك لا حاجة بألمانيا إلى إغضاب روسيا إذ كل معارضة

من جانبها ستكون بمثابة خدمة لبريطانية تكوى هي بناها .  
وأثرت ألمانيا في النمسا فأبدت هذه أيضاً استعدادها للواقعة مع تحفظ  
يحمي النمسا من اعتداء الاسطول الروسي عليها . أما فرنسا وانجلترا فكانت  
مهمة روسيا معهما شاقة .

ولما عاد إيزفولسكى من تيجرنسى في بفاريا إلى مقر وظيفته وجد كتاباً  
«سرباجدا» من نيراتوف يخبره فيه بتبليغات خاريفوف لسعيد باشا وبومبار  
واستعلام فرنسا عن ذلك ويرتئى لايزفولسكى أن الآن أوان إرغام الحكومة  
الفرنسية على إعطاء وعد كتابي بالموافقة .

وعليه قدم إيزفولسكى بتاريخ ١١ أكتوبر بياناً طويلاً مقنعاً إلى المسيو  
دى سلف وزير الخارجية الفرنسية ناشده فيه « أن لا يرفض أن يعين  
بأية صورة موقف الحكومة الفرنسية حيال الوسائل التي سوف نرى إن  
عاجلاً وإن آجلاً أن اتخذها ضروري فيما يتعلق بالبواغيز والأراضي  
المجاورة » . « ونظراً لعدم إلمام المسيو دى سلف المتناهي بشئون السياسة  
الخارجية اجتزأت بهذا البحث العام الذي أسلفت الإشارة إليه . وإنى أتوى  
العودة إلى الموضوع بعد قليل وعندئذ أبدي رغباتنا الواضحة » .

وفي اليوم التالي شكوا إيزفولسكى ثانية من جهل دى سلف قائلاً « إن  
المصيبة هي أن المسيو دى سلف قليل العلم إلى درجة ظاهرة بكافة هاته المسائل  
وإنه في الوقت نفسه غارق في مسألة مرا كس والكونغو إلى أذنيه » وأعقب هذا  
بكلمة عن ضرورة رشوة الصحف الفرنسية ، مستشهداً على نفع ذلك بما  
حصل في المسألة الطرابلسية قائلاً : « إنى أعلم أن تيتونى قد عاجل الصحف الفرنسية  
الكبرى بطريقة وافية جداً وبيد سخية غاية السخاء . والنتائج واضحة » .

وعلى أن المسيو جويستان دى سلف كان في الواقع قليل الخبرة بمشاكل  
البلقان إلا أن وصفه بهذا « الجهل المطبق » أمر ينطوى على الغلو . فقد  
كان حذراً مخلصاً شريفاً لا يريد أن يتعجل إلى بذل وعد قد يشجع حليفة

فرنسا على القيام بمغامرات بلقانية خطيرة قد لا تسر صديقة فرنسا عبر بحر المانش . وقد اتصل به من بول كامبون أن الأنباء وصلت إلى لندن عن طريق إيطاليا بأن خاريكوف قدم طلباً رسمياً إلى الأستانة ، وأن انجلترا قد اتخذت الموقف الذي وقفته في سنة ١٩٠٨ وهو . « أنها مستعدة لأن ترى البواغيز مفتوحة على شريطة أن يكون ذلك للسفن الحربية من كافة الأمم على السواء » . وقد جرى للسفير الروسي في لندن حديث مع السير إدوارد غراي وجرت أحاديث أخرى في هذا الصدد فكان يزداد في كل مرة جلاء ان من المحال حمل السير إدوارد غراي على تغيير موقفه .

وأخيراً سعى إيزفولسكى من ٤ نوفمبر في « إرغام » فرنسا على إعطاء وعد كتابي في وقت كان فيه دي سلف منشرح الصدر لانتهاج المفاوضات الطويلة مع المانيا وقبل أن يتسع الوقت للوزير القليل الخبرة للاستئناس برأى انجلترا أو برأى غيرها في مشكلة البواغيز كتب إلى دي سلف يثني على مهارته في تسوية المشكلة المراكشية ويعرب في قلق عن « أمله الثابت في أنه في اللحظة التي تأخذ فيها فرنسا صديقة روسيا وحليفها في إقامة مركزها في شمال أفريقيا على أساس جديد ثابت ، تكون الحكومة الفرنسية التي لم تن وزارة الأمبراطورية عن أن تقدم لها أخلص المساعدات السياسية مستعدة من جانبها لأن تؤكد لنا اعترافها بحريتنا في العمل في البواغيز وفي شمال الصين فلا تأتي علينا موافقتها على الاجراءات التي يمكن أن تتخذها لتأمين مصالحنا وتقوية مركزنا هناك » .

لكن المسيو دي سلف لم يكن ليؤخذ بهذه السهولة . فقد كانت تخالجه من ناحية السفير الروسي شكوك دل عليها استفساره في سان بطرسبورغ عما اذا كان إيزفولسكى كتب ما كتب من تلقاء نفسه أو بناء على تعليمات من نيراتوف . وكان من الفطنة بحيث استشار السير إدوارد غراي ثانية فعلم أن انجلترا لا تنوى الموافقة على ضمان روسيا لحالة البواغيز الراهنة مع الأراضي



المجاورة ، ولذا تحاشى دى سلف أن يورط نفسه وعهد ، لحسن حظ فرنسا ، إلى المسيو جورج لويس بالمهمة الشاقة ، مهمة الرد على كتاب إيزفولسكى المؤرخ فى ٤ نوفمبر . وكان المسيو لويس فى تلك اللحظة منتدباً للقيام بأعمال منصب بوزارة الخارجية الفرنسية بعيداً عن سفارة سان بطرسبورغ حيث كان سفيراً لدولته ، فوضع صيغة رد مهذبة لكنها غير مورطة وسلمها أخيراً للمسيو إيزفولسكى فى ٤ يناير سنة ١٩١٢ .

على أنه بينما كان السير إدوارد غراى والمسيو دى سلف بردهما المهذب المنطوى على التسوية قد نجوا من التورط مقدماً بتأييد معين لبرنامج غير محدود ، كانت الحوادث التى تقع فى الآستانة تزيد فى كرب إيزفولسكى . فانه بعد أن حاول خاريكوف عدة أسابيع عبثاً أن يحصل على جواب من الصدر الأعظم قدم فى ٢٧ نوفمبر مذكرة رسمية إلى حاسم بك وزير خارجية تركيا تشتمل على مطالب الروسية المتعلقة بفتح الدردنيل وبعض مسائل أخرى . فهاج ثائر حاسم بك وراح فى ورطته وارتباك يفاتح صديقه الحميم سفير المانيا فى الأمر وينفض على سمعه مخاوفه وسخطه على الروسية . فأبدى له البارون مارشال عطفه التام وبعث إلى وزارة الخارجية الألمانية بياناً مسهباً برأيه فى الأمر طالباً مساعدة تركيا على مقاومة الروسية . فلما أخبرته وزارة الخارجية بأنها لن تعارض فى فتح البواغيز لأنه لا شك فى أن انجلترا ستعارض فى هذا الفتح ، وانها لذلك لا تريد أن تكون فى خدمة انجلترا فتسبى إلى الروسية دون ما حاجة إلى هذه الاساءة ، قدم مارشال استقالته . لكنه أقنع بعد ذلك بسحبها لما تبين له أن وزارة الخارجية الألمانية كانت على صواب فى تقدير موقف انجلترا .

فى تلك الأثناء تسربت أنباء مفاوضات خاريكوف إلى الخارج فأسخطت رجال تركيا الفتاة والصحف الروسية . ثم شجع حاسم بك على مقاومة مطالب خاريكوف ما عليه من أن السير إدوارد غراى أخبر السفير التركى فى لندن

« أن خطوة روسيا تلوح لي في غير محلها في الآونة الراهنة ، وانه لا بد لهذه الخطوة من موافقة جميع الدول الموقعة .

وهكذا اخذ بين من جراء الموقف الذي وقفته انجلترا وفرنسا وتركيا ان فكرة ايزفولسكى غير قابلة للتحقيق في تلك اللحظة . وكان المسيو سazonوف قد قدم باريس ولما يكذب بعد ان لبث في دافوس طويلا يطلب الراحة فتحدث إلى ستيفان لوزان بما يلي :

« ليس هنالك « مسألة تتعلق بالدردييل » كما ينشر كل يوم في كل مكان « والمسألة » بمعناها السياسى هى التى يفهم منها مطلب تقدمه حكومة واجراءات سياسية أو مفاوضات . والروسيا لا تطلب شيئاً ولم تشرع في مفاوضات ولا حاولت أية اجراءات سياسية . »

وللقارىء أن يحكم على مبلغ ما فى تكذيب سazonوف هذا من الصدق مما أطلع عليه فى الصفحات السابقة . وقد كلف خاريفوف فى ١٥ ديسمبر أن يبلغ حاسم بك أنه لما كانت مقترحات روسيا قد أفضيت قبل أوانها دون أن يكون الذنب فى ذلك على روسيا فمن المحال الاستمرار فى المفاوضات .

وأبرق سazonوف الى السفراء الروسين فى الخارج يحاول إفهامهم أن خاريفوف تجاوز التعليمات المرسله اليه بالانتقال من المحادثات الخاصة إلى مفاوضات رسمية . واستدعى خاريفوف فى مارس ١٩١٢ وحل محله المسيو جيرس ؛ وبذا انتهت محاولة ايزفولسكى الثالثة افتتح البواغيز . والظاهر أن

ايزفولسكى انتهى فى أمر البواغيز إلى الاقتناع بأن هنالك طريقة من اثنتين لفتحها : الأولى أن يغير عليها فى زمن السلم والثانية أن تفتح نتيجة حرب أوربية عامة . وقد كان مجلس الوزراء الروسى ينظر فى عدة مناسبات بين

١٩١٢ و ١٩١٤ فى الرأى الأول ليعدل عنه باعتبار كونه غير عملى . ولذا بقى الرأى الثانى وهو الحرب الأوربية العامة . ولكى يستعد ايزفولسكى لهذه الحرب جعل يعمل ملحا ويثابر فى خلال السنتين التاليتين حتى إذا ما نشبت تلك الحرب بغتة قيل أنه صاح مبتهجاً « C'est ma guerre » .

## روسيا والعصبة البلقانية

تحت تأثير خمسة قرون قضتها الشعوب المسيحية البلقانية في الاضطهاد التركي وتأثير تيار الحركة القومية التي استفاضت في القرن التاسع عشر، ألهمت تلك الشعوب الالهفة على الوحدة القومية والاستقلال، فلما حلت سنة ١٩١١ كانت قد خطت في سبيل تحقيق تلك الآمال الحارة خطوات واسعة صحبت ذلك التداعي المتواصل في دولة آل عثمان. فاليونان وصربيا وبلغاريا ورومانيا باتت جميعها ممالك مستقلة لكن آلافا من اليونانيين والصرب والبلغاريين والرومانيين فضلا عن المقدونيين والألبانيين كانوا لا يزالون يعيشون تحت الحكم الأجنبي، تركيا كان أو نمسويا. وهؤلاء أيضا كانوا يتوقون إلى الحرية وينزع بهم الشوق إلى الاتحاد مع إخوانهم في تلك الممالك المستقلة. وقد بدا لحظة من ثورة تركيا التي ظن أنها ديموقراطية ومن ضم النمسا لبوسنه والهرسك في سنة ١٩٠٨ أن هاتين الدولتين قد دبت فيهما الحياة وأن يوم تحرير السلافيين لا ينتظر أن يكون قريب الحلول. بيد أن المثل الخيالية التي كان يتعلق بها رجال تركيا الفتاة وعدم اكتراتهم الأخرق بالإتقاليد أفضى بهم إلى مخاصمة العناصر غير التركية أكثر من ذي قبل، وجر إلى إضعاف الأمبراطورية المتداعية التي حفظها عبد الحميد بمهارته وأساليه القاسية فوق ضعفها. وقد جاءت الحرب الطرابلسية فوجهت إليها ضربة أخرى مرئحة، وأدت مباشرة إلى تشكيل العصبة البلقانية التي دفعت بالأتراك خارج أوربا تقريبا. وقد كان هذا المطمع الطبيعي، مطمع الدول البلقانية في تحرير إخوانهم من الحكم الأجنبي وضمهم اليهم هو السبب الأكبر في العصبة البلقانية لكنه أكانت هذه العصبة تتألف لو لم يقم هارتويج ونيكليودوف وزيرا روسيا المفوضان في بلغاريا ووصوفيا في هذا الصدد بدور فعال؟ هذا من المشكوك فيه. فإنه بينما لم تنفع سياسة ايزفولسكي وخاريكوف نضجت السياسة الى

سلكتها هارتويج ونيكليودوف وآتت أكلها؛ فقد كانت ترمى الى تشكيل عصبة سلافية بلقانية تحت رعاية روسيا تحتفظ اسما بالحالة الراهنة على أن يستطاع عند اللزوم توجيهها ضد تركيا أو النمسا. وقد سعى الروسيون سعياً حثيثاً لخلق هذه العصبة منذ شبت ثورة تركيا الفتاة وضمت النمسا البوسنة في ١٩٠٨؛ لكن هذه الجهودات كلها كانت تبوء بالفشل نظراً للبغضاء والحسد اللذين كانا متأصلين في قلوب الصريين والبلغاريين هؤلاء ضد اولئك، ولسوء الظن الذي كان يخالج ملك بلغاريا الماكر من ناحية الجميع حتى وزرائه. فلما جاء نبأ إعلان ايطاليا الحرب على تركيا في سبتمبر ١٩١١ حيث فكرة العصبة السلافية في البلقان، وعمل الوزيران الروسيان المفوضان في بلغراد وصوفيا بلا ملل ولا كلال على إزالة التبايد وسوء الظن من بين الوزراء الصريين والبلغاريين وأعاناهم على مهمة تكاد تكون فوق طاقة البشر وهي الاتفاق على تقسيم الأسلاب حين تتزع من تركيا. وكانا في الوقت نفسه يطلعان نيراتوف على كل خطوة يخطوانها في المفاوضات؛ واخيراً في ١٣ مارس ١٩١٢ اتفقت صربيا وبلغاريا على معاهدة ووقعتها.

وفي هذه المعاهدة ضمنت صربيا وبلغاريا كل منهما للأخرى سلامة اراضيها واستقلالها واتفقتا على ان تؤيد كل منهما الأخرى فيما لو شرعت دولة من الدول العظمى في الحصول بالقوة ولو بصفة مؤقتة، على ارض في البلقان. فهذا كان يحمي صربيا من اية محاولة يمكن ان تقوم بها النمسا للعودة الى احتلال سنجق نوفي بازار او لاغتصاب نواح من مقدونيا والبانيا تشتهها صربيا. وكانت عين فرديناند تتطلع الى مقدونيا وطراقة بل ربما ايضا الى الآستانة فأحب ان تكون المحالفة الجديدة موجهة ضد تركيا، وعليه نص ملحق سري على انه اذا شبت قلاقل في تركيا وتعرضت حالة البلقان الراهنة للخطر تبادلت صربيا وبلغاريا الرأي في اتخاذ اجراء عسكري مشترك، فاذا لم تعترض روسيا على خطتهما نفذتاها كما اتفقتا، واذا نشأ بينهما

خلاف عرض على القيصر ليفصل فيه بما يراه والتزم حكمه الطرفان .  
فلما عاد المسيو سazonوف الى تولى أعماله في وزارة الخارجية الروسية في  
أوائل ١٩١٢ ألقى المعاهدة الصرية البلغارية توشك أن تتم . ولما كانت  
المفاوضات قد دارت في شأنها اثناء غيبته وكانت المعاهدة تتضمن نصاً يقضى  
بإبقائها على الكتمان الشديد لم يدر أينبغي أن يحيط دول الوفاق الثلاثي  
علماً أم لا . ومع أن هذه المعاهدة كانت تزعم المحافظة على الحالة الراهنة  
وتحول روسيا حق الاعتراض عند الدخول في حرب فانه يلوح ان  
Sazonوف كان يدرك ان من السهل أن تشجع الدول البلقانية بها على  
الدخول في حرب قد تجر بدورها روسيا وحليفها فرنسا . وظاهر أنه فكر  
في ٢ فبراير ١٩١٢ لحظة في حمل فرنسا على البحث وإياه بحثاً وافياً في المظهر  
الجديد الذي اتخذته المشكلة البلقانية . فوضع طائفة من الأسئلة لتكون  
قاعدة للبحث وكانت تدور حول ما تفعله فرنسا والروسيا اذا شبت ثورة في  
تركيا أو اعتدت النمسا على ألبانيا أو السنجق أو نشبت حرب بين تركيا  
وإحدى الدول البلقانية ، وعرضها على الموسيو جورج لويس ؛ لكن السفير  
الفرنسي كان في منتهى الحيلة يرى ان على الابواب أخطارا عظيمة فأبدى  
تحفظاً شديداً لخطة Sazonوف . وكان هذا عالماً بفشل ايزفولسكي في حمل فرنسا  
على تأييد روسيا في فتح البواغيز فراجع وقع بابلاغ فرنسا وانجلترا فقط  
أن هناك معاهدة بين صربيا وبلغاريا دون أن يحيطها علماً بدقائقها وبصيغتها  
العدوانية ولم يعد الى عرض أسئلته على بساط البحث ثم جعل يروغ من فرنسا  
كلما سعت الى استكناه دخيلته .

وهكذا لم يعلم بوانكاريه لأول مرة بكامل نص المعاهدة الصرية البلغارية  
الا لما زار سان بطرسبورغ في أغسطس ١٩١٢ فصاح عندئذ منزعجاً :  
Mais c'est là une convention de guerre وهو عين ما قاله نيكليودوف  
بالضبط حين أرسل المعاهدة الى سان بطرسبورغ . ولقد غضب بوانكاريه

لأخفاء تفاصيل هذه المعاهدة عن فرنسا حليفة روسيا وكتمانها عنها هذا الزمن الطويل مع أنها خليقة أن تؤدي الى حرب في البلقان ومع أنها دبرت تحت رعاية روسيا وأثبت حينذاك قوله :

اننى لم أخف عنه ( عن سazonوف ) انى لا يستطيع ان افهم كيف لم تبلغ روسيا هذه الوثائق لفرنسا ... فان هذه المعاهدة تحوى جرثومة حرب تنشب مع تركيا بل وأخرى تنشب مع النمسا ، وتبسط سلطان روسيا على الممالك السلافية لأن روسيا جعلت حكما فى كل المسائل . وقد لاحظت لسيو سazonوف ان هذه الاتفاقية لا تتفق بحال من الاحوال والتفسير الذى قدم لى فهى والحق يقال اتفاقية حرب

## الخطر البلقانى والدول فى سنة ١٩١٢

فى ١٧ سبتمبر استفاضت أنباء فظائع الاتراك وهياج الخواطر فى بلغاريا طالبة الحرب الى حد أخاف سazonوف بغته فتقدم الى الدول جميعاً يقترح عليها ان تشير على تركيا بأدخال اصلاحات عاجلة فى مقدونيا. ولما كان الأمر يتطلب العمل السريع حتى لا يتولاه البلغاريون بأنفسهم فى مقدونيا فقد تقدم الى تركيا بنصيحة فورا دون ان ينتظر رأى صديقتيه دولتى الوفاق . بيد ان اقتراحه لم يسفر عن نتيجة فعالة لعدة اسباب : لأن السير إدوارد غراى لم يكن يرغب فى الضغط على الاتراك ولأن بوانكاريه لم يكن يحب ان يعمل الامتعاون مع انجلترا ثم لأن المانيا بعد الذى خبرته فى الماضى لم تعد تثق بفلاح اى اصلاح يجريه الاتراك فى مقدونيا .

واخيراً فى ٢٢ سبتمبر بادأ بوانكاريه فاقترح على انجلترا وروسيا صيغة لضبط الدول البلقانية على أن تقرها دول الوفاق الثلاثى ثم تقدمها الى المانيا والنمسا للموافقة عليها ، فأخبره ايزفولاسكى انه يخشى الا يصادف هذا المسلك قبولا لدى سazonوف او انجلترا لانه يعد بمثابة تنويه بانقسام اوربا الى فريقين ، فأجابه المسيو بوانكاريه بأنه فى الامكان كتمانها . وبعد ان اجرى فيه تعديلا مرضاة لانجلترا وروسيا اتفق معهما عليه . وكان يقضى بأن

تدعو دول الوفاق الثلاثى المانيا والنمسا الى الموافقة على الاشتراك معهن فى النصح لدول البلقان بالآ تكدر السلام وأن تحذرهن بأنه لن يسمح لهن بالحصول على غنم أرضى حتى ولو كدرن السلام. وفى ٢٨ سبتمبر فاتح جول كامبون الهركيدرلن فينختر بيرلين فى الموضوع فلقى منه ترحيباً قليلاً به فلم يبق إلا مسألة من يقوم بهذه المهمة غير المحمودة — مهمة إعلان ذلك للدول البلقانية. فارتأى الهركيدرلن أن تهض بها روسيا والنمسا باسم الدول العظمى وقبل اقتراحه. وفى ٧ أكتوبر أمكن الحصول نهائياً على موافقة الدول العظمى جميعاً وأصدرت روسيا والنمسا فى اليوم التالى الإنذار المتفق عليه لدول البلقان التى كان الهياج فيها بالغاً أقصاه؛ لكن الأوان كان قد فات فانه فى نفس اليوم، ٨ أكتوبر، أعلن الجبل الأسود الحرب على تركيا وانضم اليه الحلفاء البلقانيون على عجل.

## حروب البلقان فى ١٩١٢ - ١٩١٣

من المحال كما نرى أن نأتى فى مجمل لمشاكل البلقان فى المدة الواقعة بين سنة ١٩٠٧ و١٩١٤ على كل المسائل المعقدة ونستعرض كل الأمور التى نشأت بين الدول العظمى ودول البلقان نفسها فان معالجة هذه الشؤون معالجة وافية لتملأ مؤلفاً قائماً بذاته، ولذا سنعالج الحروب البلقانية هنا بمنتهى الايجاز فنقول. لما انضمت بلغاريا وصرىيا واليونان إلى الجبل الأسود فى حربه مع تركيا فى أكتوبر سنة ١٩١٢ لم تلبث أن دهشت نفسها وأدهشت العالم بتلك السرعة التى أحرزت بها انتصاراتها التامة. فقد احتل اليونان سالونيك وزحف البلغار يحدوهم النصر على القلاع القائمة للدفاع عن الآستانة واكتسح الصرييون وادى الفردار الأعلى كله وسنجق نونى بازار والقسم الشمالى من ألبانيا؛ ولم يقف فى وجه الحلفاء المظفرين من القلاع التركية الاقلاع أدرنه ويانينه واشقودره.

وقد أزهدت الصريين هذه الفتوحات التي ضاعفت أراضيمهم ولاحت  
مباشرة بإمكان تحقيق مطامعهم في انشاء دولة « صربيا الكبرى » على حساب  
النمسا تحقيقاً عاجلاً . وكان هارتويج وزير الروسي المفوض في بلغراد  
يشجعهم ، والروسيا تؤيد بلا ريب ما يطلبه الصربيون من شمال ألبانيا ومواني  
على الأدرياتيك تأييداً قوياً . فلقد جاءت الأنباء من سان بطرسبورغ بأن  
حزب الغراندوقات العسكري المنتصر للجامعة السلافية كان يضغط على  
القيصر المحب للسلام ليحمله على الدخول في حرب إذا لزم الأمر انتصاراً  
لصربيا .

وكانت النمسا وإيطاليا والألبانيون أنفسهم لا يرحبون أبداً بهذه  
الانتصارات غير المألوفة والتي لم تكن في الحسبان فلم يكن يروق الألبانيين  
وعدد هم أقل من مليونين وقسطهم من المدنية قليل — نقول لم يكن يروقهم  
وهم المنقسمون إلى فرق متناحرة مختلفة العقائد إذ فيهم الروماني الكاثوليكي  
واليوناني الأرثوذكسي والمسلم — أن يقعوا تحت حكم الصريين . ولم يكونوا  
يحبون أن يستبدلوا بالنير التركي نيراً صربياً . فلما اكتسحت الجيوش الصربية  
واليونانية أراضيمهم وهددت استقلالهم أنقذ اسماعيل كمال الموقف بأن عجل  
بالدعوة إلى عقد جمعية تمش الزعماء في كافة نواحي ألبانيا . فلما كان يوم  
٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٢ رفعت على فالونا الراية الوطنية التي تمثل نسر اسكندر  
بك الأسود ذا الرأسين على أرضية في مثل حمرة الدم ، وأعلن استقلال  
ألبانيا ووقوفها على الحياد ، وقد تم هذا بموافقة النمسا وإيطاليا .

فقد كانت كتاهما تحضان على انشاء دولة مستقلة في ألبانيا وإن اختلفت  
صور هذا الاستقلال وتفاوتت بواعث الدولتين عليه . كانت كتاهما وهما  
حليفتان لكنهما متنافستان تجذان خلق ألبانيا كوسيلة لصد صربيا عن  
الأدرياتيك الذي كاتتا تطمحان الى التسلط عليه ، لكن هاتين الدولتين  
المتنافستين كاتتا تختلفان على تفاصيل تشكيل تلك الأمانة المرغوب



فيها: فالنمسا كانت تريد ألبانيا مستقلة استقلالاً تاماً يحكمها إما زعيم من أهل البلاد وإما حاكم آخر تهيمن النمسا عليه وتؤثر فيه بدرجة ما، وتكون قوية بقدر المستطاع تشتمل على اييك وجاكوفا وديره وبريزرن كما تشمل اشقودره ويانينه. فإن ألبانيا التي يكون لها مثل المساحة والقوة اللتين تريدهما النمسا لها سوف تحرم صربيا من جانب من ثمرات انتصاراتها التي لم تكن في الحسبان وتساعد على صد حركة « صربيا الكبرى » في المستقبل.

لكن إيطاليا لم تكن تريد أن تكون ألبانيا أقوى مما يجب أن تكون عليه بلاد لا إيطاليا فيها مطامع من الوجهة السياسية والتجارية والعسكرية. فقد كانت تبغى أن تسيطر على مرفأ فالونا وأن تنشئ خطاً حديدياً يخترق الجبال الى سالونيك ويصد اليونانيين عن التقدم صوب الشمال. فإيطاليا كانت تتطلع— وفي يدها برنديزي على أحد شواطئ الأدرياتيك ولها السيطرة على الساحل الألباني على الشاطئ الآخر— الى أن تجعل من البحر الأدرياتيكي بحيرة إيطالية ولذا كان حسبها أن تحبس الصربيين عن الساحل وتؤثر على اعطاء البانيا أراضى واسعة وأميراً تسيطر عليه النمسا— أن تترك المنطقة الألبانية تحت سيادة الأتراك الأسمية يحكمها حاكم تعينه الدول العظمى وتعاونه جندرمه بقيادة ضباط سويديين او اسبانيين او سويسريين او بلجيكيين.

على أنه في آخر نوفمبر اخذت هذه المسألة الألبانية ومعها كل المنافسات والريب التي زادت الحرب البلقانية من حدتها— نقول أخذ هذا كله يهدد سلام أوروبا بشكل جدى. فالروسيا بالرغم من تردد سازونوف كانت تميل إلى مؤازرة الصربيين فيما استولوا عليه بالفعل من شمال البانيا، والنمسا وإيطاليا كاتتا مصممتين على تعضيد الزعماء الألبانيين في معارضتهم لصربيا، فشرعت روسيا تعيء جانباً من جيشها ضد النمسا وكانت النمسا قد أعدت بالفعل العدة لمحاربة صربيا، وكان يظن أنها عبات ثلاثة فيالق في غاليسيا ضد روسيا. وقد أعيد كونراد رئيس الحزب العسكرى النمسوى إلى وظيفته في

رياسة هيئة أركان الحرب العامة في ٧ ديسمبر فلما بدا للروسيا أن الخطر من الحرب وشيك الوقوع تراجعت . وكان بوانكاريه يشجعها على الثبات إذ ذاك وهو الذي كان يحذرهما من التغالي في تعضيد صربيا إلى حد المخاطرة يوم زارها قبل أن يحرز حلفاء البلقان انتصاراتهم العظيمة ؛ فقد كان يرى أن التحالف البلقاني الجديد يعادل في قوته قوة الدولة العظمى فمتى كان هذا التحالف من جانب روسيا فالأمل كبير في انتقام فرنسا إذا هاجمت النمسا روسيا واشتبكت فرنسا وألمانيا في حرب عامة . وقد كان يعول على عدم ولاء إيطاليا للحالفة الثلاثية ويأمل في مساعدة انجلترا المسلحة للوفاق الثلاثي بعد ذلك التبادل للمذكرات الذي تم ولما يكد بين بول كامبون والسير إدوارد غراي في لندن .

على أن السلم ظل قائما بين الدول العظمى بفضل المساعي التي بذلتها الحكومتان الانجليزية والألمانية ، وأبدى الجميع تساهلا فوافق مؤتمر السفراء الذي عقد في لندن في ١٦ ديسمبر على مقترح غراي الذي أراد أن يوفق به بين جميع المطالب ، وكان يقضى بإنشاء دولة مستقلة في ألبانيا تحدد تخومها فيما بعد . وقد كانت هذه التسوية كأغلب التسويات التي يراد بها التوفيق بين المطالب المتنافرة فلم ترض الدولتين اللتين كانت لهما المصلحة الأولى في مصير ذلك البلد الصغير الأسيف . فصربيا كانت ممتعضة أشد الامتعاض لحرمانها من ثمار انتصاراتها ومن المنفذ الاقتصادي الذي لبثت تؤمل طويلا أن يكون لها على بحر الأدرياتيك . وإذ جردتها الدول العظمى من أرض توقعت أن تحصل عليها في تلك الناحية شعرت - وشعورها هنا طبيعي - بأن لها الحق في ان تسأل بلغاريا تعديل شروط معاهدتها معها ، واعطاءها جانباً من مقدونيا . فأبت عليها بلغاريا ما سألت وأفضى هذا الرفض الى الحرب البلقانية الثانية إذ فاجأت بلغاريا صربيا باعتدائها المنطوى على الغدر في آخر يونيو ١٩١٣ .

وشكت النمسا أيضاً من الشكوى من أن ما حدث في صدد البانيا في  
لاشهر التالية لاتخاذ اقتراح غراى كان يتعارض كله تقريباً مع رغباتها  
وضاراً بمصالحها. وأسوأ مثل لهذا واغرب ما وقع فيه تلك الطريقة التي تحدى  
بها الملك نيقولا ملك الجبل الاسود الدول واسطولها الدولي إذ استمر  
يحاصر اشقودره التي خص بها المؤتمر البانيا. هذا الى ان ايبك وجا كوفنا  
وديبره وبرتزن لم تدخل في حدود الدولة الجديدة. ومعنى هذا وفاقاً لرأى  
النمسا أن نحو نصف مليون ألبانى سسيتركون تحت رحمة الجنود الصربية  
والجبلية. وفي الجنوب كانت اليونان تطلب أن تحدد التخوم بحيث يجعل في نصيبها  
الألبانيون التابعون للكنيسة اليونانية الارثوذكسية. وأراد كونراد رئيس  
هيئة أركان الحرب العامة النمسوية أن يرغم اليونان على العدول عن  
مطالبها في جنوب ألبانيا إما بالطرق السياسية واما بمظاهرة حرية تشترك  
فيها النمسا وايطاليا لكن النمسا لقيت في هذا الصدد معارضة من حليفها نفسها.  
وعلى ان التسوية الألبانية درأت خطر الحرب العاجلة بين الدول العظمى  
فقد بقيت عاملاً من ا كبر العوامل في اضطراب حبل السياسة في البلقان  
الى ان تلاشت اهميتها بجانب نشوب الحرب العالمية. وقد كانت سبباً غير مباشر  
لتطاحن الاختين صربيا وبلغاريا في يونيه ١٩١٣ وباعثا على ازمة نمسوية  
صربية جديدة في نوفمبر التالى.

لما هاجمت بلغاريا صربيا بغتة في نضالهما من اجل مقدونيا واطلقت  
الحرب البلقانية الثانية (التي استمرت من ٣٠ يونيه الى ١٠ اغسطس ١٩١٣)  
اصابتها الهزيمة في هذه الحرب على عجل. فقد انتهزت رومانيا واليونان  
تلك الفرصة الصالحة لتسوية مشاكليهما معها بالانضمام الى صربيا. حتى تركيا  
عادت فكرت بالهجوم لاسترداد طراقة التي كانت فقدتها قيل ذلك.  
وإذ ترى بلغاريا نفسها مهاجمة من اربع جهات منهوكة القوى من جراء ما  
بذلت من جهد في الحرب البلقانية الأولى اضطرت عاجلاً الى طلب الصلح

فتوقيع معاهدة بوخارست . وقد جردتها هذه المعاهدة من جانب كبير من فتوحاتها الاخيرة في تركيا واعطت لرومانيا بعض اراضيها التي كانت لها من قبل ، فازدادت بذلك قوة منافسيها في البلقان وتركت هي تعاني العزلة ويمضها الامتعاض . ومن ثم تآقت الى تأييد النمسا أو الروسية لان هذا التأيد يتيح لها خير فرصة للتخلص من معاهدة بوخارست لكنها كانت قد افقدت الجميع ثقتهم بها فترددت الروسية في موازرتها خشية ان تسيء الى صربيا وترددت النمسا بالمثل خشية أن تسيء الى رومانيا

لقد خرجت صربيا من حربي البلقان موفورة القوة والمنزلة تشعر ، بما تجدد فيها من الثقة بالنفس ، بأنها اكثر عزيمة على تحقيق مطمعها في « صربيا الكبرى » فقد ضاعفت أرضها تقريباً وزات سكانها من ثلاثة ملايين الى ما يقرب من أربعة ملايين ونصف مليون . وسرعان ما اشيع أن صربيا والجلب سيندمجان كخطوة أولى في سبيل « صربيا الكبرى » فأما الخطوة الثانية فالأستيلاء على البوسنة والهرسك ودلماسيا والأقاليم السلافية الجنوبية في النمسا والمجر .

هذه المطامع الخطرة التي لا تعرف المبالاة في سبيل الطموح الى التوسع والتي كانت تتسلط على نفوس الصربيين يوماً فيوماً وتحدو حتى أكبر زعيم فيهم ورئيس وزراءهم الموسيو باشتش ، تفصح عنها عبارة لهذا الاخير أبدأها لزميله اليوناني المسيو بوليتيس بعد إذ فرغ من اقتسام غنائم الحرب البلقانية الثانية في مؤتمر صلح بوخارست فقال . « لقد كسبنا الشوط الاول فيجب أن نستعد الآن للثاني وسيكون مع النمسا . » وأدل من هذا على اغتراره بقوته ما صرح به للقائم بأعمال المفوضية الصربية في برلين حين قابله في مارينباد بعد ذلك ببضعة أيام قال :

« لقد كان في وسعي في الحرب البلقانية الاولى أن أسبب حرباً أوربية لأحصل على البوسنة والهرسك . لكنني خشيت أن نضطر حينذاك إلى

التساهل كثيراً لبغاريا في مقدونيا فأجبت قبل كل شيء أن أضمن الاستيلاء على مقدونيا لصربيا ثم أطلب بعد ذلك البوسنة . «  
لكنه من الخطأ أن نظن أن المسيو باشتش كان ينوى القيام عاجلاً  
« بشوطة الثاني » مع النمسا فقد هداه التفكير الهادى إلى أنه قبل المضى في  
هذا يجب أن يثبت ما جناه في مقدونيا ويستوثق من تأييد روسيا . ومن  
ثم زار روسيا في يناير سنة ١٩١٤ ليخطب ابنة القيصر لولى عهد صربيا  
وليوصى على ١٢٠,٠٠٠ بندقية بذخيرتها وعلى بضعة مدافع من طراز هوتزر  
على الأخص . ومع أن المسيو باشتش كان يريد انتظار الفرصة المناسبة فلم  
يكن الكثيرون من الشبان الصريين الوطنيين وخاصة الضباط التابعين لجمعية  
« اليد السوداء » السرية يشاطرونه هذا الشعور فقد أزهتهم انتصاراتهم  
الآخيرة كثيراً . فجعلوا يتطلعون في شوق وقلق إلى اليوم الذى طالما وعدتهم  
به روسيا ، يوم تكون الأمبراطورية السلافية العظمى على استعداد للأخذ  
بيدهم في ذلك الصراع الذى « لا مفر منه » بين الكتلة السلافية والكتلة  
الجرمانية ، ويوم تخلق نهائياً « صربيا الكبرى » على حساب امبراطورية هابسبورغ  
وبقدر خيلاء صربيا واستقوائها كانت النمسا تشعر بوهن عزيمتها وضعف  
قوتها وتأثر منزلتها من جراء حرب البلقان . فمع انها لم تشترك فيها ولم تفقد  
أرضاً بسببها فقد تعرض مركزها تعرضاً خطيراً إذ أصبح رعاياها من  
القوميات الأخرى أكثر قلقاً وقبولاً للدعاية الضارة مما كانوا واضحت رومانيا  
حليفة لا يعتمد عليها كما كان يعتمد عليها من قبل و صربيا عدوة أكبر  
عداوة وأكثر نشاطاً . هذا الى الانقسام الدائم والأرتياب المتواصل بين  
ايطاليا والنمسا والخطر الذى يهدد هذه من ان تجد نفسها يوماً مضطرة  
الى القتال في حرب في اربعة ميادين تواجه فيها ايطاليا و صربيا و رومانيا  
والروسيا . فقد بات هذا الخطر أيضاً أكثر تهديداً للنمسا عن ذى قبل . وإذا  
يدرك الحزب العسكرى في فينا كل هذه الأخطار اخذ يفكر جدياً من جديد

في هلا ينبغي للنمسا أن تعالج خطر « صربيا الكبرى » في الحال .

## تحذير ألمانيا للنمسا في يولييه سنة ١٩١٣

لما هاجمت بلغاريا صربيا هذا الهجوم المنطوي على الغدر في آخر يولييه سنة ١٩١٣ ونشبت حرب البلقان الثانية ، تلك الحرب التي لم تدم طويلا لكنها كانت محفوفة بالنكبات ، اتخذ برشتولد في مبدأ الأمر موقف الانتظار لاتفاقه وطبيعته المترددة ومطابقته لرغبات ألمانيا وإيطاليا . لكنه لم يكن يتوى أن يصبر أكثر مما صبر على أى توسع آخر في أراضي صربيا وذلك برغم النصائح التي كان سفير ألمانيا في فيينا يسديها اليه حاضراً إياه على التريث . وقد بعث الأخير في أول يولييه سنة ١٩١٣ يقول :

انهم يريدون هنا أن يعارضوا أى تدخل من جانب روسيا لمصلحة صربيا اذا أصاب البلغاريون انتصارا حاسما . وقد سألتى السكونت برشتولد كيف تكون هذه المعارضة فقال اما بالطرق المباشرة في سان بطرسبورغ واما باحتلال بلنراد ] الامبراطور : « هذا جنون مطبق ، معنى هذا أن تقع الحرب ! » .

وتدخل النمسا والمجر دون استثارة من جانب روسيا ان يكون ضروريا الا اذا انتصرت صربيا انتصارا حاسما وخيف من وقوع المحذور بانشاء دولة صربيا الكبرى . . . وقد لفت نظر الوزير الى أنه ما دام تدخل روسيا لمصلحة صربيا قد يفضى الى معارضة من جانب النمسا والمجر فكذلك تدخل النمسا ضد صربيا خليف أن يحمل روسيا على المعارضة . فعلق برشتولد على هذا بقوله « ربما »

وبعد يومين من ذلك عاد برشتولد فأبدي مخاوفه للسفير الألماني الذي بعث إلى برلين يقول :

سألنى السكونت برشتولد أن أزوره اليوم وقد قال لي إنه يرى من واجبه أن لا يتوك الحكومة الألمانية تجهل خطورة موقف المملكة الثنائية . فمسألة سلافى الجنوب أو بعبارة أخرى مسألة امتلاك الأقاليم التي يسكنها سلافيو الجنوب والامتياز عليها بلا منازع مسألة حيوية لهم المملكة كما تهم المحالفة الثلاثية ، ولن يصبح في الامكان الاحتفاظ بهذه الاقاليم اذا قامت صربيا أقوى مما ينبغي لها أن تكون ، وكل الآراء المتعارضة متفقة هنا على هذا . ولذا فلا

يعد أن تضطر المملكة إلى التدخل إذا أوقعت صربيا بلغاريا هزيمة منكرة وضمت قطعا من الاراضى تتجاوز ما كان لـ صربيا القديمة أو ما يقرب من هذا . ولا يمكن أن تدع صربيا تمتلك مناسـتر بأية حال .

فلما سأله متى وكيف يكون تدخله قال إنه لا يصعب اختيار المحظة المناسبة يلا ريب . فهو لا يستطيع بطبيعة الحال أن يقول الآن شيئاً عن كيفية العمل فهذا رهن بالظروف . وهو يرى أنه سوف يكون عليهم أن يبدأوا بمحادثة سياسية في بلغراد يسندها ضغط عسكري إذا لم تفض إلى نتيجة ، فاذا تدخلت روسيا انتقل ميدان العمل إلى سان بطرسبورغ .

وعاد الوزير فأعرب لى عن أمله في أن تقدر برلين حرج مركزه المملكة . فكل غرضها هو أن تحافظ على ممتلكاتها التى يسكنها سلافيو الجنوب وفي جملتها تريسته بالتأ كيد . وهو غرض لا تحملها عليه سياسة تنطوى على المغامرة أو نية فى الفتح . وأوفق الحلول لهذه المسألة هو أن نظل صربيا صغيرة وأن يهزمها العدو . وهو يؤثر هذا كثيراً على أى احتلال اصربيا يمكن أن تقوم به المملكة . فاذا لم يقع هذا فسوف تكون المملكة مضطرة الى العمل لـعبانة ممتلكاتها ولا يجب أن نغفل من حسابنا الخطر الدائم من « ييدمونت » صربية تجثم على حدود المملكة .

بلغت هذه البرقية برلين ويتمان وياجو وزير الخارجية الألمانية غائبان فى حفلة سباق اليخوت التى كان الامبراطور يقيمها كل عام فى كيال وكان ملك إيطاليا وملكتها حاضرين هذه الحفلة إذ ذاك يصحبهما وزير خارجيتهما سان جوليانو . فحول تسيمرمان وكيل الخارجية هذه البرقية على كيال وعليها تعليق ملطف فخواه :

« يكاد لا يلوح فى الآونة الراهنة أن هناك داعياً مالأن تضرب أعصاب فينا بصفة خاصة . إذ لا موجب للكلام الآن عن خطر صربيا الكبرى . ولتكن مهمتنا أن نهدي روع فينا وأن نجعلها تحيطنا علما بنياتها أولاً بأول ولا تتخذ قرارات ما قبل أن تسمع رأينا . »

فى تلك الأثناء ازداد قلق برشتولد إذ خشى أن تكون رومانيا على وشك أن تنقض على بلغاريا فتضعفها إلى حد يتم لـ صربيا النصر عليها وعندئذ يستفحل خطر صربيا الكبرى . ولذا أبرق إلى سفيرى النمسا فى برلين ورومه فى ٤ يوليه يطلب اليهما أن تتخذ حليفتا النمسا « الاجراءات فى بوخارست كى يصد رومانيا عن أى عمل جديد ضد بلغاريا . » فرفض

يتمان أن يقوم بذلك وأبدى ، كما كان يفعل غالبا ، ان الطريق لمنع رومانيا من الانقراض على بلغاريا هو أن تضغط النمسا ضغطا قويا في صوفيا كما تحمل الملك فرديناند على أرضاء الملك كارول واجابته الى مطالبه العادلة الخاصة بتعويضه ببعض الأراضى . وقد زاد يتمان على ذلك الملاحظات الحكيمة والتحذيرات الفعالة الآتية ليزداد بها علم برشتولد :

« إن القتال الناشب بين بلغاريا من ناحية وصرىيا واليونان من ناحية أخرى لا يؤثر بحال من الأحوال على خط السير الذى ترسمته النمسا والمجر إلى الآن ، فهذا القتال على النقيض من ذلك ليس بما يزهده فيه بالنسبة لمصالح النمسا والمجر على الأخص اذا ضربنا صفحا عما يحدثه من اعتياق التجارة والسفر . ولا يمكن إلا أن يفيد المملكة الثنائية أن تخرج بلغاريا وصرىيا من الحرب ضعيفتين متنازعتين ، فعندئذ يتسع الوقت للنمسا لتدير الطريقة التى يمكن أن تعيش على مقتضاها مع صرىيا ، الأمر اللازم كائنه ما كانت الظروف . » وليس يعلم أحد كيف ينتهى القتال الدائر الآن بين بلغاريا وصرىيا لكن الأكيد أنه أيا كان المنتصر ستبقى ككلاهما ضعيفة حاقدة على الأخرى . فلا ينبغى أن تعترض النمسا والمجر هذه النتيجة . وحتى لو كسبت صرىيا فلن يزال أمامها الطريق بعيدا الى تحقيق فكرتها فى صرىيا الكبرى . لأنه حتى حينذاك لن تصل صرىيا الى الادرياتيک ؛ وبضع شقق من الأراضى كبرت أو صغرت لن تقلب الأمور رأسا على عقب . أما اذا حاولت النمسا والمجر الآن بالطرق السياسية ان تحرم صرىيا مما كسبته من الأراضى فلن يساعدها الحظ بل يكون كل ما تصيبه أن تثير حفيظة صرىيا الى أقصى حد . فاذا حاولت هذا بقوة السلاح فسوف يكون معناه حربا أوربية . إذ ذاك تتأثر مصالح ألمانيا الحيوية أعظم تأثر . ومن ثم أقترض أن الكونت برشتولد سيبلغنا مقدما ما يستقر عليه رأيه قبل اتخاذ قرار فيه . . . . . وانى لا يسعنى الا أن أحذر بالحاح من الرغبة فى ابتلاع صرىيا فأن هذا خلىق أن يضعف النمسا . »



وقد أفضى هذا التحذير العاجل الحاسم من جانب ألمانيا في ٦ يوليه الى كف يد برشتولد وكونراد عن التسرع بالاقدام على مغامرة طائشة كانت تعرض سلام أوروبا للخطر . وقد أسهبنا بعض الشيء في تبيان هذه القصة لثرتى من ناحية أنه كان يسع ألمانيا أن تفعل هذا في يوليه ١٩١٤ ولنصور من ناحية ما كان قائما بين برلين وينا من خلاف في الرأى ومن ناحية ثالثة لتصحيح ما لا بس اعتقاد الناس خطأ مما أذاعه السنيور جليوتى عن هذا الحادث . . فقد أدخل في الروع أن ألمانيا لا ايطاليا هي التى حالت دون تسرع النمسا في حين أن تحذير بيتمان هولفيج العاجل المؤرخ في ٦ يوليه لاردسان جوليانو المؤرخ في ١٢ يوليه هو الذى كان له التأثير الحاسم في فينا .

### الدسائس حول قوله في سنة ١٩١٣<sup>(١)</sup>

كان من جراء الحرب البلقانية الثانية واستيلاء اليونانيين على قوله والاتراك على أدرنه من البلغاريين أن حيك دسائس تكشف تلك الاساليب التى كان يلجأ اليها السياسة فيما قبل الحرب وتلقى ضوءا غريبا على ماهية التأييد أو على الأصح عدم التأييد الذى كان الحليف يلقاه من حليفه حين يتعلق الأمر بمصالحهما الذاتية .

كانت غالبية سكان قوله من اليونانيين وكثرة سكان المنطقة المجاورة من البلغار . ولذلك كانت كل من بلغاريا واليونان تزعم لنفسها الحق في امتلاكها . اما الدول العظمى فكانت منشقة على نفسها في صدها فالنمسا والروسيا على الرغم من تنازلهما فيما عداها كاتتا تريان اعطاهما للبلغار في حين كانت ألمانيا وفرنسا تريدان أن تختصا بها اليونان . وكانت غاية برشتولد من وراء مارأى أن

---

(١) اجلما هذا الفصل اهله تأثيره في مجرى الحوادث التى افضت الى الحرب العالمية (المعرب)

يحفظ التوازن مع صربيا وأن يكتسب صداقة بلغاريا فقد وعدنا بقوله سرا وأخفى هذا الأمر عن ألمانيا . اما سازونوف فكانت له غاية أخرى : أن يضم بلغاريا الى جانب الوفاق الثلاثي ويوفق بينها وبين صربيا فتفرغ هذه للنمسا فيما لو نشبت حرب أوربية . هذا الى ما كان يراه في اعطاء قوله لبلغاريا من ضمان ضد اليونان ومعاكستها الممكنة لمطامع روسيا في البواغيز . ولم يحط سازونوف فرنسا بذياته هذه بل حاول أن يكسب تأييد الرأي العام الفرنسي برشوة الصحف الفرنسية ؛ بيد أن الانراك كانوا أسخى منه وأندى كفا فانفقوا على الصحف الفرنسية - على قول الوكيل الروسي المالي في باريس - خمسة ملايين من الفرنكات ، فلم تؤيد فرنسا قضية سازونوف .

أما الأمبراطور فكان يميل إلى تأييد صهره قسطنطين ملك اليونان وكانت ألمانيا ترمي إلى اكتساب اليونان لصف المحالفة الثلاثية ، وشجعها على هذا ما كان أكده لها فينزيلوس من أن اليونان لن تنضم الى الوفاق الثلاثي « ما بقى قسطنطين على العرش وما بقى هو وزيرا » وكان يسعى بذلك وراء كسب رضاء ألمانيا لما أن ألقي نفسه مهددا بالدخول ضد بلغاريا في حرب بلقانية ثانية . لكنه عاد فيما بعد فأعلن أنه يريد أن يكون بمعزل عن هذا الفريق أو ذاك وهدد بالاستقالة اذا انضمت اليونان إلى المحالفة الثلاثية وفاقا لرغبة الملك قسطنطين . ورأت ألمانيا من جانبها المضي في تأييد اليونان حتى لا تحبط مساعيها لضمها إلى المحالفة الثلاثية فلما لاحظت النمسا أن هذا قد يبعد بلغاريا عن المحالفة الثلاثية كان جواب برلين أن اليونان يعول عليها أكثر مما يعول على بلغاريا .

أما باعث فرنسا على تأييد اليونان فكان لاعتبارات منها البعثة الفرنسية التي كانت تدرب الجيش اليوناني وتزويد فرنسا لهذا الجيش بالمدافع ومنها رؤوس الأموال التي وظفها الفرنسيون في القروض اليونانية ، هذا إلى ما أكده

ايزفولسكى من أن الباعث لفرنسا على تأييد اليونان كان الخوف من أن تصبح  
ألمانيا الكلمة العليا في أثينا فتعرض مصالحها في الشرق الأدنى للخطر .  
وقد أدركت روسيا والنمسا أن حليفتيهما لا تؤيدانها فحاولتا تسوية  
الأمور لمصلحة بلغاريا واقترحتا كل بمفردها أن تحتفظ الدول العظمى بحق  
تعديل النصوص الخاصة بقوله في معاهدة بوخارست أو المعاهدة نفسها في  
المستقبل حتى لا يحبط مؤتمر بوخارست . لكن هذه المحاولة فشلت بنشر  
برقية للملك كارول بعث بها الى الامبراطور يبلغه أن الصلح أصبح مضمونا  
وسيبقى بفضله نهائياً . وقد رد عليه الامبراطور يهته ببرقية رقيقة نشرتها  
شركة وولف التلغرافية مع برقية الملك كارول . وكانت غاية ألمانيا من النشر  
أن تصد برشتولد عن فكرة تعديل معاهدة بوخارست وان كان هذا النشر  
قد أهاج النمسا كثيرا .

## إنذار النمسا لصرىيا فى ١٨ أكتوبر ١٩١٣

فى صيف سنة ١٩١٣ بعد الحرب البلقانية الأولى والقرار الذى اتخذ  
بانشاء دولة مستقلة فى البانيا اتفق مؤتمر السفراء على تشكيل ثلاث لجان  
تكون مهمتها انشاء دولة ألبانية قادرة على الحياة والبقاء ، واحدة تحدد التخوم  
بين البانيا واليونان وثانية تحدد التخوم الشمالية بينها وبين صرىيا والجبل  
الأسود وثالثة للأشراف الدولى تدير شئون البانيا الى أن تهتدى الدول العظمى  
إلى أمير مقبول من البلاد وتتفق على تنصيبه .

لكن لجنتى الحدود لقيتا من التعطيل الشئ الكثير قبل أن تصبحا على  
استعداد للبدء بالعمل على المكان . حتى وهاتان اللجنتان تجولان فى منطقة البلاد  
الجبلية الوعرة كاتتا تلقيان كثيرا من المتاعب والتعطيل حينما تتعطل  
سياراتهما فتضطران الى المسير على ظهور الجياد أو المشى على الأقدام ، وحينما

يلجأ اليونانيون مع لجنة الجنوب الى جميع أنواع الحيل المكشوفة غير المجدية في محاولة خدعها لحملها على الاعتقاد بأن غالبية السكان تتكلم اليونانية وأنها في منتهى التحمس للاندماج في مملكة قسطنطين ، إذ كانت مواكب الفلاحين تشخص في القرى بانتظام يثير الشبه مرتدية الزي اليوناني وتأخذ في الصباح بأعلى صوتها « الاتحاد أو الموت » . فلم تنطل هذه الحيلة على اللجنة لاعتقادها بأنهم مسوقون الى هذا الغرض وبأن القوة قد استعملت مع الألبانيين والمسلمين لالزامهم عقر دورهم وإخراص ألسنتهم حتى اضطر الأمر الى احتجاج رسمي لدى أثينا . وفي الشمال كان الصربون أقل سداجة وأكثر حذرا وان كان هذا لم يمنع الجنود الصربية من التعرض لأعضاء اللجنة في الطريق والقبض عليهم في كثير من الأحيان . زد على ذلك أن ممثلي الدول الست العظمى في لجنة الحدود سرعان ما انقسموا الى ثلاث فرق يشايح كل منها الموقف السياسي الذي يقفـه رؤساؤها في لندن فكان المندوبون الفرنسيون والروسيون يتصرون لليونان والصربيين والجبل الأسود بينما كان النمسيون والاطاليون يتشيعون لألبانيا ويرون اعطاءها اوسع منطقة ممكنة وبين هذين الفريقين المتطرفين اللذين كان لغوهما في كثير من الشؤون التافهة يهدد بأحباط عمل اللجنتين كله كان المندوبون الألمان والانجليز يجتهدون في البحث عن تسويات مرضية تتفق والحالات الواقعة وتطابق التعليمات المتلقاة من لندن .

وفيما هذا التباطؤ يلابس اعمال اللجنتين في تحديد التخوم الألبانية ونظرا للعداوة المتبادلة بين الصربيين والألبانيين نشبت اعمال عداوية على الحدود إذ عاد الصربون فاحتلوا بعض الأراضى الألبانية وإذ عمد الألبانيون على اثر هذا التحرش الى الانتقام لأنفسهم بالهجوم على فصيلة صربية وايقاع الهزيمة بها . عندئذ عبات صربيا جانبا من جيشها . . . مما جعل بعض الدول تنذرها كل بمفردها بوجوب احترام قرارات مؤتمر لندن ، لكن المؤتمر في مجموعه عجز عن توجيه إنذار اجماعي وهو الذي يكون له وحده الأثر الفعال .

فبالنظر الى هذه الظروف والى أن الجنود الصربية أصرت على البقاء فيما احتلته من الأراضى الألبانية عاد برشتولد ومعه البارون كونراد رئيس هيئة أركان الحرب النمساوية العامة ينحان النظر فيما يجب اتخاذه من الإجراءات الصارمة . ومن ثم حض كونراد ثانية على أن الوقت قد حان أخيراً لتناقش النمسا صربيا الحساب بصفة نهائية . وكان قد علم من البرنس هو هنلوهه الذى عاد أخيراً من سان بطرسبورغ انه لا ينتظر ان تدخل روسيا اذا مجلت النمسا باتخاذ اجراءاتها ضد صربيا وابدت فى هذا همة : فالآن خير من ذى بعد لأن روسيا تحاول أن تنزع رومانيا من المحالفة الثلاثية وتضمها إلى الوفاق الثلاثى . وقد كان هذا أيضاً رأى البارون نوبسكا الذى كان يتجول أخيراً فى رومانيا متكرراً فى زى راع فقد روى لكونراد أن رأى العام معاد كله للنمسا والمجر وأن رومانيا تقع كلها فى حبال الروسيا وفرنسا لكن برشتولد — وكان رجلاً هيباً متردداً — كان يميل إلى القناعة بالايامات والرضى بالاجراءات الناقصة . وقد عقد مجلس الوزراء النمساوى جلستين طويلتين فى ٣ و ١٣ أكتوبر بحث فيهما بصفة جدية فيما يجب أن يتخذ . . فكان من رأى كونراد أنه يجب إرغام صربيا على قبول الاندماج سلبياً فى النمسا والمجر فيكون مركزها فيها كمرکز بفاريا أو سكسونيا فى الامبراطورية الألمانية . . فاذا لم يمكن هذا ووجه إليها بلاغ نهائى تتبعه حرب عاجلة حامية إذا هى لم تجب عليه جواباً مرضياً . وعندما تنتهى الحرب — والنمسا لا شك منتصرة فيها — أمكنها أن تضم إليها بعض أراضى صربيا وأن ترضى رومانيا وبلغاريا واليونان بنواح منها . . وبذا تتعدل معاهدة بوخارست تعديلاً فعالاً فى مصلحة النمسا . أما الاجراءات الناقصة كاحتلال بضع مدن صربية كرهينة فما لم يكن يريد كونراد . أما الكونت تيزا الزعيم المجرى القوى ورئيس الوزارة المجرية منذ ٦ يونيه سنة ١٩١٣ فكان مع تسليمه بوجود الخطر الصربى يميل إلى الالتجاء إلى الطرق السياسية . كان يرى أن مؤتمر لندن لم يسفر عن شىء سوى خيبة

الآمل فوجب لذلك أن تكون للنمسا والمجر سياسة مستقلة تتعلق بها وحدها لكنه كان يعارض بتاتا في أن يدمج من الصرب في المملكة الثنائية أكثر مما أدمج سواء أكان هذا بتدبير سلمي أم باستعمال القوة ، فهذا أمر غير عملي وضار بالمملكة نفسها ومن المؤكد أنه سيقابل في أوروبا بالاعتراض . يجب أن تطالب صربيا بشدة أن تجلو عن الأرض الألبانية فاذا لم ينفع معها هذا وجه اليها بلاغ نهائي وأنزلت بها هزيمة سياسية بل عسكرية اذا لزم الأمر . لكنه لا ينبغي بحال أن تضم أراض من صربيا . أما الفريق المعادي للنمسا في البلقان وهو المؤلف من صربيا والجبل الأسود ورومانيا واليونان ففي الوسع صدها بكتساب تركيا وبلغاريا وهما اللتان كانتا على وشك أن تصطلحا . فمثل هذا التنظيم الجديد خليق أن يوجد في البلقان توازناً دولياً صالحاً يوازي التوازن الدولي القائم بين المحالفة الثلاثية والوفاق الثلاثي .

بقى برشتولد وهذا كان حائراً بين برنامج كونراد العسكري وأخذه بالعمل الحاسم وبين الكونت تيزا الذي كان يرى الالتجاء الى الطرق السياسية . ولعله لم يكن بين من تولوا المناصب ذات المسؤولية في ساعة الخطر من هو أقل جدارة منه وأكثر ارتباكاً . كان يبسط ما للوضوح وما عليه ويظل يتراوح في تهييب واضطراب بين التأثيرين المتعارضين . ولذا تردد في اتخاذ أى اجراء عسكري ضد صربيا خشية أن تعارضه ألمانيا وإيطاليا وخوفاً من أن تتدخل روسيا أيضاً . ولم يكن يرى من السهل اقناع فرنسوا جوزيف بالموافقة على الحرب فوق أنه كان يعلم بمعارضة فرنتس فرديناند لها . وأخيراً مال الى الأخذ بالتساهل مع صربيا فيما يتعلق بحدود البانيا وبأن تعد العدة للمستقبل راجياً أن تتحسن الحالة السياسية العامة في تلك الأثناء .

وهكذا كانت نتيجة المناقشة ان لم يتخذ قرار معين وبالرغم من أن الصربيين حرقوا عدة قرى وذبحوا الألبانيين على مقربة من دبره حتى خرج السكان من ديارهم يؤمون الساحل — بالرغم من هذا قنع برشتولد بتقديم

« طلب حبي » في ١٤ أكتوبر الى صربيا يرجوها فيه سحب جنودها من ألبانيا واحترام قرارات مؤتمر لندن ولها هي أن تحدد المهلة التي تنسحب في خلالها . وقد نصح سازونوف وييشون أيضاً بأشعث بسحب جنوده في الحال . لكن رئيس الوزارة الصربية لم يصغ الى هذه النصيحة الطيبة . . بل رد على النمسا على النقيض منها يقول إن سحب الجنود الصربية يتوقف على أحوال ألبانيا المستقبلية حيث الفوضى الضاربة أطنابها فيها تعرض أمن رعاياه المحبين للسلام للخطر . بل لقد ذهب الى أبعد من ذلك فطلب الى مؤتمر لندن أن يعدل قراراته السابقة ويختصر صربيا بعض المواقع ذات القيمة الحربية وفي نفس الوقت احتل الجبل الأسود — وكان قد حصل من الحكومة الفرنسية على قرض جديد ولما يكد — بعض الأراضي الألبانية وكان فيما روى عنه على وشك أن يأمر بالتعبئة العامة ضد شعب كان مفروضاً أن تحميه الدول العظمى وتحكمه . فبدأ لفينا كما لو كانت صربيا والجبل الأسود واليونان تنوى سرا أن تعود الى احتلال تلك البلاد الموزعة الأسيفة وتجاهه الدول العاجزة بأمر جديد واقع .

في تلك الأثناء أعرب برشتولد لألمانيا عن رجائه في أن تؤيد النمسا أدياً إذ لن يعدو الأمر هذا ما دام أنه لا الروسية ولا فرنسا تريد الحرب في الآونة الراهنة . فأكدت وزارة الخارجية الألمانية لبرشتولد ذلك التأييد الأدبي وكلفت ممثلي ألمانيا السياسيين بمظاهرة مساعي النمسا في المحافظة على حياة ألبانيا تم حضت على أن يستخدم السير ادوارد غراي نفوذه في العمل على احترام قرارات مؤتمر لندن . لكن السير ادوارد غراي كان متغيباً عن المدينة في نهاية الأسبوع ووكيل الخارجية السير أير كرو لم يكن يرى أن يتخذ إجراء ما دون أن يتلقى تعليمات السير ادوارد . وقد جاء جوابه غير مشجع فقد أبدى فيه أنه لا يظن أن غراي يوافق على مطالبة صربيا بالجللاء العاجل عن ألبانيا ولا بجللاء تحدد مهلته .

وبغته في وسط ليل ١٧ اكتوبر المتداخل في ١٨ أرسل برشتولد بلاغا نهائيا الى بلغراد بعد أن ارتاح الى تأييد ألمانيا الأدي ودون أن يطلعها بعد ذلك على شيء ، وكان متأثرا في عمله هذا بأخر الأنباء التي اتصلت به عن ألمانيا فأصر في انذاره على أن تحترم صربيا أراضي ألبانيا وتسحب جنودها في خلال ثمانية أيام أو تضطر النمسا مع الأسف الى الالتجاء الى الإجراءات الواجبة لتحقيق مطالبها .

وقد أخذت هذه المهمة التي أبدتها برشتولد بشكل حاسم أوروبا جمعاء على غرة لأن أحدا لم يكن يتوقعها ، وحق لهذا البلاغ النهائي كل من باشتش وهارتويج وتولاهما الارتباك لما أن علما به وخاصة بعد إذ تبعته انذارات قوية من كل الدول العظمى التي انتهت بغته الى ما يمكن ان يقع من تعقدات خطيرة . فلفتت صربيا الى وجوب احترام قرارات مؤتمر لندن حتى رومانيا لم تحجم عن توجيه تحذيرها ايضا . وهكذا قررت صربيا ان ترضخ في الحال واصدرت اوامرها الى جنودها بالجلء عن الأراضي الألبانية المحتلة .

ان هذه الحوادث التي وقعت في ١٩١٣ فيما يتصل بألبانيا مما يساعد على تفسير المسلك الذي سلكته النمسا في يولييه ١٩١٤ وهي اذ ذاك تحت تأثير تحرش اشد من هذا . . . فانه لما عجلت النمسا بنفسها بالعمل الحازم فأرسلت إنذارها النهائي المنطوي على التصميم اكثرث صربيا لمطالبها في الحال ولم تتدخل روسيا وحققت وزارة خارجية فينا غرضها العاجل .

وهناك عامل آخر في مركز البلقان كان ينطوي على الخطر بالنسبة للنمسا والمجر وساعدت الحروب البلقانية على اظهاره اكثر مما كان ظاهرا — ذلك هو التغيير الذي طرأ على رومانيا .



## اللغز الرومانى

ان معاهدة ١٨٨٣ السرية جدا التى انضمت بها رومانيا الى دول التحالف الثلاثى جددت عدة مرات كانت آخر مرة فى ٥ فبراير ١٩١٣ . فى السنوات الأولى لعقد هذه المعاهدة لم يكن يساور النمسا والمانيا اى خوف جدى من ان لا تقوم رومانيا بارتباطاتها . فالملك كارول — وكان اميرا من اسرة هوهنزولرن تعلم فى المانيا ومال بكليته الى وجهة النظر الألمانية — كان فى نظر الجميع رجلا شريفا مستقيما يوثق بولائه الشخصى الى أن مات فى اكتوبر ١٩١٤ ، هذا الى ان مصلحة رومانيا الذاتية كانت تضمن ولائها للحالفة الثلاثية إذ هى قد أمنتها من بسط الروسيا سلطانها او اعتدائها عليها فى اى تقدم لها نحو الآستانة وحمتها من اعتداء بلغاريا او تركيا لا متلاك دوبروجه . لكن الحالة فى سنة ١٩١٤ كانت قد تغيرت تغيرا عظيما وان كان الملك كارول قد ظل مواليا على الدوام . فقد تبدل شعور الشعب الرومانى الى حد أن النمسا ، والمانيا الى حد ما ، جعلتا تنساء لان بصفة جدية أتكنفى مكانة الملك كارول الشخصية لجل بلاده على رأيه ، وهو بعد كل شىء ملك دستورى ، وشعور الشعب المعادى للنمسا فى بلد ديمقراطى برلمانى قد يطغى على ما يؤثره الملك شخصيا .

ولقد نشأت العداوة للنمسا بين الرومانيين ثلاثة عوامل — وهى العداوة التى هددت بالقضاء على التحالف : ( ١ ) سياسة المجر نحو ترانسلفانيا ( ٢ ) سياسة النمسا حيال بلغاريا . ( ٣ ) مسعى الروسيا وصرىيا لانتزاع رومانيا من المحالفة الثلاثية ووضعها فى صف الوفاق الثلاثى .

فأما عن العامل الأول فاللوم يقع على نبلاء المجر فقد كانوا يرفضون دائما أن يمنحوا رعاياهم الرومانيين والسلاف حق الانتخاب الديموقراطى الحقيقى حرصاً منهم على استبقاء مركز السيادة الذى كان لهم منذ العصور

الوسطى حتى ولو كانوا في القرن العشرين . فأبوا على الرومانيين في ترانسلفانيا عدداً معقولاً من الكراسى النيابية في مجلس نواب المجر ولم يأبهوا برغبات هؤلاء الوطنية في شأن المدارس واللغة ، فكان من أثر هذا الرفض الممض لحقوق سياسية ان ازدادت بطبيعة الحال مرارة النفوس بين القوم وعظم شوقهم الى الخلاص ، وهي احساسات كان يشاطرهم فيها اخوانهم الرومانيون على جانبي جبال كرياتيا .

والعامل الثاني الذي امتعض منه الشعب الروماني وهدد بانتقال رومانيا من صف المحالفة الثلاثية الى جانب الوفاق الثلاثي هو موقف النمسا حيال النزاع البلغاري الروماني الذي نشأ عن الحرب البلقانية الأولى . فقد شكت الصحف الرومانية مر الشكوى من سياسة « التفرج » تلك السياسة الخاطئة : فقد كان خليفاً بالملك كارول أن يتدخل وقت أن كان البلغاريون مقيدين أمام أدرة والآستانة وأن يصر على أن تنزل له بلغاريا عن إقليم سيلستريا بلجيق الواقع جنوبي دوبروجه « تعويضاً » لرومانيا من وقفها على الحياد . لكن رومانيا بدلا من أن تتخذ سياسة أنانية فعالة من هذا النوع وقفت موقف الانتظار واثقة بكرم بلغاريا وبأن تضغط الدول العظمى لمصلحتها للحصول لها على « التعويض » المطلوب . فخاب رجاءها في الاثنين ، فقد ظلت بلغاريا طوال الشهور الأولى للحرب البلقانية قاسية القلب لا تصغي الى رجاء تاكيه جوتسكو في « التعويض العادل » فلها تركت المسألة أخيراً للدول العظمى تقرر ما تراه في شأنها في مؤتمر سان بطرسبورغ المنعقد في مارس سنة ١٩١٣ لم تحصل رومانيا على كل ما كان الوطنيون يظنون أن لهم الحق في نيله .

فالمفاوضات التي دارت في شأن هذا « التعويض » هي التي جعلت وزراء رومانيا والرأى العام فيها ينقلبون أكثر من ذي قبل على النمسا والمجر . فقد اشتبهوا ( بحق ) في أن النمسا لا تؤيد مطالب حليفها من بلغاريا فيما يتعلق

بسيلستريا وشقة من الأرض واقعة جنوبي دوبروجه تأييداً يذكر . ولم يكن وزراء الملك كارول يطالبون بهذه الأراضي فحسب بل كانوا أيضاً يصرون على ان هبة رومانيا تقتضى النمسا ان تظهر نحو رومانيا في مسعاها الى سيلستريا ما تظهره من الهمة والنشاط في صد صربيا عن الوصول الى الأدرياتيك . اما موقف ألمانيا معهم فكان باعثاً على ارتياحهم . . . واخيراً لما هددت رومانيا بتعبئة جيشها ضد بلغاريا لتحصل على الأرض التي تشتهيها حاولت النمسا ان تصدها فأندر البرنس فيرستبرج وزير النمسا المفوض في بوخارست ، الملك كارول بأن هجوم رومانيا على بلغاريا يتعارض كل التعارض مع سياسة النمسا وانه اذا أصرت رومانيا على ذلك فقد تتدخل النمسا .

هذا الضغط الذي استخدمته النمسا أو حاولت أن تستخدمه مع الملك كارول أضعف مركز الملك وزاد في عزله عن شعبه ، حتى قيل انه يصغى لنصح النمسا بالمحافظة على السلام لمصلحة بلغاريا ؟ وقد ازداد ضغط الشعب الى حد حمل الملك في النهاية على الرضوخ للرأى العام فانضم الى صربيا واليونان في الحرب البلقانية الثانية ضد بلغاريا وحصل لبلاده على «التعويضات» - قطعة سخية من الأرض البلغارية جنوبي دوبروجه تمتد من سيلستريا على نهر الطونة الى كونستانزه على البحر الأسود . فتقوت امانى الرومانيين القومية وابتعثت اطماعهم في تحرير إخوانهم بهذه الحرب الناجحة التي لم تدم طويلاً وهكذا « اثار الأكل شهيتهم » على حد المثل الفرنسى . اما نتيجة ذلك فكانت ان الفت النمسا والمجر نفسها مهددة تهديداً جدياً بحركة اخرى هى « رومانيا الكبرى » ترمى الى فصل الرومانيين الموجودين فى ترانسلفانيا فى النهاية كما ترمى دعاية « صربيا الكبرى » الى فصل الصربيين القاطنين فى البوسنة وفى غيرها من أنحاء المملكة الثنائية . فى نوفمبر ١٩١٣ افهم وزير من وزراء رومانيا فرنسا ان الصداقة القديمة التى كانت تربط بلاده بالنمسا « اصبحت فى خبر كان وان مسألة الرومانيين المقيمين فى ترانسلفانيا باتت اهم

مسألة في نظر الرأي العام الذي يرغب صراحة في التقرب من روسيا .  
وفي ديسمبر سلم الملك كارول في النهاية لوزير النمسا المفوض في بوخارست  
بأن الشعور العام قد تحول الى حد « انه لا يستطيع مع الأسف ان يضمن  
القيام بارتباطات المعاهدة السرية القائمة بين رومانيا والمملكة الثنائية » .  
لقد كان برشتولد كالمثبت لا أرضا قطع ولا ظهراً ابقى بسياسة النفاق  
العقيمة التي زعم انه يؤيد بها مصالح دولتين متعارضتين كرومانيا وبلغاريا  
ففقد ثقة إحداهما واضاع ارادتها الحسنة قبل ان يحصل على ما يعوضه  
منهما عند الأخرى . وهذا « الفرار » من جانب رومانيا واقعة من اهم الوقائع  
التي حدثت لسياسة النمسا الخارجية في ربيع ١٩١٤ . وقد استغرقت المسألة  
الصرية من انتباه الكتاب والتفاتهم الشيء الكثير لأنها في النهاية سببت  
الحرب العالمية لكنه فيما يلي هذه المسألة لم يرهق أدمغة رجال الخارجية  
النمسية شيء كمسألة رومانيا في بضعة الأشهر التي سبقت الحرب . وستساعد  
هذه العجالة التي اوردناها على جلاء بعض النقط الغامضة الأخرى كخطط  
فيما المتضاربة ، وتردد برشتولد وغلطاته ، والانقسام النمسي الألماني ،  
ومقابلة كونوبشت التي جرت بين الأمبراطور غليوم وفرنتس فرديناند —  
نلك الأمور التي قام من حولها كثير من التليجات الخفية .  
في تلك الأثناء كانت روسيا تحاول الاستفادة من هذه الحالة بجذب  
رومانيا الى ناحية الوفاق الثلاثي وتأليف عصبة بلقانية برعايتها تحل محل تلك  
العصبة التي فككتها بلغاريا بالحرب البلقانية الثانية ومع أن القيصر كان  
يحكم بعض أهالي بيسارايا الرومانيين فقد سعى وزراء روسيا المفوضون  
في بوخارست الى تحويل مطامع الرومانيين في الوحدة القومية من بيسارايا  
الى ترانسلفانيا واستخدمت روسيا نفوذها ببطنة لمصلحة رومانيا لتحصل  
لها في معاهدة بوخارست على ما كانت تطلبه من « تعويضات » . وقد حفظ  
الرومانيون للروسيا جميلها بانضمامها الى ألمانيا في الحيلولة دون تعديل المعاهدة

بقدر ما استنكروا مسعى النمسا الى هذا التعديل .

ويدل على مرمى روسيا من كسب رومانيا وانه كان جزءاً من خطتها القاضية بالاستعداد لحرب اوربية عامة — نقول يدل على هذا دلالة واضحة ذلك التقرير السرى الذى رفعه سارزونوف الى القيصر فى ديسمبر سنة ١٩١٣ اذ يقول :

« اننى فى حين اكرر أمنيتى فى الاحتفاظ بقدر الامكان بالحالة الراهنة ارى من الضرورى ان اكرر أيضاً انه يصعب ان تقدم مسألة البواغيز خطوة الا بما يطرأ من مشكلات فى اوربا . هذه المشكلات بقدر ما تدلنا الظروف الحالية ، ستجد فرنسا الى جانبنا كخليفة وانجلترا كذلك او على الأقل ملتزمة الحياد المشرب بروح العطف اذ كانت محالفتنا ، مع امكانها ، غير مضمونة كل الضمان . فى البلقان يسعنا اذا نشأت هذه المشكلات الأوربية ، ان نعول على صربيا وربما أيضاً على رومانيا . ومن هذا يتعين جليا علينا ان نسعى سياسيا فى خلق مناسبات تجعل رومانيا ادنى ما يمكن الينا وهذه سياسة ينبغى ان لا نفتقر عن الجرى عليها فى غير ما تعجل . فمركز رومانيا فى البلقان يبادر الى الذهن من عدة وجوه مركز ايطاليا فى اوربا . فهاتان الدولتان مريضتان بحب العظمة مضطرتان لعجزهما عن تحقيق مشروعاتهما علانية الى القناعة بسياسة اقتناص الفرص ترقبان دائماً أية جهة فى جانبها القوة لتنضم اليها .

« وهنالك عاملان يلعبان دورا هاما فى عدم استقرار الحالة الحاضرة فى البلقان ، أولها النمسا والمجر بما تنطوى عليه من حركة قومية نمت نموا ظاهراً من جراء النجاح الذى أحرزه الصربيون والرومانيون والذى يؤثر فى اخوانهم ممن تضمهم حدود مملكة ها بسبورغ ، والعامل الثانى هو ان بلغاريا لن تروض نفسها على النتائج الأليمية التى اسفرت عنها معاهدة بوخارست بالنسبة لها . »

وفى أوائل سنة ١٩١٤ خطت روسيا خطوات أخرى لكسب رومانيا

فشجعت ائتلافا بين صربيا واليونان ورومانيا كان يرمى في الظاهر الى خدمة السلام والمحافظة على الحالة الراهنة في البلقان لكنه مما يمكن أن تستخدمه روسيا لحل مسألة البواغيز في وقت تقع فيه « مشكلات أوربية ». وقد كان هذا الاتفاق بين الدول الثلاث مما يتفق وسياسة روسيا القاضية بتعزيد صربيا ضد النمسا ، فلكى يحققه سازونوف جرت له أحاديث طويلة مع رئيسى وزارتى صربيا واليونان المسيو باشتش والمسيو فتزيلوس فى فبراير سنة ١٩١٤ . هذا الى ما دار بين باشتش والقيصر من حديث مشجع ذى مغزى روى باشتش فيما يلى حكايته الممتعه :

« لقد دامت المقابلة ساعة كاملة فاستقبلنى القيصر فى مكتبه وأقبل نحوى حين دخلت يريد ملاقاتى عند الباب ومد الى يده دون أن ينتظر تحيى له ثم دعانى الى الجلوس . . . وقد سردت عليه سياسة صربيا التى ترغب فى المحافظة على السلام . . . وانهزت فرصة الكلام عن رومانيا فأبدت انى اجتمعت بيرتيانو أثناء إقامتى فى بوخارست وانه كان إذ ذاك متحمساً لفكرة التحالف مع اليونان و صربيا . ثم أعربت عن أن فى نيتى التعرّيج على بوخارست فى طريق عودتى الى بلادى لأستوثق مما إذا كان بيرتيانو لا يزال على استعداده وآرائه التى أفصح لى عنها حينما كنت فى بوخارست فأبدى القيصر استحسانه لذلك وقال ان لرومانيا فى بلاد النمسا والمجر ثلاثة ملايين ونصف مليون من الرومانيين وان هؤلاء يرومون الاتحاد مع رومانيا .

« ثم حولت الحديث الى ما تزود به النمسا بلغاريا من السلاح فقال لى القيصر إن المانيا أيضاً تساعد بلغاريا فرجوت القيصر أن تساعدنا روسيا بالمثل وأن تورد لنا من مستودعائها ١٢٠,٠٠٠ بندقية بذخيرتها وبضعة مدافع وخاصة الهوتزر . . فسألنى القيصر أخاطبت أحداً من وزراء روسيا فى هذا الشأن ، قلت نعم حدثت وزير الحرية سوخوملينوف كما حدثت سازونوف وقد أجابنى وزير الحرية ان هذا ليكون على ما يرام اذا سمحت به السياسة.

الروسية . وهنا انتهزت هذه المناسبة لأعرب عن سرورنا من أن الروسية قد تسلحت تسليحاً تاماً لأن هذا يحدونا بشعور الطمأنينة وبالآمل في مستقبل حسن . . . ثم قلت إننى سأعطي سازونوف بمجرد عودتى من تزارسكو سيلو قائمة بما نحتاج اليه فقال حسناً فانى سأقابل سازونوف غداً وسأرى ما نحتاجون اليه » وسألنى القيصر كم جندياً تستطيع صربيا أن تنزل الى الميدان وقال لقد أدهشت صربيا العالم لما أن جندت ٤٠٠,٠٠٠ مقاتل . قلت اعتقد أننا نستطيع أن نجد نصف مليون مقاتل حسنى العدة . قال القيصر : هذا يكفي فهذا أمر عظيم وفى استطاعتنا أن نحرز به شيئاً كثيراً .

» ثم تناولنا الكلام عن حاجتنا الى رعاية التحالف مع اليونان . . . والى وجوب العمل على عقد تحالف مع رومانيا أوسع نطاقاً من مجرد صيانة معاهدة بوخارست .

» وعند ما أذن لى فى الانصراف رافقتنى الى الباب . . . وقال : إننا سنفعل لصربيا كل شيء .»

وهكذا بعد أن أفضى باشتش الى القيصر برغبته الحقيقية شخص الى عاصمة رومانيا يصحبه فتزيلوس . ولكى يتيح القيصر حلقة أخرى لربط روسيا ورومانيا دعا ولى عهد رومانيا الى زيارة روسيا مع زوجته وولده البرنس كارول فتوجهوا اليها فى ٢٧ مارس سنة ١٩١٤ ولبثوا هناك ثلاثة أسابيع . وكان البرنس كارول وسيصبح ملكاً على رومانيا لا يعطف على المانيا وآل هو هنزلرن عطف الملك كارول فقد رباه زعيم من أقوى زعماء رومانيا الوطنيين وأشدهم عداً للنمسا فكان خاضعاً لتأثيره .

وفى ١٤ يونيه سنة ١٩١٤ ارد القيصر والقيصرة يصحبهما المسيو سازونوف زيارة أمراء رومانيا . وقد جرى حديث سياسى خاص بين سازونوف وبراتيانو أبدى فيه الوزير الروسى « أن تغييرات هامة سوف تطرأ على الحالة السياسية فى أوروبا وان رومانيا تحسن صنعاً اذا أدركت علامات الساعة

وأصغت الى صوت الحكمة . فأكد المسيو براتيانو للمسيو سازونوف رداً على ذلك أن رومانيا غير مكلفة بالاشتراك في أية حرب كانت الا اذا مست مصالحها الخاصة رأساً وأذوجد سازونوف هذا الجواب غامضاً وكان يرغب في اتزاع بيان أكثر وضوحاً منه سأل براتيانو صراحة هذا السؤال ذا المغزى قائلاً : « ماذا يكون موقف رومانيا فيما لو نشبت حرب بين روسيا والنمسا والمجر واضطرت الأولى تحت تأثير الظروف أن تلجأ الى عمل عسكري ؟ » فأجاب براتيانو : « ان موقف رومانيا في هذه الحالة سوف يتوقف على الظروف التي تؤدي بالروسيا الى اللجوء الى العمل العسكري ضد النمسا والمجر كما يتوقف على ما تتطلبه مصالح رومانيا في تلك اللحظة . » فاستخلص سازونوف من هذا الحديث ما ارتاح اليه وهو « أن رومانيا ليست مرتبطة بأى ارتباط يحملها على مناصرة النمسا ومناهضتنا كائنة ما كانت الظروف . بيد أن الحقيقة هي أن رومانيا إذا نشبت الحرب بيننا وبين النمسا والمجر ستتحاز إلى الجانب الأقوى الذي يستطيع أن يتعهد لها بأعظم ربح . » هذه الدلائل على ازدياد التقرب بين بوخارست وسان بطرسبورغ وعلى تكون العصبية الصربية اليونانية الرومانية التي كان الأصل فيها كراهية هذه الدول الثلاث المشتركة لبلغاريا والتي يمكن أن توجه بسهولة ضد المملكة الثنائية — هذه الدلائل أثارت مخاوف فينا وارتياها وكانت سبباً في ازديادها فكيف تعالج النمسا هذا الخطر الذي ستزيد رومانيا من شره الى جانب الوفاق الثلاثي ؟ .

هنا كلف كونراد هيئة أركان حربه بوضع الخطط لحملة ضد رومانيا وأشار ببناء الاستحكامات على حدود رومانيا أو — بما هو افضل — باعلان حرب مانعه على صربيا تنقذ النمسا دفعة واحدة من خطر صربيا الكبرى وتجلو الحالة السياسية العامة . لكن نصيحته هذه لم يعمل بها لأن الأمبراطور فرنسوا جوزيف والغراندوق فرنتس فرديناند والكونت تيزا وأمبراطور



ألمانيا كانوا جميعاً معارضين في اتخاذ أى إجراء قد يحمل على عداوة رومانيا . وقد آثر الكونت برشتولد الانتظار بشأن كل ضعيف متردد وأمل أن يكسب جانب رومانيا بالتساهل ومن ثم شرع تيزاً في مفاوضات لمصلحة الرومانيين في ترانسلفانيا لكنه سرعان ما ظهر عقم هذه المفاوضات فعدل عنها في آخر مارس ١٩١٤ بعد ان أحبطها عناد المجرين المنطوى على الأناية من جانب ومغالاة الرومانيين وامتعضهم في جانب آخر . وبعث برشتولد أيضاً بالكونت تسرنين وزيراً مفوضاً لدى بوخارست في اكتوبر ١٩١٣ بدلا من البرنس فيرستبرج الذى لم يكن محبوباً شخصياً من بعض وزراء رومانيا وغرضه من ذلك أن يحول شعور رومانيا لمصلحة النمسا . فأخذ تسرنين يعمل بصفة جدية على تنفيذ تعليمات برشتولد ليحسن العلاقات بين البلدين اللذين كانا حليفين شكلا وعدوين في الواقع لكنه لم يلبث بعد بضعة أشهر أن أدرك أن لا أمل في رسالته . وهكذا بات يعتقد أن سياسة التفاؤل والتراخي التي يتبعها برشتولد هي محض سخافة وجعل ككونراد يفكر في وجوب القيام بشيء أكثر إيجاباً من هذا فانه في مارس ١٩١٤ ختم رسالة من رسائله المنطوية على التشاؤم بهذا التحذير الذي كان كأنما يتنبأ به تنبأ قال :

« إن واجبي يحتم على أن أوجه التفاتكم الى أننا ننزلق هنا بسرعة مرعبه . والوقت الآن من ذهب وليس سوى النعام من يغمض عينيه ويترك الأمور تجري كما تجري هنا . ذلك أنه يجب أن أكرر ، ولو مائة مرة إذا لزم الأمر ، أن المعاهدة النمسية الرومانية قصاصة لا قيمة لها من الورق . فرومانيا ، لو نشبت حرب ، لن تقف في صف المملكة الثنائية والحالة الحاضرة هي أسوء ما يمكن أن تتصوره بالنسبة لنا لأنها تربطنا دون أن تفيدنا . وسياسة التردد السلبية ، سياسة العوم مع التيار وترك الأمور تجري في أعنتها وتنساق على سجيتها لن يحسن هذه الحالة . فليس سوى العمل الايجابي الحاسم من جانب النمسا وليس سوى التصميم الحديدي الذي لا يلين والذي يرغم رومانيا على كشف نياتها

شيء يمكن في آخر لحظة أن يدرأ الكارثة التي لا سبيل الى سبر غورها .  
وقد ارتأى تسرنين عدة خطط بديلة من هذه الحالة مما قد تلجأ اليه المملكة  
الثنائية إحداهما أن تعطى ثرانسلفانيا لرومانيا على شريطة أن المملكة الرومانية  
التي تتسع بهذه الصورة ، تندمج في الامبراطورية النمساوية ويكون لها مثل مركز  
بقاريا في الامبراطورية الألمانية . وهذه الخطة كان يراها تسرنين موموقة لكنها  
غير عملية أما الحرب المانعة التي كان كونراد يحض عليها ضد صربيا فلم يكن  
تسرنين يرى فيها ما يراه أمثال تيزا من أنها عديمة النفع غير مرغوب فيها لأن  
النمسا والمجر مشبعة بالسلافين بما فيه الكفاية فليس ثمة بالتأكيد من يريد  
صربين آخرين في المملكة الثنائية . لكن إذا خرجت النمسا ظافرة من حرب  
تشرها على صربيا — وهذا ما يقوله تسرنين — فسوف يكون في الاستطاعة  
الاستفادة من أراضي صربيا في اكتساب دول البلقان الأخرى . فالنقطة التي  
كان تسرنين يحض عاها بصفة خاصة هي العمل على إجلاء الموقف فيما يتعلق  
بمعاهدة التحالف ، فالحالة الحاضرة لا تقوم بالنسبة للنمسا بقلامه ظفر لأن  
الملك كارول لم يعد يسيطر عليها . وقد يضطره الرأي العام إلى انكار  
المعاهدة او النزول عن العرش إذا حدث اعتداء من جانب روسيا على النمسا  
وقامت بين النمسا ورومانيا حالة التحالف . فلكي تحمل رومانيا على الأفصاح  
عن نفسها كان يرى تسرنين ان يفشى سر وجود المعاهدة الى احدى الصحف  
فتذيعه . وإذ ذاك يسع المرء من الطريقة التي تنفي بها حكومة رومانيا صحة  
ماروته الصحيفة ومن الكيفية التي يناقش بها الرأي العام في رومانيا هذه الرواية -  
نقول يسع المرء ان يقرر ما تستطيع النمسا ان تعول عليه . بيد ان برشتولد  
رفض كل هذه الارتيايات وكان كل ما فعله ان فوض تسرنين على الرغم منه  
أن يجس نبض الملك كارول في كياسة فيما اذا كان يجب أن تزداع المعاهدة .  
لكن الملك كارول راغ من ذلك كما تنبأ تسرنين وهكذا بقي برشتولد وشركاؤه  
لا يدرون على التحقيق أظل المعاهدة السرية المعقودة مع رومانيا قائمة في  
حالة نشوء ازمة ام لا .

وكان هنالك اقتراح آخر يمكن أن تعوض به النمسا خسارة رومانيا المرجحة وهو أن تحذو حذو روسيا فنشئ عصبة بلقانية تحت رعايتها توازن بها العصبة الصربية اليونانية الرومانية التي ترعاها روسيا . فقد توفق النمسا بين بلغاريا وتركيا وتجذبهما الى دائرة التحالف الثلاثي عوضا عن رومانيا وقد نظر الى هذا الاقتراح بعين الاعتبار في ربيع سنة ١٩١٤ ووضعت لتنفيذه مذكرة مستفيضة كان الفراغ منها في اللحظة التي اغتيل فيها فرنس فرديناند في سيرا جيفو .

لقد كانت هذه المشكلة الرومانية احدى النقط الكثيرة التي شجر عليها الخلاف بين السياستين الألمانية والنمسية . فمع أن العلاقات بين بوخارست وفينا كانت تزداد توتراً فقد ظلت بوخارست وبرلين على ود أكيد وعملت ألمانيا الكثير لبقاء الملك كارول وشعبه على ولائهم للمحالفه الثلاثية ، فسلبت في خلال الحرب البلقانية الأولى بعدالة مطالب رومانيا في « التعويض » ورفضت كل ما تقدم به برشتولد من مشاريح في مصلحة بلغاريا . ولما نشبت الحرب البلقانية الثانية أبت ألمانيا ان تشترك مع برشتولد في الضغط على رومانيا لحملها على التزام الهدوء وكانت ترى أن ليس من حسن السياسة أن تغامر النمسا باضاعة حليف مخلص كالملك كارول سعياً وراء صديق غادر كالملك فرديناند ملك بلغاريا ، وأن النمسا ارتكبت غاظة بترك الخوف من « صربيا الكبرى » يملكها الى هذا الحد ونسيانها أنها تحكم رومانين كما تحكم سلافين وكانت ألمانيا ترى رأى رومانيا في أن النمسا إذ تقول إنها لا تطبق « صربيا الكبرى » تنسى أن رومانيا لا يمكن ان تطبق هي أيضاً « بلغاريا الكبرى » . ولقد أحنقت برشتولد هذه المراعاة لشعور رومانيا من جانب ألمانيا حتى انه احتج عليها ثلاث مرات في برلين . لكن وزير الخارجية الألمانية فون ياجويننا كان يسلم ببعض حجج برشتولد أبدى «إننا لسنا بحاجة الى الاشتراك في جميع غباوات فينا . » وأخيراً بعد أن عبأ الملك كارول جيشه

واتزع دوبروجه الجديدة من بلغاريا بالقوة ثبتته المانيا في اراضيها الجديدة بالوقوف في وجه المساعي النمسية والروسية لحل الدول العظمى على تعديل معاهدة بوخارست . وقد استمر هذا الخلاف في الراى بين برلين وفينا في خلال الأشهر التي تلت الحروب البلقانية . . . واستفحلت المظاهرات العدائية التي كانت تقوم بها في رومانيا « عصبة التمدين » ضد النمسا واشتدت حملات الصحف الرومانية . وحدث أن مثلت رواية ضد آل هابسبورغ تسمى «المستر نوتارى» كتبها ترانسلفانى فأثارت جمهور النظارة في المسرح الوطنى ببوخارست الى درجة الجنون فخرجوا في حفل حاشد ومروا امام القصر الملكى ينشدون الاغانى الحربية وينادون « بسقوط النمسا » وحياة الروسيا . وقد اسف الملك كارول لهذا كله وخشى إن هوناهض رواية «المستر نوتارى» ان يكون ذلك سبباً للاعلان عنها وزيادة الطين بلة . وقد سلم في الشتاء بأنه اذا استمر هذا الشعور العدائى للنمسا فلن تناصر رومانيا النمسا لو وقعت حرب اوربية فليست معاهدات التحالف بكافية في ذاتها بل يجب ان تؤيدها الشعوب .

لقد أزجحت هذه الحالة برلين حتى لقد جعل الامبراطور من الخطر الرومانى اهم موضوع تناولته مباحثاته مع فرانتس فرديناند والنسويين أثناء زيارته لفينا وميرمار وكونوبشت قبيل حادث اغتيال سيرا جيفو . فأعرب عن أمله في أن تتساهل النمسا للرومانين في شأن ترانسلفانيا . وحاذرت ألمانيا من تنفيذ ما تقضى به خطط كونراد من إقامة الاستحكامات على حدود كرباتيا او ما يرثيه تسرينين من نشر المعاهدة الرومانية واملت ان تمر هذه النوبة وان تعود رومانيا الى ولائها المعهود اذا حرصت المحالفة الثلاثية على ان لا تبدى من القلق واضطراب الاعصاب اكثر مما يجب . كانت ترى ايضا ان الملك كارول قد لا يستطيع في حالة حدوث حرب أوربية أن يقوم بتعهداته لكنه بين ذلك وبين الانضمام الفعلى الى جانب العدو بون شاسع وهكذا ظل مستقبل رومانيا لغزاً يحير ويزيد في عدم استقرار البلقان ودسائسه .

## مسألة ليمان فون ساندرس

كان بحثنا إلى الآن في مشاكل البلقان من وجهة النظر إلى مصالح النمسا والروسيا المتعارضة وأمانى دول البلقان القومية . ففي أواخر سنة ١٩١٣ عين الجنرال ليمان فون ساندرس الألماني في منصب عسكري في الأستانة فأحدث تعيينه انقساماً بين الروسيا وألمانيا يستحق لعدة أسباب أن نبذل له من العناية والالتفات أكثر مما وجه إليه في العادة . فقد كان آخر أزمة سياسية مهمة وقعت قبل يولييه سنة ١٩١٤ . وهى كهذه الأزمة الأخيرة من الأزمات التى كان لنفوذ هاتين الدولتين وهيبتهما فى الشرق الأدنى دخل فيها . لكنها مثال حسن للكيفية التى تسوى بها الأزمات إذا توفر حسن النية من الجانبين . وتسويتها المرضية برهان على أن الحرب ليست بالأمر الذى « لا مفر منه » . وقد باتت فى حوزتنا أخيراً كل الوثائق الضرورية المتصلة بهذا الحادث وأصبح لذلك فى وسعنا أن نتبع ما كان يدور بخلد سازونوف ويشغل به ذهنه وما كان يصدر عن هذا الذهن من جفاء فى التعبير وتحول سريع بين التطير تارة والتفاؤل أخرى وخوف من « الرأى العام » الروسى وجنوح خطر الى الانتحاء الى الاجراءات العسكرية ابتغاء الخدعة فى طلب انتصار سياسى . كذلك قد أضحي فى وسعنا أن نلم بتلك التيارات المتعارضة فى سان بطرسبورغ وأعمال الوفاق الثلاثى الخفية وموقف ألمانيا المتناهى فى الاعتدال والمسألة .

لقد أسخط سازونوف وأثار حنقه ما سمعه فى نوفمبر سنة ١٩١٣ من أن جنرالاً ألمانيا هو ليمان فون ساندرس سيتولى قيادة الفيلىق التركى فى الأستانة فتمثل هذا لذهنه حركة ماكرة لا مبرر منها ولا ينبغى السماح بها قصدت بها ألمانيا الى الاستزادة من سلطتها ومكانتها فى الدولة العلية لتحبط « الرسالة

التاريخية ، التي ابتغت بها روسيا الهيمنة على الآستانة والبواغيز ( وهي مناطق ذكرها سازونوف على أنها « متاخمة لحدودنا » فكان قوله هذا غريباً لكنه ذو دلالة ومعنى . ) وقد أبرق في الحال من إيالته في القرم إلى السفير الروسي في برلين يقول :

« لشد ما أدهشني عند ما علمت بما تم بين ألمانيا وتركيا من اتفاق يتعلق بالمدرين العسكريين أن هذه المسألة الخطيرة لم يعرض لها المستشار ( الألماني ) أثناء حديثنا الصريح الودي . وابتعثت بعثة عسكرية ألمانية إلى مناطق « متاخمة لحدودنا » لا يمكن إلا أن يثير تائرة الرأي العام الروسي وإلا أن يفسر بالتأكيد بأنه عمل ظاهر العداء لنا . وخاصة وضع الجنود التركية في الآستانة تحت إمرة جنرال ألماني من الأمور التي لا بد أن تثير بيننا المخاوف والريب . فأرجوك أن تخاطب الحكومة الألمانية بهذا المعنى . »

وقد شاطر المسيو ديلكاسيه سازونوف سخطه هذا وألهبه وان كان ذلك منه لأسباب تختلف عن أسباب سازونوف بعض الشيء . فقد خشي السفير الفرنسي أن يكون من وراء هذا « شروع ألمانيا في جذب تركيا إلى المحالفة الثلاثية وهو ما لا يمكن للوفاق الثلاثي أن يعض الطرف عنه » وأبدى أن ألمانيا تتمتع بالفعل في آسيا الصغرى بسلطة اقتصادية وسياسية هائلة بسكة حديد بغداد وأنه سيكون لها الآن أسطول في شرق البحر الأبيض المتوسط وستنخذ لها فيه قاعدة بحرية ومحطة للفحم . أما إيطاليا فتطمع في الحصول على امتيازات بإنشاء ميناء ومد سكة حديدية في الأناضول وإيجاد منطقة نفوذ إيطالية في جنوب آسيا الصغرى ؛ والنمسا بالمثل تريد لنفسها شيئاً . هذا ما قدره ديلكاسيه ؛ وهو فيما يتعلق بمطامع إيطاليا والنمسا ليس بعيداً عن الصواب لكن ألمانيا كانت تعارض هذه المطامع ولو ان كليهما حليفاتها ؛ كانت تخشى ان تطالب الدول الأخرى بأمثال هذه « التعويضات » ومعنى هذا تقسيم تركيا نهائياً . فكانت تعارض معارضة شديدة في إجراء هذه

العملية الجراحية إذ ذاك خشية ان تؤدي إلى حرب بين الدول العظمى ولأنها كانت تريد الاحتفاظ بالحالة الراهنة ما أمكن نظراً لمركزها الحسن في تركة آسيا ولنفوذها العظيم في الآستانة، أو على الأقل إلى ان تتمكن الدول من الاتفاق فيما بينها على تقسيم تركيا تقسيماً حياً مرضياً للأطراف جميعاً: أما ديلكاسيه فقد اخطر حكومته بعد هذا بيضعة ايام هذا الاخطار المظلم: « لقد بدأ تهشيم تركيا او هو يوشك ان يبدأ وستشغل المانيا مركزاً يضمن لها جميع مزايا التقسيم » .

كان الأصل في بعثة ليمان فون ساندرس رغبة رجال تركيا الفتاة في صبغ الإدارة التركية بالصبغة الغربية الحديثة . فما كادوا يتولون زمام الأمور حتى دعوا عدداً من كبار الأجانب لمساعدتهم ، فدعوا من الفرنسيين اثنين هما المسيو لوران ليكون مستشاراً مالياً والمسيو بومان لتدريب الجندرية التركية وثالثاً هو المسيو ليون اوستروروج المستشار القضائي المدرب ليساعد في الاصلاحات القضائية. ودعوا من الانجليز السير ريتشارد كروفورد لتنظيم الجمارك والسير وليم ويلكوكس للقيام بمشروعات للرى في العراق . ودعوا غير هذين آخرين هما الاميرال السيردو جلاس جامبل والاميرال ليمبوس لاعادة تنظيم البحرية وتدريب رجالها بينما كان على الجنرال الألماني فون درجولتز الذي كان موظفاً بالفعل لدى الأتراك أن يقف جانبا من وقته على تدريب الجيش التركي

على أن فون درجولتز ألغى مركزه صعباً لانشقاق ضباط تركيا الفتاة على أنفسهم وجنوحهم الى خلط السياسة بالشئون العسكرية وجريهم في الترقيات على نظام أخرق . كذلك كان فون درجولتز يشكو من حرمانه من السلطة فاستغنى من عمله ؛ فقد أثبت الضباط والجنود المسنون من الاتراك وهم من حاول أن يفرس فيهم النظام البروسى والأساليب البروسية عجزهم عن تقبل هذه التعاليم وفضحوا أنفسهم فضيحة مؤلمة عندما هاجم الحلفاء البلقانيون

تركيا في أواخر سنة ١٩١٢

وحدث في ٢ يناير ١٩١٣ أثناء هدنة الحرب البلقانية الأولى ومفاوضات لندن أن طلب أحد رجال تركيا الفتاة سر أمن فانجنهايم سفير ألمانيا في الأستانة أن يوافيه بأسرع ما يمكن بالشروط التي استخدم على مقتضاها الجنرال الفرنسي ايدو لتنظيم الجيش اليوناني واغلب الظن أنه كان يفكر في نفس هذا الشيء بالنسبة لتركيا بعد إذ منيت بهذه الهزائم المنكرة في الثلاثة الأشهر الماضية ؛ لكن مقتل ناظم باشا وثوراة الأستانة على الوزراء على أثر تساهل المندوبين الأتراك في لندن أخرا خطط ذلك التركي وان كان قد أتيا الى الحكم بمحمود شوكت باشا وهو رجل كان يعاونه حزب من الشبان الأتراك ذوى العزيمة والوطنية قد طووا الأضالع على ادخال اصلاحات قوية في تركيا بمساعدة المستشارين الاوربيين باعتبار أن هذا هو المنقذ الوحيد لبلادهم من انحلال عاجل تام ولما كان فون درجولتز ورفقاؤه قد بدأوا مع الأتراك تعاليم الألمان العسكرية فقد كان من الواضح ان يولى شوكت باشا وجهه شطر ألمانيا دون سواها من الدول لتزوده بالمدرين العسكريين وهكذا رجا الأمبراطور بواسطة الملحق العسكري الألماني في الأستانة ان يعيره بعض الضباط البروسيين ليقوموا بتقوية الأستانة . فخذ الأمبراطور هذه الفكرة وطلب في ٢ ابريل الى وزارة خارجيته ان تبدي رأيها فيها وفي هل هناك اعتراض عليها من الوجة السياسية وزاد على ذلك قوله ان المسألة ليست مستعجلة إذ لا يجب ان يذهب الضباط الى تركيا الا بعد ان تضع الحرب البلقانية أوزارها فلم تعترض وزارة الخارجية .

ودارت عندئذ مفاوضات طويلة بين السلطات العسكرية التركية والألمانية انتهت في نوفمبر بالتوقيع على عقد نهائى لبعثة عسكرية ألمانية مؤلفة من اثنين وأربعين ضابطا ألمانيا برياسة الجنرال ليان فون ساندرس ومع ان كتاب الوفاق الثلاثى زعموا عامة ان ألمانيا هي التي اثارت بعثة



ليمان فون ساندرس فان الوثائق الألمانية خلو من أية دلالة على ذلك .  
والواقع أن كل دليل ينقض هذا الزعم ويؤكد أن البعثة إنما كانت بناء على  
طلب الأتراك أنفسهم سعياً وراء خلاصهم .  
على أنه أهم من أصل هذه البعثة الألمانية العسكرية أغراضها وأثارها كما  
بدت في رأى الأتراك والألمان والروسين .

فقد قرر محمود شوكت باشا والاتحاديون في ربيع ١٩١٣ أن يطلبوا من  
انجلترا سبعة عشر مفتشاً انجليزياً يستخدمون في الجندرية الأناضولية وفي  
الإدارة المدنية ، وذلك خوفاً من دسائس روسيا جنوبى القوقاز ورضوخا  
للضغط والإلحاح في اجراء إصلاحات في أرمينيا . فوافق غراى أولاً ثم خفض  
العدد الى خمسة مراعاة لعواطف الروسين والألمان . في نفس الوقت رغب  
محمود شوكت في أن تبعث ألمانيا الى تركيا بمدرين عسكريين جدد وكان يعتقد  
أن تعاون الانجليز والألمان هو وحده الذى يمكن أن يجدد تركيا كما أبان  
للسفير الألمانى في ٢٦ إبريل ١٩١٣ حين قال له : « انه لا سبيل الى بعث  
تركيا الا بتعويلها على ألمانيا وانجلترا فقد كان سبب مصائبها الى الآن أن  
هاتين الدولتين كانتا متعارضتين . ولذا يجب أن أعنى بأن تصبح تركيا الأرض  
التي يتم عليها التفاهم بين الانجليز والألمان . » الى أن قال « انى أعتمد على  
ألمانيا في إعادة تنظيم الجيش إذ هذا أهم نقطة في برنامجى . . . كذلك سأعتمد  
على الحكومة الألمانية في اصلاح التعليم . . أما النمسا فليست بحاجة اليها . وإنما  
أنا بحاجة الى مساعدة الانجليز في فروع الإدارة المختلفة في شمال الأناضول  
وشرقه . . وسيصلح الانجليز البحرية أيضاً . . »

وقد أصغى السفير الألمانى بانتباه الى خطط الصدر الأعظم وحث  
ألمانيا على اجابة الطلب الخاص بالمدرين العسكريين ورحب ترحيباً قلبياً  
بفكرة محمود شوكت اشا في تعاون انجلترا وألمانيا على تقوية تركيا . وأطلق  
لخياله العنان في آفاق المستقبل السعيدة . . . . . فقد كان فانجنهايم متحمساً

لتر كيا متفائلا بمستقبلها حتى قال فيه أصدقاؤه انه ترك . وقد كان كثيراً ما يجنح الى تجاوز حدود وظيفته والتدخل في شئون الأتراك حتى اضطر الامبراطور أحيانا الى إلزامه حدوده . ولذا يجب أن تقرأ رسائله بتحفظ ويحترس من قبول ما فيها جملة واحدة على أنه يمثل رأى حكومته .

ولقد كان الامبراطور كثير التشكك لا يقر فأنجهايم على تحمسه وقد علق على خطط محمود شوكت باشا بقوله « انها نيات حسنة لكنها خيالية الى حد كبير ! فالحقيقة أن استخدام الأمم الأوربية المختلفة في شئون تركيا الداخلية هو بمثابة قنطرة كبيرة للدسائس وجسر يؤدي الى تقسيم تركيا ! وليس من السهل الزام كل دولة حدها وقصر عملها على دائرة واجباتها ! وخاصة فيما يتعلق بالانجليز ! » على أن الامبراطور برغم هذه الاعتبارات التي كانت بنت ساعتها كان قد وافق فعلا على فكرة ابتعاث مدرين عسكريين وقد حث بعد ذلك على التعجيل بالتدابير الخاصة بها وبالجملة فقد كان يرى فيما يلوح وكما قال للروسين أن هذه البعثة مسألة عسكرية أكثر منها سياسية . وقد أخطر الباب العالي الحكومة البريطانية بالمشروع وبحث فيه بصفة عامة مع القيصر والملك جورج أثناء زيارتهما لبرلين في ٢٤ مايو لشهود زفاف كريمة الامبراطور على دوق برانزويك . فقد أخبرهما الامبراطور بما طلبه الأتراك من ابتعاث ضباط ألمان فوافق القيصر والملك جورج كل الموافقة . وقال الملك : « من الطبيعي أن يتوجهوا اليكم في طلب ضباط لاعادة تنظيم جيشهم . وقد طلب منا أن نرسل أساساً لاعادة تنظيم البوليس والجنדרمة وسنفعل » كذلك قال القيصر « ان من الضروري تحصين خط شطالجة تحصيناً قوياً حتى لا تستطيع البلغار دخول [ الأستانة ] »

لكن سازونوف فيما بعد اعترض بقوله إن الحكومة الألمانية لم تسلك مسلكاً حميداً إذ أخفت عن روسيا كل شيء حتى أتاها نبأه في نوفمبر ... وقد حمل هذا الامبراطور على تعليق مناسب وان لم يكن برلمانياً فقال : « ياله

من كذاب أشراً لقد أخبرت به القيصر شخصياً في الربيع . . . فاذا لم يكن القيصر قد أبلغه شيئاً عنه فيكون قد اعتبره أقل أهمية من أن يذكر وعده طبعياً . »

أما ليمان فون ساندرس فلم يكن يعلم من المشروع شيئاً حتى اقترح عليه في ١٥ يونيو . وقد كان المعتقد فيه بحق أنه أقدر بكثير من فون درجولتز . ويقول الجنرال ليمان في هذا الشأن صادقاً :

« إن عمل أعضاء البعثة سيكون عسكرياً محضاً ؛ ونص العقد يدل على ذلك بوضوح . فكل ما قيل من جهات كثيرة كتابة أو في الصحف من أن عمل البعثة سيتناول أيضاً الدائرة السياسية لا صحة له البتة . »

وفي آخر نوفمبر لما أعد العقد أخيراً وأمضى طلب الجنرال ليمان لمقابلة الامبراطور غليوم فقال له الامبراطور ما محصله :

« لا يعنك مطلقاً أن يكون في الحكم أنصار العهد الجديد أو القديم فهمتك قاصرة على الجيش وحده . أبعد السياسة عن هيئة الضباط الأتراك فالاشتغال بالسياسة أكبر خطأ . وستقابل في الأستانة الأميرال ليموس على رأس البعثة البحرية الإنجليزية فلتكن علاقتك به حسنة ! إنه يعمل للبحرية وانت تعمل للجيش فكل منكما ميدان عمله المنفرد »

ووصل الجنرال ليمان فون ساندرس أخيراً إلى عاصمة تركيا في ١٤ ديسمبر ١٩١٣ فاستقبل فيها بعزف الموسيقى العسكرية ومشى في ركابه حرس فخري . لكنه كان قبل وصوله بشهر قد أصبح هدفاً لنزاع سياسي أوشك أن يتناول هيئة روسيا والمانيا بل منزلة الوفاق الثلاثي والمخالفة الثلاثية .

فأنه في ٢ نوفمبر ١٩١٣ أبرق المسيو جيرز سفير روسيا في الأستانة إلى سان بطرسبورغ بأن هناك إشاعة عن قرب مجيء بعثة عسكرية ألمانية ستكون بناء على إيضاحات زميله الألماني البارون فانجنهايم الودية كالبعثة العسكرية الفرنسية الموجودة في بلاد اليونان . لكن جيرز علم بعد ثلاثة أيام من ذلك

أن ليمان فون ساندرس سيتولى أيضاً قياده الفيلق التركى المرابط فى الآستانة فهذا الوجه الجديد للسألة أثار فى الحال معارضة الروسيا وفرنسا وأعقبتهما فى المعارضة انجلترا باعتبار أن هذا يخول الجنرال فون ساندرس مركزاً غير الذى كان لفون درجولتز من قبله ويختلف عن مركز المدرب الفرنسى العسكرى فى اليونان .

وقد بلغ نبأ البعثة العسكرية الألمانية بطرسبورغ فى وقت كان فيه سازونوف متغيباً فى القرم مشغولاً برفع تقرير الى القيصر . وكان كوكوتسيف رئيس الوزارة الروسية ووزير المالية يدبر فى فرنسا قرض خمسمائة المليون فرنك اللازمة لإنشاء السكك الروسية الحديدية التى تستعمل فى أغراض حرية لكنه كان فى برنامج ان يعرج على برلين فى طريقه الى بلاده ليشكر للأمبراطور انعامه عليه بنشان النسر الأسود . ولذا تقرر أن ينتهز كوكوتسيف فرصة وجوده بـ برلين لىبسط لولاية الأمور اعتراضات الروسيا على البعثة العسكرية الألمانية . وتقريره الذى رفعه الى القيصر بما جرى له من حديث فى هذا الشأن مع يتمان هولفيج والامبراطور خير ما يشرح مسألة ليمان فون ساندرس فى اللحظة التى باتت عندها مسألة سياسية جدية . قال :

« لقد أدخل كل من المستشار والامبراطور فى روعى أن هذا المشروع نشأ فى الربيع الفائت وأن المستشار كما أكدلى فى خلال حديث لا أشك فى صدقه ، يكاد لا يلم بتفاصيله ؛ فكل الذى إتصل به هو أن الحكومة التركية طلبت الى ألمانيا أن تقوم بتدريب الجيش التركى وان امبراطور ألمانيا أشار الى هذه المسألة فى حديث خاص مع جلالتم فى مايو الفائت بـ برلين وأن جلالتم لم تعارضوا مبدئياً . . . أما ما جرى بعد ذلك من ترتيبات لتنظيم فيلق فى عاصمة تركيا يكون انموذجاً للفيالق وتسد قيادته الى ألمانيا فما لم يكن يعلبه بالكافة ، فقد اتخذ سيره المعتاد فى الادارات العسكرية فى الامبراطورية .

والذي أعتقده انه صادق في كل ما قال ولا أظن انى مخطيء في التقدير حين اقول ان فكرة فيلق في الآستانة بقيادة ضباط من الألمان لم تكن في الحقيقة معلومة لديه الى ما قبل وصولي بيضعة ايام . . [ ثم لخص كوكو قسيف مطلباً له صبغة البديل في قوله ] وهو اما العدول عن قيادة جنود تركية والاكتفاء بحق التفتيش عليها كما كانت الحال فيما مضى وإما — اذ بدا هذا غير ممكن للوعود التي اعطتها ألمانيا لتركيا — ان يكون مركز الفليق الانموذج في غير الآستانة كأدرنه أو آسيا الصغرى لا على مقربة من حدودنا ، أو في منطقة المصالح التي لفرنسا . »

وقد بدا اقتراح تولى ليمان فون ساندرس القيادة في غير الآستانة حيث قد يقلق وجوده راحة سفراء الدول مبشراً لاول وهلة بازالة اعتراضات روسيا . وقد حبذه جيرز وسفرييف ونيراتوف كما حبذه كوكو قسيف ييدانه سرعان ما نشأت في الحال المصاعب من ناحية المصالح الانانية التي لفرنسا والروسيا نفسيهما ، فقد عارضت فرنسا بشدة في ان يتخذ ليمان فون ساندرس مركز قيادته في أزمير ، وارتأى يشون ان يكون في أدرنه . لكن اختيار أدرنه كما ابدى السفير الروسى في برلين في فطنه « مما يحدث في الراجح هياجاً عظيماً في بلغاريا ويعد هذه البلاد عنا نحن الروسين اكثر مما ابتعدت . » اما بيتمان فكان بطبيعة موقف المسالمة الذي اتخذه في المسألة بحذافيرها ولرغبته الصادقة في ايجاد حل مرض للروسيا ، مستعداً كل الاستعداد للنظر في هذا الاقتراح . ولما فوئح ليمان فون ساندرس في اعتراضات روسيا أبدى انه لا حاجة بالقائد الى تولى قيادة الفيلق في الآستانة اذا تيسر عدد كاف من الجنود يتيح للمدارس الحربية الفرصة للقيام بتمريناتها وأنه يسع القائد الالماني ان يتولى القيادة في أدرنه . وقد حبذ السفير الروسى في الآستانة هذا الحل لكن الاتراك رفضوه في غضب إذ كانوا يعدون مساعى روسيا التي لا مبرر لها تدخلا في شئون تركيا الداخلية لا يقبلونه .

على أن سازونوف لم ينتظر ريثما يتلقى جواب ليمان فون ساندرس بل عجل فارتأى أن تنضم إليه فرنسا وانجلترا في طلب تعويضات ، واقترح عليهما « فيما لو بدا من غير المناسب تقديم اعتراضات أخرى في برلين أن يقوموا معاً بعمل مشترك في الآستانة بيدون به أن الامتيازات التي نالتها ألمانيا تفتح مسألة إعطاء الدول الأخرى تعويضات بمائة » . وقد وافقت فرنسا في مبدء الأمر على هذا دون تردد . واليك ما كتبه ايزفولسكى الى سازونوف في هذا الشأن قال : فيشون « موافق على رأيكم كل الموافقة ... واذا لم يعدل الباب العالي عن تحقيق هذا المشروع ففرنسا ستطلب تعويضات تفوق المؤلف وتكون لها صبغة معنوية وسياسية » .

أما السير إدوارد غراي فلم يجذب اقتراح سازونوف بادی الرأي . وقد سلم سياسياً بمبدأ طلب التعويضات لكنه أبدى خوفه من أن يكون من الصعب تحقيق هذه التعويضات . وقد كتب بنكندورف الى سازونوف يقول : « ان غراي يرى أن خير ما يفعل هو أن تدور مفاوضات حبية مع ألمانيا لجلها على تغيير مشروعها الأصلي ، ويظن أن الامبراطور غليوم ومستشاره . يبحثان عن مخرج من هذه الحالة . » فقد كان غراي لجهله نوعاً ما مشاكلاً البلقان وسوء ظنه الى حد ما بالسياسة الروسية من جراء شئون فارس يخشى أن تفضي ذبذبة سازونوف بسهولة الى نكبة ما .

ولما لم يوفق سازونوف الى حمل ألمانيا على الرضوخ عدل عن فكرة « التعويضات » وقرر أن يحاول ارغام تركيا على الغاء العقد أو تعديله بتقديم شيء في مرتبة البلاغ النهائي اليها من جانب دول الوفاق الثلاثي . ولكي يحصل على تأييد السير ادوارد غراي لخطه الهجوم هذه ، كلف بول كامبون بأن يقنع غراي بالاشتراك « في إفهام الباب العالي العواقب التي تنجم من تقليد القيادة على فيلق الآستانة لجنرال ألماني . فان هذا بالاختصار يضع رجال السلك

السياسي المقيمين في الآستانه تحت الوصاية الألمانية ويعطى ألمانيا مفتاح البوابات ويجعل في حيز الامكان ان يتدخل الجنرال الالماني تدخلا عسكريا يمس سيادة السلطان رأساً الخ . ، فاذا وافق السير ادوارد غراي على هذه الآراء فيجامل بأن يطلب منه وضع صيغة المذكورة التي تقدم من دول الوفاق الثلاثي الى الباب العالي .

وقد وافق غراي على المقترح الفرنسي ووضع على عجل صيغة تصريح شديد العبارة يتضمن الحجج الواردة في هذا الاقتراح ويبلغ مرتبة البلاغ النهائي . وكان هذا التصريح سيندر الحكومة التركية بأنه اذا احتفظ الجنرال ليمان فون ساندرس بقيادته « فسوف تطلب الدول الأخرى مثل هذه المزايا لنفسها . » ووافق عليه المستر اسكويث رئيس الوزارة وأرسل الى دولتي الوفاق الثلاثي الآخرين ليكون قاعدة لاندارات من قبيله يوجهها سفراء الدول الثلاث في الآستانة . ولما بعث به المسيو بيشون الى السفير الالماني في الآستانة زاد عليه « انه من الضروري ان لا تشك الحكومة التركية في الاتفاق التام القائم بين انجلترا وفرنسا والروسيا على هذه المسألة . »

والآن وقد ضمن سازونوف كما كان يظن اتفاق فرنسا وانجلترا التام قرر بغته أن يحاول استخدام هذا الاتفاق وسيلة في برلين لخديعة ألمانيا وحملها على الرضوخ قبل ان يشرع سفراء دول الوفاق في عملهم في الآستانة . فانه اذا نجح في هذا في برلين أحرز فوزاً سياسياً اعظم شأناً من فوز يحرزه في الآستانة وسوى المسألة بذلك . ولذا ابرق الى ايزفولسكي في باريس يطلب أن يؤخر بومبار تقديم المذكرة لتركيا .

وكلف في الوقت نفسه سفر ييف في برلين أن يوجه التفات الحكومة الى الاجراء المقترح القيام به في الآستانة من جانب دول الوفاق الثلاثي فيما لو لم تجب ألمانيا جواباً مرضياً . فأجابه ياجو وزير الخارجية الألمانية بأنه لا يستطيع بعد ان يعطيه رداً معيناً ، وانه كتب الى الجنرال فون ساندرس

بأن يدرس الحالة المحلية في الآستانة فإذا أمكن ان يتفق مع ولاية الأمور الاتراك على انه ليس من الوجهة الفنية ما يحول دون نقل الفيلق الانموذج الى مركز آخر فان الحكومة الألمانية عندئذ تستطيع ان تعدل عقد الجنرال فون ساندرس بسهولة . وفي اليوم التالي اى في ٥ ديسمبر ابلغ السفير الألماني المسيو سازونوف انه « على الرغم من ارتباك مركز الحكومة الألمانية فانها سائرة في طريق تسوية المصعبه التي نشأت لكنه لا بد لها من شيء من الوقت حتى لا يقع في النفس انها لانت للضغط » فأجابه سازونوف بقوله « إنه مستعد لتلقى الاقتراح اذا لم تؤجل الحكومة الألمانية قرارها الى موعد ابعد مما يجب . » وفي الوقت نفسه كلف سفر ييف في برلين بأن يشير الى انتقادات صحف الجامعة السلافية لسازونوف ، « فاذا قال الوزير الألماني ان حكومته لا تستطيع تسوية المسألة مع الباب العالي فأخبره بأننا سنسعى سعينا على عجل لتسوية المسألة في الآستانة لا في برلين واننا سنخذ الاجراءات المتفق عليها في الحال . »

ولم يكن سازونوف في الواقع يريد الانتظار فقد استخلص ان من المحال حمل المانيا على تقرير شيء في الحال، وأن وسياته فشلت. هذا الى ما اتصل به من ان السلطان اصدر في ٤ ديسمبر إرادة سنية بتعيين الجنرال ليمان فون ساندرس عضواً في المجلس الحربى وقائداً لفيلق الآستانة ، ولذا ابرق الى لندن وباريس في ٧ ديسمبر يقول : « إننا نرى من المرغوب فيه ان يتقدم السفراء الثلاثة في الحال الى الحكومة التركية بالمذكرة الآتية التي صيغت وفاقاً لاقتراح انجلترا . » لكن المسيو سازونوف أحزبه ان يعلم ان السير ادوارد غراى غير رأيه في تلك الاثناء وفي خلال تلك المدة التي أخرج فيها سازونوف نفسه إجراء دول الوفاق الثلاثى في الآستانة . فقد وجد سازونوف الآن ان الاتفاق ( بين دول الوفاق ) لم يكن « تاماً » كما كان يفترض . فان « مذكرته » التي اقترح تقديمها كانت اشد طهجة من « تصريح » غراى .



كذلك نشأ سوء فهم فيما يتعلق بالصورة التي يقدم بها دول الوفاق تصريحهن الى الصدر الأعظم فسازونوف ويشون كانا يريان أن يسلك في ذلك مسلك سياسى شديد وهو تقديم السفراء الثلاثة في وقت واحد مذكرة مكتوبة واحدة؛ لكن السير ادوارد غراى كان يرى أن يعامل الصدر الأعظم بالطف من هذا . « فمن رأيه أن تكون المذكرات متشابهة ولكن لا تقدم في وقت واحد . »

وفي تلك الأثناء أخذ غراى يسمع أيضاً من القائم بأعمال السفارة الألمانية في لندن حكاية عن البعثة العسكرية الألمانية تختلف اختلافاً كبيراً عما صور له بول كامبون . . . فقد قال له كيلمان بين ما قاله إن فيلق الأستانة أختير أنموذجاً للفيالق لأن الأستانة مركز المدرسة الحربية وهيئة أركان الحرب وكتاهما بما يتصل به المدربون الألمان على الدوام؛ وذكر أن الجنرال ليمان فون ساندرس سيشغل في الجيش مركزاً شبيهاً بمركز الأميرال الانجليزى ليمبوس في البحرية وهو من لم تحتج دولة من الدول على تعيينه . وقد أثرت نقطة الأميرال ليمبوس تأثيراً عميقاً في غراى ، وبدأ يرى أنه قد يضع نفسه في مركز لا يتفق والمنطق اذا طلب أن يتخلى الجنرال ليمان فون ساندرس عن قيادة فيلق واحد من فيالق الجيش في الأستانة في حين يتولى الأميرال ليمبوس قيادة الأسطول التركى كله . . . ولم يكن غراى كما كتب السفير الروسى بعد ذلك ببضعة أيام أسفا « يلم قبل الآن بتفاصيل الاتفاق المعقود مع الأميرال الانجليزى بالضبط . . . وفي الحق أن مركز الأميرال الانجليزى يزود ألمانيا بحجة تحدث هنا متاعب؛ فقد حدثت عنها نيكولسن مراراً . »

فالحجج التي أدلى بها كيلمان جعلت غراى يحترس من مناورات سازونوف وزاد في احتراسه ما تلقاه من السير لويس ماليت من الأستانة من معلومات صحيحة عن أهمية استمرار التعاون الانجليزى الألمانى في انشاء أحواض بحرية لتركيا في أزميد ، وعن تصريح الأميرال ليمبوس بأن

السلطة المخولة له أوسع في الحقيقة من السلطة المخولة للجنرال ليمان فون ساندرس وأنه أجر البيت الذي اختير في الأستانة للجنرال الألماني . وأخيراً تحذير السير لويس ماليت ( سفير إنجلترا في تركيا ) من أن مطالب روسيا المنصبة على سحب ليمان فون ساندرس قد تؤدي بسهولة الى خلق حالة خطيرة كالتى خلقها الفرنسيون في سنة ١٨٧٠ .

من ثم غير غراى موقفه فأصبح يرى أن « مذكرة » سازونوف سابقة لأوانها . وبدلاً من تحذير السلطان من العواقب الخطرة التى تترتب على تعيين ليمان فون ساندرس بات يرثى الآن « الاستعلام شفويا » من الأتراك فى أدب عن العقد المحرر بينهم وبين الجنرال الألماني ومدى السلطات التى ستكون له .

وقد سبب السير ادوارد غراى لسازونوف انفعالا وحرنا بتحويله عن موقفه ذلك التحول الذى ضايقه لكن سازونوف بالرغم من ذلك أدرك أن لا فائدة من رفضه وأن ليس أمامه الا قبوله . وهكذا كان فقد ذهب سفراء الوفاق الثلاثة فى الأستانة الواحد بعد الآخر يستعلمون شفويا فى رقة حاشية عن صيغة عقد الجنرال فون ساندرس ومركزه وعمما اذا كان هذا يهدد استقلال تركيا وسيادتها وينال من ساطتها على الأستانة والبواغيز . فأعطوا المعلومات التى طلبوها عن العقد . أما المسألة الأخرى فأجابهم الصدر الأعظم بأنها لا تعنى سوى تركيا .

فى تلك الاثناء كان السفير الألماني فى الأستانة لا يألو جهداً فى السعى وراء حل سلمى معقول للمسألة بحذافيرها . فحضر تركيا على التساهل وتعديل عقد الجنرال ليمان واجتهد فى حمل الملاحقين العسكريين الألمانى والروسى فى الأستانة على الوصول الى اتفاق . ثم عجل أخيراً بالسفر الى برلين وهناك دبر الحل الموفق . فقد رفع الجنرال فون ساندرس رتبة فى الجيش البروسى فاستتبع هذا أن يرقى فى الجيش التركى الى مشير ( فيلد مارشال ) كما ينص

العقد المحرر معه وهكذا أريخ من قيادة الفيلق الأول في الأستانة . وبقى مفتشاً للجيش التركي ومديراً للدرسة الحريية دون أن تكون له قيادة ما على جنود في العاصمة التركية — وهي النقطة التي كان يعارض فيها سازونوف بشدة . وقد أعلن هذا الحل المرضى لروسيا في ١٤ يناير ١٩١٤ وختم به هذا الحادث في سلام دون أن يترتب عليه خطر الحرب بين دول الوفاق الثلاثي والمخالفة الثلاثية . وقد كتب سفير روسيا في برلين الى المسيو سازونوف يقول . « لقد فعلت وزارة برلين في الواقع كل ما أمكنها لأجابتنا الى رغباتنا العادلة ولم يكن هذا بالسهل عليها بالنظر الى الحملة التي وجهتها الصحف الى الحكومة . »

بقى أن هذه المسألة بخدافيرها تدل على أنه حتى الأزمة السياسية الخطيرة بين روسيا وألمانيا قابلة لأن تسوى تسوية معقولة سلبية على شريطة أن تكون ألمانيا على استعداد للتساهل وأن تكبح فرنسا وانجلترا جهاح روسيا وتصدها عن الالتجاء الى أعمال في غاية التطرف والتسرع ، وعلى شريطة أن لا يحفل الفريقان بوضاء الصحف المتطرفة وانذار العسكريين بالويل والثبور . . . . . وقد كان من تأثير مسألة ليمان فون ساندرس في برلين أن قوت الشعور بأنه وان كان سازونوف يحنح الى الانفعال ويلجأ الى الخديعة الا أنه من المشكوك فيه أن توازره انجلترا في هذا الخداع . وهذا سبب من الأسباب التي حملت ألمانيا في يولييه ١٩١٤ على الاعتقاد بادي الرأي بأن لا خطر عليها من شد أزر النمسا .

### خطط سازونوف للاستعداد

كثير من الكتاب الذين يطالبون بتعديل معاهدات الصلح يصورون المسيو سازونوف بأنه الرجل الذي « أغوى » في أواخر سنة ١٩١٣ على الاشتراك في « المؤامرة الفرنسية الروسية » التي كان يحكيها المسيو بوانكاريه

والمسيو ايزفولسكى «لاشعال نار الحرب» منذ سنة ١٩١٢ بصيغ المحالفة الفرنسية الروسية بالصيغة البلقانية. بيد أن الصورة لا تنصف المسيو سازونوف كثيراً من حيث استقلاله في الرأي وهي تقيم وزناً أكثر مما يجب لتأثير ايزفولسكى وبوانكاريه في سياسة روسيا الخارجية . فكثيراً ما كان المسيو سازونوف يجرى في شئون البلقان على خطط لم تكن تتفق بحال من الأحوال مع خطط ايزفولسكى بله خطط بوانكاريه . ومن يشأ الأمام بالسياسة التي جرت عليها روسيا في شتاء سنة ١٩١٤ وريبعها فليرجع إلى تقاريره التي كان يرفعها إلى القيصر وإلى مداولات مجلس الوزراء الروسى أكثر مما يرجع إلى رسائل السفير الروسى في باريس التي كان فيها كثير التمدح بنفسه . فان تأثير ايزفولسكى على السياسة الروسية قد بالغ فيه ايزفولسكى نفسه وغالى فيه الكتاب الذين كانوا يحكمون عليه من حكمه على نفسه .

وخير شاهد على آراء سازونوف الحقيقية هو التقرير المسهب الذي رفعه إلى القيصر في أوائل ديسمبر ١٩١٣ ففيه أجمل الحالة العامة التي أعقبت حروب البلقان وخاصة الخطر الذي كان يهدد السلام ببقاء تركيا واليونان طويلاً دون اتفاق . فقد استخلص سازونوف من مركز تركيا الضعيف أن انحلال الدولة العثمانية ليس ببعيد وأن الدول جميعاً تحسب من الآن ما يكون من نصيبها حين يأتى أوان التقسيم النهائى وأن روسيا على ذلك يجب أن تقرر الموقف الذي سوف تقفه .

ونظرة نزيهة الى تقريره هذا الذي يمنعنا طوله من أن نوردده كله ترى أنه لم يكن يرغب في إحداث حرب أوربية بل كان على النقيض من ذلك يصرح مراراً وتكراراً بأنه يجب المحافظة على الحالة الراهنة ما أمكن . لكن الحالة في البلقان كانت مزعزعة جداً والروسيا لم تكن لتسمح أبداً بأن تقع البواغيز في يد دولة غيرها وهو ما كان يوشك أن يحدث يوم تقدم البلغاريون في سنة ١٩١٢ حتى بلغوا أبواب الآستانة . ولذا فقد كان عليه هو وغيره من الوزراء الروس

أن يرسموا الخطط استعداداً لاتزاع البواغيز اذا ما نشأت مشكلات أوربية كان يتوقع حدوثها في كل لحظة . ومن ثم سأل القيصر أن يأذن له في مشاورة غيره من الوزراء في خطط الاستعداد هذه واليك ما جاء في هذا التقرير :

« ليس في مصلحتنا المباشرة أن نسعى لتوسيع ممتلكاتنا بحال من الأحوال فان مقتضيات تطورنا الداخلي من شأنها أن تجعل للاحتفاظ بالسلام أكبر شأن في نظرنا . على أننا وإن كنا لانستطيع التخلي عن هذه المهمة الرئيسية إلا أنه ليس يسعنا أن نتجاهل ما في الموقف الدولي من الأخطار التي لا يتعين درؤها علينا وحدنا . وهذا ما يحملنا ويحمل الدول الأخرى على السواء على ألا تغفل عن الاحتفاظ بحقوقنا ومصالحنا فيما لو اقتضت الظروف أن يدافع عنها بقوه السلاح .

« فعدم التأكد من استقرار تركيا ومن حياتها يفتح أمامنا باب المسألة التاريخية الخاصة بالبواغيز وقدر أهميتها بالنسبة لنا من الوجهتين السياسية والاقتصادية ؛ فإذا طرأ تغيير على الحالة الراهنة فلن يسع روسيا أن تسمح بحل المسألة في غير مصلحتها أو بعبارة أخرى لن يسعها مطلقاً أن تقف في ظروف بعينها موقف المتفرج .

« ولقد حلت مؤقتاً مسألة صيانة البواغيز حلاً يوجب الرضا من حيث تعلقها بمصالحنا المباشرة فان تركيا قد باتت دولة لا هي بالقوية ولا بالضعيفة ولم تعد خطراً على روسيا بل أنها هي التي تحسب حساب روسيا نظراً لتفوق روسيا عليها في القوة . وقد كان ضعف الامبراطورية العثمانية وعجزها عن تجديد نفسها وفاقاً للقانون والحضارة لمصالحتنا الى الآن إذ أوجد في نفوس الأجناس الواقعة تحت حكم الهلال ميلاً الى ناحية روسيا الارثوذكسية . وهذا الميل هو إحدى الدعائم الأساسية التي يرتكز عليها مركزنا الدولي في الشرق وفي أوروبا .

« فهل يسعنا السماح بوقوع البواغيز في أيدي دولة أخرى ؟ ان الجواب

على ذلك هو بالنقي لآن وضع البواغيز في أيدي دولة أخرى قوية معناه خضوع جنوب روسيا من وجهة تقدمه الاقصادى لتلك الدولة . . . هذا الى أنه من يملك البواغيز لا يملك فقط مفايح البحرين الأسود والايض المتوسط بل يملك أيضاً باب الموصل الى آسيا الصغرى ويكن له النفوذ والسلطان فى البلقان وعليه فان الدولة التى تحل محل تركيا على شواطئ البواغيز لا يبعد أن تتطلع الى السير على الدرب الذى سار عليه الاتراك قديماً. [ وقد أعرض المسيو سazonوف عن كل اقتراح يرمى الى وضع البواغيز على الحياد ونزع سلاحها وألح فى ضرورة وضع برنامج تفصيلى للاستعدادات ] ثم قال : « ينبغى علينا أن ندرس ما يمكن أن نتخذه من الوسائل لمضاعفة قوتنا العسكرية والبحرية فى البحر الأسود وما ينبغى على وزارتى البحرية والبحرية عمله لتعجيل التعبئة بمد سلك حديدية جديدة وترقية وسائل النقل . وهل يمكن أو لا يمكن تقرير مهمة جيشنا وأسطولنا فى اقتحام البواغيز والاستيلاء على الآستانة فيما لو اقتضت الظروف ذلك ؟

[ ثم أشار المسيو سazonوف الى المسائل الرئيسية التى ينبغى البحث فيها وهى أولاً كيفية التعجيل بتعبئة تجريدة عسكرية قوية . ثانياً : اعداد خطوط المواصلات اللازمة لهذه التعبئة . ثالثاً : تقوية أسطول البحر الأسود حتى يصبح متفوقاً على الأسطول التركى ويكون فى استطاعته اختراق البواغيز واحتلالها مؤقتاً أو بصفة دائمة اذا اقتضت احوال ذلك . رابعاً : زيادة النقلات البحرية . خامساً : انشاء سلك حديدية عسكرية فى القوقاز . ] واستطرد يقول : « وانى إذ أكرر الرغبة التى أعربت عنها آنفاً فى إطالة الحالة الراهنة بقدر الامكان أرى أيضاً من الضرورى أن أعيد ما سبق لى أن قلته من أنه يصعب أن تتقدم مسألة البواغيز خطوة دون أن يكون ذلك من جراء مشكلات أوربية . وأرى من الأحوال الحاضرة أن هذه المشكلات اذا وقعت ستجد فرنسا حليفة لنا وانجلترا حليفة ممكنة وان كانت غير مضمونة أو على الاقل

ملتزمة الحياد المشرب بروح العطف وفي استطاعتنا في البلقان أن نعتمد على صربيا وربما على رومانيا فيما لو وقعت تلك المشكلات الأوربية .  
وقد اعتمد القيصر هذا التقرير وحدثت المناقشة المشار اليها بين الوزراء في ١٣ يناير سنة ١٩١٤ وأرسل سazonوف صورة منها الى وزير البحرية وهذا بعث بها الى هيئة أركان الحرب في وزارة البحرية لأنعام النظر فيها . وقد وافقت هذه الهيئة من صميم قوادها بطبيعة الحال على اقتراح سazonوف القاضي بتقوية اسطول البحر الأسود . وقد أبان أعضاؤها أن هذه الطريقة وحدها هي الكفيلة بجعل صوت الروسيا مسموعا بين الدول الأوربية وفي كافة المعاملات مع تركيا حيث كان النفوذ الروسي ضعيفا فعلا . ثم أنهم ارتأوا اقتراحات عديدة لتقوية اسطول البحر الأسود في الحال ومنها انجاز البوارج التي بدىء بناؤها وابتاع عدة سفن من طراز الديرينوط من الخارج ومنع تركيا من شرائها واعداد الخطط لتضامن أسطولى البلطيق والبحر الأسود ضد تركيا وعلى أساس هذه الاقتراحات رفع وزير البحرية الى القيصر تقريرا مطولا يؤيد فيه ماذهب اليه سazonوف من الآراء .

في تلك الأثناء وضع سazonوف في يوم ٥ يناير سنة ١٩١٤ مذكرة مفصلة لتوزيعها على الوزراء لتكون أساسا للمناقشة عند انعقاد المجلس الخاص . وقد أجمل فيها ما دار من المفاوضات في شأن ليمان فون ساندرس ثم استطرده يقول :

« ثالثا : ينبغي اتخاذ القرارات اللازمة من الآن فيما ينبغي عمله فيما لو اقتضت الظروف سند مطالبنا بالقوة .

« رابعا : قد تكون وسائل القوة هذه في صورة إحتلال بعض الجهات في آسيا الصغرى مثل طرايزون أو بايزيد مع اعلان اعتزامنا البقاء هناك الى أن تجاب مطالبنا .

« خامسا : بعد أن تحدد الوسائل التي يمكننا اتخاذها نفتح حكومتى ابجلا

وفرنسا سرا في الموضوع لأن أمثال هذه الوسائل لا يمكن اتخاذها بطبيعة الحال الا بعد أن نستوثق من استعداد هاتين الدولتين لاتخاذ أمثالها .

« سادسا : ينبغي في المفاوضات التي تجرى مع الحكومتين المذكورتين ، الاصرار على اتخاذ الحيطة التامة وتوحيد العمل بين الدول الثلاث ليتسنى — بقدر الامكان — منع اشتداد النزاع تفاديا من وقوع حرب أوربية . وينبغي في الوقت نفسه بذل المساعي من جانبنا لأعداد فرنسا وبريطانيا العظمى لضرورة مواصلة العمل الذي تكونان قد بدأتاه في سبيل المصلحة المشتركة الى النهاية .

« سابعا : اذا قبلت الدول الثلاث هذه النظرية ولم تؤد المفاوضات في برلين الى الغاية المرجوة فينبغي التفاهم على وسائل الارغام الواجب اتخاذها وهي .  
ا — مقاطعة تركيا ماليا مقاطعة تامة .

ب — إذا لم تفلح هذه الوسيلة في الوصول الى النتيجة المطلوبة كما حدث في مسألة أدرنه فان الدول الثلاث يمكنها أن تسحب ممثلها من الآستانه .

ج — تحييط حكومة انجلترا وفرنسا وروسيا الباب العالي علما في الوقت نفسه بالأجل المعين لاجابة مطالبها على أن يبدأ تنفيذ وسائل القهر بعد فواته مع تحذير الباب العالي بأن لا سبيل لوقف هذه الوسائل الا بأجابة المطالب جميعا .

« ثامنا — اذا اقتضت الظروف اتخاذ إجراءات تمهيدية ذات صبغة عسكرية كأرسال نجدات الى القوقاز ليتسنى لنا بمقتضاها تنفيذ الوسائل القهرية في الحال فمن الصواب ابقاء هذه الاجراءات في طي الكتمان بقدر المستطاع . ولا ريب في أنه ينبغي — من الوجهة السياسية — أن نكون قادرين على اتخاذ الاجراءات العاجلة لترجمة الاقوال الى الافعال فيما لو اقتضت الظروف بإرسال إنذار . »

فهذه المذكرة تبين رغبة سازونوف — بقدر الامكان — في منع اشتداد



النزاع تفادياً من وقوع حرب أوربية . ولكنها تدل في الوقت نفسه على اعتماده الالتجاء الى « وسائل القهر » والتهديد باستخدام القوة للخديعة تمهيدا لاحتراز فوز سياسى واستعدادا — فيما لو اقتضت الظروف ذلك — لاتخاذ الاجراءات العاجلة لترجمة الأقوال الى الأفعال على شريطة أن يكون واثقا من تأييد بريطانيا وفرنسا . وقد أبلغ القيصر في يوم ٩ يناير أن ما تبديه روسيا من الحزم قد يكون له التأثير المطلوب لا على ألمانيا وحدها بل على تركيا أيضاً « ولكن لا ينبغي أن يبرح عن البال ذلك الخطر الذى ينشأ من احتمال تعقد الحالة الدولية في أوروبا تعقداً شديداً » وقد كان مصمماً على أن لا تسلم الروسيا ببعثة فون ساندرس باعتبارها أمراً واقعاً لأن « التسليم هنا يكون بمثابة هزيمة سياسية وقد تكون له عواقب وخيمة . فإنه يزيد من صلف ألمانيا والنمسا ويحمل فرنسا وانجلترا على الاعتقاد بأن روسيا يمكن أن تقبل شروط في سبيل الاحتفاظ بالسلم . ومتى رسخ هذا الاعتقاد في نفس صديقنا وحليفنا فقد يصبح تضامن الوفاق الودى الثلاثى معرضاً للتفكك ووقتئذ تسعى كل من هاتين الدولتين الى صيانة مصالحها بالاتفاق مباشرة مع دول الفريق المعارض .» وكان أشد ما يخشاه سازونوف أن تتفق انجلترا وألمانيا فيما بينهما على تسوية مسألة فون ساندرس بتغير مركز الأميرال ليموس وإذ ذاك تصبح روسيا بمفردها وجهاً لوجه أمام ألمانيا . « هنالك تكون روسيا في عزلة سياسية تامة لأنه يستحيل التعويل على فرنسا وحدها وهى التى تميل — حتى بدون هذه التسوية الانجليزية الألمانية المحتملة — الى التضحية بمصالح سياسية كبيرة في سبيل ما تحصل عليه من وراء التسوية من المزايا المالية . . . . . أما اذا كان الرد الوارد من انجلترا وفرنسا ( فى شأن استخدام الوسائل القهرية ) مرضياً فهنالك نحتفظ بكل قوانا ونحتاط الحيطه التى قد يقتضيها تعقد الحالة لأنه سيتحتم علينا الدفاع عن مصالحنا بشدة الى النهاية »<sup>١</sup>

وفي يوم ١٣ يناير سنة ١٩١٤ أى فى الوقت الذى أوشكت أن تحل فيه مسألة فون ساندرس حلاً مرضياً اجتمع المجلس الخاص الذى ظل المسيو سازونوف يمهده له منذ بضعة أسابيع وكان اجتماعه برئاسة المسيو كوكوتسيف رئيس الوزارة ووزير المالية . ولم يحضره إلا كبار الموظفين كوزير الحرية سوخوملينوف ووزير البحرية جريجوروفيتش والخارجية سازونوف ورئيس أركان حرب زيلنسكى وسكرتيرين من قسم الشرق الأدنى بوزارة الخارجية . فأبلغ سازونوف المجتمعين أن الأنباء الأخيرة تدل على قرب ترقية الجنرال فون ساندرس الى رتبة المشير فى الجيش التركى ومن ثم سيتخلى عن قيادة الفيلق التركى فى الآستانه وهى أنباء سارة لكنه لا يسع المرء أن يسترسل فى تفاؤله لأن الترقية لم تتم بعد .

وذكر الجنرال سوخوملينوف أنه ينبغى اقناع تركيا بالعدول عن البعثة العسكرية الألمانية بتاتاً وقال إن كل بحث فى تعديل شروط استخدامها يعتبر أمراً ثانوياً فرد سازونوف بأن كل رأى يبدى للآستانه فى هذا الموضوع لن تلتفت اليه مالم يكن مصحوباً بوسائل قهرية كالتى أشار اليها .

أما المسيو كوكوتسيف ذلك الرجل الرشيد الميال الى السلام فقد أراد أن يعرقل كل عمل عدوانى ينطوى على التسرع ، فأحب قبل البحث فى الوسائل القهرية أن يلفت النظر الى مسألتين على جانب عظيم من الأهمية :

أولاً - أن الحكومة الألمانية تبحث عن مخرج من الموقف الذى نشأ عن المطالب الروسية وبهذه المناسبة ترى الحكومة الألمانية أن من المصلحة لحل الأشكال حلاً مرضياً أن تجتنب روسيا التصريح بشيء يكون شبيهاً بالانذار النهائى لألمانيا وإلا اضطرت ألمانيا إلى أن تزداد اصراراً على موقفها إذ لا بد لحكومتها من مراعاة موقف الرأى العام فى بلادها .

ثانياً - ينبغى أن تواصل الحكومة الروسية المفاوضات التى ظلت دائرة

مع حكومة برلين منذ شهرين الى أن تقنع روسيا بأن لا أمل في الوصول بها الى نتيجة مرضية .

كذلك بين المسيو كوكوتسيف أن الوسائل القهرية لا ينبغي اتخاذها إلا بالتضامن التام بين كافة دول الوفاق الثلاثي : فانه لينبغي على روسيا قبل القيام بأي عمل أن تستوثق من مدى المساعدة التي تمدها فرنسا بها وهل يمكن الاعتماد على اشتراك بريطانيا في الضغط على الباب العالي .

فأجاب المسيو سazonوف بأنه فكر فعلا في كل هذا وأنه لا يزال هناك شك في مبلغ استعداد إنجلترا للاشتراك في العمل الجدي . أما فيما يتعلق بفرنسا فان المسيو ديلكاسيه قد أكد بلسان وزير الخارجية الفرنسية أنها مستعدة للذهاب الى أقصى حد تريده روسيا .

فقال المسيو كوكوتسيف إن أية اجراءات قهرية كاحتلال آسيا الصغرى مثلا ستبعتها حتما حرب مع ألمانيا وهنا تساءل : أهذه الحرب مع ألمانيا مرغوب فيها وهل في استطاعة روسيا أن تشهرها ؟ .

وردا على ذلك وافق المسيو سazonوف على أن الحرب مع ألمانيا من جهة المبدأ غير مرغوب فيها ، وأما فيما يختص باستطاعة روسيا لها فهو ليس مطالبا بالاجابة عن هذا السؤال . وهنا تكلم وزير الحربية ورئيس أركان الحرب « بأن روسيا على أتم استعداد للحرب مع ألمانيا فضلا عن استعدادها لمقاتلة النمسا : على أن مثل هذا القتال غير مرجح . ولو حصل لكان من المنتظر جداً أن تقف فيه هاتان الدولتان وجها لوجه أمام الوفاق الثلاثي . » هذا البيان الصريح من رجال العسكرية الروس يقضى طبعاً على كل ما قيل عن عدم رغبة روسيا في اعلان الحرب في سنة ١٩١٤ لعدم استكمال استعداداتها .

وخالف المسيو كوكوتسيف جميع الحاضرين وكرر مرة أخرى أن احتلال طرايزون أو بايزيد لامناص من أن يؤدي الى تدخل ألمانيا ولكن

سازونوف رأى أن مثل ذلك الاحتلال يصح أن يعتبر من الاجراءات الفعالة التي قد ترد ألمانيا عن التدخل . وشاركه في هذا الرأي وزيراً الحربية والبحرية ورئيس هيئة أركان الحرب . أما المسيو كوكوتسيف الذى كان يعتبر أن دخول روسيا فى الحرب فى الوقت الحاضر يكون بمثابة نكبة عليها ، فقد قال إن تورط روسيا فى أية حرب أوربية أمر غير مرغوب فيه - وهو رأى شاركه فيه غيره من أعضاء المؤتمر .

وأخيراً أجمل المسيو كوكوتسيف روح المناقشة بقوله إن المفاوضات ينبغي أن تستمر فى برلين لا بعد فون ساندرس عن قيادة الفليق التركى فى الآستانه فاذا تبين أنها لن تودى الى نتيجة مرضية اتخذت الاجراءات القهرية بشرط أن توافق فرنسا وانجلترا على اتخاذها ، أما اذا لم تستوثق روسيا من اشتراكها الايجابى فى هذه الاجراءات فلا يجوز اتخاذ اجراءات قهرية قد يودى اتخاذها الى الحرب مع ألمانيا ، ومن هنا جعل سازونوف يضاعف مساعيه فى ربيع سنة ١٩١٤ للحصول على تأييد انجلترا لمطامع روسيا فى الشرق الأدنى ولكى ينال من السير غراى توكيدات معينة كعقد اتفاق بحرى بين انجلترا وروسيا ؛ وسرعان ما بدأت المفاوضات لتحقيق هذه الغاية لكنه لما تسربت أخبارها عدل عنها .

ومن تفاصيل أعمال هذا المجلس الخاص يستبين المرء أن سازونوف كان الى جانب رجال العسكرية فى استعدادهم لاتخاذ الاجراءات القهرية المطلوبة لا بعد الجنرال فون ساندرس عن قيادة الفياق التركى فى الآستانه . كذلك يرى أنه بينما لم يكن سازونوف راغباً فى الاشتباك فى الحرب مع ألمانيا مفضلاً عليها الفوز بانتصار سياسى فقد كان على تمام الاستعداد لاتخاذ اجراءات رجح أن تودى الى الحرب معها على شريطة أن يضمن تأييد انجلترا وفرنسا له فقد كان على استعداد للتهديد باستعمال القوة وأن « ينفذ التهديد بالفعل » فيما لو أخفق فى إدراك غرضه بالخداع . وقد كان ذلك مسلكه فى يولييه سنة ١٩١٤ فما

لبث أن أدى إلى اشعال نار الحرب . ولئن كان مسلكه لم يؤد في يناير من تلك السنة إلى الحرب فما ذلك إلا لأن ألمانيا أبدت في الوقت المناسب شيئاً من التساهل في صدد مسألة الجنرال فون ساندرس ولأن المسيو كوكوتسيف بذل كل ما في وسعه لمنع أي تحرش ينطوي على العجلة من ناحية روسيا كاحتلال طرايزون أو بايزيد. ويبدل هذا المؤتمر على التباين العظيم بين اعتدال كوكوتسيف ومسالمته وتأثيره الضابط للعواطف وبين سياسة المخاطرة المطوية على الضغط العسكري التي كان يشير بها سازونوف ويؤيده فيها رجال العسكرية والبحرية. ونظراً لأن كوكوتسيف كان وزيراً للهالية فقد نظر إلى الأمور بعين رجل الأعمال أكثر مما نظر إليها بعين السياسي، وكان شأنه كشأن الكونت فتي من حيث عنايته بالاعتبارات الاقتصادية والسياسية البحتة . فلم يكن يحفل كثيراً بالخزعبلات التي لا كتها السنة الساسة عن مصالح الجامعة السلافية وهية روسيا أو « رسالتها التاريخية » بل وضع نصب عينيه ما قد تجره الحرب الأوروبية من العواقب الوخيمة على تجارة روسيا وماليتها وكيانها السياسي في الداخل . فلما أن سأل المجتمعين صراحة « هل الحرب مع ألمانيا مرغوب فيها ، لم يسعهم إلى أن يجيبوا بالنفي . لهذا كان من سوء حظ روسيا والعالم أجمع أن المسيو كوكوتسيف بعد ارفضاض هذا المجلس بأيام وجيزة اضطر أن يحتدى حذو الكونت فتي فاعتزل الخدمة وترك المجال خالياً للمسيو سازونوف وأنصار الجامعة السلافية ورجال العسكرية الروس .

وقد روج اعتزال المسيو كوكوتسيف منصب رئاسة الوزارة إشاعة مؤداها أنه سيعين سفيراً في باريس وينقل ايزفولسكى الى رومه أو الى عاصمة أخرى . فذعر ايزفولسكى لهذه الاشاعة وراح يستعطف سازونوف بأن لا ينقله الى باريس لأن نقله على قوله « يوقنى في ارتباكات مالية عظيمة إذ كان مرتب رومه ينقص عن مرتب باريس ٤٠,٠٠٠ فرنك . . . . . وأنت تعلم أن ايرادى محدود جداً وإني لم أمكن ولدى بعد من العيش مستقلاً ولم أعمل لمستقبل

ابتنى شيئاً ، فأذا فقد منصبه هذا ، فسوف أبحث عن عمل فى بنك وهذا صعب جداً ومؤلماً بعد نحو ٤٠ سنة قضيتها فى الخدمة السياسية .  
وقد أثرت توسلات ايزفولسكى فى سازونوف وبعث الاوسيكيل له الشاء بعد بضعة أيام ويشكره على « احباط مساعى كوكوتسيف فى ان يحل محلى فى سفارة باريس . »

ومن يدرى كيف كان يكون مجرى التاريخ لو أن كوكوتسيف حل محل ايزفولسكى فى سفارة باريس أو لو أنه ظل فى منصب الرئاسة يؤثر بنفوزه فى يوليه سنة ١٩١٤ . لا ريب أنه كان بفضل تعقله وقوة خلقه ومنطقه السليم وصداقته للامبراطور غليوم ورجال السياسة فى برلين يتمكن من منع الاجراءات الطائشة التى أدت الى اعلان الحرب العالمية . ولكن حظ روسيا السىء هو الذى جعلها تتخلى عن الساسة الحقيقين أمثال فتي وكوكوتسيف . وتمسك بسياسيين من طراز سازونوف وايزفولسكى يتعلقون « بالهية » . ومع أن مسألة فون ساندرس قد سويت بطريقة مرضية فى يناير سنة ١٩١٤ فان المسيو سازونوف بعد أن تخلص من تأثير المسيو كوكوتسيف السلمى ظل يواصل البحث فى الاستعدادات العسكرية بل أنه عاد مرة أخرى الى التفكير فى ذلك المشروع العدوانى القاضى بالاغارة فجأة على البواغيز بأنزال قوة عسكرية الى البر وهو المشروع الذى دار البحث فيه بصفة جدية فى سنتى ١٨٩٦ و١٩١٢ وعدل عنه فى كلا الحالتين لعدم استكمال الاستعدادات . وفى ٢١ فبراير سنة ١٩١٤ عقد مجلس خاص آخر يرأسه سازونوف وحضره الخبراء العسكريون والبحريون مع المسيو دى جيرز سفير روسيا فى الأستانة ذلك الرجل النشيط المولع بالشر .

هناك لفت سازونوف أنظار الحاضرين الى التقرير الذى رفعه الى القيصر بتاريخ ٥ ديسمبر ونال موافقته وهو القاضى بانجاز الاستعدادات للاستيلاء فجأة على البواغيز بالتضامن بين اسطول البحر الأسود وقوة

عسكرية تنزل الى البر . وقد طلب مواصلة البحث في النقط الفنية التي تكفل التعجيل بتعبئة الجنود ونقلهم وتعزيز أسطول البحر الأسود ومد السكك الحديدية العسكرية في القوقاز .

وقال سazonوف - مشيرا الى أنه من الممكن أن تعارض اليونان وبلغاريا في استيلاء روسيا على البواغيز - إنه بالنظر الى العداوة التاريخية القائمة بين مصالحيهما المتنافرة في الوقت الحاضر يوجد ما يحمل كثيرا على افتراض أن احدى هاتين الدولتين ستنضم الى جانبنا اذا انقلبت الأخرى عدوة لنا وبذا تعرقل كل منهما الأخرى . قال سazonوف : « وليس من الممكن الظن بأن اجراءاتنا فيما يتعلق بالبواغيز خليقة أن تقع دون حرب أوربية عامة . والمفروض أنه في مثل هذه الظروف ستوجه صريا كافة قواها ضد النمسا والمجر . وتحول الأمور هذا التحول الحسن في السياسة الرومانية والرأى العام الرومانى ، وهو ما يشاهد الآن ، يبرر أن نشك الى حد ما فى أن تقف رومانيا ضدنا فيما لو وقعت حرب بيننا وبين النمسا . . . فأذا وقع تصادم بيننا وبين المحالفة الثلاثية فلن تسير ألمانيا والنمسا جنودا نحو البواغيز . وإذا افترضنا السوء فقد ترسل ايطاليا كتائب للنزول الى البر وان كان من الخطر على ايطاليا أن تعرض حدودها لهجوم فرنسا . »

وهكذا كان الموقف السياسى فى نظر سazonوف مساعداً على الاستيلاء على البواغيز بالقوة حتى ولو أدى الأمر الى الاصطدام بدول التحالف الثلاثى لكن الجنرال زيلنسكى رئيس أركان الحرب « أبدى اعتقاده بأن محاولة الاستيلاء على الآستانه يكاد أن لا يكون ممكنا دون حرب أوربية عامة ؛ وفى هذه الحالة يحتاج الأمر الى أن يبعث الى الجهة الغربية ضد ألمانيا بالجيش التى يراد ارسالها للاستيلاء على البواغيز لأن الانتصار ضد ألمانيا يعتبر انتصارا أيضا فى مسألة البواغيز . واقترح المسيو جيرز أن تكون الجنود المراد ارسالهم الى البواغيز من ميدان القوقاز لكن الجنرال زيلنسكى والجنرال دانيوف

صرحا بأن هذا اقتراح غير عملي لأن الجنود يصلون من ذلك الميدان في حالة دخول تركيا الحرب ولأنه لا يمكن لأسباب فنية تعبئة هؤلاء الجنود بسرعة . وقد اتفق رأى هذين الجنرالين على أنه مع قيام أو توقع نشوب معركة في الجهة الغربية لا يمكن الاستغناء عن عدد كبير من الجنود لارسالهم الى البواغيز لأن الحرب في تلك الجهة تقتضى استخدام كافة قوى الدولة ولذا لا يمكن التخلي عن فيلق واحد أو تركه للقيام بأعمال خاصة بل ينبغى توجيه كل القوة الى الميدان الرئيسى « لأن الانتصار فيه معناه الفوز بقرارات في مصلحتنا في المسائل القانونية » .

وبالرغم مما أبداه الخبراء البحريون من النظريات المبنية على التفاؤل في صدد إرسال تجريدة عسكرية إلى البواغيز فان رئيس هيئة أركان الحرب كان على ما يلوح يعبر عن الروح السائدة في المجلس عندما قال بأن هذه التجريدة لا يمكن أن تحدث إلا في حالة أزمة تؤدي الى وقوع حرب أوربية عامة ولأن الجيش الذى يذهب الى البواغيز سيحتاج اليه في الجهة الغربية ضد النمسا وألمانيا وعليه فلا محل لأرسال تجريدة بذاتها في الوقت الحاضر . لكن هذا لا يمنع من التأهب لارسالها فيما بعد ولذا قرر المجلس بعد المناقشات الطويلة في التفاصيل الفنية أن يقترح على القيصر سلسلة من الاجراءات التمهيدية ومن بينها زيادة قوة تعبئة التجريدة وهضاعفة سرعتها وحشد عدد وافر من النقلات البحرية وتجهيزها بالقوارب الصغيرة لتسهيل عملية النزول الى البر أو الصعود الى ظهر النقالة ثم تقوية أسطول البحر الأسود باضافة عمارة ثانية اليه تكون من أحدث الطرادات وأقواها وشرائها من الخارج إن أمكن ؛ وأخيراً مد خطوط حديدية عسكرية جديدة في القوقاز لتسهيل التعبئة في تلك الجهة كجزء لازم من « الاجراءات المطلوبة استعداداً للهجوم على البوسفور » وقد رفعت تفاصيل أعمال هذا المجلس الى القيصر في ٥ ابريل فأقرها بحذافيرها . ثم أقر مجلس الدوما مبلغ ١١٠ مليون روبل لتنفيذ البرنامج البحرى



الخاص بتقوية أسطول البحر الأسود فيما بين سنتي ١٩١٤ و ١٩١٧ .  
وإذ قد تقرر أن لا ينفق في سنة ١٩١٤ سوى ٢٥ مليون روبل من هذا  
المبلغ فالمظنون أن روسيا لم تكن تفكر في التعجيل بإرسال تجريدة إلى  
الآستانة إلا إذا حدث ما يهدد الحالة الراهنة ويؤدي إلى حرب أوربية عامة .  
ومن مراجعة أعمال هذا المجلس الخاص يتضح أن الميسوسازونوف كان  
يفكر في الاستيلاء على البواغيز عنوة ، لكن الخبراء العسكريين اعتبروا  
ذلك مستحيلا من الوجهة العملية لأنهم كانوا يرغبون في الاحتفاظ بالجنود  
لاستخدامها ضد المانيا والنمسا . على أنهم كانوا جميعاً على اتفاق بأن روسيا  
لا يمكن أن تسمح بسقوط البواغيز في أيدي دولة أخرى ومن ثم تقرر  
اتخاذ هذه الاجراءات التمهيدية لا نزال تجريدة في البواغيز فيما لو سمح ارتباك  
الحالة في أوروبا بذلك ، وقد كان يرجح تعقدها في المستقبل ولكن ليس في  
القريب العاجل .

### خلاصة لاهم المشاكل البلقانية

إن الأصل في هذه المتعبه هو ازدياد تداعي الامبراطورية العثمانية على مر  
الأيام حتى باتت عاجزة عن السيطرة على القوميات المسيحية الخاضعة  
لحكمها . فقد أضحت هذه القوميات تحدوها رغبة طبيعية في الحرية السياسية  
والوحدة القومية . لكنه نظراً لحوادث التاريخ الماضي كانت جماعات كبيرة  
من هذه الشعوب ما تزال تعيش تحت حكم الأتراك أو النمساويين فلم تكن  
تستطيع تحقيق أمانها القومية إلا بتقطيع أوصال تركيا وتمزيق النمسا تمزيقاً  
جزئياً . ومن ثم حدثت الحروب البلقانية في سنتي ١٨٧٦ — ١٨٧٨  
و ١٩١٢ — ١٩١٣ ، ومن ثم نشأت الكراهية بين النمسا والصرب وهي التي  
أخذت تتفاقم على مر الزمن لأن كلا من هاتين الدولتين كانت لها مصلحة  
جوهرية ينبغى السهر على رعايتها ، فكانت للنمسا في حفظ كيانها كدولة ولصربيا

في إرضاء الروح الذي بعثه فيها القرن العشرين من حيث الحرية السياسية والوحدة القومية .

وقد كان كلما ازدادت تركيا ضعفاً ازداد التحاسد بين النمسا وروسيا وتضاعفت غيرة الواحدة من ازدياد نفوذ الأخرى في البلقان. فالروسيا كانت ترغب في تأدية « رسالتها التاريخية » والنمسا تحاول درء الخطر الذي يهدد كيانه من وجود دولة سلافية قديمة على حدودها الجنوبية. على أن هذا التحاسد والتنافس ظل لا يكدر صفو السلم العام سنوات طويلة بفضل بسمارك وعصبة البراطرة الثلاثة وبفضل مغامرة روسيا بعد ذلك في الشرق الأقصى . لكن مطامع المسيو إيزفولسكي والكونت إيرينتال أدت إلى اشتداد هذا التنافس كنتيجة لمساومة بوخلاو. وقد نجح إيرينتال في ضم البوسنة والهرسك واخفق إيزفولسكي في فتح البواغيز لأن المانيا كانت تشد أزر النمسا ؛ هذا بينما انجلترا لم تقبل اقتراح المسيو إيزفولسكي فتح البواغيز للبوارج الروسية واقفالها في وجه بوارج الدول العظمى الأخرى . ومع أن ضم البوسنة لم يؤد إلى نشوب الحرب بفضل الحل الذي ارتأته المانيا فان ذلك الضم قد زاد الخصومة بين النمسا والصرب من ناحية وبين النمسا وروسيا من الناحية الأخرى . ومن ثم أخذت روسيا تشجع الصرب على التأهب للمستقبل ليتسنى لها بمساعدة روسيا تحقيق أمنيتها في إنشاء « صربيا الكبرى » على حساب النمسا . وكان على صربيا أن تصبر ريثما يتم استعداد روسيا .

فأما وقد انتهى إيزفولسكي من عقد اتفاق را كوني جي مع إيطاليا واعتقد أنه يستطيع الاعتماد على تأييد الوفاق الثلاثي فقد اتهم فرصة الحرب الطرابلسية للقيام بمجهود ثالث لفتح مسألة البواغيز بواسطة المفاوضات التي دارت بين خاريكوف والحكومة التركية . ولكنه فشل مرة أخرى بسبب عدم تأييد فرنسا ومعارضة إنجلترا المباشرة ومن ثم بدأ يعتقد أن لا سبيل إلى تحقيق أمانه إلا عن طريق حرب أوربية عامة فجعل يضاعف همته

لتعزيز أواصر الصلة وتوثيق عراها بين دول الوفاق الودى استعداداً لهذه الحرب التي « لامفر » منها. في تلك الأثناء اتهم المسيو نيراتوف والمسيو هارتويج والمسيو نيكليودوف فرصة القلق الذي ساد البلقان بسبب الحرب الطرابلسية لتكوين حلف بلقاني غايته في الظاهر المحافظة على الحالة الراهنة لكنه من حيث تأثيره العملي كان يرمي إلى تشجيع الدول البلقانية على اشهار الحرب على تركيا. ومع أن الدول العظمى وخاصة إنجلترا والمانيا تمكنت من اجتناب توريط أوروبا في حرب عامة إلا أن الحروب البلقانية جرت إلى زيادة الشكوك ومضاعفة الكراهية وانتشار الدسائس وغموض الحالة لا بين الدول العظمى التي شرعت في زيادة تسليحاتها فحسب بل بين الدول البلقانية نفسها وخاصة في النمسا والصرب. وقد وجدت صربيا بعض العزاء في مقدونية بعد تغيظها من حرمان الدول إياها من أن يكون لها منفذ على بحر الأدرياتيك. لكنه كان من شأن هذه الحال أن طوت بلغاريا على ضغن شديد. ولذا وثقت صربيا من صداقتها مع اليونان ورومانيا تحت رعاية روسيا لحماية نفسها من الانتقام البلغاري من ناحية واستعداداً ليوم النضال ضد حكم آل هابسبرج البغيض من ناحية أخرى. ومع أن المسيو باشيتش ومن عداه من ولاية الأمور المدنيين في الصرب لم يرغبوا في حرب سنة ١٩١٤ ولا أعدوا العدة لها إلا أنهم غضوا الطرف عن حملة تهيج كان من شأنها وقوع عدة حوادث اغتيال اختتمت بفاجعة سيرا جيفو. وفي تلك الأثناء كان يزداد انزعاج النمسا من الأخطار التي أصبحت تهدد كيانها نفسه كحملة التهيج والدعاية داخل حدودها وخارجها لإنشاء « صربيا الكبرى » وتحول رومانيا عنها والعلاقات الوثيقة التي كانت الروسيا تنشئها مع هاتين الدولتين اللتين لم يكن يمكن تحقيق أمانيهما الوطنية إلا بتمزيق أوصال النمسا. أما ان النمسا كان في وسعها اتقاء خطر إنشاء « صربيا الكبرى » « ورومانيا الكبرى » بمنح رعاياها السلافين والرومانيين بعض حقوقهم المعقولة في الحرية

والديمقراطية أو باقامة نظام الحكم الثلاثى ، فى النمسا فمسألة اقراضية سنشير اليها فيما بعد . لكن النمسا لم تجربها على كل حال بل رأت على العكس من ذلك أن نجاتها لا تكون إلا عن طريق حرب تصغر حجم صربيا بتنازلها عن بعض أراضيها لبلغاريا ورومانيا وألبانيا . وكثيراً ما حاولت اعلان هذه الحرب لولا أنها كانت تصد عنها إما بتأثير ألمانيا كما حدث فى يولييه سنة ١٩١٣ واما بتساهل صربيا كما حدث فى مارس سنة ١٩٠٩ و اكتوبر سنة ١٩١٣ . لكنه فى يولييه سنة ١٩١٤ رحبت النمسا كما سنبين ذلك فيما بعد بالفرصة التى أتاحتها لها مقتل وريث العرش النمساوى لاعلان حرب محلية على الصرب . وعلى أن المسيو سازونوف لم يكن يحفل قط بالصربيين أنفسهم حتى أنه كثيراً ما تخلى عنهم فى الاوقات العصيبة إلا أنه كان يشجعهم ويؤيدهم أحياناً باعتبارهم طلائع « الكتلة السلافية » فى البلقان وعتاداً مدخراً للحرب المقبلة مع النمسا . نعم أنه كان ميالاً إلى السلام لكن تخوفه من سطوة أنصار الجامعة السلافية فى روسيا ورجال العسكرية هناك وافتقارهم جعله يعمل على تحقيق « رسالة روسيا التاريخية » . وإذ رأى فشل إيزفولسكى فى فتح البواغيز بالوسائل السياسية السلمية وفشله شخصياً فى إرغام ألمانيا على تعديل شروط الاتفاق الخاص بقيادة الجنرال فون ساندرس فى الآستانة فى الحال—وفى كئنا الحالتين نشأ الفشل غالباً عن معارضة السير غراى — فقد وقر فى نفس وزير خارجية روسيا أن لا سبيل إلى تحقيق مطامعه فى البلقان إلا عن طريق « المشكلات الأوربية » . وبينما حاول إيزفولسكى تحقيق غاية متواضعة هى فتح البواغيز للبوارج الروسية إذا بسازونوف يطمح إلى تحقيق « الرسالة التاريخية » التى لا كتبها السنة أنصار الجامعة السلافية وهى الاستيلاء على البواغيز والاشراف على الآستانة . وإذا كان سازونوف قد استولى عليه القلق من بعثة ساندرس فلأنه رأى فى وجودها فى الآستانة ما يضعف الأمل فى تحقيق تلك « الرسالة » ومن هنا نشأ اقتراحه الخاص باتخاذ الاجراءات القهرية لحل تركيا على

التخلي عن تلك البعثة . لكنه لم تتخذ إجراءات قهرية أولاً لأن ألمانيا تساهلت في الوقت المناسب وثانياً لأن تفوذ المسيو كوكوتسيف زجح كفة السلام . ومن هنا أيضاً نشأت فكرة المسيو سazonوف إرسال تجريدة لفتح البواغيز بالقوة ولكن الخبراء العسكريين قرروا وقتئذ أنها مسألة غير عملية وان كان لا بأس من التأهب لها في حالة حدوث ارتباكات أوربية في المستقبل . وفي ربيع سنة ١٩١٤ شرع هو والمسيو إيزفولسكى والمسيو بوانكاريه في توثيق عرى الصداقة مع إنجلترا بالمفاوضات التي دارت لعقد اتفاق بحري بينها وبين روسيا كما يكون تماسك الوفاق الودي — متى جد جد الحرب الأوربية التي لا مناص منها — أشد وأقوى منه في الماضي حتى إذا ما حدثت أزمة جديدة اضطرت ألمانيا والنمسا إلى الاذعان أو الاشتباك في الحرب مع دول الوفاق الودي التي يكون التفوق والقوة في جانبها . وفي يولييه سنة ١٩١٤ بعد ارتفاع تلك اليد التي كان يلوح بها كوكوتسيف خيل إلى سazonوف أن هذا التماسك بين دول الوفاق الودي قد أصبح أمراً مضموناً لما أن أتاح مقتل الغراندوق فرديناند وإرسال الانذار النمسوي إلى صربيا تلك المشكلات الأوربية التي قرر أن تحقق روسيا أخيراً رسالتها التاريخية بواسطتها .

وقد كانت تركيا وسائر الدول البلقانية في حالة غير مستقرة . وكان تعارض المصالح يوجد عداً مستمراً بين تركيا واليونان وبين روسيا وتركيا وبين النمسا وصربيا ؛ أما بلغاريا ورومانيا فكانت كل منهما تسير وراء مطامعها الشخصية وتتحين الفرص للانضمام إلى الفريق الأقوى أو الذي يكفل لها قسطاً أكبر من الغنيمة . ولم تكن بين الدول العظمى دولة واحدة تقبل التسليم في أمر تعتقد أن له مساساً بهيبتها ولكن الحالة في البلقان كانت سبباً آخر لعدم تساهل واحدة من الدول الأربع فرنسا والروسيا وألمانيا والنمسا في صدد الأزمة النمسوية الصربية في يولييه سنة ١٩١٤ لاعتقاد الجميع بأن هذا التساهل قد يكون له تأثير حاسم في سياسة بلغاريا ، ورومانيا ، وقد

كان من الأمور المسلم بها منذ سنوات عديدة أن إيجاد كتلة بلقانية قوية يكون له من التأثير عند حدوث حرب أوربية عامة ما لدولة من الدول العظمى . وهذا ما جعل روسيا في ربيع سنة ١٩١٤ تعمل لاكتساب صداقة رومانيا تمهيداً لتكوين تلك الكتلة من رومانيا وصرىا واليونان . وقد قابلت النمسا هذا السعى بأن سعت من ناحيتها إلى تكوين كتلة أخرى من بلغاريا وتركيا . هكذا كان الموقف عندما عجلت الرصاصات التي أطلقت في سيرا جيفو بأثارة النزاع بين صرىا والنمسا وأدت الى أزمة لها مساس بهيبة التحالف الثلاثى والوفاق الودى وسطوتهما .

وكاتب هذه السطور لا يعتقد أنه لم يكن من الحرب مفر . لكنه مع ذلك مستعد كل الاستعداد للتسليم بأن مشاكل البلقان من بين كافة المشاكل التي تنافرت فيها المصالح وقيل فيها إن الحرب معها لا بد واقعة — أقول ان مشاكل البلقان هذه كانت أبعد هذه المشاكل جميعاً عن أن تحل بتسوية سلمية .

انتهى الجزء الاول



## صفحة الخطأ والصواب

صواب	خطأ	صفحة	سطر	صواب	خطأ	صفحة	سطر
الى	من	٦	٢٥٧	قام	فعد قام	٢٤	٩
سأت	سألني	١١	٢٨٩	٣	٢	١	١٣
اطاليا لا ألمانيا	ألمانيا لا ايطاليا	٧	٢٩٢	عاصمه	عاصمه	٢٣	٢٦
العرسى	الألماني	١٢	٣٢٢	تقصى	تقص	١٠	٦٥
الأول	لأون	٣	٣٣٧	تصعبها	تصعبها	٢	٧٨
العدوانى	العدواه	١٦	»	فرنسا إلى ايطاليا	اطاليا إلى فرنسا	٢٤	١٤٨
كاتب	كلا	١٨	د	صالته	طالته	١٤	١٦٧
رأسه	رأسه	١٩	١	وأحدها	وأحده	١٥	»
الدول	الدون	٩	٣٤٢	أقصى	أقصى	١٩	٢١٨
				الأكثر	الأكثر	٢٣	٢٤٠